كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء الخامس

أحمد محمد الشنوانى



١٩٩٥

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمعى المطيعى

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفنى
محمد قطب

الإخراج الفنى
محسنة عطية

فهـــرس

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــوع — الصفحة

مقدمة

منذ فجر التاريخ تفجرت على البشرية طاقات متنوعة من المعرفة ، ومع فجر التاريخ بدأ الانسان يرسى قواعد الحضارة ويضع دعائم العلم والثقافة فى كل ميادين الفكر ، وأهله ذلك لأن يفرض سيادته شيئا فشيئا على محيطه .

وبينما بقى الكون أخرس لا يفصح ولا يبين لأنه لا يعقل ، ولا يفكر شرع الانسان — هذه القصبة المفكرة كما سماه باسكال — فى الاعراب عما فى نفسه وضميره وقلبه ووجدانه ، وصار يعبر عن رغباته وانفعالاته ووجدانياته وبدأ يسجل افكاره ومشاعره بالكتابة على الفخار وعلى ألواح من الخشب والطين والعظام وعلى لحاء الشجر وعلى لفافات البردى وعلى ضروب من الرق والحرير . وهكذا وصلت الينا معلومات شتى عبر عنها انسان ما قبل التاريخ فى شكل صور وكتابات ، تلك هى آثار من الحضارات القديمة البائدة ، ولأجل بقاء هذه الآثار والمعلومات البشرية حث الانسان الخطى وانتهى الى اختراع فن الكتابة .

فالوثيقة المكتوبة منذ آلاف السنين والوثيقة المطبوعة منذ مئات السنين كلتاهما تلعب دورا أساسيا فى نشر المعارف الانسانية والحفاظ عليها ، فقد وجدت الشعوب في هذه المعارف نعم الحليف للهيمنة على حياة الفكر والظفر بالحرية ، حتى ولو تأسست بعض الثقافات على التواصل الشفاهى أو الايمائى فان البقاء لن يضمن لها فى العصر الحديث الا بالتوصل بالكتابة .

وقد مدح بعض الناس الكتب قائلا : « الكتب بمنزلة معلمين يعلموننا بغير عصا ولا سوط ، ولا يسيئون معاملتنا ولا يغضبون ولا يطلبون هدايا ولا مالا ، واذا دنونا منهم لا ينأون عنا واذا سألناهم لا يبخلون علينا بشىء واذا تغاضينا عنهم لا يستاءون منا ، واذا جهلنا شيئا لا يسخرون منا » .

والكتب كالحافظة الأمينة نجد فيها تاريخ الأمم وما تقلبت فيه من حضارات ، فيها الحكم البالغة ، وتجارب القرون الماضية ، كما انها مرآة

عجائب الطبيعة ، ربما يصعب ان نجد شيئا من مصنوعات الانسان هو قاسم مشترك بين جميع أبناء البشر فى مستوى الكتاب فقد صار الكتاب من ألزم الأشياء للانسان ، وكاد يكون كالهواء لا تخلو منه بقعة من البقاع الاجتماعية فى العالم ، وهو عماد جميع أشكال الحضارة والثقافة فى جميع الميـــادين .

وكما قلنا فما من اصلاح تم أو تقدم حصل ، وما من نهضة تحققت أو رسالة انتشرت ، الا وبدأت خاطرة راودت الأذهان ، أو أملا جاش فى الصدور ، أو مثلا أعلى توجهت اليه الهمم وتعلقت به النفوس — أى بدأت فكرة تغذى بها صاحبها أولا ، ثم أصبحت غذاء للآخرين ، ومركزا للاشعاع منه ينطلق التاريخ ، وذلك ينطبق بالطبع على آثار صاحب الفكرة من كتب ومؤلفات ، لأنها شعلة منه وجزء من كيانه ، فيها جوهر وجوده ، وأنت تحس حين تقرؤها بنفحة من نفحاته .

اذن فالكتب هى التى أضاءت طريق الانسان ، منذ عرف نور العلم والمعرفة باعتبار ان هذا الانسان يتميز بالعقل ، وباعتبار انه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته ، ولذلك فان الكتاب يعد تراثا انسانيا لا تقف فائدته عند حدود ، فالثقافة لا تحبس داخل الحدود الجغرافية ولا تختص بها أمة دون أخرى ، وانما هى موجات فكرية تظهر وتختفى ، ثم تتلوها موجات أخرى متداخلة ومتسقة .

والكتب العظيمة فى حياة الانسان ، كالأحداث العظيمة ، لا تأتى بموعد مسبق ولا يرتبط ظهورها بزمان ولا مكان محددين ، وانما هى فلتات تجود بها الحياة كلما أراد الله واضاء وجه الحياة عباقرة العقول والمواهب شرقا وغربا .

فنجد فى حياة الانسانية عددا من الكتب العظيمة التى كان لها أعظم الأثر على مسيرة الحياة والانســـان والتاريخ والثقافة والـــفكر والعلم والمدنية ..

والكتب الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كتب كثيرة ومتنوعة ، ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الانسانى نجد كتبا عظيمة كان لها فضل الريادة فى ميدانها على مدى التاريخ الانسانى الطويل .

ورغم أهمية هذه الكتب ، الا انها من النادر ان تجد شخصا قرأها جميعا وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة ، أو لندرة طباعتها أو ...

ولذلك .. فقد قدمت الأجزاء الخمسة من هذه السلسلة « كتب غيرت الفكر الانسانى » .

وانني اذ أقدم اليك عزيزى القارىء الجزء الخامس من هذه السلسلة لتكمل فيها عصارة سبعون كتابا من أهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب والتى أثرت تأثيرا عظيما فى الفكر الانسانى على مر العصور والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضـــارة الانســـانية ٠

فان الغرض من هذه السلسلة هو توضـــيح القوة العاتية للكتب وللكلمة المطبوعة على التقدم البشرى وذلك عن طريق مناقشة أمثلة معينة ٠ ولم يكن فى نيتنا كما قلنا سابقا ــ تقديم قائمة بأحسن الكتب أو أعظم الكتب ، ولكن هدفنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ٠

ان الكتاب بأجزائه الخمســة ــ هو خلاصـــة قراءات قضيتها بين الكتب ٠٠٠ وهى ليست كتبا عربية فحسب ، بل كتب غربية أيضا ، لفت نظرى اليها ، ما فيها من فكر وعمق وتجربة وخبرة ٠٠

لذلك رأيت أن أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت

وما أردت الا الخير وعلى الله قصد السبيل ٠

والله أسأل أن ينفع به ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم ٠

والله المستعان ان يحقق به الفوائد ٠ وهو حسبى وكفى ٠

المـــؤلف

أنشودة التوحيد

إخناتون

١٣٦٥ ق.م.

منزلة الأدب فى نفوس المصريين القدماء

كان المصريون القدماء يقدرون الأدب حق قدره ويعجبون بالـــكلام الجيد والقول البليغ وكانوا يرون فى اجادة التعبير والتصرف فى فنون الحديث فضلا يمتاز به المرء ومثلا ينبغى أن يتخلق به الكريم ويرون فيه كذلك ثروة تعين على المنزلة الرفيعة والدرجة السامية فقد كان بتاح حتب يحض على بذل الجهد والاستقصاء فى نيل العلم والبلاغة ويقول ان الكلام الجيد أخفى من الحجر الكريم ومع ذلك فقد يجده المرء عند الاماء ٠

ولقد أدرك المصريون ما يكون للكلمة من القوة والأثر وما تتيحه البلاغة والفصاحة من التسلط على الناس وحسن سياستهم والسيطرة عليهم ومكان ذلك من مقومات القيادة القوية والزعامة النافذة ٠ ولنا فى ذلك شاهد من قول أحد ملوك أهناسيا لابنه مريكارع وهو يعظه فيقول : كن للكلام صانعا حتى تكون شديد البأس لأن قوة الرجل فى لسانه ولأن القول أمضى من أى قتال ٠ وفيما ورد فى قصة البحار الغريق قول التابع « ان منطق الرجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه » ٠

ونستطيع كذلك الوقوف علي مبلغ حب المصريين للأدب وشغفهم به مما أورده لنا فى قصة الفلاح الفصيح وما كان من شكايته للحاكم مما وقع عليه من الحيف والجور وذلك فى أسلوب مبين وقول عذب طرب له الملك فأمر الحاكم بالتراخى فى اجابة الفلاح والتلكؤ فى رفع الظلم عنه استزادة من بيانه كما أمر بتدوين ما يقول ورفعه اليه ٠

وقصة الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون انما قصد بها امتاع القارئين والسامعين بما أوردته من البيان والبديع وهى تكاد تشـــبه المقامات فى الأدب العربي ، فلا تكاد شخصية الفلاح لتختلف عن شخصية عيسى بن هشام التى اخترعها بديع الزمان الهمذانى أو شخصية أبى زيد السروجى التى اخترعها الحريرى ثم اجريا على لسانيهما ما شاءا من البيـــان ٠

كذلك ورد فى بعض آداب المصريين أن الملك سنفرو دعا رجاله يوما فسألهم ان يجدوا له من بينهم واحدا فيه من الحكمة والمقدرة فيحدث جلالته بالأقوال البليغة والأحاديث المختارة التى تسر قلب جلالته ٠

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للأدب واقبالهم عليه وتأثرهم به فكان أن استخدم في الدعاية الدينية والسياسية وفي توجيه عواطف الناس وأفكارهم الى بعض مذاهب الدين أو اتجاهات السياسة فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيتحدثون اليهم بالقصة الشيقة التي تثير الشغف والانصـــات وهم في أثناء ذلك يبثون في تضاعيفها ما شاءوا من الدعاية ويوحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات · كان ذلك مثلا أواخر الأسرة الرابعة حين طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التي يقبض زمامها فيما رووا ملوك زعموا انهم ولدوا لاله الشمس من امرأة من الشعب وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى في نبوءة نفرر حو ، التي بشر فيها بحكم أمنمحوتب الأول وفي الدولة الحديثة عن مولد حاتشبسوت الالهى ·

ومن الخطر ان نخضع الآداب القديمة لما عندنا اليوم من المقاييس والمعايير وان نعيب على المصريين الأقدمين أدبا أنتجوه ولم يحقق لنا كل الذي نريده من آدابنا منذ اليوم فنقفز بذلك هوة سحيقة من الزمان ونسقط من تقديرنا عشرات من القرون في حساب التطور الفكري والأدبي ولذلك فينبغي أن نصدر في حكمنا على الأدب القديم على أساس من تقدير العصر الذي أنشيء فيه والثقافات التي أخذ عنها وأسهمت في انشـــائه ·

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى في بناء الفكر الانساني والانتاج الأدبي الرفيع وأنتجوا لنا أدبا مازال يؤثر فينا ونجد له في نفوسنا شعورا بالرضى والاعجاب ·

ومهما يكن من شيء فقد ملك المصريون ناصية المعاني والأفكار وكانوا حريصين فضـــلا عن ذلك على تجويد الكلام والوصـــول به الى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفني والتأثير الأدبي بما حفل به من ضروب البيان والبديع وما اصطنعوا فيه من التشبيه والاستعارة والكناية والتورية والجناس وحسب الذين ينظرون في أدب المصريين القدامى أن يعملوا أنهم أخرجوا للناس كثيرا من الصور والتعبيرات التي فرضت نفسها على آداب من جاورهم من الأمم والشعوب ثم وجدت سبيلها الى كتبنا المقدسة التي أثرت في آداب العالم القديم والحديث وقد كان طبيعيا أن تتحدث الكتب المقدسة الى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من الصـــور والأخيلة والتعبيرات ·

ثورة أخناتون الدينية

في الوقت الذى كاد التاريخ ان يحكم فيه على ديانة مصر القديمة بانها ديانة تعدد ، وبأن ملوكها لا شأن لهم بالدين وانهم يخضعون خضوعا مطلقا لسلطة الكهنة ، ظهر ملكها الفيلسوف « اخناتون » ليؤكد بظهوره دلالات عديدة أولها : ان مصر القديمة أنجبت أول وأعظم « فرد » فى التاريخ العالمى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ففى ظل سيطرة تكاد تكون مطلقة لعبادة الاله آمون ، وفى ظل السيادة التامة لكهنته كان على هذا الشاب أن يقف موقفا فلسفيا حادا — نتيجة تأملاته الخاصة — جعله يصارع هذه القوة العظمى ، قوة الكهنة رغم ما فى معارضتها من خطر عظيم على فرد فى مثل رقة ودماثة خلق اخناتون ٠

وثانيها : ان عقيدة « التوحيد » نبت مصرى أصيل ، عرفها المصريون قبل الأديان السماوية وكان ذلك نتيجة تأملات كهنتها لتصورات شتى حول الألوهية وحينما أسلمت تلك الكيانات الالهية التى خلقتها التأملات القديمة نفسها لتأملات أخناتون كان موقفه الفكرى الفريد برفض كافة مظاهر التعدد وضرورة أن يكون للعالم اله واحد خلق كل شىء وهو يرعى ما خلق ٠

أما ثالث تلك الدلالات : فهى ان الفلسفة بمعناها النظرى وليس العملى فقط كانت ابداعا مصريا ، فالفلسفة هى فى المقام الأول موقف عقلانى يتخذه الفيلسوف من مشكلة ما ، ولا شك ان موقف اخناتون من عقائد عصره الدينية كان موقفا فلسفيا فريدا عمقه الاقتناع العقلى الشديد لديه بأن عقيدته التوحيدية هى العقيدة الصـــحيحة وان ما عداها وهم وضلال ٠ وقد اكتسب هذا الموقف الفلســـفى أبعادا أعمق بتلك الأدلة والبراهين التى ساقها اخناتون فى قصيدته الشهيرة للتدليل على صحة معتقده حول واحدية الاله وعالميته ٠

***

فى عام ١٣٨٠ ق٠م مات امنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم أخناتون ٠

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته فقد كان من فى الهيكل العظيم بالكرنك من النساء يتخذن سرارى لآمون فى الظاهر وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة ٠

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة فلم يرضه هذا العهر المقدس وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قربانا لآمون كريهة نتنة فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى واستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين ولنشر الفساد السياسى مما تعافه نفسه فثار على ذلك كله ثورة عنيفة وقال فى هذا : « ان أقوال الكهنة لأشد اثما من كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد اثما مما سمعه الملك أمنحوتب الثالث ٠ وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور اليه دين شعبه وكره المال الحرام والمراسم المترفه التى كانت تملأ الهياكل وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول وأعلن فى شجاعة أن هاتيك الآلهـة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنيـة منحطة وان ليس للعالم الا اله واحد هو — آتون ٠

ورأى أخناتون — كما رأى « أكبر » (١) فى الهند من بعده بثلاثين قرنا — ان الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة ٠

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام أو ابتدعها من عنده وهل كان آتون مجرد صورة أخرى لادنيس ٠ وأيا كان أصل هذا الاله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسرورا فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على آمون اسم أخناتون ومعناه « آتون راض » واستعان ببعض الترانيم القديمة وبعض قصائد فى التوحيد — نشرت فى أيام سلفه — فألف أغانى خماسـية فى مدح آتون وهى أجمل ما بقى لدينـا من الأدب المصرى القـديم ٠

وقد عثر بمقابر سراة القوم على أنشودتين منهما وضعهما أخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما فى المعابد والتوسل بهما فى خلوته ٠ وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصـور لأنهما يوضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسـوف الذى ضحى بالكثير لأجـله ٠

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !
أى آتون الحى مبدأ الحياة ،
فاذا ما أشرقت فى الافق الشرقى

ملأت الأرض كلها بجمالك ·
انك جميل ، عظيم براق ، عال فوق كل الرءوس ،
اشعتك تحيط بالأرض بل بكل ما صنعت ،
انك انت رع ، وأنت تسوقها كلها أسيرة ،
وانك لتربطها جميعاً برباط حبك ·
ومهما بعدت فان أشعتك تغمر الأرض ،
ومهما علوت فان آثار قدميك هي النهار ·
واذا ما غربت في أفق السماء الغربي
خيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس في حجراتهم ،
وعصبت رءوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسرق كل متاعهم ،
الذي تحت رؤوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا ،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعي كلها ···
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذي صنعها يستريح في أفق سمائه ·
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق ،
حين تضيء يا آتون النهار
تدفع أمامك الظلام ·
أضحت الأرضان في أعياد يومية ،
واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم !
فاذا غسلوا أجسامهم · لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك ،
وأخذوا في جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،

واستراحت الأنعام كلها فى مراعيها •
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرفت الطيور فى مناقعها ،
وأجنحتها مرفوعة تسبح بحمدك •
ورقصت كل الأغنام وهى واقفة على أرجلها ،
وطار كل ذى جناحين ،
كلها تحيا اذا ما أشرقت عليها ،
واقلعت السفائن صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت •
وان السمك فى النهر ليقفز أمامك ،
وان أشعتك لفى وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق البذرة فى المرأة ،
ويا صانع النطفة فى الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ،
ويا من يهدئه فلا يبكى ،
يا من يغذيه وهو فى الرحم ،
يا واهب الأنفاس يا من ينعش كل من يصنعه •
وحين يخرج من الجسم ••• فى يوم مولده
تفتح انت فاه لينطق ،
وتمده بحاجاته •
والفرخ حين يزقزق فى البيضة
تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فاذا ما وصلت به
الى النقطة التى عندها تكسر البيضة •
خرج من البيضة ،
ليصيح بكل ما فيه من قوة
ويمشى على قدميه
ساعة يخرج منها •
الا ما أكثر أعمالك

الخافية علينا !
ايها الاله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه -
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيدا :
ان الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشى على قدمين
وكل ما هو فى العلا
ويطير بجناحيه ،
والبلاد الأجنبية من سوريا الى كوش
وأرض مصر ،
انك تضع كل انسان فى موضعه
وتمدهم بحاجاتهم ...
انت موجد النيل فى العالم السفلى ،
وانت تأتى به كما تحب
لتحفظ حياة الناس ...
الا ما أعظم تدبيرك
يارب الأبدية !
ان فى السماء نيلا للغرباء
ولم يمش على قدميه من أنعام كل البلاد .
ان اشعتك تغذى كل الحدائق ،
فاذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
انت الذى تنميها ،
أنت موجد الفصول
لكى تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتى اليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكى تتذوقك .
وانشأت السماء البعيدة وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت ،

أنت وحدك تسطع فى صورة آتون الحى ٠
تطلع ، وتسطع ، وتعود ،
انك تصنع آلاف الأشكال
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ،
وطرق كبرى وأنهار ٠
كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك انت أتون النهار فوق الأرض ٠٠٠

★ ★ ★

انك فى قلبى
وما من أحد يعرفك
الا ابنك اخناتون ٠
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوتك ٠
ان العالم فى يدك
بالصورة التى خلقته عليها ،
فاذا أشرقت دبت فيه الحياة
واذا غربت مات ،
لأنك انت نفسك طول الحياة
والناس يستمدون الحياة منك ،
مادامت عيونهم تتطلع الى سناك
حتى تغيب ٠
فتقف كل الأعمال
حين تتوارى فى المغرب ٠٠٠

جــلال آتــون

بزوغك جليل فى أفق السماء يآتون ياحى يامبدىء الحياة ٠

اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك ٠

ماذلك الا لانك جميل عظيم نير فى السموات العليا تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك ٠

أنت رع ٠ أنت الذى اسرتهم وقيدتهم بحبك ٠

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك ٠

أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار ٠

الليــــل

اذا ما غربت فى افق السماء الغربى أظلمت
الأرض فاصبحت كالميتة
فيقصد السكان النوم فى حجراتهم
مغطى الرؤوس هادئى الانوف غير
مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون
أن يشعروا ٠
أما الأسود فتخرج من أجحارها وكذا
الثعابين اللداغة ٠
ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض ٠
وماذلك الا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح
على أفقه ٠
تجعل ظلمة فيصير ليلا فيه يدرب كل حيوان
الوعر ٠ الأشــــبال تزمجر لتخطف ولتلتمس
من الله طعامها ٠

النهـــار والانســـان

اذا ما ظهرت فى الافق وأشرقت فى النهار
كآتون أضاءت الأرض ٠
اذا ما بزغت أشعتك فى الظلام وشمل
الفرح قطرى مصر ٠
تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويهـــا تربض
الانسان يخرج الى عمله والى شغله
حتى المساء ٠
كيف ولا وقد أيقظتهم فيغتسلون ٠
ويكتسبون ويبتهلون بأذرعهم اليك وقت ٠
شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم ٠

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها والأشجار والنبات جميعها يانعة والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالا اليك والأغنام ترقص على أرجلها والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة اذا ما أشرقت عليها ٠

النهـــار والميــــاه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه
وكل طريق عمومى يصبح مسلوكا لأنك
ظهرت فى الأفق أما السمك فيقفز أمامك
فى النهر هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم ٠
هذا البحر الكبير الواسع الأطراف ٠ هناك
دبابات بلا عدد ٠ صغار حيوان مع كبار ٠
هناك تجرى الســـفن ٠ لوياثان هذا خلقته
ليلعب فيه

(مزمور ١٠٤ آية ٢٥ ــ ٢٦)

خلق الانســـان

أنت خالق الجنين فى رحم أمه ٠ أنت خالق نطفة الانسان ٠ أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى كيف لا وأنت

المربى فى الرحم · انت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك ······ أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه ·

خلق الحيـــــوان

انت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصبح ، فاذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه ·

الخلق عمـــوما

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلهـــا أنت الاله
الأحد لا شريك لك فى الملك خلقت الأرض
ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة
صنعت ملآنة الأرض من غناك ·
(مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

بارادتك · ولما كنت وحيدا فى هذا الكون
خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير
والمخلوقات التى تدب على الأرض أو
تطير بأجنحتها انت الذى أحللت كل
انسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه
وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ
نصيبه ويعيش أيامه المعدودة لقد
اختلفت السنتهم وأجسامهم وجلودهم
فسبحانك من مميز لخلقك ! ·

رى الأراضى

انت خالق النيل فى الدار الآخرة أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهالى · أنت سيد الجميع لانهم ضعاف · انت سيد كل اسرة لأنك تشرق لأجلها · انت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لها الحياة خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم ·

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى !

فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد ٠

والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة ٠

أشعتك تغذى الجنان ٠ فاذا ما أشرقت أينعت وانبتت بتاثيرك ٠

الفصـــــول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ٠

فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة ٠

انت الذى رفعت السماء عاليا لتنظر ما خلقت فى وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا متلألئا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت ٠

تضرعات الملـــك

انت فى قلبى لا يعرفك ســـوى ابنك أخناتون الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك ٠

العالم كله فى قبضتك كما خلقته

أنت الوجود ومسبب الحياة للانسان ٠

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب والشغل كله يبطل اذا ما أفلت فى الغرب ٠ فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو للملك ٠ لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش فى الخلق سيد الأرضين نفر — خبرو — رع ، وان — رع (ابن رع) العائش فى الحق سيد التيجان أخناتون طال أجله (وأيضا) للزوجة الملكية العظيمة خليلته ســـيدة القطرين نفر — نفرو — آتون (نفرتيتى) العائشـــة الى أبد الآبدين ٠

أقدم رسول فى تاريخ البشرية

لا شك أن القارىء استنتج من هذه القصيدة ان واضعها كان واسع الاطلاع بالأمور الاجتماعية العالمية من شلالات النوبة الى أقصى حدود سوريا معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ الشىء الذى لم يعتد المؤرخون نسبته الى أهالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد · وبديهى أن مثل هذا التغير نتيجة ظهور روح جديدة فى مصر بدل الروح الرجعية العتيقة والفضل فى ذلك يرجع طبعا الى أخناتون بدليل ما أوردناه من السطور السالفة التى تشهد له بسمو الذاكرة فى ذلك العهد السحيق وقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره الى معرفة اله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته ورأفته بمخلوقاته حتى الحقير منها فقد أبصر فى رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع بالمستنقعات المصرية نوعا من التسبيح لخالقها كما تصور قفز السمك فى الغدير حمدا لبارئها واعتقد هذا الملك أيضا أن الاله الأحد هو الذى يناجى النبات ويغذى الفرخ ويشرف على فيضان النيل الشديد وقد سماه « أب وأم جميع مخلوقاته » ومنه يتضح لنا ان الملك عرف لطف الاله العالمى وحلمه · وأشار الينا أخناتون أن نعتبر بحياة اللعلع ففيها صدق منحبه ، وان سيادة الاله التامة على الشعوب كلها مصحوبة بعطف وحنوى أبوى بدون تمييز بين القومية والعنصر · وأظهر جلالته للمصرى المتغطرس رأفة الخالق لشعوبه كلها فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر فى تعداد تلك الشعوب · ولا شك ان هذه العقلية الغربية هى التى جعلت الأثريين يعتبرون أخناتون أقدم رسول معروف فى التاريخ الآدمى كيف لا وقد كان الملوك يعتقدون أن الاله الأعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الأهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون أما أخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد فى التاريخ · ولا شك ان القارىء لتعاليم هذه العقيدة يتضح له انها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته وهذا يتمشى تماما مع الروح الصوفية الموجودة فى هذه العقيدة واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة :

« ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة انها سر مكنون أيها الاله الأحد الذى لا شريك لك فى الملك ! » ·

ومع اعتراف أخناتون لحد بعيد بعطف الخالق على مخلوقاته لم ينعته بصفات روحانية وخلقية سوى ما اتصف به آمون من قديم الزمن زد على ذلك انه بالرغم من معرفة أخناتون للطف الله بعباده لم يهتد تماما الى معرفة الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى فى وجود الصفة فى نفوس بنى آدم وكل ما ذكره أخناتون بهذا الخصوص فى تعاليمه التى وجدت مبعثرة بين الأناشيد ونقوش مقابر امراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع « الحق » بما لم يكن معروفا سابقا فقد اعتاد جلالته أن يعقب اسمه بعبارة « العائش فى الحق » مما يشير الى شدة تعلقه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية . وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المعيشة العادية البسيطة البعيدة عن الكلفة هى أقرب الأمور للحق والصواب وأن كل ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه لذلك لم ير هو وأسرته فائدة من الاحتجاب عن رعيته . وكان شفيقا جدا بأطفاله ويظهر فى كل الاحتفالات مصحوبا بزوجته وأعضاء أسرته كأنه كاتب وضيع فى معبد آتون وقد رسم نفسه وهو يعامل أعضاء أسرته ببساطة وبدون تكلف وكان كلما اشترك فى حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله ليشتركوا فيها كل ذلك لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ومن ثم أجهد نفسه فى اعلان صدق هذا الرأى كلما اقتضت الظروف الاقلاع عن عادات أجداده السابقين .

شعب غير جدير بالملك الصالح

ومن مآسى التاريخ أن أخناتون بعد أن حقق حلمه العظيـــم حلم الوحدانية العامة التى سمت بالبشرية الى الدرجات العلى لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها اليه على مهل · بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيرا يتناسب مع الواقع · لقد خال ان كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها الا اسم آتون وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة آمون من مئات الآثار وحرم كل دين غير دينه وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى أختآتون « مدينة أفق آتون » ·

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن خرجت منها دور الحكومة — وخسرت رواتب الموظفين وأضحت أختآتون حاضرة غنية أقيمت فيها المبانى الجديدة — ونهض الفن بعد أن تحرر من اغلال الكهنة والتقاليد · ولقد كشف وليم فلندرز بترى فى تل العمارنة — وهى قرية حديثة أنشئت فى موقع أختآتون القديمة — طوارا جميلا تزينه صور الطيور والسمك وغيرهما من الحيوانات رسمت كلها أدق رسم وأجمله ولم يفرض أخناتون على الفن قيودا بل كل ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صورا لآتون لأن الاله الحق فى اعتقاده لا صورة له وما أسمى هذه من عقيدة ثم ترك الفن بعدئذ حرا طليقا عدا شيئا واحد آخر وهو انه طلب الى فنانيه : بك ، وأوتا ، وتحتمس ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها وان يغفلوا العرف الذى جرى عليه الكهنة وصدع هؤلاء بأمره وصوروه هو نفسه فى صورة شاب ذى وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل وراس مستطيل مسرف فى الطول واسترشـــدوا فى تصويرهم بعقيدته الحيوية فى الهه فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ودقة لا تسمو عليها دقة فى أى مكان أو زمان وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار ·

★★★

ولو ان أخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم الى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل لادرك أن هذا تغيير أكبر من أن يتم فى زمن قصير واذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية ولكنه كان شاعرا لا فيلسوفا فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء وانهار على أم رأسه ٠

ذلك انه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من تراثها فاغضبها عليه وحرم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس ولما أن محا لفظ آمون من اسم أبيه خيل الى الناس أن هذا العمل زيغ وضلال اذ لم يكن شىء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم وما من شك فى أن أخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم ٠ وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى وقام الكهنة من وراء الستار يأتمرون ويتآهبون وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة وزاد الطين بلة ان مئات الحرف التى لم تكن لها حيــاة الا على حســاب الهياكل أخذت تزمجر فى السر غضبا على الملك الزنديق بل انه كان من وزرائه وقواده وبطانته بين جدران قصوره من يحقدون عليه ويتمنون مـــوته ٠

وكان الشاعر الفتى فى هذه الاثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان وكانت له سبع بنات من زوجته نفرتيتى وكان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر ٠

وجاءت الرسائل المروعة من الشام تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة فقد غزا الحيثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر فى الشرق الأدنى وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون فى طلب النجدة العاجلة وتردد أخناتون فى الأمر ذلك انه لم يكن على ثقة من ان حق الفتح يبرر اخضاع هذه الولايات لحكم مصر وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا فى ميادين القتال البعيدة دفاعا عن قضية لا يثق بعدالتها ٠ ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولى صالح خلعت حكامها المصريين وامتنعت فى غير جلبة عن أداء شىء من الخراج وأصبحت حرة مستقلة فى جميع شئونها ، ولم يمض من الزمن الا أقصره حتى خسرت مصر امبراطوريتها الواسعة وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التى ظلت قرنا كاملا تعتمد على ما يأتيها من الجزية الخارجية ونقصت الضرائب

المحلية الى أقصى حد ووقف العمل فى مناجم الذهب وعمت الفوضى جميع فروع الادارة الداخلية ٠ وألفى أخناتون نفسه معدما فقيرا لا صديق له ولا معين فى عالم كان يخيل اليه من قبل انه كله ملك له ٠ واندفع لهيب الثورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية فى وجهه تناوئه وتترقب سقوطه ٠

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى فى عام ١٣٦٢ ق٠م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من ان يكون ملكا وأيقن أن شعبه غير جدير به ٠

ميديا

يوربيدس

٤٣١ ق ٠ م

يعتبر يوربيديس أول شاعر مسرحي تراجيدى صور الحياة وما يجرى فيها من أحداث تصويرا واقعيا ، كما صور شخصيات مسرحياته كما هى لا كما ينبغى أن تكون وهذا ما يميزه عن زميليه أيسخيلوس وسوفوكليس اللذين صورا الشخصيات تصويرا ساميا بعيدا عن الواقع . وهذا التباين يرجع فى الواقع الى الظروف التى أحاطت بكل منهم : فايسخيلوس كان يمثل عقليـــة المحاربين القدماء المتدينين الذين انتصروا على الفرس فى ماراثون وسلاميس بفضل آلهتهم وسوفوكليس كان يمثل عصر بيركليس الذهبى وهو وسط بين القديم والحديث . أما يوربيديس فهو شاعر أثينا الحديثة ، أثينا التى أصبحت المركز الأول للمدينة والعلم والفلسفة أثينا التى أصبحت حدائقها وميادينها مسرحا للمساجلات الخطابية والمناقشات العلمية والفلسفية بين شبابها الذى أصبح مولعا بدراسة الخطابة والبلاغة والفلســـفة .

تحدثنا الرواية العامة المشهورة أن أوريبيديس قد ولد فى سالامينا فى سنة ٤٨٠ ق.م فى اليوم الذى كان فيه أهيب معركتها يحتدم وتنبئنا رواية أخرى بأنه ولد فى سنة ٤٨٥ ق.م .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن والده كان صاحب حانة وأن والدته كانت تاجرة خضر وزعم البعض الآخر بأنه كان من أسرة عريقة .

ولكن النقاد المحدثين يؤكدون انه لم يبد فى حياته ما يدل على أنه كان من طبقة أرستقراطية أو متوسطة الحال كما بدا ذلك فى جلاء على ايسخيلوس وسوفوكليس وهذا يدفعهم الى ترجيح الرأى الأول أما نحن فنفضل أن نحتفظ برأينا الى أن ننتزعه من انتاجه نفسه ومن انعطافه بالمأساة نحو الغاية التى هيأته لها الوراثة والبيئة .

ومهما يكن من الأمر فان اجماع الباحثين الأساسيين منعقد على أن مؤلفاته توشك أن تكون خالية خلوا تاما من التقاليد القديمة التى هى طابع الأسر النبيلة .

واذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى سنة مولده وفى طبقة والديه الاجتماعية فأحرى بهم ألا يعرفوا شيئا ذا بال عن نشأته وطليعة شبابه ونوع ثقافته . ولهذا ظل العالم الحديث يجهل تلك النواحى جهلا يوشك أن يكون تاما وكل ما يعرفونه عنه هو أنه بدأ فى سنة ٤٥٥ ق.م - وكانت

سنه خمسا وعشرين سنة ـ بتقديم أولى مآسيه فى احدى المسابقات فنال فيها الجائزة الثالثة ومنذ ذلك الحين أخذ يبذل مجهودا متواصـــلا فى التأليف المسرحى • ولما لم يكن محبوبا من الأثينيين فانه لم يفز بالأولوية الا بعد أربعة عشر عاما انقضت كلها بين الرفض والخذلان والدرجة الدنيا وبعد هذه السنين الطويلة جعل الحظ يبتسم له قليلا فظفر بالأولوية أربع مرات فى حياته وفازت بها احدى مآسيه بعد موته وأنت ترى أن هذا نصيب ضئيل من النجاح اذا قيس بنصيب سوفوكليس ولكن هذا هو الذى كان •

كان هذا الاخفاق المتواصل الذى رافق شاعرنا ذلك الزمن كله يمكن أن يحدث فى نفسه أثرا سيئا يدفعه الى اليأس من المسرح ويحمله على البحث عن مهنة أخرى ولكن الأمر كان على عكس ذلك فظل وفيا لفنه عاكفا عليه رغم تجهمه له ولم يشأ أن يساهم فى الوظائف العامة كما كان كثير من أمثاله يفعلون ذلك فى ســهولة ويسر • وليس معنى هذا أنه كان لا يأبه لشئون مدينته أو يحتقر المصلحة الوطنية الكبرى فمآسيه مفعمة بهذه الجوانب كلها ، وانما قد شاء ألا يعالج هذه النواحى الا عن طريق فنه وانتاجه فطفق يصوب اليها ســهام نقـده وأشـعة بيـــانه ويفيض عليها من الهام خياله ووحى شعره وبراعته فى التصوير ودقته فى التحليل حتى رسمها مجسمة أمام أعين الجماهير •

وأخيرا وبعد هذه الحياة العابســة المنقبضة غادر أثينا ـ على أثر مأساة أوريستيس فى سنة ٤٠٨ ق•م ـ الى مدينة بيلا حيث استقبله ارخيلاءوس ملك مقدونيا فى بلاطه استقبالا حافلا وأكرم وفادته أيما اكرام وقد ظل هناك حتى توفى فى سنة ٤٠٦ ق•م وكانت سنه خمسا وسبعين ســـنة ويرجح بعض المؤرخين أن وفاته كانت بحـادثة ثم دفن فى وادى اريثوزا بمقدونيا • وقد أقامت له أثينا هيكل قبر نقشت عليه أبيات تشهد بموهبته ومجده وقد أعقب ثلاثة أبناء كان أصغرهم سنا ـ واسمه كاسم والده ـ شاعرا وهو الذى قدم الى التمثيل مأساة والده بعد وفاته •

مؤلفـــــاته

عزا القدماء ـ وعلى رأسهم ســـويداس ـ الى اوريبيديس اثنتين وتسعين مسرحية بين مأساة وفاجعة ولكن يبدو أن عددا قليلا منها قد فقد فى العصر الذى تلا عصر الشاعر مباشرة وأن عددا آخر فقد بعد ذلك وأن بضع مآس قد ارتاب النقاد فى صحة نسبتها اليه •

ولم يبق من هذا العدد الضخم الذى أنشأه أوريبيديس الا سبع عشرة مأساة وفاجعة ساتيروسية واحدة ولم يعرف الا تواريخ ظهور سبع

منها ، وأما العشر الأخريات فلا يدرى أحد متى مثلت الا على سبيل الترجيح وها هي ذى حسب الترتيب الزمنى يقينا كان أو ترجيحا :

« الكيستيس » · « ميديا » · « هيبوليتوس » · « الترواديات » · هيلينية » · « لوريستيس » · « ايفيجينيا فى أوليس » · « الباكوسيات». « اندروماخيه » · « الهيراكليســـيون » · « هيكوبيه » · « الضارعات » · « ايليكترا » · « هيراكليس مخبولا » · « ايفجينيا فى توريس » · «يون» · « الفينيقيات » ·

عاطفة الانتقـام !!

ونأتي الآن الى بيت القصيد ، أقصـد مسرحية ميديا التى قدمت للعرض عام ٤٣١ ق٠م ٠

وميديا هى ابنة ملك كولخيس فى جنوب القوقاز وكان والدها يملك فرو الذهب الشهير فى الأقاصيص الهيلينية والذى كان غاية جميع عظماء ملوك اغريقا ، لأنه كان فى عقيدتهم رمز الثراء والسعادة ، فيرتحل هؤلاء الملوك حيث يوجد الفرو وهم : ثيسيوس وصديقه بريثاءس وهيراكليس وأسكيليبيوس بن أبولون شافى الآلام وأورفيوس وبيليوس والد أخيلوس وكاستور وبوليدوكيس أخوا هيلينه ، وكانوا كلهم تحت قيادة ياسون لأنه منظم هذه الحملة ٠

وعندما يصلون الى تلك البلاد وتقع عين ميديا على ياسون تهوى فى حبائل غرامه وتريد أن تحقق له أمنيته وتخدع والدها وتمكن حبيبها من الاستيلاء على الفرو الذهبى ثم ترافقه الى بلاده فيبعث وراءها ابنه وحين يلحق بهما تمكن ميديا معشوقها فيقتله ثم تمزق هى جسمه أشلاء تنثرها فى الطريق ليراها والده اذا تعقبهما فييأس ويرجع ٠

وعندما تصل الى بلاد الهيلين تلقى بيلياس عم ياسون قد اغتصب عرش شقيقه أوسون والد ياسون فتصمم على أن تسترده بوساطة السحر والحيلة فتبدأ باعادة الشباب الى والد زوجها لتبرهن على مقدرتها ثم تعرض على بنات ذلك العم المغتصب أن تعيد الشباب الى والدهن كما أعادته الى أخيه ولكنها تفهمهن أن هذه العملية لا تتم الا اذا استنزف كل الدم القديم المسن من جسمه فتفتح الفتيات حنجرة والدهن فيموت ٠٠٠ لكن هذه الجريمة تثير ضجيجا سيئا حول سـمعة هذه الأسرة فيضطر ياسون أن يغادر بلاده فيلتجىء هو وهذه الزوجة الآثمة الى مدينة كورنثة ٠

وهناك تقع هذه المأساة التى نحن بصددها ومجملها أن ياسون يهجر زوجته ميديا ويصمم على أن يتزوج من ابنة ملك كورنثة فلا تكاد تعلم هذا النبأ حتى يجن جنونها ويلتهب رأسها حقدا على زوجها وغيرة من خطيبته وتعتزم الانتقام السريع لنفسها منهما معا ٠ واذ يخشى ملك كورنثة

على ابنته فانه يطلب ابعاد الزوجة القديمة وابنيها الى مكان ناء ، ليأمن الزوج وعروسه غائلة هذا الحقد الذى يندلع أوراه فى قلب هذه السيدة القاسية فتتضرع الى زوجها أن يسمح لها بيوم واحد تمضيه فى المدينة قبل ارتحالها الى منفاها فيجيب سؤلها ويكون هذا اليوم كافيا لتنفيذ خطتها الجهنمية ثم يجىء زوجها ويعتذر اليها ويحاول ان يبرر مسلكه معها فتقابله باحتقار واستهانة وقبل أن تنصرف تبعث الى عدوتها — وكانت لا تزال فى بيت أبيها — حلة وتاجا ذهبيا مشربين بالسم الزعاف فلا تكاد هذه الفتاة تلبسهما حتى تسقط جثة هامدة لا حراك بها ولا حياة فيسرع والدها الى اسعافها حين يراها تتلوى من أثر السم فلا يوشك أن يلمسها حتى يخر هو الآخر صريعا ولا تكتفى هذه السيدة الآثمة بتلك الجريمة فتصمم على أن تذبح ولديها على مرأى من أبيهما ، لتحطم البقية الباقية من فؤاده،واذ ذاك تشتعل حرب طاحنة فى داخل نفسها بين شعور الأم الشفيقة واحساس الزوجة المهانة الثائرة تظهر فيها عبقرية المؤلف ودقته ظهورا واضحا وفى النهاية تتغلب عليها عاطفة الانتقام فتجهز على ولديها أمام أبيهما ثم تمتطى فى الحال مركبة سريعة يجرها تنينان لأنها ساحرة وتنصرف ساخرة من آلام هذا الزوج المنكوب الذى يرى بعينى رأسه فلذتى كبده مضرجين بدمائهما فتتجه الى أثينا حيث كانت تعلم من قبل أن الملك ايجيوس مستعد لأن يقدم لها المأوى .

ولكى نفهم المسرحية فهما تاما ينبغى الاحاطة ببعض الأحداث التى سبقت بداية المسرحية .

ظل أيسون يحكم مدينة أيولكوس فى تساليا حتى أنزله أخوه بلياس عن العرش واغتصب ملكه ، وكان له ولد صغير يدعى ياسون خشى عليه أبوه من عسف الملك المغتصب فأذاع نبأ موته ثم عهد به خلسة الى المربى العظيم خيرون ليتولاه برعايته ويلقنه العلم والحكمة ويدربه على فنون الحرب والقتال . ولما اشتد عضد الفتى ياسون صمم على العودة الى بلده ايولكوس ليسترد من عمه ملك أبيه . يتظاهر عمه بلياس بالفرح لعودته ويداهنه ويحاول استمالته بأن يعرض عليه الزواج من احدى بناته فيصبح الوريث للعرش من بعده فيرفض ياسون ويخبره بأنه انما أتى ليسترد ملك أبيه . يكظم غيظه ويفكر فى ابعاد ياسون بأية وسيلة فيدعى أن الآلهة قد تجلت له فى الحلم وأمرته باحضار الفروة الذهبية من مدينة كولخيس على ساحل البحر الأسود ولكن شيخوخته تحول بينه وبين تلبية أمر الآلهة ويقسم لياسون بأغلظ الايمان بأنه ان أحضرها له فسوف ينزل له عن العرش ويترك له كل شىء . يوافق ياسون على القيام بهذه المهمة حقنا للدماء التى ستراق لو لجأ الى القتال . يقلع ياسون مع نخبة مختارة من أبطال اليونان الى مدينة كولخيس حيث يستقبلهم ملكها

بالترحاب واذ يعلم بغيتهم يضع أمامهم العراقيل ويخبرهم بأنه يجب على من يريد الحصول على الفروة الذهبية أن يشد الى المحراث ثورين وحشيين ينفثان من منخاريهما لهيبا من نار ، ويحرث بهما قطعة أرض معينة ثم يبذر فى هذه الأرض أسنان تنين فتنبت فى الحال عمالقة مسلحين عليه أن يستأصلهم فى الحال فاذا تم ذلك كان عليه أيضا أن يتغلب على الأفعوان الوحشى الذى يقوم على حراسة الفروة الذهبية • وقد استطاع ياسون أن يتغلب على كل هذه المخاطر بمساعدة ميديا ابنة ملك كولخيس وكانت على علم بعلوم السحر وفنونه • لقد وقعت ميديا فى حب ياسون وتتلهب فى هواه وصارحته بهذا الحب ففرح به وقبل معونتها بعد ان عاهدها على الحب والوفاء والزواج منها ان تم الحصول على الفروة الذهبية وعاد سالما الى بلاده وفعلا تم له ما أراد وهرب هو وزملاؤه سرا تصحبهم ميديا التى تركت الأهل والوطن واستسلمت لنداء قلبهـا وعند عودته الى ايولكوس وجد أن عمه بلياس كان قد خدعه ولاينوى أن يبر بوعده فكيف السبيل الى خلعه ؟ هل يستطيع هو ومن معه على قلتهم أن يهزموا ذلك الملك الجبار العاتى ؟ أو يثير الفتنة ويؤجج حربا أهلية ويطلب منازلة هذا الغاصب فى ساحة القتال ؟ ولكن ميديا تخرجه من حيرته وتقدم له العلاج الناجع الذى يخلصه من عدوه اللدود ، اذ تستعين بسحرها مرة أخرى وتخدع بنات بلياس وتجعلهن يقدمن لأبيهن شرابا ساما على انه سيعيد اليه الشباب ولكنه يقضى عليه فى الحال وبذلك يعود العرش الى ياســون ولكنه بعد فترة يتنازل عن العرش لابن عمه الملك المقتول ويهــاجر الى كورنثة مع زوجته ميديا وولديه اللذين أنجبهما منها • وفى كورنثة يعيش مع زوجته وولديه عيشة راضية زهاء العشر سنوات • ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فان ياسون لم يستمر على وفائه لزوجته ونسى عهده الذى قطعه على نفسه فهجر ميديا وتزوج جلاوكى ابنة كريون ملك كورنثة وهذه الخيانة وما أعقبها من نتائج مروعة هى موضوع مأساة ميديا ليوربيدس •

لقد لخص يوربيديس بايجاز كل هذه الأحداث السابقة على بدء المسرحية فى المقدمة التى جاءت على لسان المربية :

أيا ليت السفينة أرجو لم تشق طريقها الى أرض كولخيس •••
ويا ليت الأبطال الصناديد لم يجدوا فى البحث عن الفروة الذهبية لبلياس •
اذن لما استطاعت سيدتى ميديا أن تركب متن البحر الى ايولكوس ذات البروج العالية وقد جنت بحب كاسون ، ولما قدر لها أن تقيم فى كورنثة بعد أن أغرت بنات بلياس ودفعتهن الى قتل أبيهن لقد كانت (ميديا) تعمل دائما على ادخال السرور على قلب الذين لجأت الى أرضهم ، كما كانت تبذل قصارى جهدها ارضاء لياسون وهكذا تكون السعادة عندما لا يدب

الشقاق بين المرء وزوجه . أما الآن فقد تفككت أعز وأصدق ما بينهما من عرى المحبة ولم يبق غير الشقاق والكراهية وذلك لأن ياسون قد غدر بها وبولديها فهجر فراشها من أجل عروس ملكية اذ تزوج من ابنة كريون ملك هذه البلاد ... لقد علمتها الكوارث التى نزلت بها نتيجة هجران الأهل والوطن انها لتبغض ولديها ولا تبتهج لرؤيتهما وانى لأتوجس خيفة وأخشى ان تتخذ قرارا خطيرا فهى حادة الطبع ولن تتحمل الاهانة انى أعرفها حق المعرفة وانى أخشى أن تتسلل الى غرفتها حيث يوجد فراشها وتغمد فى أحشائها سيفا بتارا أو تقتل الملك زوجها فتجر على نفسها الويلات ، انها مخيفة ومن يقحم نفسه فى عداء معها فلن يحرز لنفسه النصر بسهولة ولكن ها هما ولداها مقبلان بعد ان تمرنا على السباق انهمـا لا يكترثان بمصـائب أمهما ، لأن الصـبية الأحداث لا تطيق عبء الأحزان .

وهنا يدخل مربى ولدى ميديا ومعه الولدان ، فيسأل المربية كما كانت تردده من كلام فتتخابث عليه فيهزأ بها ويشعرها أن لديه من الأسرار ما لا تعلمه هى فاذا الحت عليه ليذكر لها تلك الأسرار أخبرها بأن كريون ملك كورنثة سينفى ميديا وولديها عن البلاد .

تدخل الجوقة التى تتألف من فتيات من كورنثة جئن ليسألن عن ميديا يسمع صوت ميديا من الداخل وهى تئن وتتألم وتشكو وتنذر بشر مستطير تلحقه بزوجها وبأهل البيت جميعـا فينسحب المربى والمربيـة بالولدين . تظهر ميديا وهى فى حالة شديدة من الهم والقلق فتتحدث الى أفراد الجوقة بما جازاها به زوجها الخائن ياسون الذى فضلته على أبيها وقومها وهربت معه بعد ان سهلت له الحصول على الفروة الذهبية وانه ليخونها اليوم بعد أن أقسم لها بالوفاء والزوجية الكريمة ثم تلوم نفسها على غلطتها وعدم تعقلها فى اختيار زوجها .

عندئذ يدخل الملك كريون مغضبا ثائرا وينهى اليها قراره بنفيها مع ولديها عن البلاد ذلك لأنه يخشاها ويخشى أن تستغل سحرها فى عمل شرير فقد وصل الى مسامعه وعيدها الذى ينطوى على الانتقام من الأب الذى زوجه ابنته ومن الرجل الذى اقترن بها ومن المرأة التى عقدت يدها فى يده فتضرع اليه وتستحلفه بكل عزيز لديه :

ميديا : أستحلفك بابنتك العروس الجديدة وأجثو عند موطىء قدميك .
كريون : عبثا ما تقولين فانك لن تغرينى أبدا .
ميديا : أنت اذن تنفينى ولا تصغى لضراعتى ؟

كريون : انى لا أحبك أكثر مما أحب آل بيتى ٠

ميديا : آه يا وطنى الآن أذكرك ٠

كريون : ان معزتى لأبنائى أفضل من أى شىء آخر ٠

ميديا : واأسفاه أن الحب يدفعك الى شر مستطير ٠

كريون : ولكنى أرى ان ذلك بتوجيه من الأقدار ٠

ميديا : أى الهى زيوس لاتنس انك مصدر مصائبى هذه ٠

كريون : ابتعدى أيتها العابثة وخلصينى من الآلام ٠

ميديا : نحن الذين نتألم ولدينا من الآلام الشىء الكثير ٠

كريون : ان حراسى سيخرجونك من البلاد سريعا بالقوة ٠

ميديا : لا ، لا تأمر بهذا فأنا أتوسل اليك يا كريون ٠

كريون : انك على ما يبدو أيتها المرأة ستسببين المتاعب ٠

ميديا : سنخرج ولكن ما تضرعت اليك من أجل هذا ٠

كريون : فلم اذن هذا النضال ؟ ولماذا لا تتركين البلاد ؟

ميديا : دعنى أمكث يوما واحدا أدبر فيه أمرى وأعرف أى طريق أسلك وأعد لأطفالى مؤنة فان أباهم لا يرغب فى أن يدبر لهم أمرا ٠ كن بهم عطوفا فأنت أب لأطفال وتحس بلا شك بحنان الأبوة انى لا آبه لنفسى لو أننا طردنا من هنا ولكنى أبكى من أجل هؤلاء الأطفال الذين حط عليهم البؤس ٠

كريون : انى لست قاســـيا بل عطوفا الى درجة ألحقت بى الكثير من الأذى ٠ وعلى ذلك فأنا أمنحك ما تطلبين أيتها المرأة رغم انى أشعر بأنى مخطىء فى ذلك ولـــكنى أنذرك أنه اذا طلعت عليـك أنت وأبنائك شمس الغد وكنت ما تزالين فى هذه البلاد فسيكون جزاؤك الموت هذه كلمتى وهى صادقة والآن اذ كان لشأن تبقى فلتبقى يوما واحدا ، فانك لن تفعلى ما أخشاه من أعمال مريعة فى هذا اليوم ٠

ويتركها كريون وينصرف وهنا تضحك ميديا فجأة ويبدو عليها فرح شديد وهى تقول : ألا ما أحمقه اذ سمح لى بقضاء هذا اليوم هنا بينما كان فى وسعه أن يعرقل كل مكائدى لو أنه طردنى من هذا المكان ولكنه منحنى يوما وفى هذا اليوم ســأقضى على أعدائى الثلاثة وأجعلهم جثثا هامدة : الأب وابنته وزوجى أيضــــا ان لدى من وسائل الفتك الكثير ولا أدرى بأيها أبدأ هل أشعل النار فى بيت الزوجية ؟ أم أسترق الخطى خلسة الى مضاجعهم وأغمد السيف البتار فى صدورهم ؟ ولكن هناك عقبة واحدة تقف فى سبيلى ، ذلك انهم اذا قبضوا على وأنا أتسلل لأضرب

ضربتى فان موتى سيكون جلالا لأعدائى كما انى سأصبح موضع سخريتهم اذن فعلى أن ألجأ الى السبيل الذى أتقنه كل الاتقان وأقضى عليهم بفعل السحر والرقى . حسنا ، ولكن لو تم لى هذا وقضيت عليهم جميعا فأى بلد يأوينى ... ليس لى من أحد اذن فلأتريث برهة وجيزة فان وجدت حصنا آمنا دبرت قتلهم بمكيدة ماكرة أما اذا صرفنى سوء طالعى عن تنفيذ هذه المحاولة فسوف أرفع السيف بيـدى هذه وأذبحهم بنفسى مخاطرة بحياتى فان روح الجرأة تدفعنى الى القوة والاقدام .

وبعد أغنية ترددها الجوقة يدخل ياسون فيعاتب ميديا على حماقتها فقد كانت السبب فى غضب الملك لكثرة ما هذت به وهـددت وأنذرت مما سمعه أهل القصر جميعا وهنا تثور به ميديا فتتهمه بالخيانة والغدر وعدم الوفاء ثم تعدد أفضالها عليه ومساعدته فى الحصول على الفروة الذهبية وفرارها معه بعد غدرها بأبيها وأهلها ثم دفعها لبنات بلياس الى قتل أبيهن — فيجيب ياسون بأنه قد كافأها على ذلك اذ تزوجها وأحضرها معه من بلاد البربر الهمج الى بلاد اليونان المتحضرة ، فتثور به ثورة أعنف فلا يملك ياسون الا أن يدعى بأن زواجه الجديد مصدره انه وجد نفسه طريدا عن وطنه وأنه ما رضى الزواج من ابنة كريون الا لينجب منها أولادا يكونون اخوة لولديها فيرتفع بذلك مركزهم ومركزها فترد عليه حانقة :

ميديا : لا لم يكن الباعث لك هو ما زعمت ولكنك رغبت فى فراش بربرى تنقصه الكرامة ليكون نعمة لك فى شيخوختك .

ياسون : كلا لم يكن كذلك وثقى بأنى لم أرغب فى مصاهرة الملك من أجل ابنته وانما — كما قلت لك من قبل — لكى أنقذك من كربتك وأضم الى ولدينا اخوة من أسرة مالكة أدعم بهم بيتى .

ميديا : بئس هذا اللون المقوت من السعادة لا أحب أن يكون لى منه نصيب ولا أحب الثراء الذى يمزق قلبى الدامى .

ياسون : ألا يمكن ان تغيرى رغبتك وان تكونى أكثر حكمة ؟ لا تقلبى أعظم النعم الى شقاء ولا تحسبى نفسك شقية وأنت فى أعظم سعادة .

ميديا : وجه الى من الاهانات ما شئت فأنت هنا آمن مطمئن أما أنا فطريدة منبوذة عليها أن تخرج من هنا .

ياسون : انت السبب فى ذلك فلا تلومن الا نفسك .

ميديا : ماذا فعلت هل تزوجت وغدرت بك ؟

ياسون : انك تصبين أقذع الشتائم على رؤوس سادتك .

ميديا : انما تنصب نكبات بيتك على رأسى أنا .

ياسون : لن أجادلك فى هذا الأمر مرة أخرى ولكن ان كنت ترغبين فى شيء من المال لك أو لولديك تخففين به لوعة المنفى فانى على استعداد لأن أمنحك ما تريدين بسخاء وسوف أرسل الى أصدقائى توصيات تنفعك وهم سيقدمون لك كل صنيع كريم أما اذا رفضت هذا أيتها المرأة فأنت حمقاء خففى حدة غضبك تتحسن أحوالك .

ميديا : لن أستغل أصدقاءك ولن أقبل شيئا من أموالك . لا تعطينى منها شيئا فان عطايا الرجل الخبيث ليست منها فائدة .

ياسون : ولكنى أشهد الآلهة أنى أرغب فى أن أكون عونا لك ولولديك ولكنك ترفضين وان نفسك المشتعلة بالحنق تنبذ أحباءها ولن تجنى من هذا الا شقاء أكبر .

ثم يتركها وينصرف تتغنى الجوقة بأنشودة أخرى يدخل بعدهـا شخص غريب ذو هيبة ووقار فتعرف فيه ميديا الملك أيجيوس ملك أثينا فتفرح بلقائه وتسأله عن سبب مجيئه الى كورنثة فيذكر لها انه عقيم لا ينجب وأن زوجته عاقر ولا تلد وانه فى سبيله الى معبد دلفى ليستوحى كهنتها عن علاج لهذه الحالة فتطمئنه ميديا وتذكر له ان هذا أمر هين عليها فان لديها من الأعشاب ما تقدر به على اصلاح حاله وحال زوجته ولكن عليه أن يستضيفها عنده فاذا سألها عن السبب قصت عليه قصتها فيحزن الملك أيجيوس من أجلها ويقبل عرضها بشرط ألا تصحبه فهو فى ضيافة كريون وانما عليها أن تلحق به بعد سفره الى بلاده وهنا تضحك ميديا وتنذر بما سوف تصنعه فهى قد اطمأنت الى مكان تأوى اليه ، فتبعث ميديا باحدى أفراد الجوقة تستدعى لها ياسون لتعلن اليه أسفها فاذا وصل ياسون لقيته ميديا وهى تتظاهر بالندم على ما فرط منها وتطلب اليه الصفح ثم ترجوه أن يتوسط عند الملك لكى يأذن ببقاء ولديها فى كورنثة حتى لا يذوقا مرارة النفى فيعدها بذلك ثم ترجوه رجاء آخر هو أن يصحب ولديه الى عروسه بهدية منها ، هى صدار متعدد الألوان وتاج من الذهب حتى ترضى العروس بتلك الهدية فتكرم الطفلين فى غياب أمهما . ينخدع ياسون بكلامها ويوافق على طلبها ويتقدم الغلامان ويذهبان بصحبة أبيهما ومعهما الهدية .

تنشد الجوقة أنشودة أخرى ثم يدخل المربى معلنا :

المربى : سيدتى لقد عدلوا عن الحكم الذى قضى بنفى ولديك ، وتقبلت العروس الملكية هديتك جذلة مسرورة وأصبح ولداك هنا فى أمن وسلام .

ميديا : واحسرتاه !

المربى : فيم اضطرابك وقد ابتسم لك الحظ ؟ ولماذا تشيحين بوجهك ولا تبتهجين لما حملته لك من أنباء ؟

ميديا : واحسرتاه !

المربى : انى لا أجد معنى لهذا مع ما أحمل لك من أنباء طيبة .

ميديا : ومع ذلك فان الحسرة تملأ فؤادى .

المربى : هل نقلت اليك من غير وعى منى خبرا سيئا فى حين كنت أحسب أنى أسوق اليك ما يبهجك ؟

ميديا : لقد أعلنت ما تعرف . ولا جناح عليك .

المربى : لماذا تغضين الطرف اذن ولماذا تذرفين الدمع ؟

ميديا : هناك ضرورة ملحة أيها الشيخ فقد أرادت الآلهة كما أرادت روحى الشريرة أن يقع ما حدث .

المربى : لا عليك . فان آمالك تحيا حياة ولديك .

ميديا : سأبعث بهما أولا . آه ما أتعسنى !

المربى : لست الوحيدة التى تركت أبناءها على البشر الفانين أن يتحملوا البلايا راضين .

ميديا : هذا ما سأفعله أما أنت فاذهب الى الدار وأعد للأولاد ما يلزمهم من حاجيات اليوم .

ثم يقبل رسول خائف مفزوع ينصح ميديا بالفرار من القصر ومن كورنثة كلها فاذا سألته عن السبب أخذ يقص عليها ما فعلته الهدية بالعروس وأبيها لقد فرحت العروس بالهدية فرحا شديدا فلما لبستها أخذت تروح وتجىء أمام المرآة مزهوة معجبة وبعد قليل أحست بالصدار يضغط على صدرها فلما أرادت نزعه لم تستطع وأخذ يؤلمها ألما شديدا لأنه بدأ يتحول الى ثوب من نار يشوى جسدها كما بدأ التاج يتحول الى سائل منصهر من الذهب يتصبب على جسدها فيحرقه ويهرأ اللحم . لم يستطع أحد انقاذها حتى أقبل أبوها الذى حاول ذلك وهو يصرخ ويبكى ولكن الصدار لصق به هو الآخر ولم يستطع أن ينفصل عنه وصنع به ما صنع بالعروس البائسة وسقط الى جانب ابنته جثة هامدة .

تفرح ميديا فرحا شديدا لهذا الانتقام المروع وتخبر أفراد الجوقة بأنها ستقتل ولديها امعانا فى ايذاء ياسون زوجها الخائن . ويقبل الولدان فتأخذ ميديا فى توديعهما وداعا مؤثرا ثم تنطلق بهما الى داخل القصر حيث تذبحهما واحدا بعد واحد .

يقبل ياسون باحثا عن ميديا المتوحشة التى قتلت عروسه وأباها الملك فيفاجئه أفراد الجوقة بخبر قتلها ولديه فيكاد يجن ويصرخ قائلا :

ياسون : أيها الأتباع افتحوا الأبواب فى الحال واسمحوا لى بالدخول لأرى هذا الشر المستطير – مقتل ولدى – ولأقتلها عقابا لها ·

تفتح الأبواب وتظهر ميديا وقد ركبت عربة خرافية ترف فى الهواء ويجرها أفعوانان كبيران وقد أخذت معها جثتى ولديها فترد عليه ساخرة :

ميديا : لماذا تقرع الأبواب على هذا النحو وتحدث كل هذا الضجيج ؟ هل تبحث عن ولديك وقد أصبحا جثتين ، وعنى بعد ان ارتكبت الجريمة ؟ كف عن هذه الجلبة وتحدث بما تريد ان كان لك معى أمر ما ، ولكنك لن تمسك بى أبدا فان أبى – الشمس – قد أمدنى بعربة تقينى من كل بلد يعادينى ·

ياسون : يالك من امرأة بغيضة ! ان الآلهة تمقتك وكذلك أنا وجميع الجنس البشرى ··· أى ولدى ، لقد صادفتما أما شريرة ·

ميديا : أى ولدى لقد قضت عليكما حماقة أبيكما ·

ياسون : ولكن يمناى لم تطعنهما ·

ميديا : ولكن طعنهما حمقك وزواجك الجديد ·

ياسون : أمن أجل هذا الزواج قتلت ولدى ؟

ميديا : أو تحسب هذا هينا على المرأة ؟

ياسون : انه كذلك اذا كانت المرأة عاقلة ولكن كل شىء لديك شرير ·

ميديا : لقد قضى على ولديك وسيمزق موتهما قلبك ·

ياسون : ان شبحيهما سيصبان اللعنة عليك ·

ميديا : ان الآلهة العادلة تعلم أينا بدأ هذه الشرور ·

ياسون : كما تعلم أيضا قلبك اللعين ·

ميديا : انى أبغضك كما أبغض نباحك الكريه ·

ياسون : وأنت كذلك بالنسبة لى ولذلك فلينته الأمر بسرعة ·

ميديا : كيف ؟ ماذا أفعل ؟ فانى أود هذا من صميم فؤادى ·

ياسون : أعطنى جثتى ولدى كى أواريهما التراب وأبكيهما ·

ميديا : هذا لن يكون ، سوف أدفنهما بيدى هذه فوق التل الذى يبارك أرضـــه معبد الالهة هيرا حتى لا ينالهما غضب الأعداء ويسىء الى رفاتهما ويخرجهما من قبريهما ···

ياسون : ويلى ! يا لى من بائس ! انى أتوق الى تقبيل ثغرى ولدى والى معانقتهما ٠

ميديا : الآن توجه اليهما الخطاب وتود معانقتهما وكنت بالأمس تريد أن تبعدهما عنك ٠

ياسون : أعطينى اياهما بحق الآلهة لألمس بشرة ولدى الناعمة ٠

ميديا : كلا لن يكون هذا وما كلماتك الا هباء منثور ٠

وهكذا ترفض ميديا أن تسمح له حتى بوداع ولديه وتقبيلهما وذلك امعانا فى تعذيبه والتنكيل به ثم تنطلق عربة ميديا فى الهواء تاركة ياسون يبكى وينتحب ويشهد الآلهة على أفعال ميديا القاسية ٠

***

ان مسرحية ميديا على هذا النحو تعتبر دراسة عميقة لزواج غير متكافىء بين زوجين مختلفين فى كل شىء تقريبا ٠ فهذا ياسون رجل أنانى مغالط لا يحب الا نفسه فهو على استعداد دائما لأن يقبل كل ما تقدمه له ميديا من خدمات حتى ولو كان سبيل هذه الخدمات ارتكاب بعض الجرائم طالما لا تقطع عليه مسئولية أى عمل تقوم به ميديا كما أن زواجه منها لم يكن الا بدافع مصلحته الشخصية وحبه لها لم يكن الا نزوة ورغبة فى امتلاك جسدها ٠ أما ميديا فهى المرأة البدائية الفطرية التى تمنح كل كيانها وروحها للرجل الذى تحب وهى على استعداد دائما لأن ترتكب أبشع الجرائم فى سبيل من تحب وتهوى ولكن اذا اكتشفت انها مخدوعة فى حبها مطعونة فى كرامتها فانها ــ وقد استولى عليها بغض لا يقل عن الحب عنفا وقسوة ــ تنقلب الى وحش كاسر لا يستطيع أن يقف أمام ضراوة انتقامها أى سبيل حتى ولا عاطفة الأمومة ٠

لقد بلغ يوربيديس القمة فى تحليل شخصيات هذه المسرحية وعلى الأخص شخصية ميديا التى أبدع فى وصف مشاعرها وتعمق فى تصوير انفعالاتها بصورة دقيقة رائعة ــ كما كان بارعا فى السير بأحداث المسرحية نحو تلك النهاية الرهيبة التى أنهى بها مسرحيته ٠

تميز فن يوربيديس

بالرغم من أن يوربيديس لم يدخل أى تجديد ملموس على فن كتابة التراجيديا من ناحية الشكل واتبع القواعد المسرحية التى ابتدعها سلفاه أيسخليوس وسوفوكليس الا أنه غير مضمون التراجيديا تغييرا جذريا . فتراجيديا يوربيديس قديمة فى اطارها المادى وجديدة كل الجدة فيما عدا هذا الاطار : فهى جديدة فى رسم الشخصيات وفى مظهر ملابسها وأزيائها وجديدة أيضـــا فى الأفكار والمناقشـــات التى تجرى على لســـان هذه الشخصيات . كان الكاتب المسرحى يستمد موضوعات تراجيدياته فى معظم الأحيان من الأساطير القديمة وقد اتبع يوربيديس هذا المنهج أيضا ولكنه كيف هذه الأساطير لروح العصر الذى كان يعيش فيه وأدخل عليها من التعديلات ما يلائم غرضه فاهتم بالواقع الذى يكمن بين طياتها ومزجها بالمناظر المألوفة والحوادث اليومية ، وجعل الأشخاص حقيقيين وعاديين واستخدمهم للتعليق الفلسفى على الأحداث وأنطق الآلهة بلغة عادية بها الكثير من الاصطلاحات العامية وبذلك جرد الأساطير من جلالها وقدسيتها فلم يهتم بتمجيد الآلهة والأبطال الخياليين ولكنه اعتنى بوصف الحياة الدنيا التى امتزج فيها الحزن والألم والسرور والفرح فجاءت معظم مسرحياته وسطا بين التراجيديا والكوميديا . كان الانســـان هو المحور الأســـاسى لمعظم مسرحيات يوربيديس فكان لا يهتم الا بتصويره وتحليل نفسيته وتعليل سلوكه وتصرفاته ونتج عن ذلك أن أتيح له أن يصف الحياة العـائلية بما فيها من مودة زوجية وغيرة وسعادة الأطفال وبراءتهم مما يؤثر فى المتفرج تأثيرا قويا ، كما أتيح له لأول مرة أن يخصص للحب بكل ألوانه مكانا كبيرا فى مسرحياته وكان من قبل يعتبر من العواطف التى لا تستحق أن تعرض على المسرح وعلى ذلك فان مسرحيـــاته قريبـــة الشـــبه جـــدا بمسرحيات العصر الحديث . لقد كان يوربيديس يؤمن بالقدر فى حدود حقيقة واحدة هى أن مصدر كل تصرف انسانى انما يرجع أولا وأخيرا الى طبيعة البشر لا الى مشيئة الآلهة كما كان يؤمن بالديمقراطية التى يتساوى فى ظلها الغنى والفقير فعبر عن الكراهية للرق واهتم بالدفاع عن العبيد لأن الرق يفسد الأخلاق ويجعل العبد جبانا خائنا وكره الحرب وأحب السلم لأنه كان يعتقد أن شقاء المنتصر لا يقل عن بؤس المهزوم

فاليونانيون المنتصرون فى حرب طروادة قد لاقوا نكبات جسيمة لا تقل هولا عما أصاب أهل طروادة من ذل وعبودية .

ونظرا لما أدخله يوربيديس على الأساطير من تعديل وتبديل فقد كان مضطرا لاجراء بعض التغييرات فى البناء المسرحى ، لقد أصبح كل هم يوربيديس يتركز فى المناظر التمثيلية التى تعرض الشخصيات الرئيسية فتضاءل دور الجوقة وأصبحت مجرد أناشيد منفصلة لا تكاد تتصل بالموضوع الرئيسى حتى لقد صارت مسرحياته لاتقوم على التفاعل بين الجوقة والأشخاص بل على التفاعل والصراع بين الشخصيات المختلفة ، ومن ثم لم تعد الجوقة تشترك فى الحوار الا نادرا ولا تعين على تطور الحدث بل مجرد فواصل غنائية بين المشاهد التمثيلية وهى فى ذلك على عكس سلفيه أيسخيلوس وسوفوكليس وعلى عكس ما نادى به أرسطو خاصا بالدور الذى يجب أن تقوم به الجوقة (قارن فن الشعر ١٣٥٦ /٢٧ : « يجب أن ينظر الى الجوقة على أنها أحد الممثلين وأنها تؤلف جزءا من الكل وتعين على تطور الحدث » ولذلك فان يوربيديس وكأنه يفكر فى تعويض هذا النقص فى دور الجوقة — قد بذل كل همه فى سبيل تهذيب أغانى الجوقة وصقل لغتها وتجميل أساليبها وتجويد الموسيقا المصاحبة لها فجاءت أغانى رائعة غاية فى الابداع .

لقد كان يوربيديس يجد نفسه أيضا مضطرا فى بعض الأحيان لأن يقدم تفسيرا لبعض المعلومات التى تساعد المشاهدين على فهم وجهة نظره وعلى تتبع سير الأحداث فى مسرحياته ومن ثم فقد استخدم لهذا الغرض المقدمة ، وهى ذلك الجزء من المسرحية الذى يسبق الدخول على المسرح لأول مرة (أرسطو فن الشعر ١٤٥٢ ب ١٩) . لقد وجدت المقدمة فى بعض مسرحيات أيسخيلوس وســـوفوكليس ولكنها عند يوربيديس تتميز بخلوها من العنصر الدرامى وبأنها سرد يجرى على لسان شخص باسم الشاعر يفسر بعض الأشياء التى تعين المتفرج على فهم النقطة التى بدأ الكاتب منها سير الأحداث فى مسرحيته ومن هنا جاء المعنى العصرى لكلمة مقدمة . أما أسلوب يوربيديس فهو السهل الممتنع ، وقد اعترف بجمال لغته ورقة أسلوبه كل النقاد القدماء بما فى ذلك ارستوفانيس الذى طالما هاجمه فى كثير من مسرحياته . فهو أول من ابتدع أسلوبا غير مزخرف تكثر فيه الكلمات العادية ولكنها مرتبة ترتيبا يسمو بها الى ذروة البـــلاغة وبذلك خلص التراجيديا من العبـــارات الرنانة والألفاظ الضخمة والكلمات الثقيلة وتجنب الثرثرة والمهانة والغموض والابهـــام وقدم على المسرح مناظر من الحياة الواقعية وشخصيات تتكلم بلغة مفهومة ،

ومن ثم فقد ذاع صيت يوربيديس فى أواخر أيامه وأصبح من أعظم الشعراء وأصبحت أشعاره أكثر الأشعار ذيوعا وانتشارا لا فى أثينا فحسب بل فى كل العالم الاغريقى كما أصبح أحب شاعر الى الأجيال المتعاقبة والنموذج الذى يحتذيه الشعراء فى كل العصور والأمصار ·

الضفادع

أرستوفانيس

٤٠٥ ق ٠ م

منزلة أريستوفانيس وأثره

لقد احتل اريستوفانيس فى العالم اليونانى منزلة سـامية وذاع صيته بعد ان نال الجائزة الأولى فى أربع مسابقات تمثيلية وفاز بالثانية فى أربع أخرى وهذا نصر لم يحرزه أى من شعراء الملهاة بمختلف أنواعها فاستحق بذلك تمجيد الأدباء والفلاسفة وفى مقدمتهم أفلاطون الذى صوره فى المأدبة أحسن تصوير وأثنى عليه فى الجمهورية أيما ثناء ونظم فيه الأبيات الرائعة ٠

واعجب باريســتوفانيس شـعراء الرومان أيضا فقلدوا مسرحياته ، أما المربى كونتليانس فقد امتدح مؤلفاته وأكد ضرورة الرجوع اليها وفرض تلاوتها على تلاميذ المدارس ليفيدوا من نقاء أسلوبها ورشاقته ويقفوا على قوة تركيبها وتدفق حوارها بخاصة فى الأجزاء الخطابية لذا كان هذا الناقد الرومانى يعتبر هوميروس وأريستوفانيس نموذجين لتعليم الخطابة أما شيشرون فقد اعترف لشاعر الملهاة ببراعة النكتة وتوقد القريحة ٠

ولكن تأثير أريستوفانيس كان أشد وضوحا فى عصر النهضة ، حين اهتم أدباء ايطاليا بنشر أسفاره وترجمتها وتبعهم فى ذلك شعراء فرنسا وكتابهم الذين ذهب بعضهم الى تقليد أريستوفانيس فى أسلوبه وسخريته اللاذعـة ومنهم من تقمص روحه وحاكى طريقته فى النقد ومنهجه فى التصوير ٠ ويعتبر رابليه زعيما لهذا الفريق من الأدباء ، ثم جاء راسين وموليير واقتفيا أثر الشاعر اليونانى فى مطلع حياتهما وقلده فى انجلترا بن جونسون وغيره من شعراء المسرح الانجليزى ٠ ولما بدأ القرن التاسع عشر ونشطت الحركة الرومانتيكية حاز أريستوفانيس على اعجاب كثير من الكتاب مثل براونج وسوينبرن فتعدد ترجماته وراجت مسرحياته وأخرجت فى المسارح الانجليزية والفرنسية والأمريكية وأعدت للاذاعة فلاقت نجاحا عظيما فى هذه الدول ٠

اريستوفانيس

اجمع الدارسون على أن أريستوفانيس شاعر عظيم فى فن الملهاة. لكن قليلا من الناس هم الذين يعرفون إريستوفان وأقل منهم من قرأه وسبر أغواره ، وهذا شأن كتاب السباتيرا والساخرين من الشعراء لأن شعرهم فى العادة مرتبط بالبيئة والأحداث التى عاشوهـا ومثل هؤلاء سرعان ما تتبخر صورهم وتخبو تلميحاتهم بزوال الأشخاص والأحداث ٠ على أن اريستوفان كان أكثرهم حظا فقد تبقى من مسرحياته التى جاوزت الأربعين احدى عشرة ملهاة هى :

١ ــ أخارنيس (اسم معبد وحى)
٢ ــ الفرســـان
٣ ــ السحب
٤ ــ الزنابير
٥ ــ الســلام
٦ ــ الطيــور
٧ ــ ليسستراتى (مسرحية الجيوش)
٨ ــ تسموفوريازوسى (حارسات التقاليد أو العرافات)
٩ ــ الضـــفادع
١٠ ــ النائبات أو المجتمعات
١١ ــ الغنى أو المال ٠

وأريستوفان من أولئك الشعراء الذين غلبت شهرة عملهم الأدبى على تاريخهم فلم يعرف للآن حتى موعد مولده ووفاته ، كل ما يعرف عنه هو ما كتبه عن نفسه وما ذكره أفلاطون وقد كان معجبا به ــ الى متناثرات أخرى نجدها عند بلو تارك وغيره من النقاد والمؤرخين القدامى ٠

المعروف عنه حتى الآن :

انه أثينى من عشيرة (كودا) من قبيلة (بنديونيد) وهى قبيلة عريقة من القبائل العشر التى كونت أثينا منذ القدم ٠

كما كان يطلق عليه الأجينى نسبة الى جزيرة أجينا المقابلة لأثينا شرقا والتى قضى بها الشاعر سنين كثيرة من عمره ويقال ان أباه أقطع مزرعة بها ٠

ويذكر هليودور الأثينى أن أريستوفان من جزيرة رودوس ويرجع

أنه مصرى جاء من مدينة نقراش (ناوكراتيس) وكانت مدينة هيلينية بدلتا النيل قرب ايتاى البارود ، نجد أطلالها اليوم فى كوم جعيف وغيرها من القرى ، سكنها اليونانيون أيام سمح لهم الفراعنة بسكنها ليكونوا قوة بحرية وتجارية تسند جيش مصر فى حروبها ضد آشور والفرس وغيرهم ٠ وهذه المدينة الاغريقية ظهر تاريخها وحضارتها منذ القرن السابع قبل الميلاد ولعبت دورا مهما فى المزج الحضارى وكانت هى وكانوب (أبو قير) وغيرهما من المدن أسسا ودعامات لبنـاء الاسكندرية فى أواخر القـرن الرابع قبل الميلاد ٠

ويزعم سويداس ان أريستوفان من طبقة العبيد واعتمد فى هذا الزعم على الوثيقة التى أعلنهـــا كليون الحاكم الأثينى « تطعن فى أن أريستوفان أثينى أصيل » لكى يشهر بالشاعر الذى طالما فضحه على المسرح وكانت هذه التهمة دامغة لكل أجنبى فلا يســـتطيع أن يطالب بحقوق المواطن الأثينى ٠٠ ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى ادعى فيها الحاكم على أريستوفان أمام القضاء حيث طالب بعقابه وطرده من أثينا فعندما قام أريستوفان بنفسه كاشفا عن اسمه بعد ان كان مستعارا أصـــبح العداء سافرا بين الحاكم وبين أريستوفان فقاضاه وعذبه بالضرب وهدده وأغراه ولكن أريستوفان صمد وكتب البقاء للملهاة اليونانية على المسرح كما يذكر ذلك بنفسه فى مسرحية الزنابير (الأبيات من ١٢٨٣ ــ ١٢٩١) ٠

معنى هذا ان الشاعر اضطر لاقتحام الميدان السياسى حتى يخلص نفسه من التشهير به والادعاء عليه ٠

والثابت أن أمه أثينية خالصة والشك انما يدور حول أبيه فيليب ٠ فالمعروف أن أريستوفان وأمه سنة ٤٣٠ ق٠م أخذا اقطاعية فى جزيرة ايجينا كأثينيين خالصين (وذلك فى الدورة الأوليمبية ٨٧) عندما كانت هذه الجزيرة تحت سيطرة أثينا ولذلك نرى الشاعر فى مسرحية أخارنيس فى البيت (٦٥٣) يسخر من اسبرطة التى طالبت بنصيب فى هذه الجزيرة المستعمرة كى يجعلوا من أريستوفان ملكية خالصة لاسبرطة ٠

ويبدو أن أريستوفان نفسه كان متشككا فى نسبه الأثينى ففى رده بالمحكمة يذكر شطرة من شعر هومير يقابل معناها فى العربية « أكرم للمرء ألا يعتمد على حسبه ونسبه وانما على اسمه وشخصه » ٠٠٠ وحتى لو كان أريستوفان غير أصيل الدم الأثينى فان لغته الاتيكية كانت على أعلى مستوى بين معاصريه من الشعراء ٠

لمع اسم أريستوفان من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٨٥ ق٠م والمعروف

ان مسرحية الفرســـان اخرجت ســنة ٤٢٤ ق٠م ومن قبلها مسرحية (ديتاليس) سنة ٤٢٧ ق٠م قدمها الشاعر تحت اسم مستعار ، ويقول بنفسه فى مسرحية السحب انه اقتحم ميدان المسرح فى سن مبكرة ومن هنا يقترح لمولده سنة ٤٥٥ ق٠م على الأكثر ٠

أما تاريخ وفاته فغير محدد كذلك غير أنه علم ملهاة (الغنى) المعدلة سنة ٣٨٨ ق٠م فى أعياد ديونيس وكتب بعدها مسرحيتين : كوكالون ويولوسيكون درسهما ابنه أرارون باسمه لا باسم أبيه وقد قصد هذا أريستوفان ليجعل من ابنه خلفا له فى المجتمع الدينى ٠

ومن هنا يقترح زمن وفاته ســنة ٣٨٥ ق٠م أو سنة ٣٨٤ ق٠م ويرجح هذا ما كتبه أفلاطون فى السيمبوسيون اذ جعل منه شاعرا كوميديا مرموقا فى الأدب اليونانى لدرجة أن يجادل سقراط فى المادبة وقد يكون هذا من أفلاطون تكريما للشاعر واعلاء لاسمه قرب موته ٠

أما عن ثقافته فيبدو من شعره أنها واسعة ممتازة على أحسن ما كانت الثقافة والتربية فى عصر بريكليس الذهبى ٠

وأريستوفان يقول انه قبل أن يكون ربانا لسفينة الكوميديا قد كان بحارا ماهرا وجدافا قديرا متمكنا ٠ ونقده الأدبى فى الموازنة بين أسخيل ويوربيد فى الضفادع يثبت انه راسخ فى العلم ذواقة فى الفن ٠

كذلك يذكر بعض النقاد أن اريستوفان متأثر بأوروبيد وهذا صحيح لكن لا ينكر انه استحدث أساليب جديدة على المسرح اليونانى وفى مسرحية الطيور نرى غزارة معلوماته الأورفية وفى مسرحية السلام نلحظ عمق معرفته بايسوب ذلك مع حفظه الكثير للشعراء السابقين عليه والمعاصرين لـــه ٠

ويظهر انه كان معتدل الثراء لأنه كان يدفع للممثلين أجورا وينفق بسخاء على أدواته المسرحية ٠

أما جرأته كشاعر كوميدى ضد حكام الدولة وكهنتها فتشعرنا بقوته واستغنائه عن الاغراء ٠

وأما عن حياته فقد عرف عنه انه يحب الأصول والهدوء والسلام ويحافظ على التقاليد وأنه محتشم متفان فى فنه ٠ ومسرحياته كلها نضال صريح أو مستور فى سبيل تلك المبادىء ٠

وفى مسرحية السلام سنة ٤٢١ ق٠م يصور نفسه أصلع الرأس كذلك عرف عنه انه أكثر من الشراب طلبا للوحى والالهام ، وتحدى شعراء عصره فوصمه منافسه (كراتينوس) بأنه مدع سارق لأفكار غيره

عن وعى وعن غير وعى واطلق عليه لقب اليوروبيدى • ولكن من يقرأ يوروبيد واريستوفان قراءة فيلولوجية يخرج باصالة أريستوفان وعلو فنه خاصة فى الكورس •

اعمال اريستوفان

عاش الرجل حياته منقطعا للمسرح فكتب اربعا واربعين ملهاة أصاب الشك منها اربعا وهى : (١) الشعر (٢) الفريق (٣) الجزر (٤) نيوباس • وبقيت من أعماله احدى عشرة أصيلة ذكرناها أما الأخرى فمفقودة لم يبق منها الا متناثرات فى بطون المراجع منها :

١ ـ **ديتاليس أو مجلس الشراب** : سنة ٤٢٧ ق٠م قدمت باسم المغنى الأول فى الكورس واسمه فيلونيد وقد حارب فيها بدعة التعليم الجديد فى أثينا (السفسطة) •

٢ ـ **البابليون** : سنة ٤٢٦ ق٠م باسم معلم الكورس كاليستراتوس قدمت فى ربيعيات ديونيس وهى ضربة جريئة للنظام الانتخابى الذى اكتسح طاقات أثينا ووضع فى الحكم رجالا مهرجين على غير خبرة أو علم من أمثال كليون الذى فتح بابا للأجانب فملأوا أثينا فأصبح البلد كبرج بابل •

وعندما عرضت هذه المسرحية اتهمه كليون بأنه عدو الشعب وعذبه وحاكمه ونادى بابطال الكوميديا من المسرح الأثينى •

٣ ـ **اولكاديس** : درست بعد مسرحية الفرسان فى أعياد لينيا سنة ٤٢٣ ق٠م وفيها هجوم واضح ضد أنصار كليون الحاكم محب الحروب •

٤ ـ **الشيخوخة** : عن شيوخ أثينا المتصابين الذين فجروا ، والباقى منها قطعة تصور العجائز سكارى يستولون على مخبز ويقلبونه رأسا على عقب وزادوا فى العربدة بشكل لا يعلمه حتى الشباب الجاهل •

٥ ـ **أمفيراوس** : سنة ٤١٤ ق٠م تصور شيخا عجوزا يحج مع زوجه الى معبد أمفيراوس من أجل تجديد شبابه •

٦ ـ **تريفاليس** : قدمت على المسرح بين سنة ٤١١ ، سنة ٤٠٨ ق٠م وتسخر من الكفياديس •

٧ ـ **ليمنيا** : قدمت على المسرح بين سنة ٤١١ ، سنة ٤٠٨ وتسخر من مشاهد الأعياد والتقاليد المعيبة والبدع •

٨ ـ **شيوخ** : سنة ٤٠٧ ق٠م من نوع الضفادع نقد أدبى للشعراء ٠

٩ ـ **الفينيق** : سنة ٤٠٥ ق٠م معارضة لمسرحية يوروبيد بهذا الاسم ٠

١٠ ـ **كوكالوس** : سنة ٣٨٨ ق٠م عرضها ابنه وموضوعها خداع فتاة ومن هذه المسرحية يختفى الكورس تماما ٠

١١ ـ **ايلويسيكون** : سنة ٣٨٨ ق٠م أخرجها أبنه من غير كورس وفيها نقد للشعراء ٠

ما بقى بعد ذلك من ١٢ الى ٢٩ لم يبق منها الا أسماؤها ولا داعى لذكر أسمائها الآن٠

وأعظم ما فى أعمال الشاعر بروز خفايا عصره ولهذا بقيت أعماله كوثائق تاريخية وعملية مما دفع أفلاطون ألى أن يمجده بهذا البيت :

« ربات النعم جدت فى البحث عن معبد لهـا فلم تجد غـير روح أريستوفان هيكلا سرمديا » ٠

المسرحية

تبدأ المسرحية فيظهر ديونوسوس اله المسرح ، وقد ارتدى ملابس هيراكليس ثم يتجه الاله مع خادمه الى منزل هذا البطل ليسأله النصح قبل أن يذهب الى عالم الموتى ، ليرجع يوربيديس الى أثينا التى كانت قد اقفرت بعد موته من شعراء المأساة الممتازين وبعد أن يوضح له هيراكليس معالم الطريق الذى سبق أن اتبعه فى الذهاب الى العـالم الآخر يشرع ديونوسوس فى رحلته مع خادمه كسانثياس ٠ فلما يصلان الى البحيرة التى تقع على شواطىء هاديس يعبرها ديونوسوس فى زورق خارون ، الملاح الذى يقوم بنقل الموتى ويسمع الاله أثناء عبوره نشيد الضفادع التى تسكن مستنقعا قريبا من البحيرة فيقاطعها ويتحداها فى المقدرة على الانشاد وتجرى بينه وبينها مباراة غنائية تنتهى بفوزه ٠

أثناء ذلك يكون كسانثياس قد انتهى من الدوران حول البحيرة على قدميه ، اذ لم يكن من حق العبد أن يعبر فى الزورق مع سيده ٠ وبعد بلوغهما الشاطىء تاخذ الجوقة فى ترديد مقطوعات دينية وسياسية ثم يقترب ديونوسـوس وكسانثياس من مملكة بلوتون اله الموتى فيقابلان أياكوس حارس القصر فيمنعهما من الدخول ويلجأ الى الشرطة لتعاونه فى أداء واجبه ٠ عندئذ يتناول الزائران ملابسهما رغبة من ديونوسوس فى أن يخدع أياكوس ويضلله وفجأة يصل خادم آخر بعثت به بروسربينا زوجة بلوتون ليدعو هيراكليس المزيف (أى الخادم بعد ان ارتدى ثياب

ثياب ديونوسوس) لحضوره مأدبة ملكية ويأمر ديونوسوس الخادم من جديد بأن يغير ملابسه لكن ، بعد لحظات من تبديل الثياب يدخل اثنان من أصحاب الفنادق ويتهمان ديونوسوس بأنه احتال عليهما أثناء زيارته السابقة لعالم الموتى ويهددانه بالانتقام ثم يخرجان بعدئذ يعود أياكوس حارس القصر ومعه نفر من الشرطة القساة فيداهمون كسانثياس ويهجمون عليه فى عنف شديد ظنا منهم بأنه هريراكليس فيؤكد الخادم انه لم يأت الى ذلك المكان من قبل ثم يقترح معاقبة تابعه اذا ثبت انه قد جاء الى هذه الديار فيما مضى · عندئذ يعلن ديونوسوس (وقد ارتدى ثيـــاب الخادم) بأنه اله وأن كسانثياس عبده ، ثم يطلب الاثنان الى أياكوس أن ينهال عليهما ضربا بالسياط ليعرف الحقيقة فيضربهما ضربا مبرحا ليتعرف على شخصيتهما فالاله سوف يتحمل الضرب ، لأنه الآلهة بطبيعتها لاتتألم ، ويفشل أياكوس ولا يستطيع التمييز بينهما فيتخلى عن هذه المهمة ويعهد بها الى اله العالم الآخر وزوجه ·

عندئذ يخرج جميع الممثلين من المسرح وتبقى الجوقة وحدها تنشد مقطوعة عن أفكار أريستوفانيس السياسية ثم يظهر كسانثياس مع خادم بلوثون وهنا ينتهى الجزء الفكاهى من الملهاة وهنا أيضا ينقلنا الشاعر الى الفكرة الرئيسية للمسرحية وتدور حول دراسة الشعر التمثيلى فى عصره ·

ولقد لاقت هذه الملهـــــاة نجاحا كبيرا حين قدمها أريستوفانيس على المسرح الأثينى لأول مرة عام ٤٠٥ ق·م ولا أدل على اعجاب اليونان بها من أنهم طالبوا بعرضها مرة ثانية وهذا تقدير لم تنله الا الالياذة · فما السبب فى أن هذه المسرحية احتلت هذه المنزلة السامية ؟ أيرجع ذلك الى ما تتضمنه من فكاهات مضحكة وطرائف شائقة ؟ أم الى ما عالجته من مشاكل وطنية وموضوعات سياسية ؟ أم الى ما تناولته من دراسات دقيقة فى النقد ونظريات مهمة فى طبيعة الشعر ووظيفته ؟ ·

يحتمل انها نالت اعجاب الاثينيين لأهميتها السياسية ولكنها فى الواقع لم تشتهر فى العـــالم الحديث من أجـــل ذلك انما أثارت اهتمـــام الباحثين لأنها أقدم نص أدبى يتضمن دراسة مفضلة للمأساة اليونانية وتحليلا دقيقا لمسرحيات أيســخولوس وســـوفوكليس ويوربيديس لذا ، وصف النقاد الغربيون « الضفادع » بأنها تفوق أعمال دريدن دقة ومقالات كولردج عمقا ، وأبحاث أرنولد وسان بيف أصالة ·

ولقد عرض أريستوفانيس هذه الملهاة بعد أن كان زعماء المأســـاة الثلاثة قد انتقلوا الى عالم الموتى وخلت أثينا من شعرائها الكبار وأصبحت تعج كما قال ديونوسوس بمئات من المتشاعرين الذين حطوا من قدر الفن : « فلم يوجد بينهم شاعر أصيل بارع ينظم شعرا ساميا بل كانوا جميعا

يبوءون بالفشل ، وتختفى أسماؤهم من عالم الادب بعد عرض أول مسرحية يقدمونها ؛ لذلك رأى اله المسرح انه لابد من التوجه الى هاديس لارجاع يوربيديس الى عالم الأحياء لأن أثينا كانت فى حاجة الى شاعر مبتكر ٠

وما أن وصل ديونوسوس مملكة بلوتون ، حتى سمع بخلاف شديد قد احتدم قبل مجيئه بلحظات بين أيسخولوس الذى تربع على عرش المأساة وبين يوربيديس الذى يريد أن يغتصب العرش ويحتل مكانه ويقترب ديونوسوس من الشاعرين المتخاصمين ليقف على تفاصيل الموضوع فيطلبان اليه أن يحكم بينهما فيقبل الحكم ثم تبدأ المباراة فينتقد كل منهما الآخر فى لغته وأسلوبه وفلسفته الخلقية وفى مقدمة مآسيه وفى تركيبها ووظيفتها وفى أوزانه وأشعاره الغنائية ٠ ورغم ذلك كله يصعب على الاله أن يفضل شاعرا على الآخر فيلجأ الى وسيلة جديدة للموازنة بينهما فيسأل كلا منهما رأيه فى سياسة القائد الأثينى المشهور الكبيادس ، فيقول يوربيديس : « انه يكره الرجل الذى يتلكأ فى خدمة وطنه ويسارع الى الحاق الضرر به الرجل الذى يسعى الى تحقيق مآربه الشخصية ولا يؤدى واجباته القومية » ويرد أيسخولوس قائلا : « لا ينبغى أن نربى أشبالا فى المدينة أما اذا ربينا واحدا وكبرا بيننا فيجب أن نرضى عن تصرفاته » ٠

لكن الحكم لا يرضى عن اجابة الشاعرين ويطلب الى كل منهما أن يوجه النصح السديد الى أثينا فى محنتها الشديدة فيعبر يوربيديس عن رأيه قائلا : « يجب علينا أن نرتاب فى هؤلاء الذين نثق فيهم اليوم ونعتمد على الذين لم نثق فيهم من قبل وأن نلجأ الى وسائل غير تلك التى اتبعناها فيما مضى » ٠ أما ايسخولوس فينادى بدفع الضرائب والاستمرار فى الحرب وعندئذ يقترب بلوتون اله الموتى من ديونوسوس ويطلب اليه أن يختار الشاعر الذى يفضله فيقرر الحكم فجأة ارجاع ايسخولوس الى أثينا ٠

ومع ان أريستوفانيس لم يعتمد على التفوق الأدبى فى تفضيل شاعر عن آخر ، الا أنه عقد مقارنة مفصلة بين الاثنين أبرز فيها محاسن كل منهما ومثالبه ٠

اريستوفانيس فى نظر الأجيال :

على هذه القاعدة نجد لاريستوفان قمما من الأمجاد على مر العصور فعلى المسرح السكندرى فى عصر البطالمة لاقى أريستوفان شعبية لم يظفر بمثلها شاعر الملك (ميناندرو) وفى روما وفى القسطنطينية بالذات لم نجد رواجا لمسرح أريستوفان فى المال بخاصة ثم يسكت المسرح قليلا أيام النضال المسيحى وما أعقبه من الفتوح الاسلامية والحروب الصليبية ويعود

بعث أريستوفان مع النهضة الأوربية فتدب الحركة فى أوصال المسرح وينشط البحث · لكن الخزائن تكون قد فقدت الكثير من أعمال أريستوفان ·

ففي القرن الخامس عشر نرى فرانسوا رابيليه (١٤٩٤ ــ ١٥٥٣) أثناء الصراع ضد الاقطاع يهتم أهتماما كبيرا بأريستوفان ويقتبس كثيرا من لمحاته الذكية ، كذلك حدث فى انجلترا فقد تأثر الكتاب بخاصة من نادي منهم بشيء من الديمقراطية والتعاون الاجتماعي أمثال توماس مور (١٤٧٨ ــ ١٥٣٥ م) بل ان شكسبير نفسه لم يسلم من التأثر بأريستوفان فى (حلم ليلة صيف) وهى الى حد ما تذكرنا بطيور أريستوفان وبن جونسون كان متأثرا بمسرحية المال ·

وفى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وما بعدها نجد مساحة المسرح الأريستوفانى تتسع ويزداد عدد المعجبين بأريستوفان وعدد الناقمين عليه · فنرى بوالو يتهم أريستوفان بالاسفاف والخشونة والغلظة بينما نجد واسين من أشد المعجبين به ويؤلف على غراره مسرحية على أساس (الزنابير) وتمثل على المسرح سنة ١٦٦٨ م ·

وفى انجلترا نرى سويفت يعيد على المسرح أريستوفان ويتخذ من وسائله سلاحا لضرب الاقطاع والفساد والعفن الاجتماعى كذلك فعل هنرى فيلدنج (١٧٠٧ ــ ١٧٥٤ م) والذى ترجم المال · كما كتب ليسنج معترفا بأن « مسرح أريستوفان ليس بأقل من حوار سقراط فى تربية المجتمع » ·

ثم نرى جيته فى يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٨٠ يقدم على مسرح بيمار (الطيور) على أسلوب أريستوفان ويعلن اعجابه بأريستوفان طول حياته ·

أما الشاعر هاينى فقد عشق أريستوفان عشقا بعيد المدى وسمى نفسه (أريستوفان الجرمانى) وأعترف بأريستوفان أبا روحيا له ·

على ان أريستوفان لم يزدهر فى الأدب وحده وانما نرى المسرح كلما ازداد اتساعا وامكانا ، علا فيه صوت أريستوفان بمسرحياته أو بالمقتبس من أفكارها وأساليبها وان ما يشاهد من نشاط حركة النقد والصراع بعد كل مسرحية من مسرحياته لدليل على اهتمام الناس بالشاعر أبى الكوميديا وأنه عائش فى ضمائر الأجيال ··

ولعلنا لا نبالغ فى القول اذا قررنا أن عظمة أريستوفان كممثل للملهاة اليونانية القديمة وكناقد ممتاز فى القرن الخامس تعزى الى حد بعيد الى ملهاة « الضفادع » التى يعتبرها النقاد أجمعون أروع مسرحياته

وأجدرها بالقراءة والدراسة للحكم على ناظمها « كشاعر موهوب ونـاقد بـارع » ٠

ونسير بسرعة حتى نصل الى بريخت فنلاحظ أسلحته فى الخشونة والسخرية الماحقة لمحاربة الاستعمار والاستغلال البشرى ، وهى أسلحة عليها خاتم أريستوفان ولا ينكر بريخت ذلك ٠

مصنفات جالينوس الطبية

جالينوس

١٥٠ - ٢٠٠م

جالينوس هو آخر أئمة الكتاب فى الطب ببلاد الاغريق لعهدها القديم وقد نبه ذكره مشرحا وعالما طبيعيا وطبيبا ممارسا وجراحا وصيدلانيا ، وعرف أيضا بأنه فيلسوف له أثر ،وان لم يكن من أئمة الفلاسفة • ونسب اليه نيف ومائة وعشرون كتابا فى الطبعة الأخيرة للثبت الكامل بمؤلفاته اليونانية وهى الطبعة التى قام بها كون ليبسك فى الفترة من سنة (١٨٢١ ـ ١٨٣٣) ولا يمثل هذا الثبت بحال انتاجه جميعا ، وبقى بعض كتبه مترجما الى العربية أو العبرية أو اللاتينية فحسب أما البقية فقد فقدت •

وما من موضع سلك فيه جالينوس فى الصف الأول ومع ذلك فان شهرته وخاصة في الطب نمت نموا مطردا فى القرون التالية وأصبح آخر الأمر أعظم معلمى الطب أثرا هو وأبقراط الذى ساعد جالينوس على توطيد مكانته من حيث هو الطبيب الأمثل والنموذج الكامل ، كما تناول بالتفسير رسائله فى شروح مستفيضة • ولما أصبح تعليم الفلسفة والطب الاغريقيين جزءا من برنامج التعليم فى سنة ٥٠٠ تحقق بقاء الجزء الأكبر من مصنفاته العديدة واستقرت مكانته السامية في ألف السنة التالية ، على حين أن مصنفات أسلافه فى الاسكندرية وغيرها قد اندثرت ـ وسلم جالينوس ما جمعه من الأعمال العظيمة لأطباء العصر اليونانى المتأخر (الهلنسى) الذين عرف فيهم بعد استقلالهم فى الرأى ودرس ذلك بنفسه الى الأجيال اللاحقة • وكان هذا التراث الذى سلمه ذا أثر فى اقامة سنة الطب العلمى راسخة لم تنفصم ولم تغب عن الأنظار قط ••

حيـــاة جالينــوس

ولد جالينوس فى عام ١٣٠ للميلاد فى مدينة بيرغاموم وكانت واحدة من أجمل مدن الاغريق على سواحل بحر ايجه وموقعها الحالى شمالى أزمير فى تركيا ٠

ولقد أمضى جالينوس ذلك العملاق فى تاريخ الطب أيام صبـــاه وبواكير شبابه فى بيرغاموم ترى ما هو حال هذه المدينة الآن ؟ وهل هنالك ما تزال بقايا الاسلبيون أول مركز طبى فى العالم ٠

عندما بلغ جالينوس السابعة عشرة من عمره كان قد حفظ الفلسفات الأفلاطونية والأرسطوطالية والرواقية والابيقورية ، وقد ظهر آنذاك أن ذلك الشاب اللامع الذكاء سيصبح واحدا من أعظم فلاسفة عصره ورأى والده فى المنام ان ابنه يدرس الطب وتحول الابن من الفلسفة الى الطب لكى يحقق حلم أبيه ، والتحق جالينوس بمدرسة الجراح العظيم ساتيروس فى بيرغاموم حيث درس التشريح ، وعندما كان جالينوس لا يزال تلميذا تفشى فى المدينة وباء الجمرة الخبيثة وانهمك الأستاذ فى مكافحة هذا الوباء وكان جالينوس يقف عند مرفق أستاذه الذى كان يجرى العمليات الجراحية لتطبيب مرضاه ٠

ولم يكن اهتمام جالينوس منصرفـا فقط الى طريقة معالجة المرضى وانما كان يدقق النظر فى الأوصال الجريحة ويحاول القيام بتشـخيص كامل لها ، اذ كان يطلب من المريض أن يحرك أعضاءه التى تناوشـــها مشرط الجراح لكى يتـأكد من علاقة مختلف العضـلات بحركاتها وكان أحيانا يدقق النظر فى شريان أو وريد أو عصب وقد كان وأستاذه يلاحظان أمورا تشريحية كان سائر الأطباء لا يلاحظونها ٠

وأسرف جالينوس على نفسه فى العمل حتى مرض لفرط الاعياء وبعد مدة وجيزة على شفائه من مرضه توفى والده وهكذا وجد الشـاب نفسه وحيدا فى هذه الدنيا فهجر بيرغاموم وكان والده قد ترك له قدرا من المال ساعده على المحافظة على استقلال نفسه وانتقل الشاب الى أزمير حيث تابع دراسته عند الطبيب بيلوبس والفيلسوف البينوس وقام الشاب بجولة

طاف خلالها اليونان وكيليكا وفينيقيا وفلسطين وكريت وقبرص وكان أثناء طوافه يثابر على دراسة الأمراض والعلاجات وعادات الناس وأخيرا وصل الى الاسكندرية وكانت آنذاك أعظم مدن شرق البحر الأبيض المتوسط وذلك لدراسة علم التشريح فى مدرسة الطب ٠

وكان رجال التشريح فى الاسكندرية خلال مرحلة من مراحل تاريخ المدينة يقومون بتشريح أجسام المجرمين وهم أحياء وكان ملوك البطالسة يقدمون لمدرسة الطب عددا من هؤلاء المجرمين لتشريح أجسامهم نظرا لشدة اهتمامهم بالطب وعدم احساسهم بآلام البشر ٠ وعندما وصل جالينوس الى الاسكندرية كانت تلك العـادة الوحشية قد أبطلت ولذلك انصرف جالينوس الى تشريح القردة لمتابعة دراساته ٠

وفى عام ١٥٧ للميلاد عاد جالينوس الى بيرغاموم وكان عمره آنذاك ٢٨ عـاما وقد عينه رئيس كهنة الهيكل الطبى طبيبـا للمجلودين وكان جالينوس مكلفا بالاشراف على ما يتناوله هؤلاء الرجال اليائسون من طعام ومعالجة جراحهم الرهيبة بالقدر المستطاع ٠

وبالاضافة الى عمله هذا فقد فتح جالينوس عيادة خاصة به وفى هذه الفترة من حياته كتب أول مقالاته وصار جالينوس شخصية معروفة فى اسكلبيون حيث كان يجتمع أعظم أطباء عصره ٠

وأخذ جالينوس يعلم ويتابع أبحاثه ويكتب الكثير من أبحاثه الطبية حول الطب فى هذا الهيكل الذى كان ملتقى أطباء العصر الذى كانوا فى نفس الوقت كهنة للهيكل ٠ وفى أيام البيزنطيين حول الهيكل الى كنيسة ومكان للمعمودية ٠

ان معظم الناس فى يومنا هذا يظنون أن العلاج بالعقاقير وبالماء وبالفن وبالايحاء وبالتحليل النفسى لشفاء الأمراض العقلية هى من ابتكار هذا العصر الحديث ومع ذلك فان أعشاب العقاقير كانت تستعمل فى اسكلبيون لتحقيق الشفاء وكانت الجراحة فنا متقدما وكانت الأمراض العقلية فى هذا الهيكل تعالج بالعـــلاجات المائية وبالعقاقير وبالايحاء ٠ ومن يزر بيرغاموم يشـــاهد سردابا طويلا تحت هيكل اسـكلبيون كان المصـــابون بأمراض عقلية يوضعون فيه بعد اعطائهم أنواعا من المخدرات وتتصل بهذا السرداب أنابيب خفية كان الأطباء من خارج السرداب يتحدثون عن طريقها ويقدمون النصائح للمرضى فيتصور هؤلاء أنهم يتلقون هذه النصائح من مصادر الهية ، ولذلك كانوا يتقبلون هذه النصائح ويعملون بمقتضاها ٠

ومن جهة أخرى كان مرضى آخرون يستعينون على الأمراض العقلية

بالانشغال بالأعمال الفنية كالرسم والنحت حتى يتماثلوا للشفاء ، وحين كان غيرهم يمارس التمثيل فى مسارح خاصة أقيمت لهذا الغرض وكان آخرون يأخذون الحمامات الشمسية ويستمعون الى الألحان العذبة وكانت هناك فى الهيكل مكتبة طبية تبرع بها اليه الامبراطور هدريان الذى كان فى وقت من الأوقات نزيل هيكل اسكلبيون الطبى وما تزال آثار غرف الفن الموسيقى والمكتبة والمسرح والحجرات الانفرادية موجودة حتى وقتنا هذا •

ولقد قام الامبراطوران الرومانيان كاراكالا وماركوس أوريليوس بزيارة اسكلبيون طلبا للشفاء ، ومما لاشك فيه أن ماركوس أوريليوس قابل جالينوس فى الاسكلبيون الذى زاره عام ١٦٢ للميلاد ، وهو العام الذى تلا ارتقاء العرش وكان الامبراطور فى ذلك العام يقودكتائبه فى حرب مريرة ضد البارثيين على الحدود الشرقية لامبراطوريته •

وعادت جيوش روما من هذه الحرب ولكنها كانت مصابة بطاعون رهيب وانتقل جالينوس الى روما حيث أسهم فى مكافحة الطاعون وصار طبيبا وفيلسوفا ذائع الصيت • وصار علية القوم فى روما من رواد عيادته طلبا للطب للاستماع الى المحاضرات التى كان يلقيها وعرف جالينوس بعد ذلك باسم « بارادو كسوبويوس » ومعناها فى الاغريقية صانع الأعاجيب •

وذات يوم استدعاه ماركوس أووليوس الى القصر الامبراطورى حيث كان أطباء البلاط يعالجونه من حمى أصابته وألقى جالينوس نظرة على الحاكم الممدد على فراش المرض وقال ان سبب المرض هو التخمة فقال الامبراطور : صدقت لقد أسرفت فى تناول الطعام • ووصف له الدواء الصحيح لعلته •

وفى روما ثابر جالينوس على الأبحاث الطبية وتابع دراسته للهياكل العظمية بشرية كانت أم حيوانية وكان جالينوس كلما سمع بأن ضريحا قد فتح هرع اليه لدراسة العظام المدفونة فيه واذا قتل أحد المسافرين لصا انبرى له فى الطريق لم يكن الناس يهتمون بدفن اللص ولذلك كان جالينوس يستولى على الجثة ويعرضها للجوارح التى كانت تلتهم اللحوم فى يومين وتترك له الهيكل العظمى معدا للبحث والدرس وقد وصف جالينوس الهيكل العظمى بالنسبة للجسم بأنه شبيه بأعمدة الخيام أو بجدران المنزل بالنسبة للخيام وللمنازل ومع أن جالينوس لم يعلم أكثر مما كان معلوما من قبل عن العظام فانه درس وضع الأوصاف العلمية لاكثر من ثلثمائة عضلة وكثير منها ما يزال مستعملا حتى الآن • لقد

أثبت لأول مرة ان التقلص هو الحركة الوحيدة للعضــلات وان حركة العضلات أثناء الاسترخاء تنتج عن تقلص عضلة مقابلة ·

وقد اهتدى جالينوس من وراء دراسته للعضلات الى دراسة الأعصاب التى بين أنها الوسيلة التى يحكم الدماغ العضلات بواسطتها · وذات يوم كان جالينوس يشرح خنزيرا وأخذ الحيــوان الجريح يصرخ من الألم فما كان من جالينوس الا أن قطع عصبا متصلا بصندوق الصوت (الحنجرة) فى حلق الخنزير فلم يعد قادرا على الصراخ وتتبع مسرى العصب فوجد انه متصل بالدماغ وعندئذ أثبت ان مكان الذكاء عند الانسان والحيوان على السواء هو الدماغ ·

كذلك درس جالينوس تأثير العواطف على جسم الانسان فقد دعى ذات مرة لمعالجة شابة رومانية جميلة ، ولاحظ جالينوس أن الفتاة كانت مضطربة الحركة مسهدة رغم انها لم تكن مصابة بحمى وكانت ترفض الاجابة على الأسئلة التى وجهها اليها وبينما كان جالينوس يحاول تهدئة الفتاة وتطييب خاطرها دخل أحدهم الى الغرفة وقال عرضا انه قادم من المسرح حيث شاهد شابا يدعى بيلاديس يرقص وعندئذ لاحظ جالينوس أن ملامح الفتاة ولونها تبدلا عندئذ جس نبضها فألفاه مضطربا ·

وفى زيارة تالية طلب من أحد الأشخاص أن يدخل الغرفة فيقول انه شاهد رجلا آخر يدعى موريوس يرقص فى المسرح ولم تضطرب الفتاة لدى سماعها هذا النبأ ·

وأعاد جالينوس الكرة وأمر ذلك الشخص بـأن يقول انه شــاهد بيلاديس وهو يرقص وعندئذ عادت الفتاة الى الاضطراب ·

وقال جالينوس لقد أدركت ان الفتــاة كانت مغرمة بهذا الشــاب بيلاديس ·

وتوفى جالينوس عام ٢٠٠ للميلاد عن عمر يبلغ السبعين وظل اسمه لمدة ثلاثة عشر قرنا يعد أعظم اسم فى دنيا الطب ، وظل أطباء القرون الوسطى يتبعون تعاليمه ويتمسكون بها·

وربما كان جالينوس من أعزز الكتاب القدامى وقد ضــاعت معظم مؤلفاته ولكن ما بقى منها يشغل واحدا وعشرين مجلدا ضخما وعلى ذلك يكون من المستحيل دراسة كل آرائه الطبية ، ومع ذلك فسنبحث نظامه الفسيولوجي فقط لانه أصبح النظام المأخوذ به فى أواخر العصور القديمة ·

كان الجوهر الأساسى للحياة طبقـا لفلسفة جالينوس هو الروح أو النفس المستمد من الروح الكونية فى عملية التنفس وهو يدخل الجسم عن طريق القصبة الهوائية فيصل بذلك الى الرئة ومن هناك يدخل فى (الشريان) الشبيه بالوريد الذى نسميه اليوم الشريان الرئوى الى البطين الأيسر حيث يقابل الدم ولكن ما أصل الدم ؟ لقد كانت اجابته على هذا السؤال بارعة ولكن الأخطاء التى تضمنتها بقيت حتى عصر هارفى ٠

كان جالينوس يعتقد أن الكيلوس (هو مستحلب الطعام المهضوم) الذى يأتى من القناة الهضمية عن طريق الوريد البابى يصل الى الكبد وقد اعتقد أن فى استطاعة هذا العضو أن يحيل المستحلب الى دم وريدى وأن يشربه بروح خاصة أو نفس يوجد بصورة فطرية فى جميع المواد الحية طالما كانت محتفظة بالحياة ويشار الى هذا النفس باسم « الروح الطبيعية » فاذا حمل الدم بالروح الطبيعية المستمدة من الكبد وبالمواد الغذائية المستمدة من الأمعاء فان الكبد يوزعه ، كما كان جالينوس يعتقد ، فى جميع أجزاء الجهاز الوريدى الذى يتفرع منه هنـاك حيث يمر فى حركة انقبـاض وانبساط خلال الأوردة وأحد الفروع الرئيسية فى الجهاز الوريدى هو الجانب الأيمن من القلب ٠

أما الدم الذى يدخل هذا الفرع المهم ، وهو الجانب الأيمن من القلب — فقد حدد له نظام جالينوس مصيرين محتملين فالجزء الأكبر منه يبقى قليـلا فى البطين ليتخلص مما فيه من شوائب ، يحطها « الشريان الوريدى » الذى يسمى الآن الشريان الرئوى ، الى الرئة حيث تخرج مع الزفير ، فاذا تخلص الدم الوريدى الذى فى البطين الأيمن مما كان فيه من شوائب فـانه يعود الى التدفق فى الجهاز الوريدى العام ولكن جزءا صغيرا من الدم يمر فى طريق آخر وهذا الجزء الصغير يقطر فى القنوات الدقيقة الموجودة فى الجدار الحاجز بين البطينين فيصل الى البطين الأيسر نقطة فنقطة حيث يلتقى بالنفس أو الهواء الذى تحطه القصبة الهوائية والشريان شبه الوريدى من العالم الخارجى ، وحين تختلط هذه النقطة الدموية بالهواء فى البطين الأيسر تتحول الى نوع من الأنفاس وهو روح الحياة التى توزعها الشرايين مع الدم الشريانى ٠

ومن هذه الشرايين ما يصعد الى الدماغ وبذا تحمل روح الحياة الى قاعدة المخ وهنا يتجزأ الدم الى أجزاء دقيقة بواسطة قنوات شبكة الأوعية الدموية المتحدة المصدر ٠ وفى هذا العضو الخفى يحمل الدم بنوع ثالث من الأنفاس وهو الروح الحيوانية ، كانت توزعها الأعصاب التي كان يعتقد أنها جوفاء ٠

وكان عدد يسير من مؤلفات جالينوس هذه يحتوى على كل المعلومات المعروفة فى العالم فى علم وظائف الأعضاء من القرن الثالث الى القرن السابع عشر ، وكل الأفكار المتعلقة بعلم الحياة تقريبا حتى القرن الثالث عشر ومعظم علم التشريح وعلم النبات حتى القرن السادس عشر وفى الآراء المتصلة بالبناء الطبيعى للكائنات الحية خلال العصور الوسطى،وظلت مؤلفات أرسطو وثيوغراستوس فى علم الحياة تتناقلها بطريقة مضطربة بضع مخطوطات قليلة نادرة فى أديرة الشرق وقد دمر تدميرا كاملا كل ما انتجه نشاط مئات السنين فى الاسكندرية وبرغامة كما عفا النسيان على المؤلفات الأيونية فى علم الحياة التى نجا القليل منها بمعجزة ولكن مؤلفات جالينوس الضخمة السيئة الترتيب ظلت باقية ، فقد ترجمت الى اللاتينية والسريانية والعربية والعبرية وتشبعت بها الحركة الفكرية فى العصور الوسطى وقد علق عليها وشرحها الكتاب الاغريق المتأخرون وترجمت هذه الشروح بدورها الى نفس اللغات المشار اليها آنفا فأصبحت تتداول مرة أخرى تحت أسماء مؤلفين اغريقيين آخرين ٠

ما هو السر الكامن وراء حيوية آراء جالينوس هذه فى علم الحياة ؟ يمكن الاجابة عن ذلك فى أربع كلمات : كان جالينوس باحثا غائيا أى أنه يعتقد أن كل شيء قد خلقه الله لغاية خاصة محددة يضاف الى ذلك أن غائيته كانت من نوع تصادف أنه كان يتماشى مع الاتجاه الدينى السائد فى العصور الوسطى سواء أكان مسيحيا أم اسلاميا أم يهوديا ، ففى رأيه ان كل شيء يوجد فى جسم الانسان ويظهر نشاطا هو من ابداع كائن مفكر أبدعه بحسب خطة ذكية بحيث يكون العضو فى بنائه ووظيفته نتيجة هذه الخطة ٠ لقد كانت الحكمة اللانهائية للخالق هى التى تخيرت أفضل الوسائل للوصول الى أغراضه الخيرة ، وان من الادلة على قدرته الشاملة انه خلق كل شيء حسن حسب الخطة التى وضعها وبذلك حقق ارادته « وقد مرت بعد جالينوس ألف عام من الجهالة ، وكاد ينقطع تاريخ الطب وعلم الحياة » ٠

مصنفات جالينوس الطبية

ولجالينوس من المصنفات كتب كثيرة جدا وهذا ذكر ما وجدناه منها منتشرا فى أيدى الناس مما قد نقله حنين بن اسحق العبادى وغيره الى العربية ، وأغراض جالينوس فى كل كتاب بينكس وهو الفهرست وغرضه فى هذا الكتاب أن يصف الكتب التى وضعها وما غرضه فى كل واحد منها ومن دعاه الى وضعه ومتى وضعه فى أى حد من سنه وهو مقالتان : المقالة الأولى ذكر فيها كتبه فى الطب وفى المقالة الثانية كتبه فى المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو : كتاب فى مراتب قراءة كتبه مقالة واحدة وغرضه فيها

أن يخبر كيف ينبغي أن ترتب كتبه في قراءتها كتابا يعد من أولها الى آخرها كتاب الفرق مقالة واحدة • وقال جالينوس انه أول كتاب يقرؤه من أراد تعلم صناعة الطب وغرضه فيه أن يصف ما يقوله كل واحد من فرقه أصحاب التجربة وأصحاب القيـــاس وأصحاب الحيـــل في تثبيت ما ندعى الاحتجاج له وللرد على من خالفه وكيف الوجه في الحكم على الحق والباطل منها • وكان وضع جالينوس لهذه المقالة وهو شاب في الثلاثين من عمره عند دخوله رومية لأول مرة كتاب الصناعة الصغيرة مقالة واحدة وقد قال جالينوس في أوله انه أثبت فيه جعـــل ما قد بينه على الشرح والتلخيص في غيره من الكتب وان ما فيه بمنزلة النتائج بما فيها النبض الصغير وهو أيضـــا مقالة واحدة عنوانها جالينوس الى طوثرس وســـائر المتعلمين وغرضه فيها أن يصف ما يحتاجه المتعلمون الى عمله من أمر النبض ويعدد فيه أولا أصناف النبض ولم يذكرها جميعها وانما ذكر ما يقوى المتعلمون على فهمه منها ثم يصف بعد الأسباب التي تغير النبض ما كان منها طبيعيا وما كان منها ليس بطبيعي وما كان خارجا من الطبيعة وكان وضع جالينوس لهذه المقالة في الوقت الذي وضع فيه كتابه في الفرق كتابـــا الى أغلوقن في التأني لشـــفاء الأمراض ومعنى أغلوقن باليونانية الأزرق وكان فيلسوفا وعندما رأى من آثار جالينوس في الطب ما أعجبه سأله أن يكتب له ذلك الكتاب • ولما كان لايصل المداوى الى مداواة الأمراض دون معرفتها قدم قبل مداواتها دلائلها التي تعرف بها ووصف في المقالة الأولى دلائـــل الحميات ومداواتها ولم يذكرها كلها لكنه اقتصر منها على ذكر ما يعرض كثيرا وهذه المقالة تنقسم قسمين : وصف في القسم الأول من هذه المقالة الحميات التي تخلو من الأعراض الغريبة ووصف في القسم الثاني الحميات التي معها أعراض غريبة ووصف في المقالة الثانية دلائل الأورام ومداواتها • وكان وضع جالينوس لهذا الكتاب في الوقت الذي وضع فيه كتاب الفرق كتاب في العظام هذا الكتاب مقالة واحدة وعنونه جالينوس: « في العظام للمتعلمين » ، وذلك أنه يريد أن يقدم المتعلم للطب تعلم علم التشريح على جميع فنون الطب لانه لا يمكن عنده دون معرفة التشريح أن يتعلم شيئا من الطب القياسي وغرض جالينوس من هذا الكتاب أن يصف حال كل واحد من العظام في نفسه وكيف الحال في اتصاله بغيره وكان وضع جالينوس له حين وضع سائر الكتب الى المتعلمين •

كتاب في العضـــل :

هذا الكتاب مقالة واحدة ولم يعنونه جالينوس الى المتعلمين لكن أهل الاسكندرية أدخلوه في عداد كتبه الى المتعلمين وذلك انهم جمعوا مع هاتين المقالتين ثلاث مقالات أخرى كتبها جالينوس الى المتعلمين واحدة في تشريح العصب وواحدة في تشريح العروق غير الضوارب وجعلوه كأنه دون كتابا

واحدا ذا خمس مقـــالات وعنونه : « التشريح الى المتعلمين » ، وعرض جالينوس فى كتابه هذا أن يصف جميع العضـــلات فى كل واحد من الأعضاء كم هى ؟ وأى عضل هى ؟ ومن أين يبتدئ كل واحدة منها وما فعلها بغاية الاستقصاء ٠

كتاب فى العصب :

هذا الكتاب أيضا مقالة كتبها الى المتعلمين وغرضه فيها أن تصف كم نوعا من العصب تنبت فى الدماغ وأى الاعصاب هى وكيف وأين تنقسم كل واحدة منها وما فعلها ٠ كتاب فى العروق هذا الكتاب عند جالينوس مقـالة واحدة يصف فيها أمر العروق التى تنبض والتى لا تنبض كتبه للمتعلمين وعنونه : « الى انطشانس » ٠ فأما أهل الاسكندرية فقسموه الى مقالة فى العروق غير الضوارب ومقالة فى العروق الضوارب وغرضه فيه أن يصف كم طرفا تنبت من الكبد وأى العروق هى وكيف وأين ينقسم كل واحد منها وكم شريانا تنبت من القلب وأى الشريانات هى وكيف هى وأين تنقســـم ٠

كتاب الاسطقسات :

على رأى أبقراط مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين أن جميع الأجسام التى تقبل الفساد وهى أبدان الحيوان والنبات والأجسام التى تتولد فى بطن الأرض انما تركيبها فى الأركان الأربعة التى هى النار والهواء والماء والأرض وان هذه هى الأركان الأولى البعيدة لبدن الانسان وأما الأركان الثواني القريبة التي بها قوام بدن الانسان وسائر ما له دم من الحيوان فهى الأخلاط الأربعة أعنى الدم والبلغم (خلط من الصفراء والسوداء) ٠

كتاب المزاج :

ثلاث مقالات وصف فى المقالتين الأوليين منه أصناف مزاج أبدان الحيوان فبين كم هى وأى الأصناف هى ووصف الدلائل التى تدل على كل واحد منها وذكر فى المقالة الثالثة منه أصناف مزاج الأدوية وبين كيف تختبر وكيف يمكن تعرفها ٠

كتاب القوى الطبيعية ثلاث مقالات :

وغرضه فيه أن يبين أن تدبير البدن يكون بثلاث قوى طبيعية وهى القوة الجابلة والقوة المنوية والقوة العادية ٠ وان القوة الجابلة مركبة من قوتين احداهما تغير المنى وتجعله حتى تجعل منه الأعضاء المتشابهة

الأجزاء · والأخرى تركيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء بالهيئة والوضع والمقدار أو العدد الذى يحتاج اليه فى كل واحد من الأعضاء المركبة وانه يخدم القوة العادية أربع قوى : وهى القوة الجاذبة والقوة الممسكة والقوة المتغيرة والقوة الدافعة ·

كتاب العلل والأعراض ست مقالات :

وهـذا الكتاب أيضـا لجالينوس ومقـالاته متفرقة وانما جمعها الاسـكندريون وجعلوها كتابا واحـدا وعنون جالينوس المقـالة الأولى من هذه المقالات الست فى أصناف الأمراض ووصف فى تلك المقالة كم أجناس الأمراض وقسم كل واحد من تلك الأجناس الى أنواعه فى القسمة الى أقصى أنواعها وعنون المقالة الثانية منها : « فى أسباب الأمراض » وغرضه فيها موافق لعنوانها،وذلك أنه يصف فيها كم أسباب كل واحد من الأمراض وأى الأسباب هى · وأما المقالة الثالثة من هذه الست فعنونها : « فى أصناف الأعراض » ، ووصف فيها كم أجناس الأعراض وأنواعها وأى الأعراض هى وأما ثلاث المقالات الباقية فعنونها : « فى أسباب الأعراض » ، ووصف فيها كم الأسـباب الفاعلة لـكل واحـد من الأعراض وأى الأسباب هى ·

كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة ويعرف أيضا بالمواضع الآلمة ست مقالات وغرضه فيه أن يصف دلائل يستدل بها على أحوال الأعضاء الباطنة اذا حدثت بها الأمراض وعلى تلك الأمراض التى تحدث فيها أى الأمراض هى ووصف فى المقالة الأولى وبعض الثانية منه السبل العامة التى تتعرف بها الأمراض وواضعها وكشف فى المقالة الثانية خطأ ارخيجانس فى الطرق التى سلكها فى طلب هذا الغرض ثم أخذ فى باقى المقالة الثانية وفى المقالات الأربع التالية لها فى ذكر الأعضاء الباطنة وأمراضها عضوا عضوا وابتدأ من الدماغ وهلم جرا ، يصف الدلائل التى يستدل بها على واحد واحد منها اذا اعتل كيف تتعرف علته الى أن انتهى الى أقصاها ·

كتاب النبض الكبير :

هذا الكتاب جعله جالينوس فى ست عشرة مقالة وقسمها الى أربعة أجزاء فى كل واحد من الأجزاء أربع مقالات وعنوان الجزء الأول منها : « فى أصناف النبض » وغرضه فيه أن يبين كم أجناس النبض الأول ، وأى الأجناس هى وكيف ينقسم كل واحد منها الى أنواعه الى أن ينتهى الى أقصاها وعمد فى المقالة الأولى من هذا الجزء الى ما يحتاج اليه من صفة

أجناس النبض وأنواعها فجمعها فيها عن آخره وأفراد ثلاث المقالات الباقية من ذلك الجزء للحجاج ، والبحث عن أجناس النبض وأنواعه وعن حده ٠ وعنوان الجزء الثانى فى تعريف النبض وغرضه فيه أن يصف كيف يتعرف كل واحد من أصناف النبض بجسة العرق وعنون الجزء الثالث : « فى أسباب النبض » ، وغرضه أن يصف من أى الأسباب يكون كل واحد من أصناف النبض وعنوان الجزء الرابع : « فى تقدمة المعرفة من النبض » وغرضه فيه أن يصف كيف يستخرج سابق العلم من كل واحد من أصناف النبض ٠

كتاب أصناف الحميات:مقالتان وغرضه فيه أن يصف أجناس الحميات وأنواعها ودلائلها وصف فى المقالة الأولى منه جنسين من أجناسها أحدهما يكون فى الروح والآخر فى الأعضاء الأصلية ووصف فى المقالة الثانية الجنس الثـالث منها الذى يكون فى الأخلاط اذا عقت ٠ كتاب البحران ثلاث مقالات وغرضه فيه أن يصف كيف يصل الانسان الى أن يتقدم فيعلم هل يكون البحران أم لا وأن كان يحدث فمتى يحدث وبماذا والى أى شىء يؤول أمره ٠ كتاب أيام البحران ثلاث مقالات وغرضه فى المقالتين الأوليين منه أن يصف اختلاف الحال من التى يكون البحران الحادث فيها محمودا وأيها يكون البحران الحادث فيها مذموما وما يتصل بذلك ، ويصف فى المقالة الثالثة الأسباب التى من أجلها اختلفت الأيام فى قواها هذا الاختــــلاف ٠

كتاب حيلة البرء : أربع عشرة مقـــالة وغرضه فيه أن يصف كيف يداوى كل واحد من الأمراض بطريقة القياس ويقتصر فيه على الأعراض العلمية التى ينبغى أن يقصد قصدها فى ذلك ويستخرج منها ما ينبغى أن يداوى به كل مريض من الأمراض ويضرب لذلك أمثلة يسيرة من أشياء جزئية وكان وضع ست مقالات منه لرجل يقال له أريان ، بين فى المقالتين الأولى والثانية منها الأصول الصحيحة التى عليها يكون مبنى الأمن فى هذا العلم وفسخ الأصول الخطأ التى أصلها أراسطراطس وأصحابه ، ثم وصف فى المقالات الاربع الباقية مداواة تفرق الاتصال من كل واحد من الأعضاء ٠ ثم ان ايارن توفى فقطع جالينوس استتمام الكتاب الى أن سأله أوجانيوس أن يتممه فوضع له ثمانى المقالات الباقية ، فوصف فى الست الأول منها مداواة أمراض الأعضـــاء المتشابهة الأجزاء وفى المقالتين مداواة أمراض الأعضاء المركبة ووصف فى المقالة الأولى من الست الأولى مداواة أصناف سوء المزاج كلها اذا كانت فى عضو واحد وأجرى أمرها على طريق التمثيل بما يحدث فى المعدة ثم وصف فى المقالة التى بعدها وهى الثامنة من جملة الكتاب مداواة أصناف الحمى التى تكون فى الروح وهى حمى يوم ٠ ثم وصف فى المقالة التى تتلوها وهى التاسعة مداواة الحمى المطبقة ٠ ثم فى

العاشرة مداواة الحمى التى تكون فى الأعضاء الأصلية وهى الدق ووصف فيها جميع ما يحتاج الى عمله من أمر استعمال الحمام • ثم وصف فى الحادية عشرة والثانية عشرة مداواة الحميات التى تكون من عفونة الأخلاط ، أما فى الحادية عشرة فما كان منها خلوا من أعراض غريبة وأما فى الثانية عشرة فما كان منها مع أعراض غريبة •

كتاب علاج التشريح ـ وهو الذى يعرف بالتشريح الكبير كتبه فى خمس عشرة مقالة وذكر أنه قد جمع فيه كل ما يحتاج اليه من أمر التشريح ووصف فى المقالة الأولى منه العضل والرباطات فى اليدين وفى الثانية العضل والرباطات فى الرجلين وفى الثالثة العصب والعروق التى فى اليدين والرجلين وفى الرابعة العضل الذى يحرك الخدين والشفتين والعضل الذى يحرك اللحى الأسفل الى ناحية الرقبة والكتفين وفى الخامسة عضل الصدر ومراق البطن والمتنين والصلب • ووصف فى السادسة آلات الغذاء وهى المعدة والأمعاء والكبد والطحال والكليتين والمثانة وما أشبه ذلك وفى السابعة والثامنة وصف تشريح آلات التنفس ، أما فى السابعة فوصف ما يظهر فى التشريح فى القلب والرئة والعروق والضوارب بعد موت الحيوان ومادام حيا ، وأما فى الثامنة فوصف ما يظهر فى التشريح فى جميع الصدر • وأفرد المقالة التاسعة بأسرها بصفة تشريح الدماغ والنخاع ووصف فى العاشرة تشريح العينين واللسان والمرئ وما يتصل بهذه الأعضاء • ووصف فى الحادية عشرة الحنجرة والعظم والذى يشبه اللام فى حروف اليونانيين وما يتصل بذلك من العصب الذى يأتى هذه المواضع ووصف فى الثانية عشرة تشريح أعضاء التوليد وفى الثالثة عشرة تشريح الضوارب وغير الضوارب وفى الرابعة عشرة تشريح العصب الذى ينبت من النخاع • قال جالينوس : « وهذا الكتاب المضطر اليه من علم التشريح وقد وضعت كتبا أخرى لست بمضطر اليها لكنها نافعة فى علم التشريح » •

اختصار كتاب مارينس فى التشريح ـ وكان مارينس قد ألف كتابه هذا فى عشرين مقالة وانما جالينوس اختصره فى أربع مقالات (اختصار كتاب لوتس فى التشريح) وهذا الكتاب أيضا ألفه صاحبه فى سبع عشرة مقالة ، وقد ذكر جالينوس أنه اختصره فى مقالتين • كتاب فيما وقع من الاختلاف بين القدماء فى التشريح مقالتان وغرضه فيه أن يبين أمر الاختلاف الذى وقع فى كتب التشريح فيما بعد من كان قبله من أصحاب التشريح أى شئ منه انما هو فى الكلام فقط وأى شئ منه وقع فى المعنى وما سبب ذلك • كتاب تشريح الأموات مقالة واحدة يصف فيها الأشياء التى تعرف من تشريح الحيوان الميت لأى الأشياء هى • كتاب تشريح الأحياء مقالتان

وغرضه فيه أن يبين الأشياء التى تعرف من تشريح الحيوان الحى أى الأشياء هى • كتاب فى علم ابقراط بالتشريح : هذا الكتاب جعله جالينوس فى خمس مقالات وكتبه لبويثوس فى حداثة سنه • وغرضه فيه أن يبين أن ابقراط كان صادقا بعلم التشريح وأتى على علم ذلك بشواهد من جميع كتبه • كتاب فى آراء أراسطراطس بالتشريح : هذا الكتاب جعله فى ثلاث مقالات وكتبه أيضا لبويثوس فى حداثة من سنة وغرضه فيه أن يشرح ما قاله أرسطراطس فى التشريح فى جميع كتبه ثم يبين له صوابه فيما أصاب وخطأه فيما أخطأ فيه • كتاب فيما لم يعلمه لوقس من أمر التشريح أربع مقالات • كتاب فيما خالف فيه لوقس فى التشريح مقالتان • كتاب فى الرحم هذا الكتاب مقالة واحدة صغيرة كتبه لامرأة قابلة فى حداثة سنه فيه جميع ما يحتاج اليه من تشريح الرحم وما يتولد فيها فى الوقت الذى للحمل • كتاب فى مفصل الفقرة الأولى من فقار الرقبة واحدة • كتاب فى اختلاف الأعضاء المتشابهة الأجزاء مقالة واحدة • كتاب فى تشريح آلات الصوت مقالة واحدة وقال حنين ان هذا الكتاب مفتعل على لسان جالينوس وليس هو لجالينوس ولا لغيره من القدماء ولكنه لبعض الحدث جمعه من كتب جالينوس وكان الجامع له مع هذا أيضا ضعيفا • كتاب فى تشريح العين هذا الكتاب أيضا مقالة واحدة وقال حنين : ان عنوانه أيضا باطل لأنه ينسب الى جالينوس وهو ليس لجالينوس وخليق أن يكون لروفس أو لمن دونه •

كتاب فى **حركة الصدر والرئة** : هذا الكتاب جعله فى ثلاث مقالات وكان وضعه فى حداثة من سنه بعد عودته الأولى من رومية وكان حينئذ مقيما بمدينة سمرنا عند فالقس وانما كان سأله اياه بعض من كان يتعلم معه ، وصف فى المقالتين الأوليين منه وفى أول الثالثة ما أخذه عن فالقس معلمه فى ذلك الفن ثم وصف فى باقى المقالة الثالثة ما كان هو المستخرج له • كتاب فى علل النفس هذا الكتاب جعله فى مقالتين فى رحلته الأولى الى رومية لبويثوس وغرضه فيهما أن يبين من أى الآلات يكون التنفس عفوا ومن أيها يكون باستكراه •

كتاب فى الصوت : هذا الكتاب جعله فى أربع مقالات بعد الكتاب الذى ذكرته قبله غرضه فيه أن يبين كيف يكون الصوت وأى شىء هو وما مادته وأى الآلات يحدثه وأى الأعضاء تعين على حدوثه وكيف تختلف الأصوات • كتاب فى حركة العضل مقالتان وغرضه فيه أن يبين ما حركة العضل وكيف هى وكيف تكون هذه الحركات المختلفة من العضل وانما حركته حركة واحدة ويبحث أيضا فيما عن النفس هو من الحركات الارادية أم من الحركات الطبيعية ؟ ويفحص فيه عن أشياء كثيرة لطيفة

من هذا الفن • مقالة فى مناقضة الخطأ الذى اعتقد فى تمييز البول من الدم • مقالة فى الحاجة الى النبض • مقالة فى الحاجة الى التنفس مقالة فى العروق الضوارب هل يجرى فيها الدم بالطبع أم لا ؟

كتاب فى قوى الادوية المسهلة : مقالة واحدة يبين فيها ان اسهال الأدوية ما يسهل ليس هو بأن كل واحد من الأدوية يحيل ما يصادفه فى البدن الى طبيعته ثم يندفع ذلك فيخرج لكن كل واحد منها يجتذب خلطا موافقا مشاكلا له • كتاب فى العادات مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين أن العادة أحد الأعراض التى ينبغى أن ينظر فيها ويوجد متصلا بهذا الكتاب ومتحدا معه تفسير ما أتى به جالينوس فيها من الشهادات من قول فلاطن وشرح ايروقليس له وتفسير ما أتى به من قول ابقراط بشرح جالينوس •

كتاب فى آراء ابقراط وفلاطن : عشر مقالات وغرضه فيه أن يبين أن فلاطن فى أكثر أقاويله موافق لأبقراط من قبل أنه عنه أخذها ، وأن ارسطوطاليس فيما خالفهما فيه قد أخطـــأ ، وبين فيه جميع ما يحتـــاج اليه من أمر قوة النفس المدبرة التى بها تكون الفكرة والتوهم والذكر ومن أمر الأصول الثـلاثة التى منها تنبعث القوى التى بها يكون تدبير البدن وغير ذلك من فنون شتى • كتاب فى الحركة مقالة واحدة وغرضه فيها أن يبين أمر حركات كان قد جهلها هو ومن كان قبله ثم علمها بعد • كتاب فى آلة الشم مقالة واحدة •

كتاب منافع الأعضاء : سبع عشر مقالة بين فى المقالتين الأولى والثانية حكمة البارىء تبارك وتعالى فى اتقان خلقه اليد وبين القول الثالث حكمته فى اتقان الرجل وفى الرابع والخامس حكمته فى آلات الغذاء وفى السادس والسابع أمر آلات التنفس وفى الثامن والتاسع أمرها فى الرأس وفى العاشر أمر العينين وفى الحادى عشر ما فى الوجه وفى الثانى عشر الأعضاء التى هى مشاركة للرأس والعنق وفى الثالث عشر نواحى الصلب والكتفين ثم وصف فى المقالتين اللتين بعد تلك الحكمة فى أعضاء التوليد ثم فى السادس عشر من أمر الآلات المشتركة للبدن كله وهى العروق الضوارب وغير الضوارب ثم وصف فى المقالة السابعة عشرة حال جميع الأعضاء ومقاديرها وبين منافع ذلك الكتاب كله مقالة فى أفضل هيئات البدن وهذه المقالة تتلو المقالتين الأولين من كتاب المزاج وغرضه فيها يتبين من عنوانها• مقالة فى خصب البدن وهى مقالة صغيرة وغرضه فيها يتبين من عنوانها • مقالة فى سوء المزاج المختلف وغرضه فيها يتبين من عنوانها ، يذكر فيه أى أصناف سوء المزاج هو مستوف البدن كله وكيف يكون الحال فيه وأى أصناف سوء المزاج هو مختلف فى أعضاء البدن •

كتاب الأدوية المفردة : هذا الكتاب جعله فى احدى عشرة مقالة كشف فى المقالتين الأوليين خطأ من أخطأ فى الطرق الرديئة التى سلكت فى الحكم على قوى الأدوية ثم أصل فى المقالة الثالثة أصلا صحيحا لجميع العلم بالحكم على القوى الأولى من الأدوية ثم بين فى المقالة الرابعة أمر القوى الثوانى وهى الطعوم والروائح أخبر بما يستدل عليها منها على القوى الأولى من الأدوية ، ووصف فى المقالة الخامسة القوى الثوالث من الأدوية وهى أفاعيلها فى البدن من الاسخان والتبريد والتجفيف والترطيب ثم وصف فى المقالات الثلاث التى تتلو تلك قوة دواء من الأدوية التى هى أجزاء من النبات ثم فى المقالة التاسعة قوى الأدوية التى هى أجزاء من الأرض أى أصناف التراب والطين والحجارة والمعادن وفى العاشرة قوى الأدوية التى هى مما يولد فى أبدان الحيوان ثم وصف فى الحادية عشرة قوى الأدوية التى مما يتولد فى البحر والماء والمالح ٠

مقالة فى دلائل علل العين : كتبها فى حداثته لغلام كحال ، وقد لخص فيها العلل التى تكون فى كل واحدة من طبقات العين ووصف دلائلها ٠ مقالة فى أوقات الأمراض وصف فيها أمر أوقات المرض الأربعة أى الابتداء والتزويد والانتهاء والاحطاط ٠ كتاب الامتلاء ويعرف أيضا بكتاب الكثرة وهو مقالة واحدة يصف فيها أمر كثرة الاخلاط ويصفها ويصف دلائل كل واحد من أصنافها ٠ مقالة فى الأورام : ورسمها جالينوس أصناف الغلظ الخارج عن الطبيعة ووصف فى هذه المقالة جميع أصناف الأورام ودلائلها ٠ مقالة فى الأسباب البادية : وهى الأورام التى تحدث من خارج البدن يبين فى هذه المقالة ان للأسباب البادية عملا فى البدن ونقض قول من دفع عملها ٠ مقالة فى الأسباب المتصلة بالأمراض ذكر فيها الأسباب المتصلة بالمرض الفاعلة له ٠ مقالة فى الرعشة والنافض والاختلاج والتشنج ٠ مقالة فى أجزاء الطب يقسم فيها الطب على طرق شتى من القسم والتقسيم ٠

كتاب المنى : مقالتان وغرضه فيه أن يبين أن الشيء الذى يتولد منه جميع أعضاء البدن ليس هو الدم كما ظن أرسطوطاليس لكن تولد جميع الأعضاء الأصلية انما هو من المنى وهى الأعضاء البيض ، وان الذى يتولد من دم الطمث انما هو اللحم الأحمر وحده ٠ مقالة فى تولد الجنين المولود لسبعة أشهر ٠ مقالة فى المرأة السوداء يصف فيها أصناف السوداء ودلائلها ٠ كتاب أدوار الحميات وتراكيبها مقالة واحدة يناقض فيها قوما ادعوا الباطل من أمر أدور الحميات وتراكيبها وعنوان هذا الكتاب عند جالينوس : « مناقضة من تكلم فى الرسوم » ٠ قال حنين : « وقد توجد مقالة أخرى نسبت الى جالينوس فى هذا الباب وليست له » ٠

اختصار كتابه المعروف بالنبض الكبير : مقالة واحدة ذكر جالينوس انه أكمل فيها النبض . قال حنين : « وأما أنا فقد رأيت باليونانية مقالة ينحو بها هذا النحو ولست أصدق أن جالينوس الواضع لتلك المقالة لأنها لا تحيط بكل ما يحتاج اليه من أمر النبض وليست بحسنة التأليف أيضا ويجوز أن يكون جالينوس قد وعد أن يضع تلك المقالة فلم يتهيأ له وضعها فلما وجده بعض الكذابون قد وعد ولم يف فحرص على وضع تلك المقالة وأثبت ذكرها فى الفهرست كما يصدق فيها ويجوز أن يكون جالينوس أيضا قد وضع مقالة فى ذلك غير تلك وقد درست كما درس كثير من كتبه وافتعلت هذه المقالة عوضها ومكانها » . كتاب فى النبض : يناقض فيه أرخيجانس . قال جالينوس : « انه جعله فى ثمانى مقالات » . كتاب فى رداءة التنفس هذا الكتاب جعله فى ثلاث مقالات وغرضه فيه أن يصف أصناف التنفس الردىء وأسبابه وما يدل عليه وهو يذكر فى المقالة الأولى منه أصناف التنفس وفى الثانية أصناف سوء التنفس وما يدل عليه كل صنف منها وفى المقالة الثالثة يأتى بشواهد من كلام أبقراط على صحة قولـه .

وكتاب نوادر تقدمة المعرفة : مقالة واحـدة يحث فيها على تقدمة المعرفة ويعلم حيلا لطيفة تؤدى الى ذلك ويصف أشياء بديعة تقدم فعلها من أمر المرض وأخبر بها فعجب منه . اختصـار كتابه فى حيـلة البرة مقالتان . كتاب الفصد : ثلاث مقالات قصد فى المقالة الأولى منها المناقضة لأراسطراطس لانه كان يمنع من الفصـد وناقض فى الثـانية أصحاب أراسطراطس الذين بروميه فى هذا المعنى بعينه ووصف فى الثالثة ما يراه من العـلاج بالفصد . كتاب الذبول مقالة واحدة وغرضـه فيه أن يبين طبيعة هذا المرض وأصنافه والتدبير الموفق لمن أشرف عليه . مقالة فى صفات لصبى يصرع . كتاب قوى الأغذية : ثلاث مقالات عدد فيه جميع ما يتغذى به من الأطعمةوالأشربة ووصف ما فى كل واحد منها من القوى . كتاب التدبير الملطف مقالة واحدة وغرضه موافق لعنوانه اختصار هذا الكتاب الذى فى التدبير الملطف مقـالة واحدة . كتاب الكيموس الجيد والردىء مقالة واحدة يصف فيها الأغذية ويذكر أيها تولد كيموسـا محمودا وأيها تولد كيموسا رديئا . كتاب فى أفكار أرسطراطس فى مداواة الأمراض ثمانى مقالات اختبر فيه السـبيل التى سلكها أرسطراطس فى مداواة الأمراض ويبين صوابها من خطئها . كتاب تدبير الأمراض الحادة على رأى أبقراط مقالة واحدة . كتاب تركيب الأدوية جعله فى سبع عشرة مقالة أجمل فى سبع منها أجناس الأدوية المركبة فعدد جنسا جنسا منها وجعل مثلا جنس الأدوية التى تبنى اللحم فى القروح على حدته وجنس الأدوية التى تحلل على حدته وجنس الأدوية التى تدمل وسائر أجناس

الأدوية على هذا القياس وانما غرضه فيه أن يصف طريق تركيب الأدوية على الجمل ولذلك جعل عنوان المقالات السبع هذه فى تركيب الأدوية على الجمل والأجناس وأما عشر المقالات الباقية فجعل عنوانها فى تركيب الأدوية بحسب المواضع وأراد بذلك أن صفته لتركيب الأدوية فى تلك المقالات العشر ليس يقصد بها الى أن يخبر أن صنفا منها يفعل ما فى مرض من الأمراض مطلقا لكن بحسب المواضع أعنى العضو الذى فيه ذلك المرض وابتدأ فيه من الرأس ثم هلم جرا على جميع الأعضاء الى أن انتهى الى أقصاها .

نقول : وجملة هذا الكتاب الذى وسعه جالينوس فى تركيب الأدوية لا يوجد فى هذا الوقت الا وهو منقسم الى كتابين وكل واحد منهما على حدته ولا يبعد أن السكندريين لتبصرهم فى كتب جالينوس صنعوا هذا أو غيرهم فالأول يعرف كتاب فاطاجانس ويتضمن سبع المقالات الأولى التى تقدم ذكرها والآخر يعرف بكتاب الميامر ويحتوى على عشر المقالات الباقية والميامر جمع ميمر وهو الطريق ويشبه أن يكون سمى هذا الكتاب بذلك اذ هو الطريق الى استعمال الأدوية المركبة على جهة الصواب .

كتاب الأدوية التى يسهل وجودها : وهى التى تسمى الموجودة فى كل مكان مقالتان وقال حنين : انه أضيفت اليه مقالة أخرى فى هذا الفن ونسبت الى جالينوس لكنها لفيلقربوس وقال حنين أيضا انه قد ألحق فى هذا الكتاب هذيان كثيرا وصفات بديعة عجيبة وأدوية لم يرها جالينوس لم يسمع بها قط . كتاب الأدوية المقابلة للأدواء جعله فى مقالتين ووصف فى المقالة الأولى منه أمر الترياق وفى المقالة الثانية منه أمر سائر المعجوبات . كتاب الترياق الى مغيليليوس مقالة واحدة صغيرة . كتاب الترياق الى قيصر وهذا الكتاب أيضا مقالة واحدة . كتاب الحيلة لحفظ الصحة ست مقالات وغرضه فيه أن يعلم كيف يحافظ الأصحاء فيه على صحتهم من كان منهم على غلبة كمال الصحة ومن كانت صحته تقتصر على غاية الكمال ومن كان منهم يسير بسيرة الأحرار ومن كان منهم يسير بسيرة العبيد . كتاب الى لسبولوس مقالة واحدة وغرضه فيه أن يفحص هل حفظ الأصحاء على صحتهم من صناعة الطب ثم هو من صناعة أصحاب الرياضة وهى المقالة التى أشار اليها فى ابتداء كتاب تدبير الأصحاء حين قال ان الصناعة التى تتلو القيام على الأبدان واحدة كما بينت فى غير هذا الكتاب .

كتاب الرياضة بالكرة الصغيرة : هذا الكتاب مقالة واحدة صغيرة يحمد فيها الرياضة بالكرة الصغيرة واللعب بالصولجان ويقدمه على جميع أصناف الرياضة . تفسير كتاب عهد أبقراط مقالة واحدة . تفسير كتاب

الفصول لأبقراط جعله فى سبع مقالات • تفسير كتاب الكسر لأبقراط جعله فى ثلاث مقالات • تفسير كتاب رد الخلع لأبقراط جعله فى أربع مقالات • تفسير كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط الذى نجده من تفسير لهذا الكتاب هو ثلاث مقالات وقال لجالينوس فى فينكس كتبه انه فسره فى خمس مقالات وأن ثلاث المقالات الأولى هذه هى تفسير الجزء الصحيح عن هذا الكتاب والمقالتان الباقيتان فيهما تفسير المشكوك فيه •

تفسير كتاب القروح لأبقراط : جعله فى مقالة واحدة • تفسير كتاب جراحات الرأس لأبقراط مقالة واحدة • تفسير كتاب اجذيما لأبقراط : فسر المقالة الأولى فى ثلاث مقالات والثانية فى سبع مقالات والثالثة فى ثلاث مقالات والسادسة فى ثمانى المقالات هذه التى غيرها، أما الثلاث الباقية وهى الرابعة والخامسة والسابعة فلم يفسرها لانه ذكر أنها مفتعلة على لسان ابقراط • تفسير كتاب الاخلاط لأبقراط : جعله على ثلاث مقالات • تفسير كتاب تقدمة الانذار لأبقراط : وهذا الكتاب لم يجد له نسخة الى هذه الغاية • تفسير كتاب قاطيطرون لأبقراط جعله أيضا فى ثلاث مقالات : وقد وجدت بعض النسخ من هذا التفسير أيضا فى أربع مقالات الا أن الأول هو المعتمد عليه •

تفسير كتاب الغذاء لأبقراط جعله فى أربع مقالات • تفسير كتاب طبيعة الجنين لأبقراط ، وقال حنين : هذا الكتاب لم نجد له تفسيرا من قول جالينوس ولا نجد جالينوس ذكر فى فهرس كتبه انه أعطى له تفسيرا الا انا وجدناه قد قسم هذا الكتاب ثلاثة أجزاء فى كتابه الذى عمله فى علم أبقراط فى التشريح وذكر أن الجزءين الأول والثالث من هذا الكتاب منحولان ليسا لأبقراط وانما الصحيح منه الجزء الثانى وقد فسر هذا الجزء جاسيوس الاسكندرانى وقد وجدنا لجميع الأجزاء الثلاثة تفسيرين أحدهما سريانى وسم انه لجالينوس قد كان ترجمه سرجس فلما فحصناه علمنا انه لباليس والآخر يونانى فلما فحصناه وجدناه لسورانوس الذى من شيعة المترذيقيين • وترجم حنين نص هذا الكتاب الا قليلا منه الى العربية فى خلافة المعتز بالله •

تفسير كتاب طبيعة الانسان لأبقراط جعله فى مقالتين • كتاب فى أن رأى أبقراط فى كتاب طبيعة الانسان وفى سائر كتبه واحد جعله فى ثلاث مقالات وقال جالينوس انه ألفه بعد تفسيره لكتاب طبيعة الانسان وذلك عندما بلغه أن قوما يعيبون ذلك الكتاب ويدعون فيه أنه ليس لأبقراط • كتاب فى أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا : مقالة واحدة • كتاب فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة مقالة واحدة وكتاب فى البحث عن صواب ما كتبه أصحاب أبقراط الذين قالوا بالكيفيات

الأربع مقـالة واحدة وقال حنين : ان هذا الكتاب لا أعلم الحقيقة انه لجالينوس أم لا ولا أحسبه ترجم كتابا فى الثبات على رأى أبقراط وقال حنين أيضا : ان القصة فى هذا مثل القصة فى الكتاب الذى ذكر قبله كتاب في ألفاظ أبقراط قال حنين : هذا الكتاب أيضا مقالة واحدة وغرضه فيه أن يفسر غريب ألفـــاظ أبقراط فى جميع كتبه وهو نافع لمن يقرأ باليونانية فأما من يقرأ بغير اليونانية فلا يحتاج اليه ولا يمكن أيضا أن يترجم أصلا • كتاب فى جوهر النفس ما هى على رأى أسقليبياس مقالة واحدة : كتاب فى التجربة الطبيعية مقالة واحدة يقص فيها حجج أصحاب التجربة وأصحاب القياس بعضهم على بعض • كتاب فى الحث على تعميم الطب مقالة واحدة وقال حنين : انه كتاب جالينوس هذا نسخ فيه كتاب مينودوطس وهو كتاب حسن نافـع • كتاب فى أجمـل التجربة مقـالة واحدة • كتاب فى محنة أفضل الأطباء مقالة واحدة • كتاب فيما يعتقده رأيا مقالة واحدة يصف فيها ما علم وما لم يعلم • كتاب فى الأسماء الطبية وغرضه فيه أن يبين أمر الأسماء التى اسـتعملها الأطبـاء على أى المعانى استعملوها وجعله خمس مقالات والذى وجدناه قد نقل الى اللغة العربية انما هو المقالة الأولى التى ترجمها حبيش الأعصم •

وما من شك فى أن مصـنفات جـالينوس الطبية بتمامها وطرائفها والنتائج التى وصل اليها قد هضمها كل الهضم وقدرها كل التقدير جميع الأطباء العرب والمتأخرين وأصبحت جزءا لا يتجزأ من معارفهم الطبية التى تمثلت فى صورتها الأصلية كما تمثلت فى ملخصاتها وشروحها والكتب الجديدة التى اعتمدت عليها وان كان تفصيل ذلك لا يزال يتطلب التثبت منه وتبينه فى الرسائل ولا يصدق ما ذكرنا بأية حال على أئمة الأطباء أمثال محمد بن زكريا الرازى أو ابن سينا فحسب بل يصدق أيضا على كثيرين غيرهم والمقارنة بين جالينوس وبين ابن سينا فى كتابه القانون فى الطب خليقة بأن تسفر عن نتائج مهمة جدا حقا • وجالينوس جدير بأن يشغل بابا عظيما فى أى تاريخ يكتب مسـتقبلا عن الطب العربى حتى النصـف الأول من القرن العشرين وتـدين الدراسـات التى عملت عن جالينوس فى أوربا أيام القرون الوسطى وأيام النهضة بالكثير جدا الى ما سبق به العرب والى ما ترجم من جالينوس عن العربية •

ويطول بنا الحديث لو أننا دخلنا فى ذكر أبحاث جالينوس وكشوفه وعلمه عامة ، وان مؤلفاته لشىء كثير ضاع أكثره وبقى الأقل وبعض ما بقي ذهب الى العرب فأفادوا منه كثيرا ••• ومن العرب دخل أوربا بعد أن ناله التغيير والتعديل •

وظل جالينوس مدى ١٤ قرنا أبا الطب الذى لاينازع لم يجرؤ واحد على

أن يقول غير الذى قال وانصرف الناس عن التشريح فى العالم المسيحى والعالم الاسلامى لتبقى حرمة الانسان مصونة وقالوا : ماذا يجد المشرح ولم يبق بعد الذى وجده جالينوس علم ؟!

وظل جالينوس وظلت تعاليمه عمدة أهل الرأى أربعة عشر قرنا حتى جاء عصر النهضة فى أوربا فأطاح بأكثر ما كان شاع طوال هذه القرون ..

وما أن جاء القرن السادس عشر حتى تبدل الحال ..

انها لثورة علمية التى بدأها فيساليوس والذى بدأها بالرجوع الى الجسم الانسانى بالتشريح يستقى منه علمه .. ورويدا رويدا يدخل الطب فى عصوره الحديثة ..

الجامع لصناعة الطب

«الحاوى»... الرازى

ح ٩٠٠ م

الرازى حجة الطب فى أوروبا حتى القرن السابع عشر للميلاد ويعده معاصروه طبيب المسلمين غير مدافع ٠

ظهر فى منتصف القرن التاسع للميلاد ، واشتهر فى الطب والكيمياء والجمع بينهما وهو فى نظر المؤرخين من أعظم أطباء القرون الوسطى كما يعده غير واحد أنه أبو الطب العربى ٠

قال عنه صاحب الفهرست : « ٠٠ كان الرازى أوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب » ٠ وسماه ابن أبى اصيبعة بجالينوس العرب ٠

★ ★ ★

عصــره

ولابد لمعرفة الرازى حق معرفته وفهمه حق فهمه من معرفة البيئة التى نشأ فيها وترعرع ولاسيما البيئة الطبيعة ٠

عاش فى العصر العباسى الثانى وظهر فى بغداد فى أيام الخليفة المعتضد وكانت النهضة العلمية التى أرسى المأمون قواعدها وعمل على نشرها لاتزال تسير فى طريقها الى الرقى والازدهار اذ لم تكن جحافل التتر قد بدأت تتحرك ولم يكن القواد التتار قد فكروا بعد فى القضاء على الخلافة العباسية واحتلال بغداد ، واذا كانت سلطة الخليفة فى بغداد قد أصيبت بضعف شديد بدليل استقلال كثير من أطراف الدولة البعيدة من الهيبة والقوة ٠ فهذا الخليفة المعتضد العباسى كان على درجة من الشجاعة والقوة والاقدام ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان ميالا لسفك الدماء ومن أجل ذلك سموه « السفاح الثانى » واستطاع بما عـرف عنه من هذه الصفات ان يعيد الى الدولة العباسية شيئا من سطوتها وسيطرتها فأعاد الى حظيرة الخلافة بعض الولايات التى انفصلت عنها وحارب البيزنطيين فى جرأة وشجاعة وانتصر عليهم واسترد بعض المعاقل والحصـون على الحدود فى آسيا الصغرى وكان الروم قد انتزعوها من المسلمين ، وقام الأكراد بثورة فى الجزيرة فقضى على ثورتهم وطردهم من بلاد الجزيرة ثم تمكن من اخماد الفتن التي أثارها الأمير الحمداني في الموصل ٠

وقامت بينه وبين خمارويه الحاكم الطولونى صـلات ودية قوية أسفرت عن زواج المعتضد بالأميرة قطر الندى كريمة خمارويه وزفت اليه فى احتفالات أخذت تتحدث عن ذكرها الركبان اذ كانت مضرب الأمثـال فيما أحاط بها من مظاهر الثراء والابهة والعظمة • وجاء فى بعض الروايات التى تتحدث عن عظمة هذه الاحتفالات انه بنى للعروس قصرا تتوافر فيه كل وسائل الراحة والتسلية بين كل مرحلة وأخـرى فى الطريق بين مصر وبغداد لكى تقيم فيه بعض الوقت طلبا للراحة من عناء السفر ولا شك ان النفقات الطائلة التى تتطلبها هذه الاحتفالات تعد دليلا على ان الخلافة فى بغداد كانت على قدر كبير من الفخامة والعظمة والقوة لذلك اتسع أمام المعتضد لكى يقوم ببعض الاصلاحات وتشجيع العلماء • وكان الرازى يقيم فى بغداد واشتهر فيها بطبه وبحوثه الدقيقة فى الكيمياء ، فأراد المعتضد أن ينتفع بعلمه وطبه ويقال انه اختاره لكى يعين له المكان الذى يصلح من الناحية الطبية لاقامة (البيمارستان) وهو المستشفى الذى عرف فيما بعد باسم (البيمارستان العضدى) ولذلك قصة طريفة : فحينما وقع عليه الاختيار أمر باعداد قطع من اللحم « الطازج » فى عدة أماكن من مدينة بغداد وقد لاحظ أن الفسـاد قد أسرع الى بعضها وبقيت قطع أخـرى لم يسرع اليها الفساد فاختار مكانها لبناء (البيمارسـتان) ويقول ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء : « ان عضد الدولة استشار الرازى ليختار له مكانا لبناء مستشفى يحمل اسمه فطلب الرازى ان يعلق فى كل ناحية من جانبى بغداد شقة لحم واعتبر الناحية التى لم يتغير فيها اللحم فاشار باقامة المستشفى عليه » •

ويذكر المؤرخون ان الخليفة أراد بعد ذلك ان يختار بعض الأطباء للاشراف على هذا المستشفى الكبير فوضعت له قائمة تتناول مائة طبيب كان منهم الرازى أمر باختصـارها الى خمسـين ثم الى عشرة ثم الى ثلاثة فكان الرازى من بين المختارين فى كل مرة ولما أريد تفضيل واحد من الثلاثة كان الرازى الأول فاختاره المعتضد مديرا للبيمارستان • وتدل هذه العملية على دقة بالغة فى اختيار الأطباء الذين يتولون تطبيب الناس وعلاجهم فى مستشفيات الدولة وتدل هذه العملية أيضا على انه كان لا يتصدى لصناعة الطب الا العلماء الذين درسوا دراسة علمية ، واشتهروا بالنبوغ ويمكن ان يقال انه لم يكن يزاول الطب أحد من الادعياء •

ثم قامت الدولة السامانية فى أيام المعتضد وصار لها شـأن كبير فى توجيه الحركة العلمية • والنهوض بها ويذكر ابن النديم أن الرازى كانت بينه وبين المنصور بن اسماعيل أحد ملوك هذه الدولة صـداقة قوية ويروى انه ألف كتابه المنصورى فى الطب فجعل اسـم الكتـاب

منسوبا اليه ويعد هذا الكتاب من أشهر الكتب الطبية • لقد كان الجو السياسى فى هذه الأيام مشحونا بطاقة قوية من العواصف والاضطرابات بدأت تلبد السماء وتملؤها بسحب قاتمة بعد قتل المتوكل على الله العباسى ولكن هذه الفترة بالرغم من كل ذلك لم تخل من بعض الخلفاء الأقوياء الذين استطاعوا ان يحتفظوا بشيء من هيبة الدولة • وأما الحركة العلمية فهى وان كانت قد فقدت المأمون الذى كان أعظم نصير لها ـ الا انها مع ذلك استمرت تسير فى طريقها ذلك لأن الدول الناشئة بعد استقلال الأطراف ـ كانت فى حاجة قوية الى دعم سلطانها ـ فلم تجد وسيلة أقوى الى تحقيق هذه الغاية خيرا من تشجيع العلماء ومناصرة الحركة العلمية وفى هذا الجو عاش الرازى •

حياته

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فى الرى من أعمال فارس والرازي نسبة الى الرى وهى نسبة الى غير قياس •

ويقول البيرونى في احدى رسائله : ان الرازى ولد فى الرى فى غرة شعبان سنة ٢٥١ هـ وتوفى بها فى الخامس من شعبان سنة ٣١٣ هجرية ، وكان منذ صغره يميل الى العلوم الأدبية ويقول الشعر مولعا بالموسيقا وكان حريصا كأهل زمانه على تربية لحيته وشاربه فأمسك يوما بلحيته وقال : « كل غناء يخرج من بيتى شارب ولحية لايستظرف »، وما لبث أن انصرف عن الغناء واشتغل بالطب والعلوم العقلية وكان على استعداد قوى فعكف على دراسة كتب الطب والفلسفة وقرأها قراءة باحث مدقق ويذكر ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء رواية لأبى سعيد زاهد العلماء يتحدث فيها عن سبب تعلم الرازى الطب فيقول : انه عند دخوله مدينة السلام دخل (البيمارستان) العضدى ليشاهده فاتفق ان ظفر الرجل برجل شيخ يعمل صيدلانيا فى البيمارستان فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها فى البدء فأجابه بأن قال :

« ان أول ما عرف منها كان) حى العالم (وبيان ذلك أن فلولن سليل (اسقلبيوس) كان بذراعه ورم يؤلمه ألما شديدا فمال يوما الى الخروج الى شاطىء نهر وعندئذ أمر غلمانه فحملوه اليه ، وكان على شاطىء النهر ذلك النبات فوضع ذراعيه عليه تبردا به فخف ألمه بذلك فاستطال وضع يده عليه ثم أصبح من غد ففعل مثل ذلك فبرىء فلما رأى الناس سرعة برئه وعلموا أنه انما كان بهذا الدواء فسموه (حياة العالم) وتداولته الألسن وخففته فسمى (حى العالم) فلما سمع ذلك الرازى أعجب به ثم دخل مرة أخرى هذا (البيمارستان) فرأى صبيا مولودا بوجهين ورأس

واحد فسأل الأطباء عن سبب ذلك فأخبروه به فأعجبه ما سمع ولم يزل يسأل عن شيء وشيء ويقال له وهو يعلق بقلبه حتى تصـــدى لتعلم الصناعة ونبغ فيها فأصبح يدعى « جاليتوس العرب » .

وفي رواية أخرى ان الرازى كان فى جملة من اجتمعوا على بناء هذا البيمارستان العضدى .

ويقال : ان عضد الدولة استشاره في تعيين المكان الصالح لبنائه وان الرازى أمر بعض الغلمان بأن يعلقوا فى كل ناحية من جانبى بغداد شقة لحم ثم اعتبر مكان الشقة التى لم تتغير ولم يسهك لحمهـا بسرعة بأنه صحى وأشار ببناء البيمارستان فى هذا الموضع ثم مالبث الرازى ان أصبح شديد الحب لعلم الطب والرحلة فى طلبـــه ويتحدث عن ذلك فيقول :
« فأما محبتى للعلم وحرصى عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبنى وشاهد ذلك منى انى لم أزل منذ حداثتى والى وقتى هذا مكبا عليه حتى انى متى اتفق لى كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه ـ لم ألتفت الى شغل (بته) ولو كان ذلك على عظيم ضرر ـ دون أن آتى الكتاب ـ وأعرف ما عند الرجل وانه بلغ من صبرى واجتهادى أنى كتبت بمثل خط التعاويذ فى عام واحد وأكثر من عشرين ألف ورقة وبقيت فى عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمل الليل والنهار حتى ضعف بصرى وحدث على فسخ فى عضل يدى ـ يمنعاننى فى وقتى هذا القراءة والكتابة وأنا على حالى لا أدعهما بمقدار جهدى فأستعين دائما بمن يقرأ ويكتب لى » .

وفى هذه العبارات ترجمة دقيقة للجهود العظيمة والطاقات الكبيرة التى كان ينفقها الرازى فى تحصيل العلم والالمام بأكبر مقدار منه فاذا أقعدت به السبل لأن آلات البدن التى تعينه على تحصيله قد تعطلت فان اليأس لا يتسرب الى نفسه الكبيرة ولايزال مستمرا فى الطب بمختلف السبل . ومن أساتذته الذين قرأ عليهم بعض كتب الطب أبو الحسن الطبرى ، كان يهوديا ثم أسلم وله كتـــاب مشـــهور فى الطب يسمى (فردوس الحكمة) ثم قـــرأ كتب الفلســـفة على البلخى واهتـــم الرازى بمدارسة الطب فقرأ جميع الكتب من يونانية وهندية وفارسية وبدأ يسلك أول الأمر مسلك قدامى الأطباء فى ممارسة هذه الصنعة ولكنه ما لبث ان انفرد بطريقته الخاصة فى مزاولة الطب يقول « سيديو » فى كتابه تاريخ العرب العام : « لا أحد يعدل الرازى وابن سينا اللذين سيطرا بكتبهما الطبية على مدارسنا زمانا طويلا » ، ويقول سارطون : « ان الرازى من أعظم أطباء القرون الوسطى » . وما كاد ينتهى من دور التحصيل والدراسة حتى رحل عن الرى قاصدا بغداد وكانت سنه تبلغ الثلاثين كما أقام بدار السلام ، ومنذ ذلك الحين بدأت شهرته تملأ الآفاق شرقا

وغربا • يقول صاحب الفهرست : « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى من أهل الرى أوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء سيما الطب وكان ينتقل فى البلدان وبينه وبين المنصور بن اسماعيل صداقة وله ألف كتاب « المنصورى » ، وأما ابن أبى أصيبعة فيسميه فى كتاب طبقات الأطباء (جالينوس العرب) • وأفاد الرازى من مزاولته لفنى الموسيقا والغناء فائدة كبرى فقد روى انه كان يتردد على صديق له يشتغل صيدليا بمستشفى مدينة الرى التى هى مسقط رأسه وكان من عادته حينما يجتمع بصديقه هذا ان يعاوده الحنين الى الموسيقا فكان يعزف عنده بعض الوقت داخل المستشفى بقصد التسلية والطرب ولشد ما كانت دهشته حين رأى المرضى وهم يعانون آلاما قاسية يتركون أسرتهم ويلتفون حوله يستمعون فى مرح وسرور الى أنغامه الساحرة وقد لاحظ الرازى أن بعض هؤلاء المرضى مصابون بأمراض تسبب آلاما مبرحة وبالرغم من ذلك فقد نسوا هذه الآلام وشملهم الهدوء والسكون والسرور عندما سمعوا الألحان الشجية والنغمات المطربة فأدرك باحساسه الدقيق المرهف ان الموسيقا لابد ان يكون لها أثر فى تخفيف الآلام وفى شفاء بعض الأمراض ولكنه لم يقتنع بهذه النتيجة من أول مرة وأخذ يدرس بدقة تأثير الموسيقا فى شفاء المرضى حتى انتهى بعد التجارب الكثيرة الى رأى حاسم وهو ان نغمات الموسيقا الجميلة لها تأثير قوى فى شفاء بعض الأمراض •

ومنذ ذلك الحين أصبح يعتمد عليها بوصفها أسلوبا من أساليب العلاج الطبي وصارت الموسيقا لونا من ألوان العلاج التى يؤمن بها الطب الحديث فى عصرنا • وقد وصل الرازى وهو يعالج المرضى بنغمات الموسيقا الساحرة وألحانها العذبة ان بعضهم لم يتم شفاؤه الا بعمليات جراحية فبدأ يدرس علوم الجراحة وتشريح الأجسام واستعان بأستاذه الطبرى وأثناء دراسته للطب الجراحى إتضح له ان قدامى الأطباء قد بنوا آراءهم على نظريات خاطئة ومن العجيب انه كشف عن كثير من هذه الآراء فى كتب (جالينوس) وبالرغم مما له من شهرة عظيمة وبالرغم من انتشار كتبه التى كانت تعد من أعظم المراجع فى علوم الطب وكان الشك لايمكن ان يتسرب اليها • ومن المعروف عن الرازى أنه لم يكن يسلم بآراء غيره الا بعد ان يمتحن هذه الآراء ويختبرها ويضعها موضع التجربة ثم يحكم عليها ولهذا السبب خطأ كثيرا من الآراء • ولما عين مديرا (للبيمارستان العضدى) تجاوزت شهرته البلاد القاصية والدانية فكان المرضى يأتون اليه من الهند والسند والصين وبلاد الافرنج يلتمسون عنده الشفاء من مرضهم لما ترامى اليهم من أخباره التى تتحدث عن دقته فى دراسة المرضى وأحوالهم وسير المرض والعلاقة بين الحالة النفسية والمرض كذلك عرف بأمانته العلمية : فعندما وضع كتابه عن الحصبة والجدرى لم ينس أن ينصف

فى هذا الكتاب الطبيب اليونانى (جالينوس) فقـــال : « لو زعم أحد الأطباء أن جالينوس العظيم لم ينوه فى كتاباته عن الجدرى ـ فان ذلك اما ان يرجع الى ان الطبيب لم يقرأ كتابات جالينوس اطلاقا ، واما أنه قرأها قراءة سطحية » . وفى هذه العبارة دليل على ما اتصف به الطبيب العربى الكبير من حب الانصاف والتقدير لمن سبقه من الأطباء وهذا الروح العلمى السامى المتميز بالانصاف والاعتراف بالفضل لكل من أسهم فى خدمة العلم بنصيب يختلف تماما عما اتصف به بعض علماء أوربا من الذين دأبوا على انكار فضل العرب على العلوم الطبية وغيرها من العلوم التى بنيت عليها الحضارة الانسانية ونحن نشير الى بعضهم فقط لأن هنـــاك عددا كبيرا من المنصفين الذين اعترفوا بفضل العرب العظيم على التراث الانسانى الخالد فهذه جامعة « برنستون » بالولايات المتحدة الأمريكية تقدم دليلا ساطعا على تقديرها الممزوج بالاحترام لطبيب العرب العظيم (أبو بكر الرازى) معترفة بما له وبما للحضارة الاسلامية بصفة عامة من فضل كبير على الثقافة الانسانية لذلك خصصت جانبا فخما من أبنيتها الرائعة لتسجيل مآثر هذا الطبيب الخالد وأنشأت الى جانب ذلك معهدا خاصا لدراسة العلوم والمخطوطات العربية . ولا ريب أن كل ما فى هذا العمل الجليل اعتراف بأمجاد العرب الخالدة فى النواحى الانسانية ..

منزلته فى الطب

كان للرازى منزلة رفيعة فى الطب وأطلق عليه (أبو الطب العربى) ، كما كان يدعى (جالينوس العرب) لأنه ابتكر فى الطب أشياء لم يسبق اليها من ذلك أنه استخدم الموسيقا لونا من ألوان العلاج لبعض الأمراض . كذلك كان من أول الذين عرفوا أثر الضوء فى حدقة العين وانه يساعد على اتساعها ليلا وانكماشها نهارا وقد استغل هذا الكشف فيما قام به من بحوث عصبية وفى مداواة أمراض الحصبة وكان صاحب الفضل على طب الأطفال اذ جعله فرعا من الطب قائما بذاته وكتب فيه كتابة مستقلة وكان يسلك فى علاج المرضى مسلكا علميا يشهد له بالنبوغ والعبقرية فلم يكن يسمح لمرضاه بتناول العقاقير الطبية ـ الا بعد قيامه بتجربتها على الحيوان . ومما يروى عنه أنه عندما أراد أن يقدم مركبات الزئبق كملين لبعض المرضى جرب الدواء الذى أعده على قرد ، فلما أثبتت التجربة نجـــاح الدواء بدأ يعطيه للمرضى . وكان نبوغه فى علوم الكيميـــاء من الأسباب التى عاونته على اعداد الأدوية بنفسه فكان يعمل طبيبا وصيدليا فى وقت واحد ومن أجل ذلك نراه يفسر شفاء المريض بأنه نتيجة تفاعل كيميائى يحدثه الدواء فى جسم المريض . وهو أول من استخدم مركبات الرصاص فى صنع المراهم وأول من توصـــــل الى اســـــتخدام الخيوط

المصنوعة من أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح المفتوحة بعد انتهاء العمليات الجراحية ويبين الرازى السر فى ذلك فيقول : ان الخيوط المصنوعة من الأمعاء يمتصها الجسم فتصير جزءا منه » . وهو أول من قام بمعالجة الحمى بالماء البارد فسبق بذلك أطباء العصر الحديث ، اذ لايزال الماء البارد الى اليوم علاجا نافعا لبعض أنواع الحميات والى ذلك كله كان من أوائل الأطباء الذين تنبهوا الى العدوى الوراثية وأول من وصفوا بدقة ووضوح أمراض الجدرى والحصبة وميزوا بينها ويقول البروفسور « بوشنو » الفرنسى : « لقد وصف الرازى ضربا من الجدرى تظهر بثوره على سطح الجسم بيضاء متلاصقة كأنها بقعة من الدهن » وقال : « ان آخرتها محزنة ، وانى والحق يقال لم أجد أجود من وصفه لها ولا أصدق مما قال وهو أول من كتب فى أمراض الأطفال وفى واجبات الطبيب » .

وقد نبغ الفحص الطبى نبوغا منقطع النظير فى زمانه فكان فى الصف الأول من أطباء العرب بل من أطباء العالم فى عصره الذين يمتازون بدقة الملاحظة السريرية وهى التى تقوم على دراسة سير المرض وتتبع حالة المريض . وسجل المستشرق (مايرهوف) للرازى ما يقرب من ثلاث وثلاثين ملاحظة سريرية وله فضلا عن ذلك ابتكارات طبية أخرى تعد من أسس المعالجة الحديثة فى الأمراض التناسلية والولادة وجراحة العيون . وقد أشرنا من قبل الى براعته فى تشخيص الأمراض وقد سجل فى كتبه كثيرا من ذلك فمما قاله فى تشخيص بعض الحميات وكانت قد أصابت أحد مرضاه ويدعى عبد الله بن سوادة :

أصيب عبد الله بن سوادة بأنواع مختلفة من الحميات كانت تأتيه كل ستة أيام مرة تغيب يوما ومرة تأتى كل يومين ومرة كل أربعة أيام ومرة كل أسبوع ويتقدمها شىء من الرعدة القليلة وكان يبول مرات كثيرة ، حكمت أنه لايخلو ، اما أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعا أى تأتى كل أربعة أيام واما ان يكون به خراج فى كلاه فلم يلبث الا مديدة أى وقتا قليلا حتى بال قيحا وصديدا ثم أعلمته انه لاتعاوده هذه الحميات وكان كذلك وانما صرفنى فى أول الأمر عن قولى بأن به خراجا فى كلاه — انه كان مصابا بالحمى قبل ذلك وكانت تأتيه فى يوم وتغيب عنه يوما كما كان مصابا بحميات أخر فكان للظن بأن تلك الحميات المخلطة من انحرافات تريد ان تصير ربعا موضع أقوى — ولم يشك الى ان قطنه يكون شبه ثقل معلق منه اذا قام ، وأغفلت أنا أيضا ان اسأله عنه وقد كانت كثرة البول تقوى ظنى بالخراج فى الكلى الا اننى لا أعلم ان أباه أيضا ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء ولما بال المدة أكببت عليه بما يدر البول حتى صفا البول من المدة ثم أسقيته الطين المختوم بعد ذلك

والكندر ودم الأخوين وتخلص من علته شفاء تاما سريعا فى نحو شهرين وكان الخراج صغيرا دلنى عليه انه لم يشك الى ابتداء ثقلا فى قطنه لكن بعد ان بال المدة قلت هل كنت تجد ذلك ؟ قال نعم فلو كان كبيرا لقد كان يشكو الى ذلك أى يشكو اليه الألم وان المدة التى (ترشح) سريعا تدل على صغر الخراج فأما غيرى من الأطباء فانهم كانـوا حتى بعـد ان بـال (المدة) أيضا لا يعلمون حالتهم (البتة) ٠

ويدل هذا الوصف الدقيق على أن الرازى كان نابغـة فى الفحص الطبى وتشخيص الأمراض وملاحظات سيرها فى أجسام المرضى وانه كان يفحص العليل الذى يعرض عليك بكل دقة وبالوسائل التى وصل اليها والتى لاتقل فى دقتها عما هو معروف اليوم وفى هذا التشخيص اشارة لاتخلو من معنى دقيق فقد أشار الرازى ان الأمراض قد تورث وهذا أمر مسلم فى الطب الحديث ٠ ويتنبه الرازى الى أثر العامل النفسى فى صحة المريض فيقول : « ان مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » ٠ ولذلك كان يرى من الواجب على طبيب الجسم ان يكون أولا طبيبا للروح وقد جاء فى كتبه ٠ : على الطبيب ان يوهم مريضه بالصحة ويرجيه بها وان لم يثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس ٠ وقد كان ذلك مما حمله على وضع قانون للطب الروحانى الذى هو ضرب من التدبير للنفس ويحتل العلاج النفسى اليوم منزلة كبيرة بجانب العلاج بالعقاقير الطبية ومن أطباء العرب الذين برعوا فى العلاج بطريق التحليل النفسى ابن سينا ٠

مؤلفـــاته

ترك الرازى مؤلفات كثيرة فى الطب تمتاز بقيمتها العلمية الكبيرة وهى تعد جزءا عظيم الشأن من التراث العربى الخالد فى الطب والكيمياء ٠ وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة منها ومن هذه الكتب كتاب الشكوك على (جالينوس) وكتاب فى أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان وكتاب الفالج وكتاب هيئة العين وكتاب هيئة القلب وكتاب كيفية الاغتذاء وكتاب خواص الأشياء وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجها وكتاب دفع مضار الأغذية وكتاب مايعرض فى صناعة الطب ٠ ومن كتبه التى نالت شهرة عظيمة كتابه « المنصورى » ويتناول فيه وصفا دقيقا لتشريح أعضاء الجسم كلها كما يضمنه بحوثا على جانب كبير من الأهمية الطبية فى بيان قوى الأغذية والأدوية ومواد الزينة والتقطير وطائفة كبيرة من الارشادات الصحية الطبية العملية التى كشفت عنهـا تجاربه والكتاب مؤلف من أقسام عشرة وهذه الأقسام هى :

١ ـ المقالة الأولى فى المدخل الى الطب وفى شكل الأعضاء وخلقها ٠

٢ ـ المقالة الثانية فى تعرف مزاج الأبدان وهيئتها والاخلاط الغالبة عليها واستدلالات وجيزة جامعة من الفراسة ٠

٣ ـ المقالة الثالثة فى قوى الأغذية والأدوية ٠

٤ ـ المقالة الرابعة فى حفظ الصحة ٠

٥ ـ المقالة الخامسة فى الزينة ٠

٦ ـ المقالة السادسة فى تدبير المسافرين ٠

٧ ـ المقالة السابعة وتتناول جملا وجوامع فى صناعة الجبر والجراحات والقروح ٠

٨ ـ المقالة الثامنة فى السموم والهوام ٠

٩ ـ المقالة التاسعة فى الأمراض الحادثة من القرن الى القدم ٠

١٠ـ المقالة العاشرة فى الحميات وما يتبع ذلك مما يحتاج الى معرفته فى تحديد علاجها ٠

وقد سماه المنصورى باسم المنصور بن أحمد الساماني وترجمه الى اللاتينية (جيراد الكريمونى) كما طبع مرارا فى ميلانو والبندقية وليون وبادو اذ كان مع قانون ابن سينا من أعظم المراجع التى يعتمد عليها فى تدريس الطب بالمدارس الطبية الأوربية الى القرن السابع عشر ٠ وأما رسالته فى الجدرى والحصبة فتعد بحق بلا منازع زينة الآداب الطبية العربية وتتجلى فى هذه الرسالة عبقرية الرازى بوصفه طبيبا مختبرا مدققا مجردا من الأوهام والاعتقادات الزائفة كما يبدو فى هذه الرسالة تلميذا نبيها اقتفى خطوات أستاذه (أبوقراط) ولكنه فاقه وبزه فى كثير من النواحى ٠ ويتحدث الرازى عن أسباب نشأة الجدرى فيقول : انه ينشأ بسبب فوران الدم ويشبه ذلك بفوران الخمر أثناء تخمرها وقد أثبت العلم الحديث أن كلا من التخمر والمرض العفن ينشأ بسبب ميكروب خاص وهذا التشبيه الدقيق يدل على أصالة فى الرأى ودقة فى الفهم والتجربة ٠

وكان كلام الرازى فى نشأة مرض الجدرى نقطة انطلاق للبحوث المستمرة التى أدت الى كشف الميكروب فيما بعد ، ولو أن الرازى عرف « المجهر » فى زمانه لكان بلا شك صاحب الفضل الأول فى كشف الميكروب ولعرف (الميكروب) باسمه ونسب اليه بدلا من نسبته الى (باستور) ٠ ويتميز طبيبنا العربى الكبير بقدرته العجيبة على ملاحظة أعراض الأمراض ووصفها وصفا دقيقا فيقول فى وصف أعراض الجدرى :

ويسبق ظهور الجدرى حمى مستمرة تحدث ووجع فى الظهر وأكلان فى الأنف وقشعريرة أثناء النوم والأعراض المهمة الدالة عليه هى : وجع الظهر مع حمى وألم لاذع فى الجسم واحتقان فى الوجه وتقبضه أحيانا وحمرة حادة فى الخدين والعينين وشعور بضغط فى الجسم ويزحف فى اللحم وألم فى الحلق والصدر مصحوب بصعوبة فى التنفس وسـعال وجفاف فى الفم وغلظ فى الريق وبحة فى الصوت وصداع فى الرأس وضغط فى الدماغ وهيجان وقلق وغثيان وقلة راحة ولكن التهيج والقلق والغثيان أظهر فى الحصبة منها فى الجدرى ، فى حين أن وجع الظهر أشد فى الجدرى منه فى الحصبة .

ويقول الدكتور « سارطون » : « ان رسـالة الرازى فى الحصبة والجدرى تتناول أقدم وصف سريرى للجدرى وهى احدى روائع الطب الاسـلامى » .

وللرازى كتاب آخر فى صفات (البيمارستان) وأحوال المرضى الذين يعالجون فيه ويقول عبيد الله بن جبرائيل : « انه لما عمر عضـد الدولة (البيمارستان) الجديد الذى على طرف الجسر من الجانب الغربى من بغداد وكان الأطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع وهم أربعة وعشرون طبيبا كان يجرى لهم الرواتب الكبيرة ومن جملتهـم أبو الحسـن على ابن ابراهيم وأبو يعقوب الاهوازى وأبو عيسى بقيـة والقس الروحى وبنو حسنون . وكان مع هؤلاء الأفاضل الثقات بعض المجبرين المشار اليهم ومنهم أبو السلط وبعض الجراحين ومنهم أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح ويقال : ان الرازى كان متوليا العمل فى (بيمارستان الرى) ثم نقل الى البيمارستان العضدى فأظهر عطفه الشديد على المرضى وكان يقضى وقته كله فى العمل على اراحتهم وبذل كل ما فى طاقته من مهارة طبية فى سبيل تطبيبهم وعلاجهم » . ويقول محمد بن اسحق النديم فى رواية لمحمد ابن الحسن الوراق : « قال لى رجل من أهل الرى وكان شيخا كبيرا سألته عن الرازى : كان شيخا كبير الرأس مسفطه وكان يجلس فى مجلسه دونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون فيصف ما يجده الأول من يلقاه فان كان عندهم والا تعداهم الى غيرهم فان أصابوا والا تكلم الرازى فى ذلك » .

« وكان الرازى كريما متفضلا بارا بالناس حسن الرأفة بالفقراء حتى كان يجرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ولم يفارق القراءة والنسخ وما دخلت عليه قط الا رأيته ينسخ ما يسود أو يبيض وكان فى نظره رطوبة لكثرة أكله (الباقلاء) « وكف بصره فى آخر عمره » ويفهم من هذه الرواية ان الرازى كان حريصا كل الحرص على الاتصال بتلاميذه

والاجتماع بهم والتحدث اليهم فى شئون صناعة الطب وفى أثناء ذلك، كان يمدهم بالمعلومات ويزودهم بالتجارب وانه فضلا عن ذلك كان انسانا كريما نبيلا يتصدق على الفقراء ويشركهم فى ماله وينفعهم بخبرته فى الطب فيطببهم بالمجان وهو بذلك يضرب مثـــلا عاليـــا لكل من يريدون ممارسة هذه الصنعة ومن يمارسونها بالفعل ويعدون أنفسهم لتخفيف آلام المرضى وبخاصة هؤلاء الذين اشتهروا بالحذق والمهارة . كذلك كان الرازى قارئا لايمل القراءة شديد العناية بتسجيل آرائه وتجاربه اذ كان وقته موزعا على افادة تلاميذه والعناية بالمرضى والقراءة والاطلاع والكتـــابة والبحث فى غوامض صناعة الطب والكشف عن الجديد فى أصـــول المعـــالجات .

ومن كتبه أيضا كتاب « منافع الأغذية » وهو يعطينا فكرة واضحة عن اتجاه أطباء العرب فى أساليب العلاج فقد كان هؤلاء الأطباء لايهتمون بعلاج المرضى فحسب ولكنهم كانوا مع ذلك يبذلون عناية خاصة بتدبير الوسائل التى تساعد على حفظ الصحة عملا بالحكمة القائلة : « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

ومما يروى فى ذلك أن الخلفاء كانوا يستمعون الى نصح أطبائهم وينفذون فى دقة ما يشيرون به عليهم ويمنعونهم تناول بعض الأغذية ويوضحون لهم ما تسببه من فساد لآلات البدن وفى هذا دليل على أنهم مهروا فى دراسة مختلف أنواع الأغذية من حيث نفعها ودفع مضارها فقد درســوا خواص المأكولات والمشروبات وبتتبع أحوال المرضى كانوا يعرفون ما يضرهم من الأغذية وما يناسبهم منها وكانوا فى الوقت نفسه ينصحون الأصحاء بالابتعاد عن تناول بعض المأكولات أو التخفيف منها لأنها تجلب للجسم المفاسد وكتاب الرازى مثال لذلك . ويتحدث عنه الدكتور الأب (ج) شحاته قنوانى فيقول : « انه يتكون من تسعة عشر فصلا فيتحدث الرازى فى الفصل الأول عن السبب فى تأليف كتابه وفى الفصل الثانى يتحدث عن منافع الحنطة « القمح » والخبز الذى يؤخذ منها مضاره وما يتخذ من الوسائل لدفع هذه المضار ثم يتكلم عن أصناف الخبز ويبين ما يناسب منها فى حال من الأحوال وما لايناسب . وفى الفصل الثالث يبين منافع الماء الذى يشرب وأصناف الثلج والجمد والماء البارد والحار وفى الفصـــل الرابع يتحدث عن منافع الشراب المسكر ومضاره وفى الفصل الخامس يتكلم عن الأشربة غير المسكرة وفى الفصل السادس يتكلم عن اللحوم ومنافعها ومضارها وفى الفصل السابع يتحدث عن القديد وهو اللحم المجفف بالملح وفى الفصل الثامن يتحدث عن السمك ومنافعه ومضاره وفى الفصل التاسع يتكلم عن أعضاء الحيوان واختلافها وطبائعها ومنافعها

ومضارها وفى الفصل العاشر يتكلم عن ألوان الطبيخ والبوارد ومنافعها وفى الفصل الحادى عشر يتكلم عن الكوامخ والجبن العتيق والقنبيط والزيتون والمخللات وفى الفصل الثانى عشر يتحدث عن اللبن وما يتخذ منه وما يجرى مجراه وفى الفصول الباقية يتكلم عن البيض والبقول التى تؤكل نيئة أو مطبوخة والتوابل والأبازير التى تستعمل مع الطبيخ ثم يتكلم عن الفواكه الرطبة واليابسة والحلواء وغيرها ٠

وكذلك من كتب الرازى كتاب فى الأمراض التى تصيب جسم الانسان وكيف تعالج مختلف الأدوية وأنواع الأغذية ٠

وقد أحدث هذا الكتاب ثورة فى عالم الطب فى العصور الوسطى وكتاب آخر طريف فى موضوعه وهو كتاب (من لايحضره الطبيب) وقد وضعه ليؤدى به خدمة كبرى للفقراء الذين لايستطيعون احضار الطبيب للفحص عن مرضهم والقيام بمعالجتهم لذلك أطلق على هذا الكتاب « كتاب طب الفقراء » وفيه يشرح كيفية معالجة المرضى فى العمل الجليل العلاج لكل انسان ولا شك أن هذا الصنيع يدل على الجانب الانسانى العظيم الذى عرف به هذا الطبيب العربى الكبير ٠

بعض آرائه فى الطب

وللرازى آراء طبية عظيمة القيمة فى هذه الصناعة وهى مبعثرة فى كتبه غير انها فى جملتها تكون دستورا طبيا يعترف به الطب الحديث اليوم وما يزال ينتفع بتطبيق الكثير مما تضمنه ذلك الدستور الطبى ومما ورد فيه من آراء قوله : « اذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة » وغير شك ان هذا الرأى يترجم عن نظرية طبية ستظل صادقة الى ما شاء الله وقوله : « ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك » ٠ وقوله على طالب الصناعة « يقصد صناعة الطب » أن يزور على الدوام البيمارستانات ، ودور العلاج وأن يوجه انتباها لا يفتر الى أحوال من فيها وظروفهم وهو فى صحبة أعظم أساتذة الطب ذكاء وان يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض الظاهرة عليهم ذاكرا ما قرأه عن تلك التغيرات وعما تدل عليه من خير أو شر فان هو فعل ذلك — بلغ مرتبة عالية فى هذه الصناعة وقوله : « اذا استطعت ان تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب » وقوله : « الحقيقة فى الطب غاية لاتدرك والعلاج بما تصفه الكتب دون اعمال الماهر الحكيم برأيه خطر » فقوله : « ان الحقيقة فى الطب غاية لاتدرك » دليل على ايمانه القوى بتطور صناعة الطب وفى قوله : « ذاكرا ما قراه عن تلك التغيرات » حث على الاتصال بكتب الصناعة ومداومة الاطلاع وبذلك يبلغ

الطبيب منزلة عظيمة ثم يقول : « ان العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات فى الأمراض فعليك بالأشهر مما أجمع عليه ودع الشاذ » ، وقوله : « متى اجتمع جالينوس وأرسطوطاليس على معنى فذلك هو الصواب ومتى اختلفا صعب على العقول صوابه جدا » وقوله : « ومن لم يعن بالأمور الطبيعية والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية وعدل الى اللذات الدنيوية فاتهمه فى علمه ولاسيما فى صناعة الطب » وقال : « الأمراض الحارة أقتل من الباردة لسرعة حركة النار » وقال : « الناقهون من المرض اذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم فيجب على الطبيب أن يحتال فى تدبير ذلك الطعام وصرفه الى كيفية موافقتهم ولا يمنعهم ما يشتهون (البتة) » ، وقال : « الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايتهم وكثرت شهواتهم قتالون » وقال : « ينبغى للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من الداخل ومن الخارج ثم يقضى بالأقوى وينبغى للمريض ان يقتصر على طبيب واحد ممن يوثق بهم فخطؤه فى جنب صوابه يسير جدا ، ومن تطبب عند كثير من الأطباء يشك فى خطأ كل واحد منهم » وقال : « متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل ، وينبغى ان تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلا على الدنيا (كلية) ولا معرضا عن الآخرة (كلية) فيكون بين الرغبة والرهبة » .

ومما يدل على عبقريته الطبية اشارته الى اختلاف خطوط عروض البلدان وأثر ذلك فى العلاج ومزاج الجسم فقال بانتقال الكواكب الثابتة فى الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات وباختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية حتى يكون ما فى الدرجة الثانية من الأدوية فى الرابعة وما فى الرابعة فى الثانية . وقال : « اذا استطاع الحكيم ان يداوى بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة » .

تلك بعض أقواله فى أصول صناعة الطب وهى دالة بلا ريب على عقلية فذة فى هذه الصناعة فقد تناولت دستورا طبيا عمليا يستطيع ان ينتفع به كل من الطبيب والمريض فى عصرنا وحبذا لو اقتدت جامعاتنا الطبية العربية بجامعة (برنستون) الأمريكية فعملت على اعداد أركان خاصة لدراسة الطب العربى واحياء ذكرى هؤلاء الأعلام من أطباء العرب ، وأن نبعث تراث هؤلاء العلماء وأن نقرر فصولا كثيرة من كتابى الحاوى للرازي والقانون لابن سينا لكى تدرس فى الجامعات العربية الطبية .

ولم يكن نبوغ الرازى مقصورا على الطب وحده فقد أضاف اليه نبوغه فى الكيمياء وعلم اعداد الأدوية (الاقرباذين) والصلة قوية بين علوم

الطب والكيمياء . واستطاع الرازى أن ينتفع فى الطب بمعلوماته فى الكيمياء فكان أول من استعمل الملينات واستخدم المركبات الكيماوية فى الطب كما مهر فى التشريح بدرجة عظيمة واستطاع بذلك أن يميز أعضاء الجسم بعضها من بعض ومما يذكر أنه حينما فقد بصره فى أيامه الأخيرة لم يرض بأن يقوم له أى طبيب بعملية قدح فى عينيه الا بعد امتحانه فى عدد أغشية العين ويقول : « هانزشيدر » فى كتابه روح الحضارة الغربية : « عرف المترجمون اللاتينيون الرازى ويعد بحق أكبر طبيب بين المسلمين وهو فى الطب تلميذ « جالينوس » ولكنه فى الوقت نفسه ذو اتجاه تجريبى دقيق فقد كان يعنى مستعينا بمركزه مديرا لبيمارستان بغداد — بالملاحظات (الاكلينكية) ويصف تجارب صيدلية دواء للمرضى ولكنه يحاول فى الوقت نفسه أن يعالج الأمراض بوصفات صحية وقائية ونظم للتغذية » .

ذلك طبيب من أطباء العرب يعترف بفضله الغربيون وقد كانوا أحرص على انكار فضله منهم الى الاعتراف بهذا الفضل لولا عظمة الطبيب ولولا بقية من الأمانة العلمية فهل بعد ذلك يمكن ان يتسرب الشك الينا فنفقد الثقة بأنفسنا .. ؟!

الحــاوى فى الطب

كتاب ألفه أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فيه الأمراض الكائنة فى جسم الانسان ومعالجتها وسماه الحاوى لأنه يحتوى على جميع الكتب وأقاويل القدماء الفضلاء من أهل هذه الصناعة وقد بدأ بذكر ذلك من رأس الانسان وما ينزل به من الأمراض .

والكتاب مطبوع طبعته الأولى عن نسخة اسـكوريال (رقم ٨٠٦) ورمزها (ألف) وقد طبع طبعته الأولى هذه بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ، الهند سنة ١٩٥٥ م .

ويقع الكتاب فى اثنى عشر جزءا يقع الجزء الأول فى نحو ثلثمائة صفحة ويختص بأمراض الرأس وقد قسمه الى عشرة أبواب يبحث الباب الأول فى السكتة والفالج والخدر والرعشـــة وعسر الحس وبطـلانه والاختلاجات وعلاج الرأس والمانخوليا ، كما يتحدث فى الباب الثانى عن الرعشة المبتدية والكائنة بعقب الأمراض وأوجاع العصب واسترخائه،وفى الباب الثالث يتحدث عن المانخوليا والأغذية الدوائية والمضادة لها وفى الرابع عن قوى الدماغ وفى الخامس عما ينفى الرأس بالعطوس والسعوط والشموم وفى السادس تحدث عن القوة وانخلاع الفك واشتباكه كما تحدث فى السابع عن الصرع والكابوس وأم الصبيان والتفزع من النوم وخص الباب الثامن بالتشنج والتمدد والكزاز وتعقد العصب والمفاصل كما عالج فى بقية أبواب الكتاب عددا من أمراض الرأس .

وقد قسم كل باب الى عدد من المقالات فتكلم فى المقالة الأولى عن الأعضاء الآلية وقال :« ينبغى ان تكون عالما بالعصب الذى يأتى الى كل واحد من الأعضاء وما منها عصب الحس وما منها عصب الحركة فالعصب الذى ينبعث فى الجلد يحس والذى يكون منه الوتر يحركه وفصـــل العصب يبطله اما بتره البتة فى العرض أو رضه أو سده أو لورم يحدث فيه أو لبرد شديد يصيبه الا ان الورم والسدة والبرد قد يمكن ان يرجـــع فعله اذا ارتفعت علله وان حدث فى نصف العصب عرضا قطع استرخت الأعضاء التى فى تلك الناحية وان شق العصب بالطـول لم ينل الأعضـــاء ضرر البتة فاقصد أبدا عنه بطلان حس عضو أو حركة الى أصل العصب الجائى

اليها فان كان قد برد فلا تضمده وان كان قد ورم فاجعل عليه المحللة وان كا قد قطع فلا حيلة فيه » • وهو يستشهد بأقوال جالينوس وأبقراط وحنين وشمعون وسرابون وغيرهم ولاشك انه مارس التشريح فيقول :« رجل سقط عن دابته فذهب حس الخنصر والبنصر ونصف الوسطى من يديه فلما علمت انه سقط على آخر فقار في الرقبة علمت أن مخرج العصب الذى بعده الفقارة السابعة أصابها في أوب مخرجها لأني كنت أعلم من التشريح ان الجزء الأسفل من أجزاء العصبة الأخيرة النابت من العنق يصير الى الأصبعين والخنصر والبنصر ويتفرق في الجلد المحيط بهما وفي النصف من جلد الوسطى » •

وقد تناول الرازي في الجزء الثاني من كتابه طب العيون وفي الجزء الثالث طب الأنف والأذن والأســـنان وهكذا خص الرازي كل جزء من أجزاء كتابه « الحاوى » العشرة بطب عضو أو أكثر من أعضاء الانسان •

وهو يذكر ما يسميه علامات كل حالة ويصف لها ما يراه من ألوان العلاج ويستشهد بأمثلة كثيرة أو حالات عرضت له •

★★★

ويقول ابن النديم : « ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب وينقسم الى اثنى عشر قسما فالأول في علاج المرضى والأمراض والثاني في حفظ الصحة والثالث في الرئيـــة والجبر والرابع في قوى الأغذية والأدوية وجميع ما يحتاج اليه من مواد في الطب والخامس في الأدوية المركبة والسادس في صنعة الطب والسابع في صيدلية الطب والأدوية وألوانها وطعومها ورائحتها والثامن في الأبدان والتاسع في الأوزان والمكاييل ، والعاشر في التشريح ومنافع الأعضاء والحادى عشر في الأسباب الطبيعية من صناعة الطب والثاني عشر في المدخل الى صناعة الطب وهو مقالتان : الأولى في الأسماء الطبية والثانية في أوائل الطب فالكتاب كما يبدو من أقسامه الكثيرة ســـجل دقيق حافل تنـــاول فيه الحديث عن كثير من المعلومات الطبية المعروفة في عصره » •

ويمكن أن يقال : ان الرازى في هذا الكتاب اهتم بشيئين رئيسيين في صناعة الطب فهو يتناول الدرس العميق موضوع علم الأدوية (الاقرباذين) ، كما يتناول موضوع الملاحظات السريرية وهى التي تتعلق بدراسة ســـير المرض ووصف العلاج الذى استعمل لكل حالة من حالات ســـير المرض وتطور حالة المريض وما أســـفر عنه العـــلاج من نتائج ويقال : ان المنية عاجلته قبل أن يتمه •

وكان ابن العميد يتتبع آثار الرازى فوصل الى علمه ان هذا الكتاب فى حوزة أخت الرازى فاشتراه منها بمبلغ كبير من المال ثم اتصل بتلاميذ الرازى فى بغداد والرى وطلب اليهم حرصا على حفظ آثار أستاذهم وصيانة لها من التفرق والضياع – ان يقوموا بترتيب كتاب الحاوى وان يضموا اليه ما نقص منه ومما سمعوه من أستاذهم فاستجابوا الى طلبه وقاموا بما عهد اليهم وتقول بعض الروايات : ان تلاميذ الرازى جمعوا بعد وفاته ملاحظاته الطبية وأودعوها دائرة معارف طبية واسعة قسموها اثنى عشر قسما أطلقوا عليه اسم كتاب (الحاوى) وقد فاقت شهرة هذا الكتاب غيره من الكتب الطبية ولقيمته العظيمة اختصره كثير من الأطباء ومنهم على بن داود فى سنة ٥٣٠ هـ وترجم الى اللاتينية فى سنة ١٤٨٦ م ثم طبع بعد ذلك بالبندقية فى سنة ١٥٤٢ م ومن هذه الترجمة الأخيرة نسخة فى مكتبة جامعة (كامبردج) وبعض نسخ فى مكتبة جامعة (ليبك) ٠
ويقول الأستاذ : (براون) : « اننى متأكد نظرا لما اتصل بى أنه لا يكاد يوجد نصف هذا الأثر العظيم » ويشايعه فى ذلك عدد من العلماء واذا صح القول فمعنى هذا أن كتاب الحاوى لايوجد كاملا وانه لابد ان تكون قد ضاعت منه أجزاء مهمة بسبب الاهمال من ناحية ولما أصاب الدول الاسلامية من أعاصير حروب التتار تلك الحرب التى كانت سببا فى اتلاف مجلدات لا حصر لها من التراث العربى الاسلامى من ناحية ٠ ويكاد يجمع المؤرخون على ان التتار قد أخرجوا أكثر ما فى خزائن بغداد من الكتب والقوا بها فى نهر دجلة كى تعبر فوقها جنودهم ولاتزال أكثر مجلدات هذا الكتاب مبعثرة فى مكتبات أوربا غير انه فى دار الكتب بالقاهرة نسخة مخطوطة تقع فى أربعة أجزاء وقد كانت ملكا للحاج ابراهيم فان العلاخة المتبادلة بين الآتى والمنقضى تتعانق فى الحاضر ، بل ان الثلاثة (باشا) والى جدة والشىء الذى يدعو الى مزيد من الأسف ان هذا الأثر الطبى النفيس لم يجد من علماء العرب وأطبائهم اهتماما جديا بالقيام ببحث دقيق عنه وتحقيق الأجزاء المبعثرة منه فى مختلف المكتبات فى الشرق والغرب تمهيدا لطبعه واخراجه ومن المؤكد ان الأوربيين كانوا يجلون هذا الكتاب فى العصور الوسطى ويعدونه أعظم مرجع فى الطب والدليل على ذلك تلك القصة الطريفة التى تقول : ان جامعة باريس الطبية فى القرن الرابع عشر وقع ببعض أبنيتها خلل وأراد مجلس ادارة الجامعة أن يقوم باصلاح هذه المبانى ولكن المال كان يعوزه فاضطر أعضاء المجلس الى طلب معونة مالية من أحد رجال المال المعروفين ولما كانت طريقة الاقتراض تستدعى تقديم ضمان للمبلغ المطلوب تحير أعضاء مجلس ادارة الجامعة اذ لم يكن عندهم ذلك الضمان الا الكتب ، وعندئذ اشترط صاحب المال كتاب (الحاوى) للرازى ضمانا لماله وغير شك ان هذه الرواية تترجم فى وضوح عما كان لكتاب الحاوى من منزلة علمية عند الأوربيين

ومن أجل ذلك عده رجال المال فى تلك العصور رصيدا عظيم القدر تعادل قيمته مقدارا كبيرا من الذهب ٠

ويتحدث الرازى فى المجلد الرابع من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٧٦٧٦ طب عن أمراض المثانة ومجارى البول وأمراض النســـاء والولادة بما يثبت حذقة ومهارته فى تشخيص هذه الأمراض ووصف الدواء وأنواع العلاجات المفيدة التى تؤدى الى البرء والشفاء ٠

فيقول فى الصلابة الحادثة فى الكلى : « ان حدث فى الكلى ورم صلب مستحجر لم يحدث معه وجع بل يحس العليل بأن شيئا ثقيلا معلقا فى كليته ويكون هذا الثقل فى القطن ويتبعه ضعف الساق وخدر فى الورك فيكون البول مائيا قليلا لأنه يكون صافيا ويحدث لذلك ترهل فى البدن وفساد مزاج لذلك يجب ان يعالج بالأدوية التى شأنها ان تلين الصلابات وتفشى الورم نحو الادهـــان وبالتدليك والتمريخ الرطب والحقن الملينة ثم يسقى المريض الأدوية المسكنة التى تدر البول ادرارا سهلا » ٠

ويقال فى القروح الحادثة فى أجهزة البول : « اذا كان فى هذه الأجهزة قروح حدث بول لمدة أياما كثيرة مع عسر البـــول ويعرف أثـر القرحة مما يبرز مع البول فان كانت القرحة فوق الكبد ونواحيه ــ كان البول مضروبا مع المدة ولم يدم أياما كثيرة وان كان بالبول قطع لحم فانه من الكلى وان كان فيه قشور فانه من المثانة أو من مجارى البول اليهـــا والفصل بينهما أن التى من المثانة نتن ريح وليس التى من مجارى البول نتنا ، فان احتبس البول فانك تعرف ذلك من مكان الوجع وشدته فان كانت القرحة فى الكلى يكون الوجع فى القطن والتى من مجـارى البول يكون فى الحالبين والتى فى المثانة يكون فى العانة وعسر البـول يكون اذا كانت القرحة فى المثانة ، فأما اذا كانت فى الكلى فان البول يجـرى بسهولة وان كان الوجع شديدا جدا فالقرحة فى المثانة وان كان متوسطا ففى مجارى البول وان لم يكن وجع فهى فى الكلى والثقـل معـه لازم له وان جرت المدة بلا بول فان القروح قريبة جدا » ٠ ثم قال : « وقروح الكلى تبرأ بسهولة فاما قروح المثانة فتعسر وتعالج هذه القروح باســـتعمال الأدوية المنقية للمدة والوسخ الذى فى القرحة حتى اذا نقيت استعملت الأدوية القابضة ومن الأدوية النافعـــة عمل مزيج معين من بذر (القثـا) القثاء وبذر البطيخ مع العسل أو من ماء العسل المعمول ببذر الكرفس ٠

ويلاحظ انه يبدأ أولا بوصف أعراض المرض والعلامات المميزة له فى كل حالة من حالاته ثم يصف الدواء فى ضوء الأعراض التى يحس بها

المريض أو تظهر عليه وهذه الخطوات شبيهة جدا بما يجرى علية الطب الحديث فى عصرنا فالطبيب يفحص المريض للتعرف على نـــوع المرض ثم يصف العلاج المناسب لمرضه • واعترافا بفضل الرازى لايفوتنا ان نشير الى أنه كان أول من شخص أمراض المثانة فى العصـور الوسـطى تشخيصا دقيقا وأنه كان الى جانب ذلك حجة فى علم الولادة • ومن رأيه ان السبب فى أمراض المثانة يرجع الى اختلاط الدم بالبول وكان من أول من استعمل الحقن فى علاج الأمراض ••

اذا أردنا ان نجمل الصفات العلمية للرازى اجمالا يبين مزاياه — لم نجد خيرا من وصفه بأنه كان أستاذا ، وكان طبيبا ممارســا ناجحا ، وفى هاتين الناحيتين تتلخص حياته العملية ••

كان أستاذا ، فكان عليه ألا يخرج خروجا صارخا على أسس العلوم الطبية كما عرفها أهل زمانه ومن سبقهم ، وأساتذة الطب لا يرون من واجباتهم ان يثوروا على النظريات الطبية القائمة ، ولا ان يقدموا للناس نظريات جديدة حتى يصقلها الزمن ويتبين خطؤها او صوابها •

وكان الرازى كغيره من الأطباء العرب يؤمن ايمانا راسخا بالطب اليونانى ، فهو قائم على منطق لا يقبل الجدل ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يعترض على بعض آرائهم ، يفندها تفنيدا قد يكون أحيــانا قاسـيا عنيفــا •

لقد أورد ابن أصيبعة أســماء اثنين ومائتى كتاب نسـبها للرازى فى مختلف فروع المعرفة ، وذكر صاعد الأندلسى بأنه ألف نيفا على مائة تأليف وأكثرها فى الطب ، وأشار الفهرست الى ثمانية وســتين كتابا وتسع وسبعين رسالة ، وذكر رانكنغ ان الرازى ألف ستا وخمسين مقالة فى الطب وثلاثين فى الطبيعة وسبع مقالات فى المنطق وعشرا فى الرياضيات والنجوم وسبع رسالات فى التفاسير والتلاخيص وعشرين رسالة فيما وراء الطبيعة وسبع عشرة مقالة فى الفلسفة وثلاثا وعشرين رسالة فى الكيمياء وأحد عشر مؤلفا فى مواضيع شتى • وقد لاقت بعض كتب الرازى فى الطب رواجا كبيرا فى أوربا ونقلت الى اللاتينية فى أكثر من طبعة ويعتبر سارتن كتاب (الحاوى) من أكثر كتب الرازى أهمية ، ووصفه بموسوعة عظيمة فى الطب تحتوى على ملخصات كثيرة من مؤلفين اغريقيين وهنود اضافة الى ملاحظاته الدقيقة وتجاربه الخاصة • وقد أشار الرازى نفسه الى المصادر التى استقى منها المعلومات الطبيعية من اغريقيــة وهندية ، وترجم الحاوى الى اللغة اللاتينية وطبع لأول مرة فى بريشيا فى شمال ايطاليا عام ١٤٨٦ م وهو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة ،

ثم أعيد طبعه مرارا فى البندقية فى القرن السادس عشر للميلاد ، وفى الطبعة اللاتينية قسم الحاوى الى خمسة وعشرين مجلدا ، — والحاوى تحت الطبع باللغة العربية الآن تشرف على طبعه دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد وقسم فى هذه الطبعة الى عشرين مجلدا وقد صــــدرت المجلدات باستثناء المجلد الأخير — وتتضح مهارة الرازى فى هذا المؤلف الضخم الذى اعتمد عليه كبار علماء أوربا ، وأخذوا عنه الشىء الكثير ، وبقى مرجعهم فى مدارسهم وجامعاتهـــم الى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد .. ولهذا اعتبر الرازى بحق أعظم أطباء الاسلام وظل الكتـــاب حجة الطب بلا مدافع حتى القرن السابع عشر !!

ديوان المتنبى

المتنبى

٩٠٠ - ٩٦٥م

قليل من النـــاس بلغوا مبلغ المتنبى فى الشهرة مع أن العباقرة والأفذاذ يملأون صفحات التاريخ بأخبارهم وآثارهم • ولو أن الآداب العربية أتيح لها ما أتيح لآداب الغرب من الذيوع بالترجمة والنقل لكان المتنبى فى مقدمة المشاهير الذين يلهج الناس بذكرهم فى الشرق والغرب على حد سواء • ولو أن الغربيين قرءوا شعر المتنبى لأذهلتهم تلك العبقرية الجبارة وهذا الروح الوثاب الغلاب الذى يكتسح حتى لا تكاد ترى أمامه أثرا لمنافس •

نعم •• لو قرأ الغربيون شعر المتنبى لوقفوا أمامه ذاهلين ولست ألقى القول على عواهنه فقد أذهلت رباعيات الخيام أدباء الغرب وقراء الأدب فيه وفتحت أمامهم آفاقا جديدة لم يروها من قبل وتألق نجم هذا الشاعر الفارسى فى أوروبا وأمريكا كما لم يتألق قط فى المشرق•، مع إن الخيام دون المتنبى مرتبة فهو شاعر يشدو على وتر واحد بينا يشـــدو شاعرنا على أوتار هى جماع الفن والحكمة والفلسفة •

وأول ما نسجله من أمر هذه الشهرة التى لازمت المتنبى فى حياته ولازمت تاريخه بعد موته أنها مرتكزة على أسس متينة ودعائم قوية •

والشهرة عنـــدنا هى الصمود للدهـــر ومغالبـــة معاول الهدم — وما أكثرها ! — وقد صمدت شهرة المتنبى فى حياته فتحطمت دونها معاول الهدامين الذين فى نفوسهم حقد وفى قلوبهم تغلى مراجل الحسد وتلهب نار البغضاء ، والذين مازالوا يذكرون مثالبـــه ونقائضـــه فيعترفون — أو يعترف حسدهم — بشاعريته التى لاتجارى على وغر مكنون فى الصدور •

ثم صمدت شهرته للنقاد الزارين عليه بنقدهم بعد مماته مع أن فريقا منهم حاولوا هدمها بمعاول هيهات أن تهدم التراث الأدبى فبقى المتنبى حيا ولم يذهب رسمه ولم يعف أثره •

ومما يزيد فى رسوخ هذه الشهرة انها بلغت غايتها على الرغم من ان شعر المتنبى لم يكن كالنسمات تهب رخـــاء أو كزقاق الخمر تروى الشاربين بل كان شعرا جليلا يهتف به شاعر عبقرى فيذكى فى القلوب نار الحماسة والنبالة ويمتع الأنظـــار والألباب بألوان من الفن الرفيـــع يتطاول اليها الناس ويتشوفون لها دون ان يبلغوها ومثل هذا الشعر لايقدره حق قدره الا الراسخون فى دراسة الآداب الرفيعة التى تسمو

بالأذواق الى ما هو أعلى من أذواق العامة والمترفين من عشاق الأدب المخنث.
فبهذا الشعر خلد المتنبى وعلى هذا الأساس المتين بنى شهرته ونقش اسمه على الصخر بينا خط معظم معاصريه من الشعراء أسماءهم على الرمال .

وانك لتعجب وانت تقرأ ديوانه كيف أنه استطاع أن يجمع كل هذه الأقوال المأثورة والأبيات الحكيمة فى صعيد واحد ، لعلمك أن معظم السابقين واللاحقين من الشعراء كانوا يتمخضون بالبيت المأثور بعد الهذيان الطويل .

ثم انك لتعجب من هذا الروح الغلاب الذى رجح الشعراء وسادهم دون ان يعدو طوره وتعجب لتلك الحوادث الجسام واندماجه فيها مادحا وهاجيا وحكيما بعد أن حلب الدهر أشطره ولاعتداده بنفسه وشموخ أنفه وخيلائه ولتجاربه وثقافته التى يندر لها مثيل .

نعم انك تعجب لكل هذا اذ تفاجأ به أول وهلة وانت تقرأ ديوانه وأخباره فتعود الى نفسك فتقول : لاجرم اذا خلد المتنبى وطبقت شهرته الآفاق ..

ثم ان المتنبى تفرد بنزعة أخرى غير نزعة الشاعر الفنان اذ كان يحسب انه أرفع من الشعر والشعراء منزلة وان الشعر مطيته الى الملك والسؤدد ويرى ان بنفسه أنفا ان تسكن اللحم والعظم .. والحق يقال انه كان عظيما فى شعوره وحركاته وسكناته فقد كان شعره على ذباب سيفه وسية قوسه وكانت له أبيات تهول ، وقد أضفت عظمة نفسه على شعره هذا الجلال وتلك الروعة (التى تركت فى الدنيا دويا) كان يود أن يكون (للسيف والفتكة البكر) لا للشعر والمدائح فلا عجب ان تشتهر قصائده من وحى الملك والبطولة والفن الرفيع .

أما منافسوه من الشعراء فقد كانت قصارى آمالهم صلات الأمراء وعطاياهم وكان الخوف من ضياع هذه العطايا سياجا يحول بينهم وبين اشهار ما شعروا به .. لقد كانوا أذنابا ولم يكونوا سادة وكانوا ملهاة وأداة من أدوات التسلية كالأقزام فى بلاط الفراعنة سواء بسواء ، كانوا ينطقون بلسان سادتهم وأمرائهم ، فلم يجرؤ أحدهم على مجاراة المتنبى فى قوله :

وما الدهر الا من رواة قصائدى   اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ولم يدع أحدهم انه (خلق) أميرا من الأمراء بل كان الأمراء هم الذين يخلقونهم بينما يحق للمتنبى ان يفخر بأنه (خلق) كافورا

بهجائه المقذع وسخريته اللاذعة .. فلولاه لما تمثل كافور فى أذهاننا عبدا خصيبا بطينا مشفره نصفه وتكاد تحسبه منتعلا وهو حافى القدمين . وقد كان شعور المتنبى بتفوق شعره على شعر خصومه عظيما حتى ان هذا الشـــعور انقلب الى اعجاب بالنفس وخيلاء لا حد لتطاولها مما حداه ان يقول :

أفى كل يوم تحت ضنبى شـويعر ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟

فانظر الى كلمة (شويعر) هذه وتأمل فيما تحويه من معانى الزراية والسخرية الأليمة ! ثم ان جلال شعره وفخامة جرسة جعله يسير فى البلاد ويؤثر فى الناس أضعاف ما يؤثر شعر منافســـه وحساده وهذا مما جعل الأمراء يستقدمونه ويجذلون له العطاء . وقد بلغ قلق بعضهم على لقائه وحرصهم على مجيئة حد الضحك ككافور الذى كان يهذى بالمتنبى وبقرب قدومه ولايزال يتراوح بين الياس والرجاء حتى يقبل فتهدأ أعصابه ويطمئن قلبه .

وقد ساعده على بلوغ تلك المكانة عند الأمراء والولاة عدم استقراره فى حاشية أمير واحد أمدا طويلا وعدم قصره مدائحه على رجل واحد:فكان يشد الرحال اذا سئم المقام فى قصر أمير أو وزير ويذهب الى غيره ليمدحه ولينعم عنده شهرا أو عاما أو بضعة أعوام تاركا وراءه الاعجاب بشعره والحقد عليه مستقبلا وجوها جديدة متقبلا عطايا جزيلة لايدفع لها ثمنا من كرامته وعزة نفسه ، ومن هنا تهافت عليه طلاب المدح فعلا ثمنه فى سوق الشعر بينا كسدت بضاعة جل منافسيه فعمدوا الى غيظه .

ومما زاد فى غيظ منافسيه وحساده ان شعره خلا ـ أو كاد يخلو ـ من الغزل والتخنث مخالفا بذلك جمهرة الشعراء القدماء منهم والمحدثين وانه لم يكن متهالكا على النساء شأن غيره من محبى الترف وأسارى الشهوة الجامحة ولم يكن للخود منه الا ساعة ثم بينه وبينهن « فلاة الى غير اللقاء تجاب » ، ثم انه لم يكن سكيرا عربيدا فخلا شعره من أوصاف الخمور الا فيما ندر وظل جافا مطهرا الى آخر بيت فى ديوانه . كل ذلك كان ترفعـــا عما درج عليه الناس من مألوف التغزل والمنادمة وسموا بالشعر والفن الى قنن الرجولة والبطولة .

والمتنبى هو الشاعر العربى الوحيد ـ فيما نعلم ـ الذى كان لايتهيب الأمراء بل يدخل عليهم ويخاطبهم مخاطبة الند للند والصديق للصديق ،

وقد روى أنه كان ينشد الشعر وهو جالس أمام سيف الدولة وان طاهرا العلوى أجلسه على سريره وجلس بين يديه · وهذا نصر عظيم للشاعر وللشعر نفسه فقد بيض المتنبي وجهه بعد أن سوده الشعراء المادحون المستضعفون وان شعرا يقوله شاعر معتدا بنفسه مترفعا عما درج عليه الشعراء من الصغار والزراية لقمين بأن يذيع فيلهج به كل لسان ·

الحياة الفكرية فى عصر المتنبى

كان يميز الحياة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه المتنبى شيوع الفلسفة وازدهارها ، فاتبعت الفلسفة وأكثر العلوم العقلية منذ هذا العصر منهجا علميا وصار لهـا أسلوب مذهبى خاص وقد مشى معها علم الكلام واقبل عليها المتأدبون ·

وقد ظهر ابن النديم بكتابه « الفهرست » فى الربع الأخير من هذا القرن حاشدا فيه صنوف المؤلفات فى عصره وما قبله وفيهـا من كتب الفلسفة مقدار يدل على رواجها واتقانها وتفرغ العلماء للبحث والتاليف فى هذا العصر تفرغا لم يعهده السابقون ·

وقد شاع فى هذا المنتصر اقتناء الكتب وكثرت المكتبات وصـار الملوك والأمراء بعد الخليفة الأمين يفاخرون باقتناء المصنفات ويتسابقون الى شراء نوادرها · وفى أواخر هذا القرن أولعت بغداد بالكتب والتاليف وصنع مثل ذلك أمراء الأندلس فكان الحكم صـاحب الأندلس يبعث الى المشرق بالعلمـاء والتجار الذين كانـوا ينتقون له أحسن المخطوطات واطرف المؤلفات منذ ظهورها وبلغ فهرس مكتبته اربعة وأربعين كراسـا كل كراس بعشرين ورقة وكذلك كان الأمر بمصر ·

وظهرت الكتب فى التركات والمواريث فى صـدر هذا العصر وحين توفى « محمد بن نصر الحاجب » خلف كتبا قومت باكثر من ألفى دينار ·

وكانت حلب فى أيام سيف الدولة دار علم وأدب وملتقى المفكرين والشعراء وقد كثرت فيها المكتبات ، وكان قصره فى ظاهر حلب في مكان يسمى « الحلبة » مزهوا بنوادر المصنفات وكان يجري على العلماء جرايات مالية ليتفرغوا للعلم والتأليف فأجرى على الفيلسوف والموسيقي أبي نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أربعة دراهم كل يوم ، وكان الفارابى اشهر من ظهر من الفلاسـفة فى عصره فضلا عن معرفته فن الموسيقا العربية ، كما ظهر « اخوان الصفا » برسـائلهم الفلسفية النقدية التى اداروا بحوثها وحوارها فى الطبيعة وما وراءها وفى المغيبات والظواهر وكان لها أثر بعيد فى تبصير العقول بل نكاد نعدها من أسباب الثورة الفكرية وكانت موردا عقليا لكثير من المفكرين ·

كما ظهر في هذا العصر أبو الريحان البيروني وأبو علي ابن سينا وقد مهد الفيلسوف الكندي الذي جاء في العصر السابق كثيرا من مناهج الفلسفة لمن جاء بعده ·

أما البيروني فلم يكن فيلسوفا فحسب وانما كان موسوعي المعرفة والثقافة وهو مؤرخ وجغرافي وقد عاش بعد منتصف القرن الرابع وحين نضج تفكيره وتمرس بالمجتمع عني بدراسة التطور في حياة الأمم وكان له فضل كبير في إن ينقل الى علوم العرب وتاريخهم ما كانت عليه الهند من العلوم والمعارف فبذل من عمره أربعين عاما في نقل هذا التراث الهندي الى العربية وكان بينه وبين ابن سينا مكاتبات فأفاد كل منهما من الآخر ·

وأما ابن سينا الذي احتفل العالم العربي والفارسي في عصرنا بمرور ألف عام على مولده ، فقد انتهت اليه الفلسفة والطب وكان له في تصانيف الفلسفة دراسات نفسية تشبه الى حد قريب مرامي علم النفس اليوم في نظرياته وتجاريبه وكان هذا العالم الى عقله روحانيا حكيما ·

وقد عاش أبو الطيب المتنبي في عصر تألق بالأدب من كل صنف ، وقد راجت سوق هذا الأدب وتقرب به أهلوه الى الملوك والأمراء وكانوا به بين متكسبين للمعيشة وبين محبين موهوبين ولا عجب ، فقد كان الأدب للأمة العربية منذ صدر الاسلام حتى أواخر العهدين العباسي والأندلسي ديوان حكمتها وفنونها ومظهر تفكيرها وشعورها ·

أما الأدب فكان في القرن الرابع الهجري مرآة أصحابه وصور نفوسهم وأهوائهم ولم يكن بمعزل عن الجامعات ففيه آثار كثيرة صورت مجتمع هذا العصر في الشعر والنثر ·

أما الشعر في هذا العصر فقد انبعثت في قريحة المتنبي عبقرية فياضة ومواهب متجاوبة · وكان أبو الطيب أكثر الشعراء طموحا بل كان في هذا التألق والتجدد ثمرة تطور فني وتمازج فكري بدأ من الثلث الأول للقرن الثاني وذلك بقيام الدولة العباسية فمنذ بشار بن برد حدثت في شعر العرب هزة جديدة وطفر الشعر طفرة رائعة وجاء أستاذ الشعراء أبو تمام ففتح بابا جديدا لصناعة الشعر العربي ومضى تلميذه البحتري على غراره في صنع الشعر وقوله وان أدخل عليه من ذوقه وفنه الشيء الكثير سواء في الوصف والتصوير أم في دقة المعنى والتعبير كما أخذت تلوح بوادر الابتكار في المعاني الطريفة · وكان أبو نواس وصحبه من شعراء الخمر والمجانة بدعا في هذا الشعر فبعثوا فيه روح التجدد والتفنن كل ذلك مع حفاظ على ديباجة القول المحكم الرصين وابراز القصائد والمقطعات في طراز رفيع تربط حاضر هذا الشعر بماضيه لكن الروح الفنية الجديدة

دخلت هـذا الشعر وآذنت الحضـارة بتمازج الثقافات ، كما آذن الزمن ان يرث القرن الرابع كل هذه الصفات والمزايا فى الشعر العربى ليستقبل أبو الطيب هذه المواريث سائغة مستحبة فيتداول أروعها ويختص شعره بأقوى ما فيها ·

وكان بين الشعراء المبرزين آخرون دونهم فى الشهرة والقصيد فى هذا القرن ـ وكانت لهم آثار فنية شاعت لدى القوم حتى تبنـاها النقد والبحث ـ فيهم الشاعر أبو بكر الصنوبرى الحلبى الذى كان خازنا لمكتبة سيف الدولة وكان له شعر حسن ومن سوء حظه أن لم يعن به الثعالبى فى « يتيمة الدهر » ولا الاصبهانى فى « أغانيه » ·

وكان فى بلاط سيف الدولة شاعر آخر هو كشاجم وله مفارقات لطيفة فى الشعر كما كان يجول بين حلب والموصل شاعران آخـران هما الخالديان وكان يسميهما الثعالبى بالساحرين ·

وفى « يتيمة » الثعالبى شعراء كثيرون غير هؤلاء عاشـوا فى ظلال سيف الدولة كالنامى أبو العباس ، وكان أهمهم أبو فراس الحمدانى وعاش آخرون من الشعراء عند البويهيين فى فارس أو بالعراق ·

المتنبى فى عصره

١ ــ مولده ونشأته :

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ واسمه أحمد بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفى ٠ وقد فتح عينيه على الدنيا فى حى « كندة » وهو حى نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتوح الى هذه البقاع وهم من أصل يمانى من كندة فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الأولى للذكرى والحنين ٠ وفى شعر أبى الطيب ذكريات فى هذا الحى من الكوفة وكان مفارقا فقال فيما يحن اليه :

أمنسى السكون وحضرموتا   ووالدتى وكندة والسبيعا

كل هذه أماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبى فى نشأته وصباه وكانت الكوفة من أجمل بلدان العراق ٠

وقد جاء شعر المتنبى موضحا لسيرته وحوادثه ولم يتفق لشاعر عربى برزت أطوار حياته وعصره فى شعره مثلما اتفق لابى الطيب ، ففى ديوانه صور نفسه ومزاجه وخصائص فكره وضروب المحن التى لازمت زمنه ولابست أهله وحكامه ونستطيع أن نقسم سيرته وحوادثه الى أطوار أربعة :

(أ) الطور الأول :

نشأ أبو الطيب بالكوفة متنقلا بين الوراقين مستجيبا لوعى فى تفكيره مبكر ثائر متتبعا ما يقع بين يديه من كتب ودفاتر فاذا سئم القراءة مضى الى مجالس العلماء يتلقى عنهم أصول الجدل واللغة والبيان ثم دلف الى فريق من قومه اختصوه بالتقدير ، فأحاط علما بأنباء الحكام وسياسة الدولة مما كان يزيد فى شجونه وأضغانه ويتلفت الى المحظوظين والمنعمين فيجد نفسه صفر اليدين ملموزا من حاسديه ٠ لكنه يحس العزاء فى جدته التى كانت تحبه وتفديه ولم يجد بدا من الانطلاق الى البادية لعله يلقى حظا وخيرا فلم تتحقق بغيته فيها ولم يكتسب الا مودة ومعرفة فارتد الى

جدته يقاسمها الحسرة والضغينة اذ عانت قبله من العلويين ما عانت وان سعوا اليها بعد حين بالهوادة والمعروف ٠

وفى عام ٣٢٠ هـ راح الى بغداد دون رضى جدته فشهد آلوانا من الخطوب والأحداث من تنازع الأمر والولاة وتضارب الأهوال بين الشعب والأمراء وكان يرجو هنالك نصيبه من الرزق يمدح من يستحق المدح فتأبى على هؤلاء المتنابزين المتربصين ورفض ان يثنى شعره على أحد منهم بل زاد حقده وثارت هواجسه وقد صور الشعور فى أبيات كثيرة موزعة فى قصيده ٠

وضاقت عليه بغداد بما رحبت فارتحل الى بادية الشام وجال فى مدنها وقراها حتى هبط دمشق بعد عام وهو يرسم الخطط ويبيت فى نفسه أمورا خطيرة يحقق بها مجدا وانتقاما فمر بحلب وانطاكية واللاذقية حيث احتفى به نفر من الأعيان والكبراء كسعيد بن عبد الله الكلابى وأبى المنتصر الازدى وبدر بن عمار الاردنى ومحمد بن زريعة الطرسوسى وغيرهم٠ ولقد مدحهم بشعره على عادة العرب ولا يجوز ان نشبهه بالشعراء الجوالين كما رأى الأستاذ بلاشير اذ سبقهم وتقدم الأكبر منهم ولم يكونوا من انداده وحظى لدى أولئك الأمراء فظفر منهم بالهدايا والعطاء ثم ارتحل ومضى الى طرابلس الشام فلقى فيها اسحق الأعور المعروف بابن كيغلغ وكان أميا لايقدر الشعر قدره ، فأوعز اليه حساد لأبى الطيب بأن يتلمس منه مدحه فاعتذر الشاعر وهاج كيد المتطاول فلم يجد أبو الطيب مناصا من هجوه ـ اذ حال بينه وبين المسير وسد عليه الدرب ـ فهجاه بقصيدة لو جمع ما قاله الفرزدق والأخطل وبشار فى التشنيع والاقذاع لما رجح على ما فى قصيدة أبى الطيب هذه وقد جاء فيها من الأبيات التصويرية اللاذعة غير الاقذاع قوله فى وصف ابن كيغلغ :

واذا أشـــار محدثا فكـــأنه   قرد يقهقه أو عجـــوز تلطم

وفى رواية ثانية ان أبى الطيب وصل به التجوال الى اللاذقية حيث لقى معاذا بن اسماعيل فرآه حسن السمت فصيح اللسان جدي القول فتحاورا وتبادلا الرأى وقد بلغ الزهو من المتنبى مبلغه حتى زعم معاذا ان أبا الطيب قال له أنا نبى مرسل ثم رأى من البراعة والاقتدار ما جعله يؤمن بما ادعى من النبوة والمعجزة ٠ والى هذه الزورة للاذقية أشار أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران ودفع عن شاعره تهمة النبوة بقوله : « لأن نطق اللسان لاينبئ عن اعتقاد الانسان » ٠ وكان قد وصل الى اللاذقية كلام نسب الى أبى الطيب يعارض به القرآن ٠

من أجل ذلك حبسه أمير حمص حتى استتاب وليس من المعقول هذا الادعاء فقد خلط الرواة بين النبوة المزعومة وبين تسمية المتنبي نفسه بالعلوية حيث يقيم فريق من العلويين الى يوم الناس هذا • لقد حقدوا على أبي الطيب لأنه انتسب اليهم فزعموا أنه ادعى النبوة وقد خافوا أن يستهوي القلوب بسحر بيانه ونبل غايته فنبذوه وأهانوه •

ان شجاعة أبي الطيب هي التي جعلته يقتحم الأرض التي ضمت طوائف من العلويين فيهم الفاطمية والباطنية واليهم أشار بقصيدته الدالية التي استشفع بها :

فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن بعجل اليهود

وما تزال هذه الأرض موطن الطوائف العلوية وفيها ظهر منذ بضع سنين شخص ادعى الألوهية وليس النبوة حتى قضى عليه القضاء بالموت شنقا •

والحقيقة السياسية في النبوة المزعومة ان أبا الطيب حين مر بقبائل البادية وأعمال الشام وتلقى دعوة بالحفاوة والرضى لما شهدوا من نفاذ علمه ونبل مقصده ورجاحته وقد استجاب له بالتأييد منهم بنو كلب • وكان يدعو للعروبة ورد الأعاجم الى ما كانوا عليه قبل أن يتطاولوا وينشدوا المساواة بولاة أمرهم ولا أشك في انه تزعم حركة عربية ثورية غرضها سياسي لا ديني وقد آل أمره الى السجن والاعتقال بعد المطاردة والتشريد • وفي سجنه كان عظيم النفس لكن عض الحديد والجوع أجبراه على التماس العفو من الحاكم في ذنب نواه ولم يفعله ويتبين هذا من قوله في القصيدة الدالية :

وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

وعطف قلب الحاكم على الغريب وأيقن أن الوشاة زوروا أقواله فقال :

بيدي أيها الأمير الأريب لا لشيء الا لأني غريب
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب

وقد أفرج عنه الحاكم بوساطة بعض التنوخيين الذين سعى اليهم بالشكر بعد خروجه من السجن •

(ب) الطـــور الثـــانى :

خرج المتنبى من سجنه لا يلوى على شىء واذا هو بعد سنين يجىء انطاكية فيمدح أميرها أبا العشائر الحمدانى ويزور سيف الدولة هذا الأمير وأنطاكية فى اقطاعه فيقدم أبو العشائر شاعره المتنبى لأمير حلب وكان المتنبى قد مدح نفرا من الأمراء ونال عطاياهم ورضاهم ٠

وبدأت الصلة بينه وبين سيف الدولة منذ ذلك اليوم فدعاه لمديحه وضيافته فقبل المقام بشروط تضمن حريته وكرامته ٠

كذلك بدأ أبو الطيب يحيا الطور الثانى من سيرته فبقى فى حلب من سنة ٣٣٧ حتى سنة ٣٤٥ وفى هذا الطور قال أروع شعره فى تصوير المعارك والوقائع ، اذ كان يحضر مع سيف الدولة حروبه لبيزنطة ويبدى ضروبا من البطولة والمغامرة ، اذ كان فارسا مغوارا وقد ازدادت معرفته بالسلاح والحرب منذ لزم سيف الدولة ٠

ووجد المتنبى ضالته فى شخصية سيف الدولة ، وطالما جاب الآفاق باحثـا عن مثلها ليجعلها موضعا لشعره يصـور فيها الاباء والفروسـية متجليين فى انسان عظيم حتى وجد أمير أحلامه سيف الدولة الحمدانى فأودعه آماله الجسام التى عجز هو عن تحقيقها فى وحدة العرب ٠

(ج) الطـــور الثـــالث :

فارق أبو الطيب حلب ووجهته الى دمشق لأن حمص التى أحبها كانت من أعمال سيف الدولة فلم يذهب اليها بل اتخذ طريقه الى دمشق وكان عليها من كافور حاكم مصر وال يهودى يعرف بابن ملك ٠ فلما نزلها أبو الطيب طلب منه واليها أن يمدحه بشعره اسوة بغيره فرفض وكره المقام بدمشق من أجله لكن هذا اليهودى جعل كافور الاخشيدى يطلب أبا الطيب ، فسار الى الرملة فى الجنوب وتلقاه أميرها الحسن بن طغج بالتكريم اذ حمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفا محلى وأعطاه هدايا غالية فمدحه أبو الطيب بقصيدة أشار فيها الى ما لحقه من تهديد ووعيد من الأدعياء والحساد ٠

ولما كتب كافور الى أمير الرملة فى طلب أبى الطيب لم يجد هذا بدا من الرحيل اليه وأقبل المتنبى على كافور مصر فاحتفى به وأمر له بمنزل ووكل به من يخدمه ويعنى بأمره ثم خلع عليه الخلع وطالبه بمدحه فاستجاب أبو الطيب على حذر وسخرية وحمل نفسه على أن يقول ما لا يرضيه فقال أول أمره معه قصيدته التى كان مطلعها :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن أمانيـــا
تمنيتها لما تمنيت ان تـــرى صـــديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

ولم يستطع أن يشترط على كافور ما اشترطه على سيف الدولة وهو ينشده شعره فوقف بين يدى الاخشيدى يلقى شعره وكان كله مدحا مبطنا بالتهكم والاستهزاء مواجا بالهم والأسى .

وكان كافور أديبا سياسيا فلم تخف عليه خافية مما جاء بشـــعر أبى الطيب لكنه احتمله على مضض لعله يكتسب مودته ويظفر بمدحه وتنازعت حياة أبى الطيب وهو فى مصر عداوة من الحساد والمتبرمين به لا تقل عما لقى فى حلب وقد أصابته الحمى فطرحته فراشه حتى شفى وقال فى قصيدته الميمية التى يقول فيها :

نزلت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركـاب ولا أمامى
ولما صـــار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتســـام

لقد اقام بمصر كارها ضجرا ، وكان يسكن على مقربة من قصر كافور ومن مجلسه ويظهر هذا من قوله :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة ولكن قربا بالبعاد يشـــاب

ولما ضاقت به مصر وضاق بها أعد العدة للرحيل وكان موسم العيد يستقبله كافور بالفرحة ويوزع فيه الهدايا على كبار جنده وحاشيته وكان الموسم سانحة مواتية للهرب ، اذ أن كافورا حال بينه وبين السفر ولكن المتنبى خلص ليلا فسرى يطلب النجاة ويطوى الفلاة وفر بماله ورجاله وابله وخيله حائرا فى دربه أيكون الى نجد والحجاز أو يمضى الى العراق ؟ وطلبه كافور ففاته وقد غلب الشاعر الحنين الى موطنه الأول فضرب فى البادية الى الكوفة بعد أن اقام بمصر أربع سنوات وقبيل انطلاقه منها قال قصيدته المشـــهورة :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجـــديد

(د) الطـــور الرابع :

لبث أبو الطيب فى مصر أربع سنوات وبضعة أشهر مكرما هانئا حينا ومحسودا منغصا أحيانا وطامعا منذ أقبل على حاكمها الاخشيدى كافور بما لم يطمع عند سيف الدولة الذى أغناه بالعطايا والهبات عن التماس المزيد من المال .

وبقى أبو الطيب يرجو من كافور أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو سواها من الصعيد وكافور يماطل ويروغ من الحيلة والترضية بالذهب حتى دب اليأس فى صدر أبى الطيب وسئم المقام لكن لازمه السقام ومله الفراش فحدثته نفسه بالرحيل لولا صديقه فاتك أبو شجاع الذى كان يعزيه ويسليه فلما أدركه الموت أعد أبو الطيب كل ما يحتاج اليه فى السفر وأرسل الى كافور يستأذن فى السير فرفض وجعل يعلله بالبقاء ويمسكه بين اشفاق وخشية من التعريض به والتشنيع عليه لكن المتنبى كان قد أحكم الخطة وفضل العودة الى بلده ٠

وكان فى صدره من السخط والموجدة أشد مما كان وهو يغادر سيف الدولة ، مضى يعانى خيبة فادحة وندما أليما وقد تمثل له سيف الدولة الذى علق عليه الأمل ثم تخيل كافورا الذى راغ منه وضحك بالتعليل والمطال فعبر عن غيظه وغمه بقصيدة العيد وهجا فيها كافورا والبلد الذى ضمه ٠ ومضى حتى دخل البلد الذى احتوى قبر جدته وذكريات نشأته وصـــــباه ٠

ارتد الى الكوفة بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه وبينه وبين نفسه حتى دخل موطن المرأة التى اعدته للحياة الرفيعة ولكن الموت كان أسبق اليها وصار يهوى لمثواها وما ضما ، وها هو ذا يرى الكوفة بعد ستة عشر عاما (٣٥٠ — ٣٥١ هـ)غير عابىء بالشامتين والذين صدوه عن العودة اليها ظلما وحقدا ولا مكترث لما ينتظره من مكايد جديدة ٠

فلما عاد الى الكوفة عاد الشوق الى صديقه العظيم ، كما ان سيف الدولة لم يصبر على فراق شاعره فمنذ بلغه ان أبا الطيب سار الى الكوفة أرسل ابنه من حلب يدعوه اليه ومعه هدية غالية ولعل هذا الأمير الكريم شاء أن يجبر خاطره وهو أدرى بطبع المتنبى وطموحه فتقبل الهدية وأرسل اليه عام ٣٥٢ هـ قصيدته التى قال فيها :

ما لنا كلنا جو يا رســـــول أنا أهـــوى وقلبك المتبـــــول
من عبيدى أن عشت لى ألف كافو ر ولى من نداك ريف ونيل

وبقى أبو الطيب يبعث بشعره الى أميره متوددا حامدا والأمير يستعجله للعودة اليه وهو متريث متردد وقد عن له قبل ان يتلقى دعوة سيف الدولة ان يخرج من الكوفة الى بغداد ليستطلع عن قريب حياة الناس وسياسة الحكم فيها وهو العليم بأسباب الاضطراب ومظاهر النقمة فى ذلك العهد وكان أول الناقمين على أولئك الأعاجم الذين دخلوا فى شئون الدولة ليتقاسموا المغانم فيها والمناصب ٠

وفي بغداد أقام أبو الطيب كدأبه متعاظما معرضا بالوزير المهلبي الذي زين للشعراء واللغويين أن يكيدوا لضيف البصري في مطارحاته ومجالسه فتألبوا عليه بالهجاء وأعادوا الى الخواطر تشبث المتنبي بادعاء العلوية ، فراحوا يلمزون نسبه من جديد ويصمونه بالشح والتقتير ·

أما أبو الطيب فزادهم غيظا بالتأني عليهم وعلى خليفتهم العباسي ورجال قصره وحكمه ، مرددا شعره على كل من كان في مجلسه دون تهيب ولا تحرج حتى عاد الى الكوفة ولم يرجع الى بغداد حتى مات الوزير المهلبي خصمه وظالمه · وبعد عودته ازدادت نقمته على الأوضاع السياسية ومستغلي الحكم من الموالي والأعاجم وارتدت الى باله صورة سيف الدولة وما لمس من بطولته وكرامته وكأنه يستنجزه وعدا فأرسل اليه قصيدته التي قال فيها :

أنت طول الحياة للروم غاز	فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم	فعلى أي جانبيك تميل
ما الذي عنده تدار المنايا	كالذي عنده تدار الشمول

وجاءت دعوة من شيراز الى أبي الطيب أرسلها عضد الدولة طالبا زيارته فتردد في الاستجابة لكن ابن العميد اغراه وأطمعه بما قد يتلقاه من مكرمات ·

واستقبل رسول من قبل عضد الدولة بالتكريم ولما طلب ان يسمعه من شعره أنشده القصيدة التي فيها :

فلما انخنا وكزنا الرما	ح بين مكارمنا والعلى

فأحسن هذا الرسول تعاظم أبي الطيب على الديلم فنقل ما سمع الى عضد الدولة الذي داخلته الريبة في ضيفه ·

ولما انشده قصيدته التي استهواه فيها جمال الطبيعة بفارس ومطلعها :

مغاني الشعب طيبا في المغاني	بمنزلة الربيع من الزمان

وجدها عضد الدولة مديحا ممزوجا بذم لكنه لم يجد بدا من أن يضفي على مادحه وضيفه أصناف الطيب والكساء ومعها صرة من الدنانير ·

وقد استطاع عضد الدولة بما أوتي من مكر ودهاء ان يداري أبا

الطيب وهو الذى يعلم طواياه وما يكن لقومه من عداوة وبغضاء — فيقال انه أوعز الى من يخلصهم منه بعد رحيله وقد أقام ثلاثة أشهر فى ديارهم ·

ولقد ابتلى الشاعر — الذى لم يسالمه الدهر حيثما كان — بأن تعرض له وهو بفارس أبو العباس الصاحب بن عباد طامعا فى زيارته اياه بأصبهان والحصول على مدحه واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة كما قال ، ولم يكن استوزر بعد وضمن له مشاطرة ماله ، فلم يقم له المتنبى وزنا ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده ، فحقد الصاحب عليه وأقام الدنيا وأقعدها يتسقط مثالبه فى شعره لكنه كما يقول الثعالبى كان أعلم أن سفرته لدى عضد الدولة نجحت وربحت وحصل منه على أكثر من مائتى ألف درهم ·

كذلك خرج أبو الطيب من شيراز مكرماً بأحسن توديع وقد أشير عليه باصطحاب الخفراء فأبى اعتدادا بنفسه فكان أن خرجت عليه سرية الأعراب فى رواية الثعالبى — فلقى المتنبى مصرعه مع ابنه محسد وبعض غلمانه واقتسم الأعراب ماله ، وكان قاتلوه من أعدائه المتربصين يحملون له الحقد المر ·

١ ـ شـعره

الطبع والالهام أساس الشاعرية وقد كان المتنبى شاعرا مطبوعا نطق بالشعر وتأتى له وهو غلام • وفى ديوانه قصائد قالها فى صباه دلت على ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة وكان لحياته الأولى فى البادية وبين الاعراب ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من كلام العرب أثر واسخ فى موهبته وطبعه حتى ان مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده • لقد مزج روحه بالبداوة وعمق احساسه فيها فقال :

كم زورة لك فى الاعراب خافيــة ... أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

وعرف أسرار الجمال فيها فقال :

ما أوجـه الحضر المستحسنات به ... كأوجـه البدويات الرعابيب

حسن الحضـارة مجلوب بتطرية ... وفى البداوة حسـن غير مجلوب

وصور ممارسته للبادية مقيما ومرتحلا فى هذا البيت :

أوانا فى بيوت البدو رحلى ... وآونة عـلى قتـد البعير

وفى ارجائها امتد خياله وعلقت بذهنه بقاعها وفلواتها ، وجرت على لسانه لغتها فى تصوير سلاحها وخيلها وابلها وكأنه واحد من أهلها حتى بعد تجواله فى البلاد وتمازجه بالملوك والكبراء وأهل الحضر والترف • لقد رفد هذه الفطرة والسليقة بمعرفة واسعة فى كلام العرب وادراك لخفايا اللغة وسحر البيان فجاءت صياغته من طراز رفيع فيه الأصالة والجزالة وفيه الفكرة الصائبة والروعة الباقية •

وكان مرد المتانة فى الشعر العربى واحكام صـوغه الى الشـعر الجاهلى • وحين تحدر هذا الميراث الى العصر الأموى فبدا فى الشـعر الجزل دخل عليه التطور حتى جـاء عهد العباسيين والأندلسيين فطبع بطوابع التجديد وجاء عصرنا فأعاد اليه رونقه السابق وخلصه مما علق به فى عهود التخلف ناظرا الى أبى الطيب وكأنه نبراس لا ينطفىء لاحياء الشعر العربى على مدى الزمن •

ولا يعيب أبا الطيب ما جاء في بعض شعره ــ مما تبعه عليه الثعالبي في اليتيمة ــ والجرجاني في الوساطة فان للبلاغيين آفات تلازم أعمارهم . كان هذان يعجبان به لكن هنالك فئة من الباحثين عن عيوبه ظهروا بروح حساد أكثر مما تناولوه بتسامح العلماء ، على أن هذا الشعر لم يسلم من الشوائب وأي شاعر خلا قصيده من خطأ أو زلل .

كان شعر أبي الطيب المتنبي صورة صادقة لعصره ومرآة للحوادث والمحن في أيامه وما من شك ان السياسة والعروبة المتأصلة في فؤاده والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر عبر به عن رأيه ومذهبه وخلجات نفسه . فهو يقول في واحد من العلويين حين مدح الأمير أبا محمد الحسين بن طغج بالرملة :

وفارقت شر الأرض أهــــلا وتربة   بها علوى جده غير هاشــــم

ولقد طرح في شعره صورا لكل ما كابده في حياته وهذه الصور كان يأتي بها خلال قصائده موزعة حسبما تدعو اليها المعاني والخواطر التي كان يسوقها .

رأى ما كانت عليه السياسة في زمنه من تحكم ملوك العجم وأمرائهم بخليفة المسلمين وملوك العرب وعاين هوان الأمة العربية يومذاك بما أصابها من الترك والعجم والزنج فنفس في شعره عن سخطه المكبوت .

وكان المتنبي يحس في نفسه حافزا قويا لاستعادة الأمجاد العربية وقد شاعت في شعره حيثما قاله ــ نزعة الى العروبة وبعثها وتعميمها فكان يصف الكرماء وأهل النجدة والأبطال بأن خصالهم عربية وفضل السيوف العربية على السيوف الهندية بمثل قوله :

تهاب سـيوف الهند وهي حدائد   فكيف اذا كانت نزارية عربا

كما كان يذم العجم وينال منهم في مثل قوله :

أفعال من تلد الكرام كريمة   وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وكان المتنبي أكثر شعراء عصره حماسة للقومية العربية واحياء لها بل كان يذهب الى أبعد من ذلك ، اذ وقر في عزيمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل بتأليف العرب وتأليبهم على العجم في حرب عاصفة يكون هو قائدها وقد كشف عن عزيمته هذه حين قال أبياتا يخاطب بها أبا عبد اله معاذ اللاذقي يوم نزل عنده باللاذقية سنة ٣٢٦ للهجرة وهو في صدر عمره متوقد النخوة والهمة يصف فيها مطلبه الجسيم وما هو قادم عليه من المغامرة والخطر وكان انذار المتنبي بثورته العربية باديا في هياجه النفسي الذي عبر منه بقوله المتوعد :

لا تركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقدم من ساق على قدم
تنسى البلاد بروق الجو بارقى ... وتكتفى بالـدم الجارى عن الديم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وقد عاين أبو الطيب الحالة الاجتماعية فى الأمراء والعبيد فقال متهكمـــا :

ــ ولعل ذلك لما قاساه من كافور ــ :

فلا ترج الخير عنـــد امرىء ... مرت يدا النخاس فى رأسه

وحين هجا كافورا راح يقول بأسلوب التهكم اللاذع فضـــلا عن الهجـــاء :

العبد ليس الحر صالح بأخ ... لو أنه فى ثيـــاب الحر مولود
لا تشتر العبد الا والعصا معه ... ان العبيد لأنجاس مناكيـــد
من علم الأسود المخصى مكرمة ... أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية ... أم قدره بالفلســين مردود

ولقد تعددت نواحى العبقرية فى شعر المتنبى وتجلت فيه طوابع الحكمة والتجربة يقولها فى كل شــعره وأشبهها بواحات الفكر والخاطر يقف عندها مستريحا . وكانت ثقافته المتعددة وجولاته فى البلاد سبيلا الى تعدد ألوان شعره فمن غرر الوانه فى الحكمة والعبرة هذه الأبيات :

وما انتفاع أخى الدنيــا بناظره ... اذا اســتوت عنده الأنوار والظلم
خذ ما تراه شــيئا ســمعت به ... فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
لعل عتبك محمــود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل
واذا الشيخ قال أف فمــا مل ... حياة وانمــا الضــعف ملا
آلة العيش صحة وشــباب ... فــاذا وليــا عن المرء ولى
ابى خلق الدنيا حبيبا تديمه ... فما طلبى منها حبيبــا ترده
ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن
غير ان الفتى يلاقى المنــايا ... كالحات ولا يلاقى الهــوانا
وأتعب من ناداك من لا تجيبــه ... وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
فلا تطمعن من حاسد بمودة ... وان كنت تبديها له وتنيل

ومن ألوان شعره التى انتهت اليها الجودة والبراعة شعر الحرب فلقد بلغ شأوا يناصى به هوميروس فى ملحمة « الالياذة » ولو جمع شعره فى وصف الحرب والمعارك فى تتابع واحد وأعطى العرض والتحليل لكان فى ذلك بعض الوفاء لشاعر أعطى العربية روحه ودمه فقد وصف الخيل

وصفا يبز فيه ما قاله الأوائل من تصـــوير شياتها وحركاتها وصهيلها وأعرقها وتسلل بنفسه الى الوقائع الحربية مع البيزنطيين فكان شعره بوق الحرب الذى نام سيف الدولة فى قبره على هدير صوته فمن هذا الشعر الرائع وصفه وقعة « الحدث الحمراء » سنة ٣٤٣ هـ ٠

هل الحدث الحمراء تعرف لونها	وتعلم أى الســاقيين الغمائم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنــا	وموج المنايا حولها متلاطــم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه	وفى أذن الجوزاء منه زمازم

ومن ألوانه المديح الذى ضمن له مكاسب عمره وتسابق الى الحصول عليه الملوك والأمراء لأنه يصور ممدوحه فى شـــعره صورة يضمن لها البقاء ٠ وهو الشاعر الذى يكاد يكون وحيدا فى الشعراء المادحين بطريقته اذ يضع نفسه فى منزلة الممدوح فيتكلم عن الصفات التى يعجب بها من فطانة وكرم وشجاعة ويتناول ممدوحه بمثل هذه السجايا ٠

وهــذا ضرب من الســمو لم نشــهده عنــد المداحين الذين كانوا يتواضعون ويخنعون أمام الرؤساء والملوك ٠ ومن مزايا المديح عند أبى الطيب قدرته على ابراز ممدوحه بصفات تلزمه فهو يعمد كالمصور البارع الى الخطوط المؤسسة لشخصيته ثم يقيم عليها قطعته الفنية ومن هنــا برزت أصالة المدح عنده ٠

مدح سيف الدولة يوما وقد أهدى اليه سـيفا وأماديحه فيه هى المجموعة الكبرى من شعره الذى اختص به صاحب حلب فهو يقول فيه :

معطى الكواعب والجرد السلاهبوال	بيض القواضيب والعســالة الذبل
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك	ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل والروام فى وجل	والبر فى شغل والبحر فى خجل
ليت المدائح تستوفى مناقبه	فما كليب وأهل الأعصر الأول ؟
جاز الدروب الى ما خلف خرشنة	وزال عنهــا وذاك الروع لم يزل

حتى يقول له على عادته فى المديح فى مساواة نفسه بالممدوح :

ناديت مجدكفى شعرى وقد صدرا	يا غير منتحل فى غير منتحــل

ومن ألوانه الرثاء : فقد برع فيه وأجل مرثيتين قالهما فى حياته الشعرية ــ وهما يعدلان الكثير مما قاله الشعراء فى الحزن والتفجع ــ مرثيته لجدته والثانية لخولة أخت سيف الدولة التى توفيت بعد سبع سنين من تركه لحلب وقد شفت الثنتان عن عاطفة رقيقة وحنين وصدق فمن قوله فى الأولى :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكاس التى شربت بهـا وأهوى لمثواها التراب وما ضـما
حـــرام على قلبى السرور فاننى أعد الذى ماتت به بعدها سـما

ويتجلى فى رثائه الحزن العميق والشعور الصادق المتدفق وهو لا يقصره على تعداد المزايا فى المرثى وانما يثير حوادث وذكريات فيعيش فى نطاق من حزنه الحى ويسلسل الحوادث حتى تبدو فى شعره نزاعة الى أسلوب القصة فلا يكون القارىء والسامع غريبا عن أفقها وانما هو ينســـجم ليعيش فيها مع الشـــاعر وهذا منتهى البراعة فى التجاوب والتأثير •

أما لون الهجاء الذى عنده فهو كما يقول الغربيون فى أدبهم يتخذ شكل (ساتير) بل هو حرب عاصـــفة ينزلها أبو الطيب على من كادوا له وخيبوا أمله وهو لا يكون فى أهاجيه الا منتقما أو مدافعا عن نفســه • لقـــد هجا جمـاعة فى الشام وهجا كافورا الاخشيدى أمر هجاء ولو نهض اليوم من رمامه لأشفق مما ترك لهم من أوصاف السوء ترويها العصور وترددها الأجيال •

واما الوصف والغزل فان فى القصائد التى قالها أبو الطيب فى الرثاء والهجاء وفى المدح والفخر صـــورا رائعة وصف فيها كل ما مر بخياله ونفسه من حياة البادية ومواقع النضال الذى شهده مع سيف الدولة • وكان هو يصف الخيل والفرسان بشعره وكأنه مصور أمام لوح يودعه الخطوط المعبرة والألوان الناطقة ولم يترك منظرا من مناظر الفوز والهزيمة الا صوره • كما انطبع فى باله وخالط احساسه وكانت ألفاظه الجزلة تحمل كثيرا من المعانى والأفكار فيؤدى بها ما يريد من تصوير شعوره بالحياة ورأيه فيها • وهو حين صور صراع ابن عمار للأسد أتى بتهاويل وتبديع وحين وصف شعب بوان وهو بساتين بفارس نزلها كان رساما ماهرا للطبيعة • ومن فنه فى الوصف انه يعطى الأشياء روحا وحركة وهو الذى أدرك جمال السكون وجمال الحركة ولعله اطلع على فلسفة زينون الاليائى فأخضعها للشـــعر حسبما تمثلها وراح يصف حسـناء قال فيها :

تناهى سكون الحسن فى حركاتها •

وجرى أبو الطيب على عادة الشعراء فى الغزل فكان يستهل أبياته متغزلا ثم ينساب مع طبعه وشعوره فيقول المعانى التى يريدها وأكثر ما جاء غزله رقيقا شفافا حين كان فى حمى سيف الدولة وبعد أن فارقه آسفا حزينا •

لم يكن المتنبى شاعرا غزلا أرصد شعره للحب والغرام لكنه على عنفه وغلبة عقله كان ألوفا يستجيب لدواعى الهوى والعاطفة ٠

ولقد كشفت اماديحه لأمير حلب عن عشق طواه طويلا لكنه فى شعره لم يستطع ان يخفيه فقد تملك حسه وسرى فى أبياته أنينا وشكوى فلما ماتت المحبوبة التى تعلقها ، دل رثاؤه اياها على لوعة لم تكن فى غير الهائمين المعاميد ٠

فالمتنبى عرف العشق وأقر به فى شعره وردد من ألفاظه ما أكد هواه فغزله اذن تعبير صادق ولم يكن تكلفا وتقليدا ٠

تأثير المتنبى فى الشرق والغرب

لقد اتفق لأبى الطيب من العناية بشعره ما لم يتفق لشاعر عربى قبله فكانت تعقد بمصر على أيامه فيها حلقة لشرح ديوانه وكانت هــذه الحلقة تحت ارشاده • وفى حلب لم تخل مجالس الأدب من ذكره وحفظ شعره وتفسيره وروايته وكان اسم المتنبى دوما مقرونا باسم سيف الدولة• وفى شيراز وحيث عاش عضد الدولة زمنا كان شعر أبى الطيب موضوع بحث ودراسة واستشهاد حتى انتقل الى بغداد وفيها تغلغل اللمز للشاعر وديوانه حيا وميتا •

ولم يتح لشاعر عربى من النقد والتحليل لآثاره فى القديم والحديث ما أتيح لأبى الطيب وكان له فى القدامى محبون وخصـــوم وكذلك فى المحدثين من المعنيين بدراسته والمقارنة بينه وبين غيره •

تتبع الحاتمى البغدادى شعر المتنبى وادعى أنه اجتمع به وناقشه فيه ذكر ذلك فى رسالته الحاتمية ، وذكر فيها سرقاته والساقط من شعره ومما ذكره أن مصدر الآراء الفلسفية عند المتنبى هو أرسطو • أما ابن جنى فقد شرح ديوانه شرح معرفة وملازمة للشـــاعر وقد روى أن شعر أبى الطيب كثير وأن ما فى الديوان هو المتداول فى ايدى الناس من شعره وكذلك أبو العلاء المعرى أولع به وشرح شعره •

أما المتأخرون فقد كان من أفضـــل جمهرتهم فى العناية بالديوان الشيخ ناصيف اليازجى الذى أسدى الى المتنبى يدا لا تنسى فى سجل الزمن اذ حل معانيه وضبط شعره وقوافيه بما يوافق روح الشــــاعر وأدبه •

وكان الأستاذ عباس محمود العقاد سابقا الى دراسة المتنبى على المنهج العلمى الحديث فجاء بحثه المنشـــور فى مطالعاته جامعا بين الجدة والدقة فى الاستنباط والتقصى والمقارنة •

كما ان من آثار الدكتور عبد الوهاب عزام كتابين فى المتنبى واحدا لذكراه وآخر هو شرح ديوانه • فى الأول أثبت الانطباع الخالد لشعر المتنبى

فى نفسه وعرض لسيرته الزاخرة بالأحداث وقد قدم للقصائد فى شرح الديوان بذكر ظروفها وأحوالها الاجتماعية والسياسية ٠

هذه القصائد قالها أبو الطيب مثلما ينفح النسيم أو تهب العاصفة وقد فرغ منها ثم ترك الخلق يبحثون فيها فى عهده ومن بعده ويتداولون الرأى والنقد ونام هو عنهم جميعا بعين طاب لها الرقاد فى ظلال الخلود وهو القائل :

أنام ملء جفونى عن شـــواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

أنا الـــذى نظر الأعمى الى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صـــمم

حتى حار أبو العلاء المعرى فى هذه النبوءة التى جاءت من المتنبى يوم نظر بشعره بعد موته ٠

وقد تتبع المستشرق الأستاذ بلاشير أكثر ما ألف فى موضوع المتنبى عند الشرقيين والغربيين وعنى المستشرق الايطالى جابريللى بدراسة المتنبى وهو يرى فى شعره ما يأتى :

١ ــ المتنبى أقرب الى القدماء منه الى المحدثين ٠

٢ ــ ديوانه صـــدى المعرفة العميقة بدواوين الجاهليين والاســـلاميين والمولدين وقد كتب هذا المستشرق دراســـة حياة أبى الطيب من الوجهة الذاتية لا الموضوعية فاستخلص الأمور الآتية :

١ ــ امتلأ ديوانه بالمدائح والمراثى وهذا قسم خلقته المنفعة الخاصة ٠

٢ ــ أقيم التصنع فى هذا القسم مقام الاختيار وحلت التشبيهات والمجاز محل السمات الخاصة بكل شخصية بمعنى ان الحقيقة فى ممدوحيه حسب رأيه بقيت ظلالا باهتة ٠ ومايزال المستشرقون معنيين كل العناية بدراسة المتنبى وشعره لأنهم يجدون فيه مجال القول ذا سعة وموضـــوعا متعدد النواحى يعـــوزه الشرح والتحليل على المنهج الجـــديد ٠

كان كلامنا على حياة أبى الطيب وسيرته ممزوجا بنزعات شعره فان أبا الطيب شاعر أرخ حياته وصور حوادثه فى شعره ولم يجمجم ٠ والذين نسـقوا ديوانه حسب أدوار حياته صـنعوا الجميل لتاريخ أدبنا أكثر مما صنع العكبرى ٠ ومن رتب ديوانه على حروف الهجاء مثله فكان أن ضاع بذلك على الدراسين والباحثين منهج التسلسل فى حياة الشاعر جريا على الطريقة السخيفة التى سار عليها الأوائل وبعض الأواخر فى

جمع دواوين الشعراء ونشرها حسب حروف الهجاء فى القوافى والروى وهذه الطريقة ان دلت على شىء فــلا تدل على أكثر من لعبة تصفيف للحروف واحصاء لعدد الأبيات ٠

ومن أعظم قصائد أبى الطيب « سيفياته » التى قالها فى مدح سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب٠ ويلاحظ المستشرق الأستاذ ريجيس بلاشير فى كتابه الذى وضعه عن المتنبى سنة ١٩٣٥ قبل ذكراه الألفية بعام واحد أن أبا الفرج الأصبهانى لم يذكر أبا الطيب فى كتابه لكرهه للشاعر وارى أن اغفال هذا الذكر ربما كان عمدا وأن الأصفهانى الذى صــنع أغانيه فى خمسين عاما وقدمه الى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر ٠

قد يكون هذا الاعتذار على أنه تلقى الكتاب فى أواخر عمره حين ضاقت يده عن جزالة الاكرام وذلك بعد غلبة البيزنطيين وخيبته قبيل موته ومن عجب أن يسكت سيف الدولة عن اهمال أبى الفرج لذكر المتنبى وفى هذا اهمال للأمير نفسه ٠

ولقد لقى شعر المتنبى تحيزا فانقسم نقاده فريقين واحدا معه وآخر عليه وألفوا الكتب المطولة فى ذلك وكان أعدلهم القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٤٩٢ هـ كان قاضيا فى الرى فوضع فى أبى الطيب كتابا سماه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، كما وضع أبو الحسن الأفريقى المعروف بالمتيم الذى عاش فى عهد نوح بن منصور السامانى فى أواسط القرن الرابع للهجرة كتابا عن أبى الطيب سماه « الانتصار المنبى عن فضــل المتنبى » ــ ونجد البديعى الحلبى الذى توفى سنة ١٠٧٣ للهجرة قد وضع كتابا عن الشاعر سماه « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » ٠

أما العكبرى أبو البقــاء فقد شرح ديوان أبى الطيب سنة ٥٩٩ للهجرة وقرأه فى مصر على كبير أشياخها فى عصره محمد بن صالح التيمى النحوى كما قرأه على أبى الحرم بن ريان الماكسينى بالموصل معتمدا على أبى الفتح بن جنى فى شرحه لديوان أبى الطيب ثم على شرح أبى العلاء المعرى وأبى زكريا بن الخطيب واستفاد من شروح أبى على بن فورجة وأبى الفضل العروضى ٠ وهذان من أهل القرن الرابع للهجرة ، كما كانت استعانته كبيرة بشرح أبى الحسن الواحدى المتوفى بعد منتصف القرن الخامس للهجرة ٠

★ ★ ★

تلقى المتنبى ثقافته الأولى فى « كتاب » بالكوفة كان يدخله أولاد الأعيان من الكوفيين فتعلم العربية لغة واعرابا وشــعرا ثم ارتحل فى

مستهل شبابه الى البادية حيث صاحب الأعراب ولابسهم وأخذ عن شيوخهم كثيرا من أوابد اللغة وشواردها ورجع الى الكوفة بعد سنين شاعرا حاذقا عالما باللغة وأسرارها وتنقل من بادية العراق الى بادية الشام ومن البدو الى الحضر ومن المدر الى الوبر مترددا بين القبائل ومخايل العبقرية مبشرة بخير منه كثير وكان الفضل بذلك لأبيه الذى لازمه فى هذه الأسفار الأولى ولما اشتد ساعده قرأ على أكابر العلماء فى عصره منهم الزجاج أبو اسحق والسراج أبو بكر ، كما قرأ على نفطويه وابن درستويه ولزم أبا بكر محمد بن دريد وقرأ عليه ولم يترك كبيرا من علماء عصره دون أن يتصل به ويتلقى عنه ٠

وقد لازم الوراقين واتخذ كراريس يودعها شعره وخواطره ونظراته فيما يروقه أو لا يروقه من شعر معاصريه : أبى تمام والبحترى وبشار وأبى نواس وكانت هذه الكراريس عدته وزاده فى تجواله ورحيله ولقد بقى أثر البادية عميقا فى حياته مطبوعا فى ذهنه وخياله فكان شعره لا يخلو من الأثر حتى بعد انتقاله الى الحضر فكانت لغة البادية فى معانيه وقوافيه ، يهيج فؤاده بالأعرابيات ويترنم ببنات الجديل تمشى فى البيت ويتغنى بالرمح والسيوف وحمحمات الخيل وهدير الفحول ٠

لكن المتنبى الذى تناهت اليه ثقافة البادية والتطواف لم يقتصر عليها وما وقف دونها بل خرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة — كما قال القاضى الجرجانى — وراح يقرأ الفلسفة والمنطق ولا شك فى استفادته من فلسفة الفارابى الذى كان معروفا بحلب فى مقامه عند سيف الدولة كما تأثر بمقولات أرسطو وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعانى فيه والمرامى ودخلت شعره ألفاظ الصوفية والحكمة واستفاضت فيه خطرات نفسية وروحية دلت على استساغة ما تلقى من ثقافة حضرية تمازجت بالأولى ٠ أما مدرسته الكبرى التى عب منها حتى ارتوى وبقى فيها حتى انتهى فهى الحياة نفسها بتجاربها ومقاليدها ، بشقائها ونعيمها فاكتمل شعره وظهرت خصائص هذا الشعر فى تفكيره وشعوره غير منسلخة من أثر البادية ولا خالية من دواعى القلق والاضطراب فاستطاع ان يجمع بين ثقافتين ويفيد من حياة البدو ومعرفة الحضر ٠

وكان شعره مشابها — فى مصطلح عصرنا — لجريدة كبرى أو دار نشر فعظم خطره عند خصومه واحبائه وبلغ من تأثير هذا الشاعر بشعره أن خافه الملوك وطمعوا بمدحه وقد أثر الى ذلك مجرى السياسة فى عصره وأخبارها فاسبغ المديح والثناء على رجال وكال الهجاء والطعن لآخرين فجعل التاريخ فى عهده يساق بحداء هذا الهجو وذاك المديح أو ترسم صوره على كل شىء من التزوير أو التعديل ٠

كما أثر فى الشعراء الذين أتوا بعده فهم عالة على قصيده لا يريمون عنها حتى تدركهم التخم وقد ويتسللون الى ديوان أبى الطيب كلما عصتهم القرائح وتمردت المعانى فراحوا يقتنصـــون أروع ما عنده من القوافى والخواطر ولهؤلاء قصائد لو حملت كلماتها ومعانيها ـ كما يقال ـ مغناطيسية الرجوع الى قواعدها عند المتنبى لما بقى لهم سوى الأوزان الجافية مثل سمكة ذهب لحمها وبقى شوكها ٠

تاثيره فى ابى العلاء وشـــوقى

أثر شعر المتنبى ـ من حيث هو فن ـ فى الشعر العربى بعصره وفيمن أتى بعده ، فبعث فى الشعراء همة الى رفع شعرهم نحو طبقته لأن من عادة أهل الأدب الاقتداء والاتباع والمنافسة كأبو فراس الحمدانى وأكثر الشعراء الحمدانيين الذين ذكرهم الثعالبى كانوا ينسجون على أثر أبى الطيب وهم الذين حسدوه وتتبعوا أخطاءه ٠

وأما الذين أتوا بعده وتاثروا به فهم كثير لو تجرد مؤلف لجاء لهم بكتاب كبير فيهم على انى اكتفى بشاعرين عظيمين عاشا فى ظلال أبى الطيب أو فى تنسم وحيه وكان له فى كل منهما أثر عميق عاش معه عمره وقد يختلف القول فى أحدهما عن الآخر ٠

أولهما أبو العلاء المعرى الذى أقبل على شعر أبى الطيب اقبالا ما عرف من شاعر آخر مثله فتاثر بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية أيضا فأبيات أبى الطيب التى يقول فيها :

تمتع من ســـهاد أو رقـــاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثـــالث الحـــالين معنى ســـوى معنى انتباهك والمنام

نرى لها صورا اشتاتا فى اللزوميات لا تكاد تحصى وترجع هذه الأشباه عند أبى العلاء بروحها الى المتنبى ، وحين يغرقنا أبو العلاء بفلسفته الوعظية وزهده فى الحياة وذمه للمرأة وتبيانه لالاعيبها النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع ويدعونا الى ترك النسل لتعطيل العالم نجد أستاذه أبو الطيب يقول باختصار :

هل الولد المحبـــوب الا تعلة وهل خلوة الحسناء الا أذى البعل
وما الدهر أهـــل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه الى النسل

وأما فلسفة الموت والحياة التى عج بها شعر أبى العلاء عجيجا فاننا نجدها كلها صدى لهذا البيت عند أبى الطيب :

انبكي لموتانا على غير رغبـــة تفوتـه من الدنيـا ولا موهب جزل
اذا مـا تأملت الزمـــان وأهـــله تيقنت ان المـــوت ضرب من القتل

أو قـــوله :

يكفن بعضنا بعضـــا ويمشى أواخرنـــا على هـــذه الأوالى

والشاعر الثانى هو أحمد شوقى شاعر العربية فى القرن العشرين الميلادى . لقد أولع بشعر أبى الطيب فقلده فى سبكه وتعبيره والتزم فى أكثر قصائده أوزان المتنبى وقوافيه ورويها ولكن شوقيا لم يكن يصنع هذا لنفسه تعلقا بأبى الطيب فحسب بل اعتقادا منه بأنه لا يقل عنه شأنا فهو مطبوع على الشعر متمكن من العربية فلماذا لا يقدم روائع كالتى أتى بها أبو الطيب يضاهيها بتلك المحاكاة وربما كان فيها الابداع .

كان تأثر شوقى الذى جاء بعده بعدة عصور أقوى من تأثره بشعراء الغرب الذين قرأهم وتعلم ثقافتهم وأقام مدة فى بلادهم فتجلت طوابع المتنبى فى كثير من شعر شوقى وقد حاكاه فى بعض معانيه والفاظه ورثى جدته « تمراز » بقصيدة عارض فيها ميمية أبى الطيب التى رثى فيها جـــدته .

منزلته فى الشرق والغرب

لقد احتل أبو الطيب المتنبى فى أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى اليها وتبحبح فيها بقوة واقتدار متعاظما ومرغوبا فيه ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية وليس للحظ دخل فى ذلك فان حساب الحظ يسقط فى القيم الأدبية الخالدة ويكاد يكون هذا الفصل من الكتاب بجملته بيانا لمنزلة الشاعر فى أدب العرب حين تقدم الكلام على ديوانه وشراحه ومن كتب عنه من الاقدمين والمعاصرين وكفى برأى الجرجانى قاضى الرى بل قاضى الأدب أن تناول الشاعر بما هو أهل له فى كتابه « الوساطة » حتى خلص الى ان المتنبى هو الشاعر المتفوق وأن حملة النقد الكبرى التى حملت عليه كانت لنوازع المنافسة والحسد أكثر مما كانت لغاية النقد والأدب وقد خلفت له شهرة وجعلت الأنظار تتجه اليه راضية ومرت منزلة الشاعر عبر العصور فاذا تناولها الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ لم يسىء الى شاعريته فيها وان تبسط بذكر شوائبه وجاء ابن خلكان سنة ٦٨١ للهجرة فترجم للمتنبى فى كتابه المشهور « وفيات الأعيان » وكان قاضيا عادلا كالجرجانى فوضع الشاعر فى أرفع منزلة من الأدب العربى ثم قفى على آثاره البديعى فى القرن الحادى عشر للهجرة فأطال البحث فى قيمة المتنبى فى الشعر والحياة بكتابه « الصبح المنبى » .

وناهيك بما لقي المتنبي من عناية المعاصرين بما تقدم ذكره وخاصة في اقامة الحقول الدراسية لشعره وأدبه في ذكرى عيده الالفي سنة ١٩٣٦ في العواصم العربية وباريس وأهمها مهرجان دمشق ٠

أما منزلة المتنبي في أدب الغرب فقد احتلها رفيعة مرموقة ، اذ أن الأدب العالمي الذي يزن الشعراء والأدباء وأهل الفن بميزان المعاني الانسانية ويطلب في أن يسمع الشاعر الناس أصداء نفسه وروحه وأن يعطيهم صورته الصادقة في الألم والحب والفرحة والبغضاء وأن يكون شيئا ملحوظا في تاريخ البشر بآثاره الخالدة ونفاذا بناظريه وراء الوجود وكل هذا يجده الغربيون في شعر المتنبي فكان من السباقين الى التعريف بأبي الطيب في أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين الأستاذ المستشرق القديم غوستاف شلومبرجة الذي ترجم للمتنبي بمواضع كثيرة من كتبه وعرف به وبشعره وبفروسيته وحروبه للبيزنطيين والمؤرخ الرومي اسكندر فازيلييف وهو من السباقين أيضا في الغرب الى التعريف بالمتنبي ٠

ثم مضى على أثرهما أستاذان كبيران أحدهما الأستاذ المستشرق ماريوس كانار فوقف جزءا كبيرا من آثاره الأدبية في فرنسا والجزائر على أبي الطيب المتنبي والحمدانيين والثاني الأستاذ المستشرق رجيس بلاشير الذي ترجم في كتابه الذي ألفه عن أبي الطيب قسما كبيرا من شعره للغة الفرنسية ٠

وقد قدم هؤلاء وغيرهم من المستشرقين الألمان والروس والهولانديين والايطاليين أبا الطيب للعالم العربي وللأدب العالمي فرأوه شاعرا للعربية من طراز أعلى يعلم شعره المجد والمروءة والأخلاق ويبعث في النفس روح الحماسة والبطولة وهم جميعا عدوا أبا الطيب شاعرا منهم حدثا رائعا في أدب أمته ٠

وقد عنى غير هؤلاء بالمتنبي طائفة من المستشرقين درس كل منهم ناحية خاصة من نواحيه في الأدب والفلسفة فعنى المستشرق لويس ماسينيون بناحية غريبة في شعر أبي الطيب فعزا ما عنده من صلابة الأسر وتوقد الحماسة والميل الى الحرب الى نزعة (قرمطية) سماها النزعة الى سفك الدماء وهذا مذهب ارتآه الأستاذ ماسينيون حين وجد القرامطة يدهمون الأمصار في عصر أبي الطيب وقد جاءوا البصرة والكوفة وأعملوا فيها النهب والفساد ٠

والذي أجده أن ميل أبي الطيب الى الحرب كان نزعة حربية حرة في عصر عاني فيه العرب الانقسام والتناحر ومكايد الفرس والترك فكان

أبو الطيب صاحب رسالة حربية فى تحرير العرب من ربقة العجم وتجديد حياتهم بردهم الى مثلهم العليا السابقة ولا نستغرب هذه الرسالة من شاعر عربى حر كالمتنبى وتاريخ نضاله ورحلاته ومحتوى ديوانه يدلان أوضح دلالة على هذه الخطة التي ما حاد عنها حتى مات ٠ وليس ما يسوغ تفسير النزعة العربية الواضحة الصريحة عند أبى الطيب بنزعة قرمطية دموية مرادها السفك والتقتيل وقد رأى المستشرق ماسينيون رأى كل من الدكتور طه حسين والدكتور شوقى ضيف ٠

فهل تكون دعوة من نافح عن بلاده فى ذلك الحين وقد تحكم بها الأجنبى اذا حمل السلاح ودعا للتحرير والكفاح نزعة قرمطية لأنها تهدد بسفك الدم ؟ أو اذا قام فى عصرنا داعية ثائر لتخليص بلاد العرب من سلطان الأجنبى والمستعمر والصهيونية الغاصبة فأخذ بالشعر ليبعث الحمية والنخوة فى العرب يكون قرمطيا ؟ ان الوضع لم يختلف فى عصر المتنبى عما فى عصرنا ولئن كان من حظ القرن الرابع أن وجد فيه شاعر كالمتنبى ينهض بتلك الرسالة فمن لنا فى عصرنا بشاعر ؟ وشعراؤنا بين معتزل أو متغزل ، أو لاه بمطامع الدنيا ٠٠٠

وقد عنى بالمتنبى عدا أولئك المستشرقين أنداد لهم معاصرون فيهم : كارل بروكلمان وكارادوفو كما كتب المستشرق الايطالى جابريللى عن حياة المتنبى التى عرضها فى معرض التحليل ووجد صاحبها شاعرا يرتفع الى مصاف شعراء الغرب الخالدين وقد مارس هذا المستشرق دراسته لأبى الطيب خلال الأعوام ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ و ١٩٣٦ ٠ ويستخلص من هذا أن المتنبى بما ترك من شعر ودوى يعد من مفاخر الأمة العربية وأنه لا يقل قدرا ومنزلة عن الشعراء والعباقرة فى أمم الشرق والغرب ٠٠

مختارات من ديوان المتنبى

١ ـ التوثب والطموح

دل شعر المتنبى فى كل صوره وألوانه وخاصة فى صدر حياته على توثب وطموح لتحقيق أمر يضمره الشاعر وبدت صور هذا التوثب بعزيمة واستعداد أو بتوعد وتهديد أو باعتزاز بالنفس ونماذج هذه الطفرة الروحية فى شعر أبى الطيب تدل على اتجاهه الذى كان أبدا يسعى اليه ٠

وثبة ماجـــد

الى أى حين أنت فى زى محـــرم   وحتى متى فى شـــقوة والى كم
وان لا تمت تحت السيوف مكرما   تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقـــا بالله وثبة ماجـد   يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وسائل العلى

تحقر عنـــدى همتى كـل مطلب   ويقصر فى عينى المدى المتطاول
ومازلت طودا لا تزل مناكبى   الى ان بدت للضـــيم فى زلازل
كأنى من الوجناء فى ظهر موجـة   رأت بى بحارا ما لهن ســـواحل
يخيل لى أن البـــلاد مســـامعى   وأنى فيها ما تقول العواذل
ومن يبغ ما أبغى من المجد العلى   تساوى المحايا عنده والمقاتل
ألا ليست الحاجات الا نفوســـكم   وليس لنا الا السيوف وســـائل

الجلد الشـــجاع

أبا عبـــد الاله معـــاذ أنى   خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسيم ما طلبى وأنا   نخاطر فيه بالمهج الجســـام
أمثلى تأخذ النكبـــات منه   ويجزع من ملاقاة الحمـــام
ولو برز الزمان الى شخصا   لخضـــب شعر مفرقه حســـامى
وما بلغت مشـــيئتها الليالى   ولا ســـارت وفى يدهـــا زمامى
اذا امتلأت عيون الخيل منى   فويل فى التيقظ والمنـــام

(ب) التنقل فى البلاد

ولابد لمن يطلب المجد ان يطلبه فى كل مكان وأوان فاذا ضاق به بلد تركه الى سواه سعيا وراء أمانى النفس ورغبات الهمة والعزم :

الرحالة

أوانا فى بيـــوت البـــدو رحلى وآونـــة على قتـــد البعير
أرعض للرماح الصـــم نحرى وأنصـــب حر وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى كأنى منـــه فى قمر منـــير

طـــلاب الغرر

لا أقترى بلدا الا على غرر ولا أمر بخلق غير مضـــطغن
ومدقعين بســـبروت صـــحبتهم عارين من حلل كاســـين من درن
خراب بادية غرثى بطـــونهم مكن الضـــباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى وما يطيش لهم ســـهم من الظنن

البغية السامية

تغرب لا مستعظما غير نفســـه ولا قابلا الا لخالقه حكمـــا
ولا ســـالكا الا فواد عجاجه ولا واجدا الا لمكرمة طعمـــا
يقولون لى ما أنت فى كل بلدة وماتبتغى؟ ماأبتغى جل ان يسمى!

جبـــل وبحـــر

وكم من جبال جبت تشهد أننى ال جبال وبحر شـــاهد اننى البحر
وخرق مكان العيس منه مكاننـــا من العيس فيهواسط الكور والظهر
يخدن بنا فى جوزه وكاننا على كرة أو أرضه معنا ســـفر
ويوم وصلناه بليل كانمـــا على أفقه من برقـــة حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كانمـــا على متنه من دجنـــة حلل خضر

طلائع النجاد

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شـــتاء
لبس الثلوج بها على مسالكى فكأنها ببياضـــها ســـوداء

موجة الريح

ألفت ترحلي وجعـــلت أرضي قتودي والغريرى الجـــلالا
فما حاولت فى أرض مقـاما ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتى أوجهها جنــوبا أو شـــمالا

(ج) الغزل

قيل ان أبا الطيب تكلف الغزل على عادة الشعراء فلم تكن له عاطفة العاشق المتيم وقد علل النقاد هذا الرأى بأن المتنبى غلب عقله على عاطفته لكن قصائد المتنبى نفسها هى التى تدل على احساسه الرقيق فى الأبيات التى عبر فيها عن هواه ولم يستطع أن يخفى هذه الحقيقة وقد جاءت صور الغزل فى هذه الأبيات المتفرقة بدوية الأوصاف والملامح فلسفية المعانى أحيانا فيما حاكاه وتكرارا ، لكن روح العشق مشبت فى ألفاظها وقوافيها وهذه أبيات منها :

البـــدوية

من الجـآذر فى زى الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجـــلابيب
ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجـــه البدويات الرعابيب
أين المعيـــز من الآرام ناظـــرة وغير ناظرة فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صـــقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبى غير مخضوب

العاشق المبتلى

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولـــكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقـــلة المترقرق
وأحلى الهوى ماشك فى الوصل ربه وفى الهجر فهو الدهر يرجو ويتقى
وغضبى من الادلال سكرى من الصبى شفعت اليها من شـــبابى بريق
وأشنب معسول الثنيات واضح سترت فمى عنه فقبـــل مفرقى
وأجياد غزلان كجيدك زرننى فلم أتبين عاطلا من مطـوق
وما كل من يهوى يعف اذا خلا عفافى ويرضى الحب والخيل تلتقى

(د) الفخر

مما أثار حقد النـــاس على أبى الطيب من بنى قومه ومن الأمراء والملوك ومن العلماء والشعراء تشبث بالنسب وتفاخر بالشرف وتعاظم بما أوتى من مجد وفضل وتفوق واقدام عبر عن كل ذلك فى شعره بهذه المعانى فى مختلف قصائده ولا تكاد تخلو واحدة من بيت أو أبيات يمدح فيها ويفاخر :

ما بقـــومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجـــدودى
وبهم فخر كل من نطق الضـــا ... د وعوذ الجانى وغوث الطريد
ليس التعلل بالآمـــال من أربى ... ولا القناعة بالاقلال من شـــيمى
لا تركن وجوه الخيـــل ســـاهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
أى محـــل أرتقـــى ... أى عظيـــم أتقـــى
وكـــل ما قد خـــلق ... اللـــه وما لـــم يخلق
محتقـــر فى همتـــى ... كشـــعرة فى مفرقـــى
أنا الـــذى نظر الأعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم
وما الدهر الا من رواة قصائدى ... اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغنى مرددا
تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا الا لخالقه حكمـــا
فلا عبرت بى ساعة ولا تعزنى ... ولا صحبتنى مهجة تقبل الضـــيما

(هـ) المديح

ومن اماديحه فى عيد الأضحى لسيف الدولة أنشـــدها وهو على فرسه وسيف الدولة على فرس مقابل فى ميدان حلب تحت قصره :

اليـــوم الأوحد

لـــكل امرىء من دهره ما تعـــودا ... وعاد سيف الدولة الطعن فى العدى
وأن يكذب الارجاف عنه بضـــده ... ويمسى بما تنوى أعاديه أسـعدا
ذكى تظنيه طليعـــة عينـــه ... يرى قلبه فى يومه ما ترى غدا
وصول الى المستصعبات بخيله ... فلو كان قرن الشمس ماء لا وردا
لذلك سمى ابن الدمستق يومه ... مماتا وسماه الدمستق مولدا
سريت الى جيجان من أرض آمد ... ثلاثا لقد ادناك ركض وابعدا

فولى وأعطاك ابنه وجيوشه ... جميعا ولم يعط الجميع ليحمدا
عرضت له دون الحيـــاة وطرفه ... وأبصر سيف الله منـــك مجردا

(و) الشـــاعر الحكيم

تمرس أبو الطيب بكل شأن من شئون الحياة فذاق حلوها ومرها وعرف بؤسها ونعيمها وأحاط بثقافتها وعاش بتجاربها ومحنها ، ولم يقنع بما تعلم فكان دائب التطلع الى كل جديد وقد تمثل هذا فى معانيه التى اقتبست من غموض الصوفية ومن مذاهب الفلسفة التى عاشت فى عصره فظهرت فى شعره وهذه أبيات قليلة تردد فى كل زمان ومكان تجرى مجرى الأمثال وتعبر أصـــدق تعبير عن كثير من المعانى والأمور على اختلاف الحوادث والعصور :

ذل من يغبـــط الذليــــل بعيش ... رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجـــرح بميت ايـــلام
أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
اذا أنت أكرمت الـــكريم ملكته ... وان أنت أكرمت اللئيـــم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى
ما كـــل ما يتمنى المرء يدركـــه ... تجرى الرياح بما لاتشتهى السفن
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى ... عدوا لـــه ما من صـــداقته بد
واذا كانت النفـــوس كبـارا ... تعبت فى مرادها الأجســـام
واذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل
واحتمال الأذى ورؤية جانيـــ ... ـــه غذاء تضوى به الأجسام
واذا ما خلا الجبـــان بأرض ... طلب الطعن وحـــده والنزالا
تصـــفو الحيـــاة لجاهل أو غافل ... عما مضى منهـــا وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفســـه ... ويسومها طلب المحال فتطمع
وأتعب خلق الله من زاد همـــه ... وقصر عما تشـــتهى النفس وجده
وما بلـــد الانســـان غير الموافق ... ولا أهله الادنون غير الاصـــادق
لولا المشـــقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والاقدام قتـــال
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشـــقاوة ينعم
ومن البلية عذل من لا يرعـــوى ... عن جهله وخطـــاب من لا يفهم
ومن العـــداوة ما ينالك نفعـــه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

والى جانب تلك الحكم السامية التى نظمها المتنبى وأودعها شعره جرت قريحته بكثير من المعانى التى ذهبت مذهب الأمثال وحفظها الناس جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر واليكم بعضاً منها :

ان المعارف فى أهل النهى ذمم
أنا الغريق فما خوفى من البلل
ليس التكحل فى العينين كالكحل
ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا
وفى عنق الحسناء يستحسن العقد
مصائب قوم عند قوم فوائد
ومن قصد البحر استقل السواقيا
الجوع يرضى الأسود بالجيف
ولابد دون الشهد من ابر النحل
وبضدها تتميز الأشيــاء
رب عيش أمر منه الحمام

تاريخ الأمم والملوك

الطـــــبرى

٩٢٠م

تميزت الحركة الفكرية فى القرن الثالث للهجرة بأمرين كان من أهم نتائجهما التعجيل بازدهار الفكر العربى الاسلامى وفتح الباب واسعا أمام جداول الثقافات العالمية لتصب فى النهر الكبير ، نهر الثقافة العربية الاسـلامية .

وأول هذين الأمرين هو اقتراب العلوم الاسلامية من النضج والكمال سيما وان العمليات الأولية (كالرحلة فى طلب العلم وجمع المعلومات) والتبويب (تبويب الأحاديث والأخبار وتمييز صحيحها من فاســدها ... الخ) وتدوين الروايات فى الحقول المختلفة كانت قد انتهت وبدأ المشتغلون فى العلم يصنفون المطولات فى مختلف العلوم والفنون .

وفى هذه الحقبة من تاريخ الفكر العربى كانت اللغة قد جمعت من أفواه الأعراب وصنفت فيها الكتب ووضعت كتب السيرة والمغازى والفتوح وتبلورت الآراء والمذاهب الفقهية وأصبحت ترتكز على أسس ثابتة وجمع الحديث وألفت فيه الكتب الصحاح واتسعت آفاق الرجال فأصبح المحدث من بينهم يلم بالشعر والأخبار والمشتغل بالنحو يأخذ بالنصيب الوافر من الحديث والفقيه لا تخلو جعبته من شعر وخبر .

وثانى هذين الأمرين هو انكسار الطوق الذى كان يحصر مراكز الفكر فى العراق بمدنه الثلاث : الكوفة والبصرة وبغداد وسريان نور الثقافة الى مراكز جديدة خارج العراق كالشام ومصر والمغرب وفارس وخراسان وما وراء النهر والرى وغيرها ، أصبحت هذه المراكز الجــديدة تزخر بحلقات الدرس والتحصيل وتوفر لها من العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل اللغة والخبر ما جعلها محط أنظار الدارسين وطلاب العلم يقصــدونها للاستماع الى شيوخها والأخذ عنهم وتلقى العلم على يديهم .

نشأة ابن جرير الطبرى .. نبوغ مبكر !!

فى هذه الفترة من تاريخنا الفكرى ولد وعاش المؤرخ الفقيه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .

ولد بآمل عاصمة اقليم طبرستان وأكبر مدينة فى سهله وهى مدينة خرجت كثيرا من العلماء ولكنهم ينسبون الى طبرستان فيقال لكل منهم الطبرى ·

والاقليم الذى يشـــمله طبرستان متسع ممتد تشغل الجبال أكثر مســــاحته ·

وقد ســمى بهذا الاسم لأن ســكان الجبال كثيرو الحروب وأكثر أسلحتهم الأطبار ، فليس بينهم صعلوك ولا غنى ولا صغير ولا كبير الا وبيده الطبر فسميت بلادهم طبرستان أى بلاد الأطبار أو موضع الأطباز ·

وهو اقليم كثير المياه متهدل الأشجار متنوع الفاكهة قال أبو العلاء الروى فى وصفه :

اذا الريح فيهـــا جرت الريح أعجلت
فواختها فى ألغصن أن تترنمـــا

فـــكم طيرت فى الجـــو وردا مدنرا
يقلبـــه فيـــه ووردا مدرهمـــا

وأشــــجار تفـــاح كـــأن ثمارها
عوارض أبكار يضــــاحكن مغرما

فان عقدتها الشمس فيها حسبتها
خدودا على القضبان فذا وتوأما

ترى خطباء الطير فوق غصـــونها
تبث على العشـــاق وجدا مكتما

بدأ سعيد بن العاص فتح الاقليم فى عهد عثمان بن عفان فلما تولى معاوية بعث اليها مصقلة بن هبيرة ومعه عشرون ألف رجل فأوغل فيها لكن أهلها ترصدوا لهم فى المضايق فقتلوا مصقلة وأكثر رجاله ·

فكان المسلمون بعد ذلك اذا غزوا هذه البلاد تحفظوا وحذروا التوغل فيها ·

فلما تولى يزيد بن المهلب خراسان فى أيام سليمان بن عبد الملك سار حتى وصل الى طبرســـتان وقاتل أهلها فصالحوه ولم يزالوا يفون بصلحهم مرة ويغدرون أخرى الى أيام مروان بن محمد فانهم نقضوا عهدهم ومنعوا جزيتهم فوجه اليهم السفاح عاملا فصالحوه على مال ، ثم غدروا

وقتلوا المسلمين في خلافة المنصور فارسل اليهم ثلاثة من قواده حاربوهم وانتصروا عليهم ·

وفي أيام المأمون افتتحت جبال شروين من طبرستان وهي من أمنع الجبال وأصعبها فولى المأمون على طبرستان المازيار بن قارون — وكان قد شارك في فتح الجبال — وسماه محمدا فلم يزل واليا عليها حتى توفى المأمون فاقره المعتصم ولم يعزله لكنه بعد ست سنوات من ولاية المعتصم غدر وخالف · فكتب المعتصم الى عبد الله بن طاهر واليه على المشرق (خراسان والرى وقومس وجرجان) يأمره بمحاربته ، فلما قصدته جنود الخليفة وجنود ابن طاهر سلم ، وحمل الى سر من رأى (سامراء) سنة ٢٢٥ هـ فضرب بالسياط بين أيدى المعتصم حتى مات ·

ثم وليها بعد عبد الله بن طاهر ابنه طاهر وخلفه عليها أخوه سليمان فخرج عليه الحسن بن يزيد العلوى سنة ٢٤٩ فأخرجه عنها وغلب عليها الى أن مات وخلفه أخوه محمد بن يزيد ·

★★★

أما اسمه فمحمد وأما كنيته فأبو جعفر ·

والمؤرخون متفقون في نسبه حتى جده فهو أبو جعفر محمد بن جرير ابن يزيد لكنهم بعد ذلك مختلفون ، فيزيد هذا ابن كثير بن غالب في رأى أكثرهم ولم يذكروا رأيا آخر وفي رأى آخرين أنه ابن خالد ويظهر من عبارة ابن خلكان أنه يعتقد صحة هذا النسب ويضعف الرأى الآخر ·

على أن أبا جعفر نفسه لم يكن يزيد في نسبه اسما آخر على أبيه فقد سأل عن نسبه فقال : محمد بن جرير ، قال السائل : زدنا في النسب فأنشده بيت رؤبة بن العجاج :

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى
باسمى اذا الانساب طالت يكفنى

ولد في آخر سنة ٢٢٤ أو في مطلع سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ م) وقد سأله القاضى ابن كامل أحد تلاميذه الذين أرخوا له : كيف وقع لك الشك في سنة مولدك ؟ فقال أبو جعفر : كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين فأرخ مولدى بحادث كان في بلد فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون قال بعضهم : كان ذلك في آخر سنة أربع وعشرين ومائتين · وقـــال آخرون : بل كان في أول ســـنة خمس وعشرين ومائتين ·

وكانت وفاته بغداد يوم ٢٦ من شوال سنة ٣١٠ هـ فى عصر الخليفة العباسى المقتدر بالله ٠

ويبدو أن مؤرخيه يستبعدون ما قيل عن وفاته فى سنة ٣١١ أو ٣١٦ هـ ٠

وهم مجمعون على أن وفاته كانت ببغداد اذ أنه دفن هناك ٠

وقد ذكر ابن خلكان أنه رأى بمصر فى القرافة الصغرى عند سفح المقطم قبرا يزار وعند رأســه حجر مكتوب عليه (هذا قبر ابن جرير الطبرى) والناس يقولون انه صاحب التاريخ المشهور ثم قال : ان هذا ليس بصحيح ، بل الصحيح أنه دفن ببغداد وكذلك قال ابن يونس فى تاريخه المختص بالغرباء ٠

لم يكد أبو جعفر يبلغ السن التى تؤهله للتعلم حتى يعهد به والده الى علماء (آمل) وسرعان ما يتفتح عقلة وتبدو عليه مخايل النبوغ وهو حدث فقد قال : « انى حفظت القرآن ولى سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين وكتبت الحديث وأنا فى التاسعة » ٠

وكان هذا النبوغ المبكر حافزا لأبيه على الجد فى اكمال تعليمه وبخاصة أنه رأى حلما تفاءل من تأويله قال الطبرى : « رأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى مخلاة مملوءة بالأحجار وأنا أرمى بين يديه ٠

وقص رؤياه على المعبر فقال له : ان ابنك ان كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته فحرض أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبى صــغير » ٠

وأغلب الظن أن والده لم يحبس هذه الرؤيا فى نفسه بل أخبر بها ابنه الصغير ولعله أخبره بها مرات فكانت هذه البشارة من حوافز أبى جعفر الى الاجتهاد فى طلب العلم والدأب النشيط فى الاستزادة من ينابيعه ، ثم الكد المتصل فى التدريس والتأليف طيلة حياته ٠

ها هو ذا يقضى سنوات فى « آمل » تزيده الى المعرفة ظمأ فيتنقل بين مدن طبرستان وغيرها من بلاد الفرس يستقى من ينابيعها ما يبرد غلته فيبدأ بالسفر الى الرى وما جاورها ليأخذ الحديث عن محمد بن حميد الرازى والمثنى بن ابراهيم الابلى ويقول : « كنا نكتب فن ابن حميد فيخرج الينا فى الليل مرات ويسألنا عما كتبناه ويقرؤه علينا » ٠

وفى هذه المنطقة يدرس التاريخ على محمد بن أحمد بن حماد الدولابى مع حرص شديد على مجالس ابن حميد قال : « كنا نمضي الى أحمد ابن حماد الدولابى وكان فى قرية من قرى الري ثم نعدو كالمجانين حتى نعود الى ابن حميد فنحلق مجلسه » · ويقال انه كتب عنه أكثر من مائة ألف حديث ·

على أنه درس عليه التفسير أيضا وأخذ فقه أهل العراق عن أبى مقاتل بالرى ، فاذا ما ارتوى من هذه الينابيع أحس بظمأ جديد الى مناهل أخرى ·

فالى أين يقصد ؟

يشخص الى بغداد ليسمع من عالمها أحمد بن حنبل ويمنى نفسه وهو فى طريقه بأنه سيتلقى من الامام المحدث الفقيه ، لكن الأقدار لم تحقق له ما كان يأمله اذ توفى ابن حنبل قبل ان يصل أبو جعفر الى بغداد ويعلم بوفاته وهو على مقربة منها فينصرف عنها ولا يفكر فى ان يعود الى بلده فيتجه الى البصرة ويسمع من علمائها : يسمع من محمد بن موسى الحرشى وعماد بن موسى القزاز ومحمد بن عبد الأعلى الصنعانى وبشر بن معاذ ومحمد بن بشار المعروف ببندار وأبى الأشعث ومحمد بن المعلى وغيرهم ·

ثم ينتقل الى واسط فيسمع من بعض شيوخها ·

ويحدوه الكلف بالمعرفة الى أن يرحل الى الكوفة فيكتب الحديث عن هناد بن السرى واسماعيل بن موسى وأبى كريب محمد بن العلاء الهمدانى ويأخذ القراءات عن سليمان الطلحى ·

ويتبين زملاؤه فى الكوفة انه أقدرهم وأحفظهم ثم يتبين أبو كريب أن الطبرى أنبغهم ، فقد كان أبو كريب من كبار علماء الحديث لكن كانت فيه شراسة وشدة · وقد وصف الطبرى لقاءه لتلاميذه مرة فقال : « حضرت الى داره مع طلاب الحديث فاطلع من باب خوخة له ، وطلاب الحديث يلتمسون الدخول ويصيحون فقال : أيكم يحفظ ما كتبه عنى ؟

فالتفت بعضهم الى بعض ثم نظروا الى وقالوا : أنت تحفظ ما كتبت عنه ؟ قلت : نعم قالوا : هذا فاسأله فقلت : حدثنا فى كذا بكذا وفى يوم كذا بكذا ·

فأخذ أبو كريب يسائلنى الى ان عظمت فى نفسه فقال لى : ادخل الى فدخلت فمكننى من حديثه » ·

ويقال انه سمع من أبي كريب أكثر من مائة الف حديث · هل يقنع الطالب النهم بما حصل في الري والبصرة وواسط والكوفة ؟ لا ولعل هذه الدراسة قد زادته الى العلم شوقا وزادته به كلفا ·

لقد كان يريد بغداد ليدرس على ابن حنبل فانصرف عنها لما علم بموته ولم يدخلها ·

فلماذا لا يتجه اليها الآن وفيها من جلة العلماء من يروون ظمأه أو بعض ظمئه الى المعرفة ؟

وسرعان ما يندفع الى بغداد فيدرس القراءات على أحمد بن يوسف التغلبي ، ويتلقى فقه الشافعي عن الحسن بن محمد الصباح الزعفراني وعن ابي سعيد الاصطخري ·

فهل آن لهذا الظمآن أن يرتوى فلا يرتحل الى ينابيع أخرى ؟

ان هذا بعيد لان العطاش الى المعارف لا يرتوون مهما ينهلوا ولعلهم كلما نهلوا استطابوا العلم فازدادوا اليه ظمأ واحتملوا في سبيله نصبا ·

انه يعتزم رحلة طويلة الى بلد بعيد تهفو اليه نفسه · فليتجه الى مصر ليستقي من مناهلها التي طالما سمع بها ·

لكن شوقه الى المعرفة يعرج به الى الشام فيقيم في بيروت مدة يلقى فيها العباس بن الوليد البيروتي المقرىء ويقرأ عليه القرآن كله برواية الشـــاميين ·

فاذا ما قضى من الشام حاجته اندفع الى مصر فوصل اليها سنة ٢٥٣ هـ في أوائل عهد أحمد بن طولون ·

اقام مدة بالفسطاط ثم عن له ان يعود الى الشام فلما قضى من هناك اربا علميا رجع الى مصر سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ·

ولقد كانت مصر حينئذ ثرية بعلمائه الذين استسقاهم الطبرى ·

ها هو ذا يدرس في مصر فقه الشافعي على الربيع بن سليمان المرادي واسماعيل بن ابراهيم المزني ومحمد بن عبد الله بن الحكم وأخيه عبد الرحمن ويدرس فقه مالك على تلاميذ ابن وهب ·

ويلقى يونس بن عبد الأعلى الصدفي فيأخذ عنه قراءة حمزة وورش· وكان بمصر وقت دخوله اليها أبو الحسن علي بن سراج المصرى وكان متأدبا فاضلا يقصده من دخل الفسطاط من أهل العلم فلما ظهرت شهرة الطبرى بمصر وبان فضله وعلمه بالقرآن واللغة والحديث والفقة والنحو والشعر

لقيه أبو الحسن بن سراج فوجده واسع المعرفة سديد الجواب في كل ما سأله عنه .

فسأله عن شعر الطرماح بن حكيم ولم يكن في مصر من يحفظه فوجد الطبري يحفظه فسأله ان يمليه ويفسر غريبه فاخذ يمليه عند بيت المال في الجامع .

ثم يناقش المزني — بعد أن درس عليه فقه الشافعي — في عدة مسائل منها كلام في الاجماع . وكان الطبري قد اختار من مذاهب الفقهاء قولا اجتهد فيه بعد ان كان تفقهه في بغداد على مذهب الشـــافعي وبعد ان درسه بمصر .

وقد سأله أبو بكر أحمد بن كامل فيما بعد عن المسألة التي تناظر فيها هو والمزني فلم يذكرها لانه كما قال ابن كامل : « كان أفضل من ان يرفع نفسه وأن يذكر تفوقه على خصم في مسألة » .

ويشاء حظه المواتي ان يجتمع بمصر بمحمد بن اسحاق بن خزيمة وأن يقرأ كتابه في السيرة ثم يعتمد عليه في مصادر تاريخه .

وقد اجتمع بمصر في ذلك الوقت أربعة من العلماء الوافدين اسم كل منهم محمد هم : محمد بن جرير الطبري ومحمد بن اسحاق ومحمد ابن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني وقد أبى الخيال الا أن يزخرف من اجتماعهم بمصر اسطورة تنبيء عن نبل أخلاقهم وطهارة نفوسهم وتدل على تقدير الحاكم للعلم والعلماء .

ذكر ياقوت نقلا عن كتاب السمعاني وذكر الخطيب البغدادي في ترجمته لمحمد بن حرب أن الرحلة جمعت بين أولئك المحمدين بمصر فأرملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يمونهم ولحق بهم الضرر فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون اليه واتفقوا على أن يستهموا — يقترعوا — فمن خرجت عليه القرعة سأل الناس لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق فقال لأصحابه : أمهلوني حتى اتوضأ وأصلي صلاة الخيرة . فاندفع الصلاة فاذا هم بالشموع وخصى من قبل والى مصر يدق عليهم الباب ففتحوا له فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل له : هذا وأشاروا اليه فاخرج صرة فيها خمسون دينارا ودفعها اليه .

ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل له هذا فدفع اليه مثلها .

ثم قال : ايكم محمد بن اسحاق ؟ فقالوا : هو ذا يصلي فلما فرغ من صلاته دفع اليه صرة فيها خمسون دينارا .

ثم قال لهم : ان الأمير كان في قيلولته فرأى في النوم طيفا يقول له :

ان المحامد اشتد بهم الجوع فبعث بهذه الصرر وهو يقسم عليكم اذا نفدت أن تبعثوا اليه ليزيدكم .

ويظهر أن الحنين الى بغداد عاوده فقصد اليها .

لكنه لم يلبث أن اتجه الى طبرستان وكانت هذه زورته الأولى لها منذ ان فارقها في طلب العلم .

فقضى بها مدة رجع بعدها الى بغداد ثم عاد الى طبرستان مرة ثانية سنة ٢٩٠ هـ .

لكن بغداد أبت الا أن تجتذبه فعاد اليها وأقام بها وانقطع للتدريس والتأليف الى ان ودع الحياة .

ويظهر من تتبع أساتذته أنه تلقى على الكبار من علماء عصره وسمع من الشيوخ الثقات الذين مر ذكر بعضهم .

وهناك كثير غيرهم من أصحاب الأسانيد العالية بمصر والشـــام وبغداد والكوفة والبصرة والري .

فقد تلقى القراءات على سليمان بن عبد الرحمن بن حماد (خلاد) الطلحي ، وكان الطلحي قد قرأ على خلاد وخلاد قرأ على سليم بن عيسى وسليم قرأ على حمزة وتلقاها كذلك عن يونس بن عبد الأعلى عن على بن كيسة عن سليم بن حمزة ...

تطور المنهج التاريخي عند الطبرى

كان التاريخ قبيل الطبرى وفى عصر الطبرى قد خطا خطوتين واسعتين فى ميدان تطوره . أولاهما هى استقلاله وانفصاله من الحديث فى القرن الثانى منذ تخصص كثير من المؤرخين فى موضوعات معينة اشتهروا بمعرفتها وجمعها وتدوينها : فمحمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ يشتهر بالانساب وعوانه بن الحكم الكلبى المتوفى سنة ١٤٧ يدون أخبار بنى أمية وأبو مخنف لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٧ هـ يؤلف فى حرب الردة وفى موقعة الجمل وفتوح الشام ومقتل عثمان ومقتل على الخ ، وسيف بن عمر المتوفى سنة ١٧٠ يؤلف فى الفتوح وهشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ يدون أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأصنامهم ويؤلف فى بعض أخبار الاسلام .

وكان بعضهم قد تخصص فى تواريخ الأقاليم فكان أبو مخنف أعلم من غيره بأمور العراق وأخبارها وفتوحها ، وكان المدائنى أعرف بأمور فارس وخراسان والهند وكان الواقدى أدرى بالسيرة النبوية وتاريخ الحجاز وهؤلاء الثلاثة أكثر من غيرهم علما بفتوح الشام ثم اتضح هذا التخصص حينما انقسمت الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث وتعددت الممالك والامارات والدويلات وكثرت العواصم والحواضر التى نافست بغداد فازدانت بالعلماء أصفهان وغزنة والرى وبلخ وحلب والقاهرة والقيروان وقرطبة .

وكان من أثر هذا الاستقلال أن ازدهر التاريخ الاقليمى وأن كثرت كتب التراجم والطبقات .

فابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ الف فى فتوح مصر والمغرب والبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ ألف فى أنساب الاشراف وفى فتوح البلدان وابن يونس (٢٨١ ـ ٣٤٧) أرخ لحوادث مصر ورجالها ومن طرأ عليها من الغرباء والكندى (٢٨٣ ـ ٣٥٠) ألف كتابا فى ولاة مصر وقضاتها وكتابا فى خططها وكتابا فى مواليها .

على ان التاليف فى التاريخ العام لم يتوقف عن مســـايرة هذه الاتجاهات فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ ألف كتابه المعارف وغيره ٠

وهنــاك آخرون دونوا تاريخ العالم منــذ الخليقة ، وتعرضوا لتاريخ الشعوب وبخاصة الفرس والروم كاليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ (أو ٢٨٤) ، صاحب التاريخ المعروف باســـمه والدينورى المتوفى سنة ٢٩٠ مؤلف الأخبار الطوال ٠

وأما الخطوة الأخرى فقد كانت تمثل المكانة العالية للتاريخ والمؤرخين اذ تعددت مصادره الموثوق بها فى القرن الثالث فصار لا يعتمد على الأساطير والأخبار التى لا ضابط لها بل يعتمد على كتب مدونة فى السيرة وتاريخ الاقاليم والتاريخ العام وعلى وثائق وسجلات وعلى كتب مترجمة من اللغات الأجنبية الى جانب اعتمــاده على المشــافهة والمشــاهدة والرحـــلات ٠

ولم يعد المؤرخ يسمى اخباريا ، كما كان يسمى من قبل ، واقتصر مدلول الاخبارى على راوى القصص والنوادر والحكايات ٠

وبهذا صار التاريخ علما لا يستنكف العلماء والفقهاء من التوفر على دراسته ولا يتحالون التأليف فيه وأصبح المؤرخون ذوى مكانة عالية بين العلمــاء ٠٠

بين الكتاب ومؤلفه

يستمد المؤرخ المطبوع نظرته الخاصة الى جملة التاريخ وأجزائه من نظرته الى الكون كله وهذه النظرة قائمة على شخصيته وأخلاقه ومزاجه ومنزعه المفضل في الحياة عن اختيار أو اضـــطرار ولا شك أن لثقافته وبيئته وعصره آثارها في نظرته العامة والخاصة • ولكن هذه الآثار لا تظهر الا من تأثيرها في نفسه ومن خلالها أولا ثم تظهر بعد ذلك في كل ما يصدر عنه ومن ذلك نظرته التاريخية والكونية • فالشخصية الانسانية هي ملتقى الآثار من كل ما يحيط بها ومن يحيط ومنها تصـــدر دوافع الأعمال والأقوال :

ولذلك تختلف نظرات الناس الى التاريخ باختلاف أنماط شخصياتهم وخصائص كل نمط والفروق الفردية بين كل فرد وغيره فلا يستوى في النظرة التاريخية النظريون والعمليون • ولا يســـتوى فيها الفنانون والفلاسفة والعلماء ونحوهم • وان كانوا جميعاً نظريين • ولا يستوى فيها افراد كل طائفة من هؤلاء ولو كانوا على نهج واحد في النظر لاختلافهم في الامزجة والأخلاق والملكات والسير أو لاختلافات أخرى تعود الى تنــوع العصـــور والبيئات والألوان الثقافية والحضارية الغالبة على كل منها وكلها مع موروثات الانسان قوام شخصيته التي هي مورد معطيات الوجود له ومصدر ما يحدث منه •

وليست صورة الكون عند أي انسان إلا وفق ما تنطبع في نفسه أو هي صورة نفسه التي تطبع بطابعها كل ما تتلقاه من الحياة والاحياء فاذا عرفنا كيف ينظر الانسان الى التاريخ مثلا عرفنا ما هو أو طبيعته واذا عرفنا ما هو عرفنا كيف ينظر الى التاريخ أو غيره •

والطبري في تاريخه يؤرخ لخلق العالم بسماواته وأرضه ومن فيه فتلمح في نظرته الى العالم نظرة الحواري أو رجل الدين الذي يتبصر حكمة الله وفضله في ابداع خلقه وما دبر لمخلوقاته من أقدار ونظم لهم من سنن • فتاريخ الكون ومن فيه مجال للعظة والعبرة وخلقه آية حول الله وطوله • ولقد خلق الله فيه الانس والجن لعبادته وخلق لهم السموات والأرض وما بينهما على وفق مصلحتهم كما اقتضت حكمته ونعمته •

وفهم الطبرى للزمان فهم الحوارى كذلك فالزمان ســاعات الليل والنهار ، ليعرف عباد الله من ذلك عدد السنين والحساب فيعبدوه وفق مواقيت معينة ويبتغوا من فضله نهارا ويسكنوا الى الراحة ليلا وبذلك يستوجب الله عليهم شكره وجزاء نعمته فمن شكره زاده ومن عصى عاقبه بذنبه أو عفا عنه بفضله. والطبرى ـ كما ينبغي أن نتوقع ـ يحتج لكل ذلك بالآثار القرآنية ليدعم قلمه ببراهينه ويزداد يقينا الى يقينه وهذه عناية وفاء الطبرى لحواريته فى تاريخه وفى سائر مؤلفاته وهى من أقوى الأدلة على أصالة هذه الطبيعة فيه وانطباع كل ما يصدر عنه بخصائصها الحية القومية . فالتاريخ عنده من العلوم الدينية ، والكون كله معبود وعابدون وان كان فيهم أبرار وخطاة أو مطيعون وعصاة والله وراء كل شىء محيط وهو صاحب الأمر والخلق وليس كمثله شىء وهو الأول قبل كل أول والآخر قبل كل آخر وقد خلق الخلق وهو الغنى عنهم فضلا منه ونعمة وهو المدبر لهم وفق حكمته وكرمه وقدرته « لا يســـأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقد أراد أن يخرج الكتاب ـ وفق سعة علمه بموضوعه ـ فى ثلاثين ألف ورقة فحال طلابه دون ذلك فأخرجه فى ثلاثة آلاف ورقة تبلغ فى الطبعة المصرية ٣٣٠٠ صفحة .

محتويات الكتـــاب

يبدأ الكتاب بخطبة (مقدمة) يليها تمهيد ثم التاريخ وهذا يشمل تاريخ الخلق منذ بدأ حتى سنة ٣٠٢ وهو شطران يفصل بينهما الهجرة النبوية وسنجمل فيما يلى كل قسم من أقسامه الأربعة ونهجه الخاص به .

(أ) الخطبـــة :

وهى تقع فى ثلاث صفحات وتبدأ باسم الله وحمده بما هو أهله من قدم وبقاء ووحدانية وقدرة وتجرد عن المكان ولطف عن الادراك ثم شكره على فضله والاقرار بوحدانيته ونبوة محمد عليه السلام وعبوديته لله الذى أرسله فنهض برسالته ثم شرح حكمة الخلق كما لخصناها حين وضحنا نظرة المؤلف التاريخية ودلالتها على طبيعته ثم اشارة الى موضوع الكتاب وهو ذكر ما انتهت الى المؤلف أخبارهم منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والخلفاء مع جملة من حوادث الأمور فى كل عصر منهم « اذ كان الاستقصاء فى ذلك يقصر عنه العمر وتطول به الكتب » ثم أشار المؤلف الى أنه سيمهد لذلك بالكلام على ما هو أولى وهو الزمان « ما هو وكم قدر جميعه وابتداء أوله وانتهاء آخره وهل كان قبل خلق الله تعالى اياه شىء غيره وهل هو فان وهل بعد فنائه شىء غير وجه المسبح الخلاق تعالى ذكره

وما الذي كان قبل خلق الله ايام وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى ايام وكيف يكون فناؤه والدلالة على أن لا قديم الا الله .... بوجيز من الدلالة غير طويل اذ لم تقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضية وجمل من أخبارهم ... » .

ثم أشار الى أنه سيتبع ذلك بتاريخ النبي وصحابته وتابعيه ومن بعدهم ... ومن حمدت روايته أو رفضت وسبب ذلك . ثم أشار الى أنه أدى ما وصل اليه كما وصل لأن الأخبار تعرف بالنقل لا باستنباط الفكر والحجج العقلية ويبرأ من عهدة ما ينقله من خبر قد يستنكر أو يستبشع وأن العهدة فيذلك على الرواة لا عليه على نحو ما قدمنا في هذا آنفا عن كلامنا على نظرته التاريخية ومنهج كتابه .

(ب) تمهيد في الزمان وبدء الخلق :

يقع التمهيد في نحو خمسين صفحة وفيه يوضح الزمان ما هو فيعرفه بانه ساعات الليل والنهار ، وان من معانيه المدة الطويلة أو القصيرة ويحتج لهذه التعريفات بكلام العرب وهى تعريفات عالم فقيه لغوى لا تعريفات فيلسوف .

ثم يتكلم عن مقدار الزمان من بدئه الى نهايته ويذكر الأقوال فيه فينقل بسنده عن ابن عباس تقديره بسبعة آلاف سنة فتقدير كعب الأحبار له بستة آلاف سنة ومن وافقه على ذلك ويتبعه بأقوال من يقدره تقديرا مبهما اعتمادا على قرب مبعث نبينا محمد ـ عليه السلام ـ من قيام الساعة معتمدا على أحاديث يرويها ونهجه هنا أنه يذكر الرأى ويروى طائفة من أقوال أصحابه بأسانيدها اليهم مهما يطل السند أو العنعنة ثم يذكر رأى اليهود في قدر الزمان اعتمادا على توراتهم وأنهم يقدرونه من بدء الخلق حتى الهجرة النبوية باثنتين وأربعين وستمائة سنة وأربعة آلاف ويذكر أن اليونانية من النصارى يرون بطلان تقدير اليهود ويرفضونه وأنهم يقدرون هذه الفترة باثنتين وتسعين سنة وخمسة آلاف وعدة أشهر اعتمادا على التوراة التى فى أيديهم أيضا والاختلاف دينى آت من اعتقاد كل من الطائفتين فى المسيح أهو ابن مريم الذى ظهر فاتبعه النصارى ورفضه اليهود أم هو لم يأت بعد فاليهود ينتظرونه على ما يدعون .
ثم يذكر رأى المجوس فى أن آدم (أبو البشر) حتى الهجرة النبوية وهم يقدرون هذه المدة بتسع وثلاثين ومائة سنة وثلاثة آلاف ثم يختم ذلك باختلاف الاخباريين فى قدر هذه المدة ولا يتعرض لرأى أهل الهند فيها كما تعرض له المسعودى فى « مروج الذهب » وهم يحسبون مدة العالم بالدورات الكونية وتبلغ ملايين السنين » .

ثم يذكر حدوث الزمان وان له بدءا ونهاية وأن وجود الله قبله وبعده دائم ، ويحتج لذلك بالنقل عن القرآن والعقل واحتجاجه في الحالين احتجاج حواري لاهوتي وليس احتجاج فيلسوف مع اطلاعه على الفلسفة وغاية ما يقترب فيه من الفلسفة تفرقته بين وجود الله بغير زمان ووجود الخلق مع الزمان وأدلته أضعف من الأدلة القرآنية على ذلك وهو يقتصر من بينها على دليل الايجاد أو الخلق الذى يسميه الأوربيون « البرهان الكونى » وخلاصته « أن كل موجود يتوقف على غيره ، وهكذا فلابد من سبب للموجودات بوجودها ولا يتوقف وجوده على غيره » وهذا عند أرسطو هو برهان « المحرك الذى لا يتحرك » .

ثم يذكر بدء الخلق وأن أوله القلم الذى كتب القدر ثم الغمام (وهو أشبه بما يسمى « العماء » فى بعض ما نسب الى النبى عليه السلام وما يسمى فى الفلسفة (الهيولى) أو « القابلية » ثم يذكر ظهور مخلوقات أخرى : العرش والماء والريح وسائر السموات والأرض وما فيهن من الكائنات ومن بينها الجن والانس ويبين اختلاف الأقوال فى اليوم الذى خلق فيه كل منها بين الأيام الستة ويبين مقدار اليوم معتمدا على القرآن الكريم الذى يشير الى أن اليوم عند الله مقداره ألف سنة مما نعد وبذلك ينجو المؤلف من الانحصار الذى يقع فيه العامى حين يفهم اليوم بمعنى الليل والنهار ، ويفلت من الاشكال الذى يتورط فيه العامى حين يفهم ذلك ثم يجد أمامه أن الشمس أو الأرض لم تخلقا فى اليوم الأول أو الثانى بل بعد ذلك وبهما تعرف الأزمنة .

ثم يذكر سبب خلق الزمن ليلا ونهارا وما كان لابليس — على بعض الأقوال — من ملك السماء الدنيا والأرض حتى كشف الله عن كبر ابليس بخلق آدم ففضح دعواه الربوبية ثم نزع منه مجده ويذكر تحدى الله الملائكة بآدم حين عارضوا خلقه اياه فامتحنه واياهم فأفلح وخابوا ثم أذعنوا الا ابليس ثم يذكر حياة آدم قبل خروجه الى الأرض وبعده ومن هنا يبدأ التاريخ البشرى .

(ج) التاريخ البشرى حتى الهجرة :

يبلغ هذا القسم نحو خمسمائة صفحة وهو يستوعب بقية الجزء الأول وجميع الجزء الثانى الا خمسين صفحة ، وفيه يذكر المؤلف خروج آدم أين كان ، وما تزود به فى خروجه وما وقع فى عهده من أحداث أهمها ما نسلته له حواء من بنين وبنات فيذكر عددهم وتزويجه هؤلاء بهؤلاء ليبقى النسل وتعمر الأرض ويذكر اختلاف الرواة فى ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر وسبب نزاعهما وزمنهما وهل هما ممن ولدت حواء لآدم أم هما من بنى اسرائيل .

ثم يذكر زعم الفرس في آدم أبي البشر وأنه عندهم « جيومرت » ، ويذكر آراء من يوافقهم ومن يخالفهم في ذلك وفيما ينسبونه اليه من أعمال ويرجح رأى من يرى أن جيومرت هو جامر بن يافث بن نوح وأنه ملك طبرستان (موطن المؤلف) ثم فارس ثم اتسع ملكه وملك أبنائه فشمل بابل وسائر الأقاليم ويحتج لذلك باتفاق العلماء على أبوة جيومرت للفرس وأن ملكه هو وأولاده لم يزل متصلا حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم فى زمن عثمان بن عفان ٠

ثم يذكر ما قيل فى عدد ولد حواء لآدم وعدد الأنبياء من نبيه وأنهم أربعة وعشرون ومائة ألف منهم ثلاثة عشر وثلثمائة رسول ، ويختم القول فى آدم بوفاته ودفنه ثم تكاثر ذريته وانتشارهم فى الأرض شرقا وغربا وحوادثهم حتى أيام نوح فيفصل الأقوال فى دعوته وعصيان قومه وصنعه السـفينة وقصة الطوفان ومن نجا معه فى السفينة من حيوان الأرض وناسها وتناسل الخلق بعده من أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث وخصائص كل منهم ، فهو الأب الثانى للبشر بعد آدم وكلهم حتى الآن من ولده الثلاثة فليس منهم الا من هو سامى أو حامى أو يافثى كما يذكر قول المجـوس فى انكـار الطوفان وينكره عليهم معتمدا على القرآن والحديث الشريف وأقوال العلماء ٠

وهنا يذكر « بدأ التاريخ على مذهب أهل الكتاب وغيرهم » فأهل الكتاب يؤرخون بالخلق ثم خروج آدم ثم مبعث نوح فالطوفان وتفرق أبناء نـوح ثم نـار ابراهيم ثم مبعث يوسف الى مبعث موسى الى ملك داود وسليمان ثم مبعث عيسى وهـذا عند المؤلف ينبغى أن يكون على تاريخ اليهود ٠ وأما النصارى فتؤرخ بعهد الاسكندر وأما الفرس فى عهـد المؤلف فكانت تؤرخ بعهد يزدجرد وأما المسلمون فيؤرخون بالهجرة النبوية وأما العرب قبل الاسلام فكانت قريش بينهم تؤرخ بعام الفيل وسائر العرب يؤرخون بأيامهم « وقائعهم الحربية » ٠

وهنا يقف المؤلف وقفة حاسمة فى تاريخه الحوادث كانت لها نتائج خطيرة فى كتابه سنعرض لها فى ختام كلامنا على هذا القسم من كتابه ٠ وحسبنا هنا الاشـارة الى أنه جعل التاريخ (التوقيت) الفارسى قبل الهجرة النبوية فى المحل الأول واتخذه نظاما رئيسيا يقاس به غيره من التاريخات ويركب عليه ولا يقاس بتاريخ آخر حتى تاريخ اليهود والسبب فى ايثاره تاريخ الفرس على التاريخ « التوقيت » اليهـودى أن الأول ـ كما أشار المؤلف ـ مرتبط بظهور المملكة الفارسية واتصال أحداثها فهو متصل منتظم واضح الأزمنة وليس الثانى كذلك ولهذا يجعله تابعا

للتاريخ الفارسى وان كان يعول على التأريخ اليهودى حين يربط بين حوادثه الخاصة به فيما بين بعضها وبعض ٠

ومن هنا لا يكاد المؤلف يعرض لتأريخ ما بعد الطوفان حتى يظهر عنده تأريخ المملكة الفارسية ثم يزداد ظهورا وإنتظاما مع توالى الأزمنة فبعد أن يذكر « جيومرت » ـ « آدم عند الفرس » كما قدمنا ـ نراه يذكر بعده « أوشهنج » الفارسى الذى قيل انه ملك الأقاليم السبعة وأسس مدينة بابل ومدينة السوس ٠ وعند اشارته الى حوادث بنى آدم من عهد « شيث » الى أيام « يرد » بن مهلائيل بن قينان بن أنوس بن شيث بن آدم يذكر رأى بعض الفرس فى أن « أوشهنج » هو مهلائيل بن قينان حفيد شيث بن آدم ثم يذكر انه ولد لأوشهنج ولد فلما صار ملكا كان محمود السيرة وهو فيشداذ (ومعناه أول حاكم بالعدل) واليه تنسب الدولة الفيشداذية أقدم دول الفرس ، وبذلك يقرب المؤلف تاريخ اليهود المقدس الى تاريخ الفرس الذى اتخذه أساسا ٠

والمؤلف فى تأريخه حريـص على ذكر الحوادث المتعـاصرة معـا ، ولو اختلفت موضوعاتها ولم تكن لاحداهما صلة بالأخرى ، الا المعاصرة التى هى اقوى صلة بينهما عنده وهو على هذا النهج يجرى هنا فيذكر عصر ملك فارسى أو أكثر ويطيل فى سيرته ويتبعها بحوادث عصره فى الأمم الأخرى فاذا فرغ من ذلك ذكر عصر ملك فارسى آخر أو أكثر من ملك فيفعل مثل ذلك وهكذا ٠

وكلما كان الملك أحدث كثرت الأخبار المتصلة بالأمم التى تجاور مملكته شرقا وغربا كالترك والعرب واليونان والروم وقد يتعرض لأخبار أهل الهند والصين ٠ أما « التاريخ المقدس » فهو يلاحق التاريخ الفارسى خطوة فخطوة ظاهرا معه على ما عداه منذ أيام شيث بن آدم ثم نوح الى مبعث المسيح عيسى بن مريم وتشتت اليهود فى عهد الروم ولهذا كان التاريخ المقدس لليهود وأسلافهم واضحا بارزا فيه وان كان تابعا فى توقيته للتأريخ الفارسى بل يبدو فى المبدأ كأن هذا التأريخ خادم للتاريخ المقدس ٠

فالمؤلف يذكر من ملوك الفرس « أوشهنج » وولده « فيشداذ » ثم يذكر قولا آخر هو ان الذى تلا أوشهنج هو « طهمورث » الذى ظهر فى عهده « يوراسب » ودعا الى ملة الصابئين ثم جاء « جم » أو « جمشيذ » فقتل « طهمورث » وملك مكانه ثم ملك « بيوراسب » وهو الازدهاق الذى تسميه العرب الضحاك وكان ظالما ويقال انه « النمروذ » الجبار وقد قتله أفريدون وحكم مكانه وهنا يشير المؤلف الى أنه ذكر هؤلاء ووضع سيرهم هنا لظهور نوح فى عصرهم على بعض الأقوال ، بل يقول بعض نسابة

الفرس ان نوحا هو أفريدون الذى قتل الضحاك كما قيل ان بينه وبين « جم » عشرة آباء وان ملكه كان خمسمائة سنة ، كما قيل ان ظهور نوح حتى عهد ابراهيم كان فى عهد الضحاك ولذلك يذكر المؤلف الحوادث بين عهد نوح الى ابراهيم خلال عهد هؤلاء الفرس ويقصها فى وفاء .

ثم يذكر ولاية « منوشهر » بعد أفريدون والنزاع بينه وبين العبريين ويشير الى ولاته على اليمن من أهلها كالرائش وغيره ، كما يشير الى ظهور موسى وقارون فى عهده ويفصل القول مسهبا فى تاريخ اليمن وتاريخ بنى اسرائيل على يد موسى ثم فتاه يوشع بن نون على عهد « منوشهر » .

وهنا يذكر المؤلف اعتماده تاريخ الفرس أساسا فيقول : « ذكر القائم ببابل من الفرس بعد « منوشهر » اذ كان التاريخ انما تدرك صحته على سياق مدة أعمار ملوكهم ثم يذكر منهم « فراسياب » وافساده بين البلاد والعباد ثم ظهور « زو » بن « طهماسب » واصلاحه ما أفسد « فراسياب » وعمران البلاد الفارسية فى عهده ومعـــاونة « كرشاسب » له فى ذلك ثم ظهور « كيقباذ » بعده وهو أول ملوك « الكيانية » أو « الكيكية » . ويعقب ذلك يذكر ما يعاصر ذلك من حوادث بنى اسرائيل فيما بعد يوشع ابن نون الذى مكنهم من الاستيلاء على جزء من فلسطين فبعده خضـــع بنو اسرائيل لحكم القضاة حتى ظهر شمويل (صمويل) فاضطروه الى اختيار ملك فاختار لهم طالوت (شاول) وجاء بعده داود وابنه سليمان .

ثم يذكر بعض ملوك « الكيانية » الفرس منهم كيقاوس وكيخسرو وفى عهدهما انقسم بنو اسرائيل مملكتين ، ثم ذكر « لهراسب » وابنه « يشتاسب » من الفرس وغزو واليه بختنصر للعرب وبنى اسرائيـــل وتخريبه بيت المقدس ونقله اليهود الى بابل .

ثم يذكر بعد يشتاسب تملك حفيده أردشيربهمن الذى كان قورش واليه على بابل فرد السبى من اليهود من بابل الى بلادهم فى فلسطين ثم يذكر دارا الأكبر ودارا الأصغر الذى هزمه الاسكندر وقضى على مملكته وقسم بلاده بين عدة ولاة ليلجأ كل اليه فى نزاع بعضهم بعضا ومنذ ذلك ظهر من يسمون « ملوك الطوائف » أو « الملوك الاشغانيين » وهم الدولة الفارسية الثالثة .

فى عهد هؤلاء الملوك يذكر المؤلف ظهور سلطان الروم حتى ملكوا الشام ومصر وظهور ملوك العرب فى اليمن والحيرة والانبار ولاة من قبل الفرس واضمحلال سلطان بنى اسرائيل حتى ملكهم هيرود تحت سلطان الروم وظهور المسيح عيسى وانتشار الرسل للتبشير بدينه وظهور الزباء وطسم وجديس وأصحاب الكهف ويونس بن متى وشمشون الجبار .

ثم يذكر ظهور الدولة الفارسية الرابعة والأخيرة « الدولة الساسانية » بقيـــام أردشـــير بن بابك الذى قضى على ملوك الطوائف ووحد المملكة واستمرت متحدة يليها منهم ملك بعد آخر حتى فتحت فى عهد عمر بن الخطاب ، وقتل آخر ملوكها يزدجرد فى عهد عثمان بن عفان٠وتاريخ هذه الدولة أوضح من تواريخ الدول الفارسية الثلاثة الماضية ويبدو المؤلف خلالها كأنه لا يؤرخ الا له حقا ويبدأ تاريخ اليهود فى الاختفاء وتظهر تواريخ أمم أخرى فى صورة أبرز وأهمها الترك والروم والعرب٠ومع تقدم الحوادث يحل تاريخ العرب فى الظهور محل التاريخ المقدس اليهودى٠والمؤلف يعدد هؤلاء الملوك الفرس وسيرهم وأحداث عصرهم فى بلادهم وما جاورهـا بالتفصيل ملكا فملكا منذ « أردشير » حتى يأتى ذكر « بهرام جور » فيذكر تربية المنذر بن النعمان ملك الحيرة له بوصية أبيه ومساعدة المنذر وابنه النعمان لبهرام جور على استرداد ملك أبيه يزدجرد من قبضة كسرى الذى انتهز فرصة وفاة يزدجرد وبعد ابنه وولى عهده عن بلاده واغتصب ملكه وقد عرف بهرام للمنذر فضله فقدمه ٠

ثم يذكر فى عهد يزدجرد بن بهرام جور وابنه فيروز فيبين خلال ذلك ولاتهما من ملوك العرب على الحيرة واليمن واستعانة ملوك الفرس فى حروبهم بالعرب ضد الروم وأتباعهم من العرب أيضا ، حتى اذا جاء عهد قباذ ابن فيروز ذكر فتنة « مزدك » الشيوعية فى عهده ومن دخل فيها من العرب والفرس ثم قضاء أنوشروان بن قباذ على مزدك وطائفته وفتنته وأخبار اليمن فى عهد قباذ وأنوشروان ثم ولادة النبى عليه السلام فى عهد أنوشروان ٠

ثم يذكر ملوك الفرس بعد أنوشروان واضـــطراب أحوال المملكة الفارسية منذ عهد حفيده كسرى أبرويز حتى آخرهم يزدجرد القتيل فى عهد عثمان بن عفان ٠

ثم يطيل فى ذكر نسب النبى وسيرته فى مكة منذ ولد حتى بعث ثم تبشيره بدعوته حتى هجرته وبذلك ينتهى هذا القسم من تاريخه الذى جعل فيه تاريخ الفرس أساسا للتاريخ البشرى ٠

وقد كان لتعويل المؤلف على تاريخ الفرس آثاره فى كتابه فقد أفاض فى ذكر أخبار الفرس الى حد جعل هذا القسم مصدرا من أكبر مصادر تاريخهم لا يستغنى عنه مؤرخ ولو ملأ خزانته مما عداه من الكتب والآثار ٠ وهو يعد حجة كبرى فى هذا الموضوع حتى لقد اعتمد عليه كل عارف به ممن كتب فى تاريخ الفرس ٠ وقد ترجم المستشرق «نولدكه» الى الألمانية القسم الخاص بالدولة الساسانية كما عول عليه فى تاريخ الفرس أكبر ثقاته وهو المستشرق « براون » فى كتـابه عن تاريخ الأدب الفارسى ـ

(د) تاريخ الاسلام منذ الهجرة حتى سنة ٣٠٢ هـ :

هذا القسم أطول أقسام الكتاب وهو يستغرق أكثر من ثمانمائة وألفى صفحة وأساس توقيت هذا القسم هو التأريخ الاسلامى بالهجرة النبوية على وفق السنوات الهجرية فهو يذكر فى سنة ما وقع فيها من حوادث ، فاذا فرغ من أخبار سنة انتقل الى غيرها ويبدؤها بقوله مثلا : ثم دخلت سنة كذا وفيها وقع كذا وكذا وحين يشير الى حادثة يذكر روايات عدة فيها بأسانيدها مهما تطل وقد تتداخل الروايات فى الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة اذا كان فى جزء منها أكثر من رواية فهو يذكر الرواية فى هذا الجزء ثم يذكر رواية أخرى أو أكثر فيه أيضا فاذا استوفى روايات هذا الجزء ذكر روايات جزء آخر على هذا النحو ولو كانت بعض أسانيد الجزء الأول هى أسانيد الجزء التالى له ويبدأ روايات الأجزاء التالية بقوله مثلا « عاد الحديث الى رواية فلان » فترى رواية الراوى الواحد فى « أجزاء الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة مختلطة برواية غيره فى هذه الأجزاء مع أنها وقعت داخل سنة واحدة » ٠

واذا وصل المؤلف الى السنة العاشرة بعد فتح مكة ختم أحداث كل سنة بعدها حتى آخر الكتاب بذكر من حج بالناس فيها (أمير الحج) والولاة على الأمصار بالبلدان وذلك عقب الفتوح ثم انتشارها ٠

والطبرى يهتم فى هذا القسم كما اهتم فى ذلك بروايات غيره للحوادث ولا يكتبها منشئا أو ملخصا بقلمه الا أخبارا نادرة عن حوادث شاهدها فى آخر تاريخه الذى أوصله الى سنة ٣٠٢ أى قبل وفاته بثمانى سنوات ٠

وبينما يعنى بالحوادث السياسية عند الحكام كثيرا تقل عنايته بدراسة مجتمعات الأمم التى يؤرخها وبتوضيح نظمها الادارية والاقتصادية والزراعية وسائر أحوالها الاجتماعية التى تكشف خصائصها وهو لا يبدى رأيه بالحكم على الأشخاص أو الأعمال أو يكشف عبر الحوادث التى يعرضها بل يكتفى بالنقل الا نادرا كما انه نادر الترجيح لرواية على رواية فيما ينقل ولهذا النهج مزاياه ولغيره أيضا مزاياه وانما يفضل نهج سواه على حسب وجهة القارىء ٠ وقارىء تاريخ الطبرى يجد فيه مادة ضخمة صالحة للحكم على الأشخاص والأعمال وكشف العبر من الحوادث بنفسه ولا يجد تحيزا مذهبيا ولا عنصريا ولا حزبيا ولا سياسيا ٠

وليست سنوياته أو أخبار سنواته متساوية ولا متقاربة فمن سنوياته ما تبلغ صفحة كما فى سنة ٢٩٥ وهى السنة التى ولى فيها المقتدر الخلافة وكما فى سنة ٣٠١ وسنة ٣٠٢ وهما ختام الكتاب ٠ وقد تبلغ نصف

صفحة أو ربعها كما فى سنة ٢٩٧ وما تلاها حتى سنة ٣٠٠ وربما تزيد حتى تبلغ تسعين صفحة كما فى سنة ١١ التى تستغرق الثلث الأخير من الجزء الثالث وهى سنة وفاة النبى عليه السلام وتولية الصـــديق وحوادث الحرب التى سميت « حروب الردة » وبدء الفتوح فى الشام والعراق على عهده ومثلها أخبار سنة ٣٦ فهى نحو تسعين صفحة ٠

وفى هذا القسم ــ ولاسيما سنويات القرن الأول ــ يكثر المؤلف من رواية الخطب والأشـعار والرســائل والمناظرات والكلمــات البليغة مما جعل كتابه جزءا مهما من تراثنا الأدبى كما هو جزء من تراثنا التاريخى وتأخذ هذه النصوص الأدبية فى الضعف والقلة كلما اقتربنا مع الزمن من عصر المؤلف حتى تتلاشى فى ســـنوياته الأخيرة مما يدل على ضعف أساليب الحكام الذين يعنى المؤلف بأخبارهم وأساليب المؤلفين الذين ينقل عنهم رواياته ٠

وقسم السنويات جميعا يرتبط أساسا بتاريخ الحركة الاســلامية منذ الهجرة حتى ختام الكتاب سنة ٣٠٢ هـ وماعدا أخبار هذه الحركة فهو تابع لها داخل فى تاريخها بسبب منها ٠ فهو يبدأ السنويات بسيرة النبى عليه السلام فى المدينة عقب الهجرة واقامته المجتمع الاسلامى الجديد فيها ومغازيه أثناء ذلك حتى وفاته ثم يذكر سير الخلفاء الراشدين والفتوح فى عهدهم والخلافات فى المجتمع الاسلامى ولا يكتفى فى هذه الفتوح خلال هذا العهد وما تلاه بنقل أخبارها عمن استوطنوا هذه البلاد عقب الفتوح بل ينقل عن شيوخها وعن غيرهم من شيوخ البلاد الأخرى ، كما لا ينقل فى الخلافات روايات حزب بدون حزب بل ينقل من رواة الأحزاب جميعا فى سماحة وأمانة اذا وثق بما عندهم من روايات ، ثم يذكر أخبار الأمويين ثم أخبار العباسيين حتى صدر عهد المقتدر فلا يتحامل على الأمويين لأنهم أعداء العباسيين ولا يجامل العباسيين أو يحاربهم ضد الأمويين أو العلويين لأنهم أصحاب الدولة فى أيامه فهو لا يتصل بالدولة ولا يحب أن يتصل بها بل هو حريص على أن يستقل بدينه ودنياه عن الحكومة والحكام وهو ليس ناصبيا ولا شيعيا ولا متعصبا لعنصر على عنصر ولا لمذهب ولا ممن يرضون الفتن أو يستمرءون الخلاف أو يقبلون الطعن فى خصم وان صرح بالخلاف والطعن ، الا أنه يعلن قولة الحق بالحسنى أمام قولة الباطل مهما تكن العواقب فلا سكوت على الباطل ولكن بلا لدد ولا تجريح ، وتاريخه لم يكن محتاجا الى جهاد كثير من هذا القبيل الا أمام من كادوا الاســلام وأهله فى حرب عدائية مكشوفة وهذه المواقف فى تاريخه قليلة ٠

ليس فى كتب المؤرخين حتى اليوم ما يضـــــارع هذا الكتاب فى موضوعه من حيث الأمانة والسعة والاحاطة بالوجهــات المختلفة للروايات

ورواتها فهو فى موضوعه عمدة المؤرخين فى قسميه القديم والاســلامى فهو مرجع قيم لا يستغنى عنه فى موضوعه ولم يهمله فيه الا من قصر عنه ٠

ولقد أشرنا فى ختام كلامنا على القسم الخاص بما قبل الهجرة الى أنه مرجع لا نظير له فى تاريخ الفرس الأقدمين من أبعد عصورهم الغامضة حتى أحدثها فلا غنى لمن يؤرخونه عنه ولقد عول عليه كل عارف به فيمن كتبوا فى تاريخهم من القدماء والمحدثين شرقيين وغربيين وزاد فى تقديره عند الغربيين نظرهم الى الفرس نظر الأبناء الى الآباء فى أرومتهم الآرية واعتدادهم بهذه الأرومة فى الصراع العنصرى وبخاصة فى القرون الأخيرة التى كثر فيها البحث عن الأصول البشرية وتسلموا قيادة العالم وطمعوا فى تسخير سائر الأمم لمصالحهم القومية ٠

وعلى نحو قريب من ذلك اهتم به الفرس بعد الاسلام فما كادوا يستحيون معالم قوميتهم الثقافية ومنها لغتهم وتاريخهم وآدابهم حتى عنوا بهذا الكتاب بعد تأليفه بنصف قرن فقام بترجمته الى اللغة الفارسية الحديثة أحد أعلامهم النابهين وهو محمد بن عبد الله البلعمى الذى كان وزير نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية فى المشرق وتعد ترجمته لهذا الكتاب سنة ٣٥٢ هـ أقدم كتاب تاريخى باللغة الفارسية الحديثة ٠

ويذكر الأستاذ جرجي زيدان مقدار اهتمام أسلافنا به فيقول :« تغالى القوم فى اقتنـــاء هذا الكتاب حتى كان منه فى خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرون نسخة منها واحدة بخط المؤلف وكان فى دار العلم بمصر ١٣٠ نسخة منه ولم يكن يتأتى الا للملوك وأهل الثروة ٠ ولما أظلم الشرق فى الأجيال الوسطى وخيم الجهل أحرقت فضاعت نسخه ، فلما أرادوا طبعه فى ليدن لم يجدوا منه نسخة كاملة فى مكان فاضطروا الى جمعها من عدة أماكن » ٠

ونزيد عليه أن المستشرقين جمعوه من عدة أماكن ، طائفة من علماء هولندا ساحوا فى البلاد الاسلامية وغيرها سنوات حتى حصلوا له نسخة كاملة طبعوها فى ثلاثة وعشرين جزءا بلغت ٧٥٠٠ صفحة وكانت منها الطبعة المصرية فى أحد عشر جزءا بلغت ٣٣٠٠ صفحة ، كما أن المستشرق « نولدكه » ترجم الى اللغة الألمانية الجزء الخاص بتاريخ الساسانيين وأن الكتاب كله ترجم من ترجمته الفارسية للبلعمى الى الفرنسية بقلم الأستاذ زوتنبرج وترجم بعضه الى اللاتينية كما ترجم كله الى التركية وقد عول عليه الأستاذ براون فى كتابه الكبير « تاريخ الأدب الفارسى » وهو يعد فى تاريخ الفرس أكبر حجة بين المستشرقين فى العصر الحديث ٠

ولقد عول عليه أكثر من غيره كل من عرفه وكتب فى موضوعه من

كبار مؤرخينا السابقين كما يظهر من اشاراتهم اليه ونقلهم عنه ونكتفي من أقوالهم بما ذكره المؤرخ الكبير « ابن الأثير » في كتابه « الكامل » اذ يقول في مقدمته مفاخرا به : « ... ولكن أقول : اني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ومن تأمله علم صحة ذلك فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الامام أبو جعفر الطبري اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف اليه فأخذت ما فيه من جميع تراجمهم فلم أخل بترجمة واحدة منها . وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت اليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة – على اختلاف طرقها – سياقا واحدا على ما تراه .

« فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت الى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه الا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاني لم أضف الى ما نقله أبو جعفر شيئا الا ما فيه زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن منهم في نقله وانما اعتمدت عليه من بين المؤرخين اذ هو الامام المتقن حقا الجامع علما وصحة واعتقادا وصدقا » .

وكما عنى سـابقونا بالنقل عنه وباختصـاره على نحو ما فعل ابن الأثير عنوا بتكميله ، فوصله كثير منهم بين المشارقة والمغاربة . ومن هذه الصلات كتاب « الصلة » الذي ألفه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني وقد نقل عنه ياقوت كما أشرنا قبل ، وكتاب الصلة الذي ألفه غريب ابن سعد القرطبي فانتهى به ا سنة ٣٦٥ وقد أشرنا اليه من قبل ، وتلاه محمد بن عبد الملك الهمذاني بكتابه « الصلة » فانتهى به الى سنة ٤٨٧ .

ولا نجد بعده كتابا ذا قيمة خلال تاريخنا القديم والحديث يعرض لتاريخ الاسلام وأهله وصلاته بجيرانه في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة – وهذا بعض موضوع الكتاب – الا وجدناه يعول عليه كأوثق مصدر له وأوسعه ولا وجدنا مؤرخا قديما أو حديثا عرض لتقديره الا زكاه وعظمه كيفما كانت مآخذه عليه وفي بعض هذا برهان واضح على قدر الكتاب بين القدماء والمحدثين في أمم مختلفة وعلى أثره في مؤلفاتهم التاريخية والأدبية وهذا حسبه في عظمة القدر والأثر الذي يتجدد على اختـلاف الأمصار والأعصار .

تقــدير الكتاب وأثره

لعله قد استبان من موضوع الكتاب ومادته ومنهجه انه كتاب جليل القدر عظيم القيمة ·

ونستطيع أن نوجز مقومات هذا الحكم فى عدة أمور : ـ

١ ـ هو أول كتاب فى التاريخ العام أكمل به الطبرى ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم او طوائف الرجال كابن سعد واليعقوبى والدينورى والواقدى والبلاذرى وابن اسحاق ·

وقد ضاع أكثر ما دون سابقوه وبقى هو مسجلا لما ضاع فحفظ تراثا نفيسا جديرا بأن يبقى على مر الزمان ·

٢ ـ وهو تمهيد لمن جاءوا بعده ومصدر أصيل من مصـــادرهم كالمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون ومازال مصدرا للباحثين الى اليوم ·

٣ ـ على انه جمع كثيرا من أخبار العرب فى الجاهلية ودونهـــا فحفظها من الضياع ، وكان المؤرخون الذين جاءوا بعده يعولون على ذكره ولولاه لفقد الباحثون معارف كثيرة عن العرب وأحوالهم فى جاهليتهم ·

٤ ـ كذلك ســـجل كثيرا من الحقائق التاريخية عن العصـــور الاسلامية موثقة بالاسناد الى أصحابها لولاه لعدت عليها عوامل الاغفال والنسيان فحرم التاريخ هذه الآراء ، لأنه دون روايات نقلها من كتب لم يبق الا أقلها وروايات سمعها من أشخاص لو لم يدونها لتوارت فى موجات الزمــان ·

٥ ـ ذكر فى تاريخ الفرس كثيرا من الحقائق لا نجدها فى غيره لمن يريد أن يدرس تاريخهم حتى لقد اعتمد عليه نولدكه فى معرفة تاريخ الفرس والعرب أيام بنى ساسان ·

ولهذا ترجم الى الفارسية فى القرن الرابع الميلادى ، وترجم الى التركية وغيرها بعد ذلك ·

٦ ـ على انه قد تبين من البحث المفصل فى تاريخ الرومان أن الطبرى دقيق فيما ذكره عنهم لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة .

٧ ـ وهو الى هذا كله حافل بالنصوص الأدبية من شعر وخطب ورسائل ومحاورات قيلت فى مناسبات شتى .

فلا غرابة فى أن اعتمد عليه المؤرخون من بعده فاستقوا منه كابن مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١) وابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠) وأبى الفدا (المتوفى سنة ٧٣٢) وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨) .

وبهذا ، استحق الكتاب حرص القدماء على اقتنائه واستحق ثناءهم عليه ، فقد كان بخزانة كتب العزيز الفاطمى أكثر من عشرين نسخة احداها بخط المؤلف . وقال القفطى : « ان كتاب الطبرى فى التاريخ أجل كتاب فى بابه » .

رسائل إخوان الصفا
إخوان الصفا
٩٨٣ م

اخوان الصفاء والحمامة المطوقة !!

لم يكد يمضى على موت الفارابى ثلاثون سنة حتى هب جماعة من صفوة علماء العصر وخاصة حكماءه الذين أحاطوا بنظريات الأقدمين من فلاسفة الاغريق والهند وفارس وقتلوها بحثا وتمحيصا وهضموا براهينها واعتراضاتها ونجحوا فى اكتناه خفاياها وأسرارها واستنبطوا منها آراء خاصة ، وأقل ما تدل عليه عندهم هو النضوج الفائق فى النظر والفكر وغزارة العلم وسعة الاطلاع ووفرة الثقافة فى جميع جوانب المعـــارف البشرية التى وصل اليها العالم القديم الى عصرهم ··· وفوق ذلك فقد صفت نفوسهم من شوائب المادة وعلت أرواحهم عن علائق المنفعة فوصلوا ــ كما ينبئوننا فى رسائلهم ــ الى اسمى آواج الاخلاص والوفاء ·

ولما تصافت نفوسهم وتعارفت أرواحهم تآخوا على البر والتقوى ، وقر رأيهم على أن يؤلفوا لهم هيئة علمية وأخلاقية تتعاون على نشر الثقافة العالية من : الهيات ورياضيات وطبيعات وخلقيات بأسلوب أدبى سلس لكى تتذوقه الخاصة ولا يعسر فهمه على العامة · ولما كان أساس تكونهم هو الاخلاص والفدائية فقد أطلقوا على أنفسهم اسم « اخوان الصفاء وخلان الوفاء » ·

وقد حـــدثنا الأســتاذ « دى بوير » فى دائرة المعـارف الاســلامية الفرنسية نقلا عن الأستاذ « جولزيهير » ان هذه الجماعة قد أخذت اسمها من قصة « الحمـامة المطوقة » فى كتاب « كليلة ودمنة » ··· لأن هــذه الخرافة فضلا عن انها اشتملت على الكلمة نفسها « اخوان الصفاء » قد احتوت من الغيرية والتضحية ما اشترطته هذه الجماعة فى الصداقة ··· فكما نرى الحمامة فى القصة تطلب الى الجرذ أن يقطع شباك صديقاتها قبل شبكتها وتقدم نجاتهن على نجاتها ترى اخوان الصفاء يقولون فى أحد الفصول التى كتبوها عن الصداقة ما نصه :

« فاذا أسعدك الله يا أخى بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك وق عرضه بعرضك وافرش له جناحك وأودعه سرك وشاوره فى أمرك وداو برؤيته عينك واجعل أنسك اذا غاب عنك ذكره والفكر فى أمره وأن هفا هفوة فاغفرها له وان زل فصغرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقدك

واذكر سالف احسانه عند اساءته بك ويأمن من غائلتك فان ذلك أسلم لوده وأدوم لاخائه » ٠

ألف أولئك العلماء جماعتهم بطريقة سرية لا يطلع عليها أحد من العامة ولا من الخاصة لأنهم آمنوا بأن فشلهم مقرون بايضاح خطتهم أو باظهار أسمائهم اذ كان يكفى لسحقهم واحباط كل أعمالهم أن يهب بضعة شـيوخ من رجال الدين فيؤلبوا عليهم العـامة معلنين أنهم زنادقة أو ملحدون ٠

ولكن هل معنى هذا انهم كانوا يخفون منتجاتهم ويضنون بها على الجماهير كما ضنوا عليها بأسمائهم وأمكنة اجتماعاتهم ؟ كلا بل حرصوا بالعكس على أن يذيعوا آراءهم وأفكارهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، لأن الغاية التى كانوا يرمون اليها من عملهم انما هى تثقيف الأمة وتهذيبها بعد أن عجزت الشريعة ـ فى نظرهم ـ عن آداء هـذه المهمة لما أصابها فى رأيهم من لطخات البدع والمستحدثات الدخيلة التى حالت بينها وبين القيام بمهمتها تمام الحيلولة وهم فى هذا يقولون فيما يروى لنا عنهم أبو حيان التوحيدى :

« أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال » !

هذه هى غايتهم التى أعلنوا أنهم ألفوا جمعيتهم من أجلها وصرخوا بأنهم لو أمنوا تعصب الخاصـــة وهوس العـــامة لأظهروا أشــــخاصهم ومجتمعاتهم للعيان ، لأنهم ليس لديهم ما يريب وليست لهم أية غاية أخرى غير التى أعلنوها ٠ ولكن الناس لم يطمئنوا اليهم ولم يصدقوا ما قالوه بل رموهم بأغراض شخصية كانوا ينتوون الوصول اليها من وراء حركتهم هذه وهى قلب الدين والعرش ٠ وقد ذاعت هذه التهمة فى عصرهم بين الخاصة والعامة فارتاب فيهم أولئك وحمل عليهم هؤلاء ٠

واننا لنجد عناصر هذه الريبة فى اخوان الصفاء عند الوزير صمصام الدولة حين نمى اليه ان أبا حيان متصل بأحد أعضاء هذه الجماعة هو « زيد بن رفاعة » فقال مخاطبا أبا حيان :

« حدثنى عن شىء هو أهم من هذا الى وأخطر على بالى : انى لا أزال أسمع من زيد بتى رفاعة قولا يريبنى ومذهبا لا عهد لى به وكناية عما لا أحقه واشارة الى ما لا يتوضح شىء منه يذكر الحروف ويذكر اللفظ

ويزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنين الا لعلة والألف لم تهمل الا لغرض وأشباه هذا وأشهد منه فى عرض هذا دعوى يتعاظم بها وينتفخ بذكرها ··· فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دخلته ؟ فقد بلغنى يا أبا حيان انك تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده ولك معه نوادر معجبة ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافى منصبه » ·

قال أبو حيان « أيها الوزير أنت الذى تعرفه قبلى قديما وحديثا لاختبار ولاستخدام ، ومه منك الامرة القديمة والنسبة المعروفة ··· » ·

وقال الوزير : « دع هذا وصفه لى » ·

قال أبو حيان : « هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع فى قول النظم والنثر مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة وحفظ أيام الناس وسماع المقالات وتبصر فى الآراء والديانات وتصرف فى كل فن ··· اما بالشد الموهم واما المتوسط المفهم واما بالتناهى المفحم » ·

قال الوزير : « فعلى هذا ما منصبه ؟ » ·

قال أبو حيان : « لا ينسب الى شيء ولا يعرف له جال حيث انه تكلم فى كل شيء وغليانه فى كل باب ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن مشعر البستى (ويعرف بالمقدسى) وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى وغيرهم وصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله » ·

مجالس الحكماء الخاصة !!

فانت ترى من هذا الحديث ان الوزير مرتاب يوجس خيفة من هذه الجماعة وان أبا حيان وان كان قدم حام حول الايضاح — لم يكشف اللثام عن تأسس هذه الفئة ولم يحط علما بأغراضها الحقيقية ، ولذلك فقد ظلت هذه الأغراض موضع التكهن والخلط حتى عند الباحثين المحدثين في عصورنا الحاضرة واليك ما يقوله البارون « كارادى فو » حول تأسس هذه الجماعة :

« ان هذه الجماعة لم تكن جمعية فلسفية بسيطة وانما كانت الى جانب ذلك شيئا آخر وان كان من العسير ان يقال ما هو ذلك الشيء بالضبط انه يحوم حولها سر غريب وهو الذى يمنع من كشف غايتها وأعمالها ووسائلها ولكن الأمر المؤكد هو ان اخوان الصفاء كان لديهم أدوات أخرى للدعاية غير مؤلفاتهم ، بل ان هذه المؤلفات نفسها لم تقل كل شيء عنهم ولم توضح كيف كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون ولكنهم كانوا يشتغلون بالسياسة » ٠

وكذلك الدكتور طه حسين يرى هذا الرأى اذ يقول ما نصه :

« كان هؤلاء الناس اذن يعملون من وراء ستار ويؤلفون جماعة سرية وكان قوام جماعتهم هذه — فيما يظهر — سياسيا وعقليا ٠٠٠ فهم يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الاسلامى يومئذ ، وهم يتوسلون الى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين أيضـا وهم يسلكون فى ذلك مسلك جماعات سبقتهم فى العالم القديم أظهرها جماعة الفيثاغوريين فى المستعمرات اليونانية الايطالية ، فقد كانت هذه الجماعة مبغضة للنظام السياسى اليونانى المألوف وكانت تريد قلبه وتغييره وكانت تتوسل الى ذلك بوسائل أهمها : تغيير الظام العقلى وانشاء فلسفة جديدة تكون الحياة العقلية والعملية للفرد والجماعة تكوينا جيدا ملائم بينها وبين السياسة الجديدة ويمكن هذه الجماعة من السيطرة على الأمور العامة وقد وفقت هذه الجماعة الفيثاغورية بعض التوفيق » ٠

« وحاول أفلاطون شيئا من ذلك فوفق من الجهة العقلية وتخيل

نظاما سياسيا بسطه فى كتاب « الجمهورية » وكتاب « النواميس » وأقامه على الفلسفة الأفلاطونية كلها كما أقام الفيثاغوريون نظامهم على الفلسفة الفيثاغورية ... ولكن أفلاطون لم يوفق فى الحياة العملية الى شيء وظلت سياسته خيالا ليس غير . وفلاسفة اليونان جميعا متفقون على ان النظام السياسى كائنا ما كان لا قيمة له اذا لم يعتمد على نظام من نظم التربية يلائمه ويهيىء الأفراد والجماعات لتأييده والذود عنه ... فالتربية أهم ما يعنى به أفلاطون فى الجمهورية وهى أهم ما يعنى به أرسطاليس فى كتاب « السياسة » وكلاهما يبين أحسن تبيين الصلة بين أنواع التربية والتعليم المختلفة وبين ما يوجد أو يتخيل من نظم الحكم والسياسة ...

« فجماعتنا السرية هذه متأثرة من غير شك بما كان فى العـــالم اليونانى من محاولات تشـــبه محاولتهـــا الســـياسية متأثرة بمحاولة الفيثاغوريين متأثرة بمحاولة أفلاطون وقد كان حظها من التوفيق كحظ الفيثاغوريين فقد وفق الاسماعيليون الى وجود سياسى مكن لهم فى بعض الأرض ونشر الرعب فى العالم الاسلامى حينا » .

ومهما يكن من الأمر فان الذى لا ريب فيه أن هذه الجماعة قد وجدت وتكونت من عدد عظيم من خاصة رجال العصر وكبار علمائه وفصحائه وفطاحل مفكريه وفلاسفته وان أعضاءها كانوا من أشد أهل زمانهم محافظة على مكارم الأخلاق وتمسكا بالفضائل العـــالية من اخلاص ووفاء وطهر وصـــدق وأمانة وغير ذلك وأنها كانت ترمى الى غاية معينة قد يكون ما صرحت به جزءا منها وقد يكون غيرها سواء أكان هذا الغير متجها الى السياسة أم الى الدين أم اليهما معا وان كنا نستطيع أن نجزم بأن هذه الغاية ــ ان وجدت ــ لم تكن شخصية البتة بل كانت للصالح العام .

بقى الآن فى هذه النقطة أن نعلن أن « البارون كارادى فو » يخالفنا فيما نراه من ان هذه الجماعة قد اقتصرت على خاصـــة العلماء وأفذاذ المفكرين اذ يرى أنها قد حوت بين دفتيها الى جانب أسماء الخاصـــة والممتازين عددا كبيرا من أسماء الجهلة والعوام الذين أوتوا نصيبا من الثروة ليساهموا فى الجمعية بأموالهم كما ساهم الأولون بأفكارهم وليس هذا فحسب بل قد انضم اليها من لا علم عنده ولا مال فساهم فيها بخدماته العلمية .

غير أنه قد فات البارون أن هذه الجمعية لو حوت سجلاتها أسماء جهلة الأغنياء والسوقة لانكشف أمرها وذاع سرها فى وقت قصـــير ... لأن الدهماء فى كل زمان لا يؤتمنون على سر ولا يقوون على الاحتفاظ بعهد وانما المعقول المستساغ هو أن عضوية هذه الجماعة كانت مقصورة على

الحكماء والفلاسفة أما الذى كان يشمل العامة فهو تعاليمهم الظاهرة التى كانوا يدونونها فى رسائلهم ويرسلونها الى المكتبات العامة لتذيع وتتداول وبالتالى لم يكونوا يضنون بها على أحد حتى لو كان من خصومهم ٠

ولا ريب أن نصوصهم نفسها تؤيدنا فيما نذهب اليه اذ هى صريحة فى أنهم لم يكونوا يســـمحون بحضـــور مجالســـهم ولا بالنقاش معهم ولا بالاحاطة بأسرارهم الا لخاصة العلماء وخلاصة الحكماء الذين لهم مقدرة على تدارس العلوم الالهية والرياضية وأمثالها من مواد الفلسفة الصعبة المنال واليك شيئا من هذه النصوص :

« اعلم أيها الأخ ــ أيدك الله وايانا بروح منه ــ أنه ينبغى لاخواننا ــ أيدهم الله كانوا من البلاد ــ ان يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه فى أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم وينبغى أن تكون مذاكرتهم أكثرها فى علم النفس الحس والمحسوس والعقل والمعقول والنظر والبحث عن أسرار الكتب أو التنزيلات النبوية ومعانى ما تضمنتها موضوعات الشريعة وينبغى أيضا أن يتذاكروا العلوم والرياضـــيات الأربعة أعنى العدد والهندسة والتنجيم والتأليف وأما أكثر عنايتهم وقصدهم فينبغى أن يكون البحث عن العلوم الالهية التى هى الغرض الأقصى » ٠

وفوق ذلك فقد أيد صاحب « كشف الظنون » صحة هذا الرأى فقال : « انهم كلهم حكماء اجتمعوا وصنفوا احدى وخمسين رسالة » ٠

وأحسب أن كلمة « كلهم » هنا لا تدع مجالا للشك فى أنه لم يكن بين أولئك الأعضاء دخيل جاهل ولا غنى غبى ٠

رسائل اخوان الصفا وقيمتها

تتكون رسائل هذه الجماعة من اثنتين وخمسين رسالة فى أربعة أجزاء ·

فأما الجزء الأول فيحتوى على أربع عشرة رسالة فى الرياضـــــة والمنطق ·

وأما الجزء الثانى فيشتمل على سبع عشرة رسالة فى العلوم الطبيعية والنفسية ·

وأما الجزء الثالث فيتكون من عشر رسائل فيما وراء الطبيعة ·

وأما الجزء الرابع فيتألف من احدى عشرة رسالة فى التصوف وعلم النجوم والسحر ·

وأخص ما تمتاز به هذه الرسائل البساطة واليسر وسهولة المأخذ وعذوبة الأسلوب وتجنب الاصطلاحات الفنية التى هى احدى العقبات الكئود التى تعترض البادئين فى دراسة الفلسفة فتعوقهم عن الاستمرار فيها بل تنفرهم منها أما هنا فان القارىء يســـتطيع أن يســـير مع هذه الرسائل التى تنساب أمام عقله وقلبه انسياب الماء فى الجداول والغدران الا حين يلتقى بالرموز المقصودة التى لم تكتب له بل كتبت لطبقة أخرى قليلة العدد والتى قضت الضرورة فى ذلك العصر بأن تكون على هـــذه الصورة ·

ومما لا ريب فيه أن هذه الرسائل كانت — ولا تزال — موضع عناية القدماء والمحدثين فى مشارق الأرض ومغاربها ومن آيات ذلك أن المستشرق الألمانى « فريدرخ دبتريص » قد اتخذ من هذه الرسائل مرجعه الوحيد لكتابه الضخم الذى بلغت مجلداته ثمانية ، والذى تناول فيه دراسة الحكمة عند العرب فى القرن الرابع الهجرى وان دوائر المعارف الأوربية وكتب المستشرقين قد أسهبت فى تحليل هذه الرسائل واستكناه دورها وحل ألغازها ومحاولة تبين رموزها وتتبع ترتيباتها وتنظيماتها ، لأنهم جميعا قد اقتنعوا بأنها هى المرآة الصادقة لنضوج الفكر الاسلامى بعد ان انتشرت حوله المعارف الأجنبية المترجمة وعملت عملها وآتت أكلها ·

وقد سجل هذا التصوير الدكتور طه حسين فى مقدمته لهذه الرسائل اذ قال :

« ورسائل اخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر كما تمثل الحياة السياسية أو أقوى من تمثيلها للحياة السياسية فهى مرآة تنعكس فيها الحياة العقلية مباشرا ونحن نرى فيها هذه الحياة واضحة جلية نرى أن العقل الاسلامى فى القرن الرابع كان قد وعى ما نقل اليه من فلسفة اليونان وحكمه الهند وآداب الفرس والآداب العربية والاسلام وغيره من الديانات السماوية وغير السماوية وجمع ذلك كله ورتبه ولاءم بينه وحاول أن يكون منه مزاجا واحدا مؤتلفا هو خلاصة الثقافة التى يجب على الرجل المستنير حقا أن يظفر بها ويأخذ منها الحظ الموفور ...

« ولسنا نقول شيئا جديدا حين نقول ان رسائل اخوان الصفاء هذه أشبه شيء بدائرة معارف فلسفية علمية جمعت كل ما لم يكن بد من تحصيله للرجل المثقف حقا فى ذلك العصر ولكنها جمعت ذلك كله على شيء من النظام يمثله الفهرست الذى قدم بين يديها .

« لرسائل اخوان الصفاء قيمة أخرى لم أشر اليها بعد وهى قيمتها الفنية الخالصة فهى من حيث انها تتجه الى جمهرة الناس للتعليم والتثقيف قد عدل فيها عن العسر الفلسفى الى اليسر الأدبى وعنى كتابها بألفاظها وأساليبها عناية أدبية خاصة ففيها خيال كثير وفيها تشبيه متقن وفيها ألفاظ متخيرة ومعان ميسرة وليس من الغلو أن يقال انها قاربت المثل الأعلى فى تذليل اللغة العربية ، وتيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها . ولو أن لدينا من الذين يعنون بالدرس الأدبى جماعة تتوفر على « رسائل اخوان الصفاء » درسا وتحليلا ونقدا لكان من الممتع ان نتبين فيها من الشخصيات الفنية المتفاوتة بل لكان من الممكن أن نستكشف بعض هذه الشخصيات . ومن يدرى لعل منها شخصيات معروفة كتبت فى الأدب والفلسفة والعلم وعرفت كتبها واشتركت فى هذه الرسائل سرا لم يعرف اشتراكها الى الآن » .

« وجملة القول ان هذه الرسائل كنز لم يقدر بعد لأنه لم يعرف بعد . وهو اذا عرف فقد يجلو قطعة من حياة الأمة الاسلامية فى عصر من أهم عصورها وأجلها خطرا وعسى أن يكون فى نشر هذه الرسائل وتيسير الحصول عليها ما يدنى من هذه الغاية ويقرب من هذا المثل الأعلى » .

لقد شبه هؤلاء العلماء الأعلام الأخيار أنفسهم برجل كريم الطبع عظيم السخاء واسع البذل غزير الجود ولديه بستان مورق مونق شهى

الثمار شذى الأزهار فأراد أن يشرك فى المتعة به الصفوة التى تقدره من بنى الانســان فدعاهم بلا استثناء ولا تمايز الى تذوق ثماره واستنشاق عرف زهوره وتشنيف أسماعهم بشدو طيوره وامتاع أبصـــارهم ببديع منــاظره وحثهم على الالتذاذ ببواطنه وظواهره وحضهم على التزين بلآلئه وجواهره وهو لكى يجتذبهم اليه قدم اليهم نماذج مما يشتمل عليه وكذلك هذه الرسائل هى أمثلة من معارفهم لا حصر لثقافتهم وهم فى هذا يقولون :

« واعلم يا أخى ــ أيدك الله وايانا بروح منه ــ بأن مثل أصحاب هذه الرسائل مع طالبى العلم ومؤثرى الحكمة ومن أحب خلاصه واختار نجاته رجل حكيم جواد كريم له بستان خضر نضر بهج مونق معجب طيب الثمرات لذيذ الفواكه عطر الرياحين أرجه الأوراد فائحة الأزهار بهجة المنظر نزهة المرامى ، مختلفة الأشكال والأصباغ والألوان والمذاق والمشام ، من بين رطب ويابس وحلو وحامض وفيهــا من ســائر الطيــور المطربة الأصوات ، الملهبة الألحان ، المستحسنة التغريد تطرد تحت أشجار أنهار جارية وخلال أزهارها وخضرها جداول منسابة تموج وفى حافات الأنهار خضر مونقة وأصداف مشرقة الألوان وجواهر متناســبة الأصباغ رائقة المناظر عجيبة الصور بديعة التأليف غريبة التنضيد فرحة كل نفس ونزهة كل عين مسلاة كل هم مدعاة كل أنس ۰۰۰ فأراد ــ لكرم نفسه وسخاء سجيته ــ أن يدخلها كل مستحق ويتلذذ فيها وبها كل مشرف فنادى فى الناس أن هلموا وادخلوا هذا البستان وكلوا من ثماره ما اشتهيتم وشموا من رياحينه ما اخترتم وتفرجوا كيف شئتم وتنزهوا أين هويتم وافرحوا واطربوا وكلوا واشربوا وتلذذوا وتنعموا واستروحوا بطيبها وتنســموا بروائحها فلم يجبه أحد ولم يصدقه خلق ولا عبئوا به ولا التفتوا اليه استعظاما لقوله واستبعادا لوصــفه واستنكارا لكلامه واستغرابا لذكره فرأى الحكيم من الرأى ان وقف على باب البستان وأخرج مما فيه تحفا وطرفا ولطفا من كل ثمرة طيبة وفاكهة لذيذة وريحان زكى وورد جنى ونور أنيق وجوهره بهى وطير غرد وشراب عذب فكل من مر به عرضها عليه وشهاها اليه ، وذوقه منها وحياه بها وأشمه من فوائح الرياحين وأسمعه من بدائع التلحين حتى اذا ذاق وشم وفرح به وطرب منه وارتاح اليه اهتز وعلم انه قد وقف على جميع ما فى البستان ومالت اليه نفسه واشتاق الى دخول البستان وتمناه وقلق اليه ولم يصبر عنه ، فقال له عند ذلك : ادخل البستان وكل ما شئت وشم ما شئت واختر ما شئت وانظر كيف شئت وتنزه أين شئت وجىء من أين شئت وتلذذ وتنعم وتطيب وتنسم ۰

فهكذا ينبغى لمن حصلت عنده هذه الرسائل والرسالة ألا يضيعها

بوضعها فى غير أهلها وبذلها لمن لم يرغب فيها ولا يظلمها بمنعها عن مستحقها وصرفها عن مستوجبها » ٠

مذهب هذه الجماعة

لعل فى نسبتنا الى اخوان الصفا مذهبا معينا شيئا من التجوز ماداموا هم أنفسهم يعلنون انهم لا يفضلون مذهبا على مذهب ولا يقدمون عقيدة على عقيدة وانما كل المذاهب عندهم سواسية لأنهم يرجعون كل المذاهب والعقائد الى الوحدة المطلقة التى صدر عنها كل شىء والتى لا ينبغى تفضيل أحد الصـادرين عنها على الآخر واليك نص عبـارتهم فى هذا الشأن :

« أعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ، انا نحن جماعة اخوان الصفا أصفياء كرام كنا نياما فى كهف أبينا آدم مدة من الزمان تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان حتى جاء وقت الميعاد بعد تفريقنا فى البلاد فى مملكة صاحب الناموس الأكبر وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة فى الهواء التى ذكرناها فى الرسالة الثانية وهى التى أخرج منها أبونا آدم وزوجته وذريتهما لما خدعهما عدوهما وهو ابليس وقال : « هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى » واغترا بقوله وحملهما الحرص والعجلة فبادرا وطلبا ما ليس لهما أن يتناولاه قبل استحقاقه فى أوانه فسقطت مرتبتهما وانحطت درجتهما وانكشفت عورتهما وأخرجهما وذريتهما جميعا بعضـــهم لبعض عدو وقيل لهم اهبطوا منها ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يوم البعث اذا انتبهتم من نوم الجهالة واستيقظتم من رقدة الغفلة اذا نفخ فيكم بالصور فتنشق عنكم القبور وتخرجون من الأجداث سراعا « كأنهم الى نصب يوفضون » ٠

فهل لك يأخى أيدك الله وايانا بروح منه أن تبادر وتركب معنا فى سفينة النجاة التى بناها أبونا نوح عليه السلام فتنجو من طوفان الطبيعة قبل أن تأتى السماء بدخان مبين وتسلم من أمواج بحر الهيولى ولا تكون من المغرقين ؟

أو هل لك يا أخى أن تنظر معنا حتى ترى ملكوت السموات التى رآها أبونا ابراهيم لما جن عليه الليل حتى تكون من الموقنين ؟ ٠

أو هل لك يا أخى أن تتمم الميعاد وتجىء الى الميقات عند الجانب الأيمن حيث قيل يا موسى فيقضى اليك الأمر فتكون من الشاهدين ؟ ٠

أو هل لك يا أخى ان تصنع ما عمل فيه القوم كى ينفخ فيك الروح

فيذهب عنك اللوم حتى ترى الأيسوع عن ميمنة عرش الرب قرب مثواه كما يقرب الابن الأب أو ترى من حوله من الناظرين ؟

أو هل لك يا أخى أن تخرج من ظلمة أهر من حتى ترى اليزدان قد أشرق منه النور فى فسحة أفريحون ؟

أو هل لك يا أخى أن تدخل الى هيكل عاديمون حتى ترى الأفلاك التى يحيكها أفلاطون ، وانما هى أفلاك روحانية لا ما يشير اليه المنجمون وذلك ان علم الله تعالى محيط بما يحوى العقل من المعقولات والعقل محيط بما تحوى النفس من الصور والنفس محيطة بما تحوى الطبيعة من الكائنات والطبيعة محيطة بما تحوى الهيولى من المصنوعات فاذا هى أفلاك محيطات بعضها لبعض ؟ .

أو هل لك ألا ترقد من أول ليلة القدر حتى ترى المعراج فى حين طلوع الفجر حيث أحمد المبعوث فى مقامه فتسأل حاجتك المقضية لا ممنوعا ولا مفقودا وتكون من المقربين ؟ ... وفقك الله أيها الأخ البار الرحيم وجميع اخواننا لفهم هذه الاشارات والرموز وفتح قلبك وشرح صدرك وطهر نفسك ونور عقلك لتشاهد بعين البصيرة حقائق هذه الأسرار فلا تفزع من موت الجسد اذا فارقته وفيه حياة النفس فتكون من أولياء الله » .

وهنا نرى اخوان الصفاء يحاولون التوفيق بين الأديان ويبذلون الجهد فى اثبات صدورها من نبع واحد .

نظريات المعرفة

جعل اخوان الصفاء درجات التفلسف ثلاثا :

أولاها : محبة الحكمة والشغف بالوصول الى الحقيقة والتفانى فى البحث عنها .

وثانيتها : تحقيق المعرفة على صورة عملية واقعية .

وثالثتها : القول والعمل بمقتضى العلم وهما قمة الحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

واذن فالخطوة الأولى فى درجات التفلسف – بعد المحبة القلبية الصادقة للحكمة – وهى تحصيل المعرفة وقد تبعوا فى مراتب هذا التحصيل تلك الحكمة الفلسفية القديمة التى وجدها سقراط مكتوبة – فيما تروى الاسطورة – بأحرف من ذهب على عتبة ديلف معبد أبولون

اله الوحي والالهام والشعر عند الاغريق وهي : « اعرف نفسك بنفسك » فقد قررت هذه الجماعة أن المتفلسف لا يستطيع أن يخطو تفلسفه خطوة واحدة قبل أن يعرف نفسه بنفسه معرفة عميقة قاطعة والا كان مثله كمثل من يزعم انه يعالج المرضى وهو سقيم أو يدعى انه يساعد الفقراء وهو مدقع أو أنه يحاول أن يرشد الناس فى الطرقات وهو لا يعرف طريق بيته وهم فى هذا يقولوق :

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه انه لا يحسن بنا ان ندعى معرفة حقائق هذه الأشياء ونحن لا نعرف أنفسنا لأن مثل من يدعى معرفة حقائق الأشياء ولا يعرف نفسه كمثل من يطعم الناس وهو جائع وكمن يكسو غيره وهو عريان وكمن يداوى الناس وهو عليل وكمن يهدى الناس الى الطريق وهو لا يعرف طريق بيته فقد علم ان الانســـان فى مثل هذه الأشـياء ينبغى له أن يبتدىء أولا بنفســه ثم بغيره ...

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ان كل واحد منا هو مركب ومؤلف من جوهرين متباينين متضادين : احدهما هو هذا الجسد الغليظ المحســوس المؤلف من اللحم والدم والعظم والجلد والعصب والعروق وما يشاكل ذلك ، وهذه كلها أجسام أرضية ميتة مظلمة فاســدة وأما الجوهر الآخر فهو هذا الروح اللطيف أعنى النفس فهى جوهرة سمائية روحانية نورانية علامة دراكة صور الأشياء .

« واعلم ان هذا الجسد لهذه النفس فى المثال بمنزلة دار تسكن أو دابة تركب أو آلة تستعمل وما دامت هذه النفس مع الجسد مربوطة به الى الوقت المعلوم فلابد لنا من النظر فيما تصلح به معيشة الدنيا وما تنال به النجاة والفوز فى الآخرة » .

وأما المعارف التى يجب على المفكر أن يفلسف فيها ليصل من ورائها الى كشف أسرار الكون وخفايا الوجود فهى النواميس السماوية والظواهر الكونية والكتب الالهية والثمار العقلية التى أنتجها أعلام الفلسفة على ألا يأخذوا من الكتب الالهية بظواهرها وألا يكتفوا بالأصداف التى وضعتها السماء حول جواهرها ولآلئها قصدا لاخفائها عن الدهماء وسترا لأسرارها عن العامة الذين ليس فى تكوينهم ما يمكنهم من اكتناه نفائسها وضنا بها عن دركات الابتذال واحتفاظا بقيمتها للصـــفوة الممتازين الذين ركزت السماء فى فطرتهم القدرة على التغلغل الى أعماقها واستكشاف بواطنهـا وهم فى هذا يقولون :

« واعلم أيها الأخ أنا لا نعادى علما من العلوم ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ولا نهجر كتابا من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألفوه فى فنون العلم وما استخرجوه بعقولهم وتفحصهم من لطيف المعانى ...

« وأما معتمدنا ومعولنا وبناء أمرنا فعلى كتب الأنبياء صلوت الله عليهم أجمعين وما جاءوا به من التنزيل وما ألقت اليهم الملائكة من الأنباء والالهام والوحى ...

« واعلم أيها الأخ أيدك الله وايانا بروح منه أنا لنا كتبا نقرؤها يشاهدها الناس ولا يحسنون قراءتها وهى صورة أشكال الموجودات بما هى عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب وأمهات الأركان واختلاف جواهر المعادن وفنون أشكال النبات وعجائب هياكل الحيوانات ولنا كتاب آخر لا يشاركنا فيه غيرنا ولا يفهمه سوانا وهو معرفة جواهر النفوس ومراتب مقاماتها واستيلاء بعضها على بعض وافتنان قواها وتأثيرات أفعالها فى الأجسام من الأفلاك والكواكب والأركان والمعادن والنبات والحيوانات وطبقات الناس من الأنبياء والحكماء والملوك وأتباعهم والسوقة وأعوانهم فان نشطت أيها الأخ البار الرحيم الى قراءة هذه الكتب أنت واخوانك لتعلم ما فيها وتفهم معانيها وتعرف أسرارها فهلم الى حضور مجلس اخوان لك فضلاء وأصدقاء لك كرام ... تسمع أقاويلهم وترى شمائلهم وتعرف سيرتهم لعلك تتخلق بأخلاقهم وتتهذب بآدابهم فتنتبه نفسك من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة وينشرح صدرك ويصفو ذهنك وتفتح عين البصيرة من قلبك فترى ما قد أبصروه بعيون قلوبهم وتشاهد ما قد عاينوه بصفاء جواهر نفوسهم وتنظر الى ما نظروا اليه بنور عقولهم وتفهم معانى هذه الكتب الأربعة كما فهموها وتؤيد بروح الحياة وتعيش عيش العلماء وتحيا حياة الشهداء وتوفق للصعود الى ملكوت السماء وتنظر الى الملأ الأعلى ال « حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

غير أنه لما كانت هذه الجماعة قد أعلنت فى أكثر من موضع من رسائلها أن لديها معارف خاصة ومعلومات مخبوءة تضن بها على غير أهلها فلا تبديها الا للصفوة الممتازين والعلية المختارين ، أذاع خصومها ضدها شائعات متباينة مؤداها ان لهذه الجماعة أهدافا سرية خطيرة ترمى اليها وتشغف بها وهى قلب نظام الحكم والاستيلاء على مقاليد الأمور طمعا فى السلطان وحقدا على الحكام الراهنين وانها تخشى من اذاعة هذه المبادىء بطش الملوك والأمراء ورجم العامة والدهماء فلما اتصلت أطراف هذه الشائعات بجماعة اخوان الصفاء وضعوا الأمور فى نصابها وأوضحوا الحكمة التى دفعتهم الى الضن بعلومهم والاحتفاظ بمعارفهم فقالوا :

« أعلم أيها الأخ البار الرحيم أنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوى السلطنة الأرضية ولا حذرا من شغب جمهور العوام ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا كما أوصى المسيح فقال : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » ••

وأعلم أيها الأخ أنا لا نحسد ملوك الأرضين ولا نتنافس فى مراتب أبناء الدنيا لكن نطلب الملك السماوى ومراتب الملائكة الذين هم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع لان جوهرنا جوهر سماوى وعالمنا عالم علوى ونحن ها هنا أسرى غرباء فى أسر الطبيعة غرقى فى بحر الهيولى بجناية كانت من أبينا آدم الأول حين خدعه عدوه اللعين اذ قال : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ••• « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما » وقيل لهم : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » يعنى أنتما وذريتكما « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » وقال : « فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » •

الفلسفة وأقسامها

قسمت هذه الجماعة الفلسفة الى أربعة أنواع وهى : الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والالهيات وعندهم أن أول ما يجب أن يبدأ به من هذه العلوم الفلسفية : الرياضيات وأول الرياضيات معرفة خواص العدد ، لأنه أقرب العلوم متناولا ثم الهندسة ثم التأليف ثم التنجيم ثم المنطقيات ثم التطبيقات ثم الالهيات •

سلك اخوان الصفاء فى رسائلهم النهج نفسه الذى أشاروا اليه فى تعريف الفلسفة وهو البدء بالقسم الرياضى لانهم كانوا موقنين انه المقدمة الضرورية الأولى لمعرفة جميع علوم الحكمة والوسيلة المثلى للتدليل على صحة المذهب • وليس المنطق الا فرعا منه رغم كونه قسيمه اذ أن الهندسة النظرية هى العامل الأول فى تقويم العقل وجعله قادرا على الاستفادة من المنطق وهذا هو السر فى الحاقهم المنطق بالقسم الرياضى من رسائلهم •

وهاك ما يقولونه فى فضل الرياضة وما يبررون به تقديمهم اياها على سائر علوم الفلسفة :

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم بأنه لما كان من مذهب اخواننا الكرام أيدهم الله النظر فى جميع علوم الموجودات التى فى العالم من الجواهر والأعراض والبسائط والموجودات والمفردات والمركبات والبحث عن مبادئها وعن كيفية أجناسها وأنواعها وخواصها ونظامها على ما هى عليه الآن وعن كيفية حدوثها ونشوئها عن علة واحدة ومبدأ واحد من مبدع واحد

جل جلاله ويستشهدون على بيانها بأمثلة عددية وبراهين هندسية مثل ما كان يفعله الحكماء الفيثاغوريون ... احتجنا أن نقدم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلها ونذكر فيها طرفا من علم العدد وخواصه التى تسمى « الارثماطيقا » شبه المدخل والمقدمات لكيما يسهل الطريق على المتعلمين الى طلب الحكمة التى تسمى الفلسفة ويقرب تناولها للمبتدئين بالنظر فى العلوم الرياضية » .

ليست صدارة القسم الرياضى عند اخوان الصفاء ناشئة من أنه أصل البراهين المنطقية فحسب بل هى ناشئة من شىء آخر هو أهم من ذلك وهو تأثرهم بالفيثاغورية الحديثة التى امتزجت بالفلسفات الاسكندرية ثم اتجهت الى غاية معنية وهى اثبات الانسجام الدقيق بين الأعداد وسائر الموجودات من : علوية عقلية وسفلية مادية .

الطبيعة :

تبع اخوان الصفاء أرسطو فى أكثر نظريات هذا القسم فأسهبوا فى بسط مشاكل الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان والفراغ والسماء والعالم والكون والفساد والآثار العلوية وفعلها فى الطبيعة وغير ذلك مما تفوق فيه حكيم استاجيرا على سائر الفلاسفة القدماء . وظلوا حريصين على محاكاة أرسطو فى جميع هذه النظريات بل مزجوها فى عدة نواح بآراء الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثتين ، كأن قرروا مثلا أن النفس الكلية هى روح العالم المدبر لجميع أجزائه وعناصره ، وان الأفلاك ليست الا أدوات تلك النفس التى تدبر بها ، وأن جسم العالم لا يخرج عن كونه المادة التى يقع عليها التدبير من النفس الكلية ، ولا ريب أن هذا رأى فيثاغورى أفلاطونى وهم فى هذا يقولون :

« واعلم يا أخى ان الطبيعة انما هى قوة النفس الكلية الفلكية وهى سارية فى جميع الأجسام التى دون فلك القمر من لدن كرة الأثير الى منتهى مركز الأثير ...

« واعلم ان الأجسام التى دون فلك القمر نوعان / بسيطة ومركبة فالبسيطة أربعة أنواع وهى : النار والهواء والماء والأرض والمركبة ثلاثة أنواع : المعادن والنبات والحيوانات وهذه القوى أعنى الطبيعة سارية فيها كلها ومحركة ومسكنة ومدبرة لها ومتممة ومبلغة لكل واحدة منها الى أقصى مدى غاياتها بحسب ما يليق بواحدة واحدة منها كما شاء باريها وكما بينا فى الرسائل الخمس وهى : رسالة الكون والفساد ورسالة الآثار العلوية ورسالة المعادن ورسالة النبات ورسالة الحيوان ...

• واعلم ان النفس الكلية هي روح العالم كما بينا في الرسالة التي ذكرنا فيها ان العالم انسان كبير والطبيعة هي فعلها والأركان – وهي النار والهواء والماء والأرض – هي الهيولى الموضوعة لها والأفلاك والكواكب كالأدوات لها والمعادن والنبات والحيوانات كلها مصنوعاتها » .

ما بعد الطبيعة .. الاله :

لم يرتب أحد من اخوان الصفاء في أن للكون الها واحدا حكيما اتصف بكل كمال وتنزه عن كل نقص وانه هو مبعث وجود كل شيء وانه علة العلل الذى عنه بدأ واليه ينتهي كل وجود وأنه هو وحده الواجب لذاته وبذاته وان كان من عداه مفتقر اليه وانه كما كان مصدر الوجود هو كذلك مصدر العلم والحق والخير والنور وانه ليس على الانسان الا أن يتجه اليه ليفوز من كل هذا بحظ وافر وان منزلته من جميع الموجودات هي منزلة الواحد من الاعداد اذ هو منشؤها جميعها وهو مع ذلك لا ينقسم ولا يتجزأ ، وهي كلها مفتقرة اليه والنظر الى الأعداد وافتقارها الى الواحد يصلح عندهم لأن يكون برهانا قاطعا على وجود الله ووحدانيته وكماله وهم في هذا يقولون :

« واعلم يا أخي أيدك الله بروح منه بأنك اذا تأملت ما ذكرنا من تركيب العدد من الواحد الذى قبل الاثنين ونشوئه منه وجدته من أدل الدليل على وحدانية البارى جل ثناؤه وكيفية اختراعه الأشياء وابداعه لها وذلك ان الواحد الذى قبل الاثنين وان كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه كما بينا قبل فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ كذلك الله عز وجل وان كان هو الذى اخترع الأشياء من نور وحدانية أبدعها وأنشأها وبه قوامها وبقاؤها وتمامها وكمالها فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وابداعه لها كما بينا في رسالة المبادىء العقلية فقد أنبأناك بما ذكرنا من أن نسبة البارى جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد وكما أن الواحد أصل العدد ومنشؤه وأوله وآخره وكذلك الله عز وجل هو علة الأشياء وخالقها وأولها وآخرها وكما أن الواحد لا جزء له ولا مثل له في العدد فكذلك الله اله جل ثناؤه لا مثل له في خلقه ولا شبه وكما أن الواحد محيط بالعدد كله وبعده كذلك الله جل جلاله عالم الأشياء وماهياتها ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا » .

النفس :

عرفوا النفس بأنها « جوهرة سماوية نورانية حية علامة فعالة بالطبع حساسية دراكة لا تموت ولا تفنى بل تبقى مؤيدة اما ملتذة واما مؤتلمة » .

أما قواها فهي عندهم كثيرة يقولون انها لا يحصى عددها الا الله وهم يذكرون منها الباصرة والسامعة والشامة والذائقة واللامسة والمتخيلة والذاكرة والمفكرة والحافظة والناطقة والكاتبة وهلم جرا •

الأخـــلاق :

تنقسم الأخلاق عند هذه الجماعة من حيث كونها أصيلة أو طارئة الى قسمين : طبيعي ، ومكتسب فأما الطبيعي فهو متكون من آثار الجبلة البشرية المؤلفة من العناصر الأربعة : التراب والماء والهواء والنار وما يعتورها من الاخلاط الخاضعة لقوى الطبيعة كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وهي ناشئة كذلك من مؤثرات البيئة الطبيعية والتربة التي وجد فيها الشخص والعوامل الجوية التي تعاقبت عليه ، ويضيفون الى ذلك تأثيرات الكواكب ومنازلها من أفلاكها ومحاورها ودوراتها وتنقلاتها •

أما المكتسبة فهي طارئة مستفادة من البيئة الاجتماعية التي تحوط الشخص وتكيفه بتكييفاتها المختلفة وتصوره على صوره المتباينة كالوالدين والمعاشرين والمربين والأساتذة والعلوم والمعارف والعقائد وما الى ذلك من وسائل التكوين التأثير •

وبعد أن ينتهوا من وصف تأثير العناصر والأخلاط وترب البلاد ومناخاتها في الأخلاق الفطرية أو المركوزة يأخذون في تصوير تأثير البيئة الاجتماعية والثقافية والاعتقادية في الأخلاق المكتسبة فيقولون :

« واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر في العلوم والمداولة على البحث عنها والدرس لها والمذاكرة فيها يقوى الحذق بها والرسوخ فيها وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدءوب فيها يقوى الحذق والأستاذية فيها وهكذا جميع الأخلاق والسجايا والمثال في ذلك ان كثيرا من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم وهكذا أيضا كثير من الصبيان اذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم ان لم يكونوا في كل الخلق ففي بعض وعلى هذه القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التي تطبع عليها الصبيان منذ الصغر اما بأخلاق الآباء والأمهات أو الاخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم » •

الصداقة والوفاء :

خصصت هذه الجماعة رسالة من الجزء الرابع من رسائلها ذكرت فيها شروط الصداقة التى يجب على كل فرد من اخوان الصفاء أن يلاحظها فى يقظة ودقة وحذر بحيث لا يختار الصديق الا بعد أن يدرس نفسيته وأن يتعرف مذهبه وعقيدته ويتحقق من أنه خير فاضل عفيف صادق وفى ثابت لا يريد الصداقة الا لذاتها ولا يرمى من وراء العلاقة الا الى هدف المحبة والاخلاص والتعاون على الخير فاذا ظفر بصديق من هذا النوع يجب أن تكون صلته به وثيقة العرى متينة الأواصر حتى تفوق علاقة الشقيق بشقيقه والأب بابنه والزوج بزوجته ، لان هذه العلائق الأسرية عندهم ناشئة من علل وأسباب وأما اخوان الصفاء فلا علل بينهم اللهم الا الطهر والنقاء وهم فى هذا يقولون :

« وينبغى لاخواننا أيدهم الله حيث كانوا فى البلاد اذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقا مجددا أو أخا مستأنفا أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوة أو لا ٠ لأن فى الناس أقواما طباعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة فمنهم خير وشرير ٠ وكفور وشكور ٠ وذو أمانة وغدار ٠ وحليم وسفيه ٠ وسخى وبخيل ٠ وشجاع وجبان ٠ وحسود وودود ٠ وفاجر وعفيف ٠ وجزوع وصبور ٠ وشره وقنوع ٠ وسلس وشرس ٠ وفظ غليظ ولطيف رقيق ٠ وعاقل وأحمق وعالم وجاهل ٠ ومحب ومبغض ٠ وموافق ومخالف ومنافق ومخلص ٠ وناصح وغاش ٠ ومتكبر ومتواضع ٠ وعدو وصديق ٠ ومؤمن وزنديق ٠ وعارف ومنكر ٠ ومقبل ومدبر ٠ وما شاكل هذه الأخلاق المحمودة والمذمومة مضادات بعضها لبعض ٠٠٠ فينبغى لك اذا أردت أن تتخذ صديقا أو أخا أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة التى يشترونها ٠

« واعلم ان الخطب فى اتخاذ الاخوان أجل وأعظم خطرا من هذه كلها لأن اخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعا وهم أعز من الكبريت الأحمر واذا وجدت منهم واحدا فتمسك به فانه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة ، لان اخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء وزين عن الاخلاء وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى وظهر يستند اليهم عند المكاره فى السراء والضراء وكنز مذخور ليوم الحاجة وجناح خافض عند المهمات وسلم للصعود الى المعالى ووسيلة الى القلوب عند طلب الشفاعات

وحصن حصين يلتجأ اليه يوم الروع والفزعات فان غبت حفظوك وان تضعضعت عضــــدوك وان رأوا عدوا لك قمعوه والوحدة منهم كالشجرة المباركة تدلت أغصـــانها اليك بثمرهـا وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها وسترتك بجميل فيئها : فان ذكرت أعانك وان نسيت ذكرك يأمرك بالبر ويسابقك اليه ويرغبك فى الخير ويبارك اليه ويدلك عليه ويبذل ماله ونفسه دونك ٠

فاذا أسعدك الله يا أخى بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك وقى عرضه بعرضك وافرش له جناحك وأودعه سرك وشاوره في أمرك وداو برؤيته عينك واجعل أنسك اذا غاب عنك ذكره والفكر فى أمره وان هفا هفوة فاغفر له وان زل زلة فصغرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقد له واذكر من سالف احسانه عند اساءته ليأنس بك ويأمن غائلتك فان ذلك أسلم لوده وأدوم لاخائه ٠٠ واعلم يا أخى ان من الناس من لا يصـــلح للصداقة والاخوة والمقاربة أصلا البتة فانظر من تصحب وتعاشر ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر فى مرارة عاقبتها فاذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاختبر أولا أحواله واختبر أخلاقه وسله عن مذهبه واعتقــاده وانظر فى عاداته وســجيته وشمائـله وحركاته فانه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور اذا نظر الى ظواهرها ٠٠٠

« واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ويدلس عليك بشــبه المرافق ويظهــر لك المحبــة وخلافها فى صــدره وضميره فلا تغتر أو تتيقن ٠٠٠

« واعلم أن أعمال الناس فى ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التى طبعوا عليها وبحسب عاداتهم التى نشأوا عليها أو بحسب آرائهم التى اعتقدوها فاذا رأيت الرجل معجبا صلفا أو نكدا لجوجا أو فظا غليظا أو مماحكا مماريا أو حسودا حقودا أو منافقا مرائيا أو بخيلا شــحيحا أو جبانا مهينا أو مكارا غدارا أو متكبرا جبارا أو حريصا شرها أو كان محبا للمدح والثناء أكثر مما يستحق أو كان مزريا لنظرائه أو كان مستحقرا لأقرانه والناس ذاما لهم ، أو متكلا على حــوله وقوته فاعلم أنه لا يصلح للصداقة وصفوة الاخوة لان هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده لاخوانه ٠ وذلك ان من يختار المطالبة بما لا يجب له لا تسمح نفسه ببذل ما يجب عليه وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الاذعان للحق وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف وكذلك الفظاظة والغلظة يمنعان من العذوبة والسهولة والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة ٠٠٠

« وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسدة للمودة ومخالفة لصفوة الاخوة مستقلة للنفوس وموحشة للأنس والراحة ومنفرة لالف الطباع ومنغصة للعيش ومبغضة للحياة • أما الأصدقاء الحقيقيون فينبغي اذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم فانه خير لك من ولدك الذى من ظهرك وأخيك من صلب أبيك ومن زوجتك التى جعلت كل كسبك لها وجميع سعيك من أجلها فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم بل ينبغي أن تؤثره عليهم كلهم لان هؤلاء يحبونك من أجل منفعة تصل منك اليهم ويريدونك من أجل مضرة تدفعها فاذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا فى غيرك وخذلوك أحوج ما تكون اليهم فأما هذا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج عن ذاتك بل من أجل أنه يرى ويعتقد انك اياه وهو اياك نفس واحدة فى جسدين متقابلين يسره ما يسرك ويغمه ما يغمك يرد لك منه مثل الذى تريد له منك واعلم أن قلوب الأخيار صافية لان نفوسهم طاهرة ولا تخفى عليهم خفيات الأمور لانها تتراءى فيها كما تتراءى فى أعين البصراء ظواهر كليات الأمور فلا تضمر لاخوانك الأصفياء ما ظهر لهم فان ذلك لا يخفى عليهم ولا ينكتم عليهم منك » •

خلاصـــــــة

وضح مما قدمناه فى عرضنا لاخوان الصفاء ورسائلهم وآرائهم وأهدافهم انهم جماعة من صفوة المثقفين فى القرن الرابع الهجرى قد تكونت بعد أن تمت ترجمة الفلســفة الاغريقية والحكمة الهندية والعقائـد الفارسية . وبالاجمال : بعد أن نقلت كل المعارف الانسانية المحترمة فى ذلك العصر الى اللغة العربية فساهمت فى تكوين الفكر الاسلامى الذى كان القرآن والحديث قد أعداه للنظر والبحث اعداد قويا ، بل دفعاه اليهما دفعا والذى شحذته الفتنة السياسية وما ترتب عليها من خلاف فى الآراء ونزاع فى المبادىء طالما خرجا عن حد الاعتدال . وعند ذلك اضطر أولئك المذعنون للأهواء الفردية والأغراض الدنيوية الى أن يؤولوا الآيات والأحاديث وان يحملوها ما لا تطيق لكى يجتذبها كل منهم الى معسكره ويظفر بوقوفها فى صفه ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق والأخلاق .

تضافرت هذه العوامل الأصلية فى البيئة الاسلامية مع المعــارف الأجنبية المترجمة فى انضاج العقلية الاسلامية والارتفاع الى عليا المنازل فى ذلك العهد فكان من الطبيعى أن تحدث تلك التطورات الفكرية الهائلة بل الثورات الاجتماعية الرهيبة وكان جماعة اخوان الصفاء صورة من صور هذا الحدث العظيم .

الشاهنامة

الفـــردوسى

١٠١٠ م

طالما مال الانسان الأول الى التخيل اذ لم يجد فى الواقع ما يشبع نهمه الى المعرفة وحب كشف المجهول ٠٠ فأوحى اليه الخيال صورا فيها الكثير من المبالغة والمغالاة فى « البطولة » الخارقة ٠

ومن هنا وبدافع من ذلك الايحاء الفطرى القديم نشأت « الأسطورة » ٠٠ وتفنن الانسان الأول فى خلق أبطالها الخرافيين الذين لا تقف أمامهم حدود ولا سدود ، ولا تستطيع قوى البشر والطبيعة والجن أن تنال منهم أو تفل من عزائمهم وتوقفهم عاجزين عن بلوغ غاية مهما كانت صعوبتها ٠٠

والأسطورة برغم تغاليها ومجانبتها للحقيقة تعتبر جزءا متمما لتاريخ الشعوب الفكرى ، كما انها تمثل صورة للمجتمع الساذج الذى صدق الأسطورة وتركها تعيش فى ربوعه وأحس انها منه وانه منها ٠٠ وان بينه وبين أبطالها الخياليين أكثر من رباط ٠٠

ولما كانت البيئة وما تحويه من مظاهر طبيعية وصناعية هى التى ترسم شخوص الأسطورة وتحركهم وتدفع بهم حيثما تريد مبشرين بمبادىء سامية أو مقاتلين فى سبيل تدعيم أغراض نبيلة ــ فان الأسطورة الفرعونية قد اتسمت بالطابع الدينى واليونانية تميزت بطابع السعى وراء المعرفة واللذة ، مباحة وغير مباحة أما الفارسية فلها دائما طابع الجرأة والبطولة والجرى وراء المغامرات والحروب ٠٠

والأساطير الفارسية عديدة الا أن « الشاهنامة » هى أشهرها بلا جدال ٠٠ وهى وان تكن أقدم الأساطير الفارسية الا انها تسجل حوادث أقدم الحقب وتروى فى تسلسل محبب قصة أحب الأبطال الى قلوب الناس هناك بما حوت من مغامرات وحوادث ليس لها فى العالمين مثيل !!

« والشاهنامة » فى مجموعها سلسلة من مفاجآت تدور حول لون من ألوان البطولة يكاد يكون واحدا ، هو التمهيد للحرب ثم الحرب ثم الانتصار ولو على جيوش حشدها القردة وقادتها الجن والشياطين !!

وكما رحب الأقدمون بأبطال « الشاهنامة » وعاشوا معهم بالفكر خلال الاحقاب المتعاقبة فقد رحب بهم أيضا من جاء بعدهم وأحبوا هذه الشخوص الفريدة التى صنعت تاريخا فى البطولة والشجاعة والجرأة ما لا نجد له أصلا فى التاريخ الأصيل ٠٠

الفردوسى وحكاية الشاهنامة

الفردوسى هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجرى وأحد الشعراء الفرس العظام نظم الشاهنامة فبلغ الأوج فى نظمه ، وهى الملحمة الفارسية التى تصور القصص الايرانى القديم كما تعطى صورة تاريخية صادقة لكثير من جوانب الحياة فى العصر الساسانى الذى سبق الفتح العربى لبلاد الفرس • ثم انه نظم « يوسف وزليخة » متجها فى نظمه القصة نحو الأدب الاسلامى الخالص •

عنى كتاب السير وأدباء الفرس بالفردوسى وحاكوا حول حياته الكثير من القصص حتى ان استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمرا لا جدوى منه وانما على الباحث أن يقرأ كتابى الفردوسى الشاهنامة وقصة يوسف وزليخة للتعرف على حياة الشاعر الذى كرس حياته للنظم والذى حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الايرانى المعروف فى الفهلوية باسم خداى نامه والذى يعد أعظم أثر أدبى باللغة الفارسية •

والفردوسى حين قام بهذا العمل الأدبى الكبير انما كان يعمل على احياء القومية الايرانية التى بعثها المأمون (١٩٨ / ٨١٣) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية أول دويلة فارسية داخل دولته فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضعيفة ، الصفارية والسامانية والعلوية والزيارية والبويهية وكلها فارسية • ثم جاءت دولتان تركيتان الغزنوية والسلجوقية • واستتبع قيام الدويلات الفارسية احياء الروح الفارسى والحنين الى احياء اللغة الفهلوية فى صورتها الاسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان ، ومن هذا الاتجاه الفارسى كان عزم الفردوسى على أن يتفرغ لينظم الشاهنامة ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضا لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين كانوا فرسا وكانت أمنيتهم تشجيع الأدب الفارسى واستخدام اللغة الفارسية فى أعمال الديوان •

***

اختلف الكتاب في اسم القرية التي ولد بها الفردوسي : ذهب البعض الى انها شاداب « دولتشاه » وذهب آخر الى أنها رزان « مقدمة بايسنقر » وذهب العروضي صاحب « جهار مقاله » — وقد زار طوس بعد وفاة الفردوسي بحوالى مائة سنة — الى أنه ولد في قرية باز من ناحية الطابران. ويأخذ الكتاب المحدثون برأى العروضي في هذا . واختلف الكتاب أيضا في اسم الفردوسي ، منصور أو حسن أو أحمد . أما كنيته « أبو القاسم » فيتفقون عليها وكذلك يتفقون على لقبه الشعرى « الفردوسى » وفى طوس بستان يعرف باسم الفردوسي ولعله ينسب الى هذا البستان .

ويذهب العروضي الى أن الفردوسي كان من دهاقين (أصحاب الضياع) طوس . ويؤيد هذا قوله في الشاهنامة .

ولم يذكر كتاب التذاكر تاريخ ميلاد الفردوسي ولكن يتبين من بعض أشعاره في الشاهنامة ما يرجح هذا التاريخ فهو يقول انه فرغ من آخر فصل في كتابه في اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامز وكان قد مضى على الهجرة أربعمائة سنة وكان عمره في ذلك التاريخ قد اقترب من الثمانين .

ومن هذا يتضح أنه فرغ من الشاهنامة في ٢٥ فبراير عام ١٠١٠ (٤٠٠ هـ) فاذا ذهبنا الى انه كان في السادسة والسبعين أو السابعة والسبعين حينذاك فان مولده قد يكون بين سنتى ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ / ٩٣٤ وفي الشاهنامة نصوص أخرى قد تغير هذا التاريخ قليلا ذلك أن الفردوسي يذكر السنوات بالتقريب لا بالتحديد وقد أخذ الايرانيون حين احتفلوا بالعيد الألفى للفردوسي بهذا التاريخ الأخير .

وأقيم العيد الألفى للفردوسي في يناير سنة ١٩٣٤ .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف الفهلوية معرفة جيدة كذلك ، وكانت درايته بتاريخ ايران دراية عميقة شاملة أما العربية فهى لغة الثقافة في ذلك العصر . ومهما يكن من ظهور النزعة الفارسية والاتجاه الى احياء اللغة الفارسية فان لغة القرآن لم يهمل أمرها وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين جميعا . كتب ابن سينا والغزالى والرازى وغيرهم باللغتين ومن هنا عرف أن الحضارة العربية الاسلامية تقوم على العربية الفارسية .

تتفق المقدمتان المبكرتان للشاهنامة على أن (أبو منصور المعمرى) ترجم الى الفارسية — عن الفهلوية — كتاب خداينامه الذى كتبه دانشور وذلك بأمر من (أبو منصور بن عبد الرازق) والى طوس في العهد السامانى حوالى سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمرى في ترجمته أربعة من الفرس

هم : تاج الخراسانى ، يزدان داد بن شابور ، ماهويه بن خورشيد ، شادان بن برزين • ومهما يكن من أمر رواية المقدمتين فان عزام وماسيه يلاحظان ان الفردوسى ذكر شادان بن برزين فى أول قصة كليلة ودمنة كأنه الذى حدثه بهذه القصة • ويقول عزام ، نقلا عن نولدكه ، ان شاهوى الذى يذكره الفردوسى راويا فى مفتتح قصة وضع الشطرنج قد يكون تحريف ماهويه أحد الأربعة المترجمين ، وان ماخ مرزبان هراة الذى يروى الفلدوسى عنه سيرة هرمز بن أنوشروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة • ولاحظ عزام ان الأربعة الذين ترجموا الكتاب وكانوا مجوسا « ولم يكن غير المجوس اذ ذاك يعنى بالفهلوية ويجيد قراءتها » ولسنا نوافقه على هذا الرأى فان اسلام الرجل لا يحول دون حبه لثقافة أمته ، وأسماء المترجمين الذين ذكرهم حمزة الأصفهانى والبيرونى والبلعمى وغيرهم تدل على انهم كانوا مسلمين • ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم أستاذنا عزام مجوس • أما ماسيه فيرى أن هؤلاء الأربعة ايرانيون من الولايات الشرقية ، فهم من هراة وسيستان ونيسابور وطوس •

من هذا يتبين ان آثار الفرس وقصصهم كانت معروفة باللغتين العربية والفارسية وان الفردوسى كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها وكان لديه النص الفهلوى أيضا •

★★★

عهد نوح بن منصور السامانى الى شاعر شاب ذاع صيته فى الشعر الفارسى حينذاك — القرن الرابع الهجرى — اسمه الدقيقى (أبو منصور محمد بن أحمد) بأن ينظم الشاهنامة فبدأ بنظم قصة كشتاسب الذى ظهرت رسالة زرادشت فى عهده والذى خصته الأوستا (الأبستاق) بفصل تضمن نصح زرادشت له بالايمان بالدين الجديد ودخول هذا الملك فى الزرادشتية •

نظم الدقيقى ألف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه فى نظم الكتاب ، يقول الفردوسى : (ولكن سوء الخلق كان خدن شبابه ، فكان يقطع أوقاته بالبطالة وصحبة الأشرار حتى بغته الموت فتوجه بتاجه الأسود • لقد سلط الخلق الدميم على الروح الجميل ، وما نعم يوما بالحياة • ثم انقلب به جده فقتله أحد عبيده » • ويعبر الفردوسى عن ترحيب الفرس بالدقيقى فى نظم الشاهنامة « قال الدقيقى سأنظم هذا الكتاب ففرح الناس به أى فرح » •

وعزم الفردوسى على نظم الكتاب فان ما لقيته قصص الأبطال من ترحيب الفرس شجعه على المضى فيما أخفق فيه سلفه الدقيقى • « ورغبت فى الحصول على كتاب خداى نامة كى أنقله الى لغتى وكم من رجل سألت عن الكتاب دون جدوى • وكنت أخشى مر الزمان وقصر الأجل فأتركه لغيرى ، ثم ما آمل من ورائه من مجد قد يذهب سدى ، وقد لا أجد العظيم الذى يثيبنى بصلة على قد ما بذلت من جهد ، فان الدنيـا تعج بالخلف والزمن غير موات لمن ينشدون حسن الثواب • ومضى زمان لم أفض فيه لأحد بمكنون صدرى فانى لم أجد من هو جدير بأن أحدثه بسرى •• ثم كان الصديق الأمين الذى هو قطعة من نفسى »••

فكاشفته بالأمر فقال : انها فكرة حسنة ولسوف تسعد بها سآتيك بالكتاب الفهلوى (البهلوى) فامض قدما ولا تتوان ان لك موهبة النظم وانك على سبك قصص الأبطال قادر • قص على الناس من جديد حوادث هذا الكتاب يقدرك أصحاب السلطان وتتاول الجزاء الذى تبغى » وجاءه صـــاحبه بالكتاب فاطمـأن الفردوسى الى أن الطريق بدأ يتفتح لتحقيق رســالته •

كان الفردوسى قد بلغ حوالى الأربعـين من العمر حـين بدأ ينظم الشاهنامة وكان عليه أن يتفرغ للنظم والقراءة والاســتماع الى قصص شيوخ الموابذة أو غيرهم ممن يعون قصص ايران فى صدورهم • كان عليه اذن أن يترك ضيعته فلا يفلحها بنفسه فان الفلاحة والأدب لا يجتمعان ويتاح له أمير ذكى من زرية الأبطال له دراية بالشعر وله ولع بأن يرى أمجاد أمته منظومة فى سـفر باللغـة الحديثة هذا الأمير هو والى طوس « أبو منصور محمد » الذى يتعهد الفردوسى ويهيىء له من أسباب الحياة ما يجعله فى غنى عن سؤال غيره « ورعانى رعاية حسنة ولم يكن شىء يكدر صفو حياتى حتى لقد رقيت من أرضنا الدنيا الى السموات العلى بفضل ما غمرنى به من المال فقد كان يرى الذهب والفضـة لا يساويـان أكثر مما يساوى التراب » •

وأخذ الشاعر فى المضى فى النظم وأخذ الناس يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح الفردوسى ذائع الصيت فى كل مكان حتى انه هدأ نفسا اذ أصبح من الخالدين •

واغتيل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه وكاد النور الذى يضىء له حياته أن ينطفىء لولا أن قيض الله له حى « حسين » بن قتيبة والى خراج طوس الذى لم يكن يتلقى شعر الفردوسى دون أن يبعث له بعطاء جزيـل « وهو الذى أعطانى الغـذاء والكساء ووهب لى الذهب والفضة فكنت أدفع ما على من الخراج دون مشقة وعشت فى رغد وهناء » •

ولم تكن الحياة السياســـية مستقرة لآل سامان وبدأت القبائل التركية تتطلع الى الحكم ، والقصة الأزلية التى تصورها الشاهنامة للحرب بين توران وايران بدأت جلية وقد اقترب الفردوسى من الفراغ من كتابه وعلائم الادبار بادية على الدولة السامانية التى احتمى فى ظل حكامها ، وعلائم الاقبال بدت واضحة للتورانيين الذين كانوا أمراء للجند السامانيين ففى ٣٥١ / ٩٦٢ يظهر الب تــكين التركى فى غزنــة وفى ٣٩٠ /٩٩٩ يستولى ألب على غزر وخراسان وتأخذ الدولة الايلخانية ما وراء النهر • وهذه الأحداث تؤثر أشد التأثير فى حياة الشاعر الذى تخلى عنه الأمراء الذين ساندوه واضطر أن يعتمد على غلات ضيعته مرة أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء وجاء ضغثا على ابالة سقوط الثلج الذى أتلف الزرع وأحال الحياة الى موات •

كانت هذه حالة الفــردوسى وهو فى الثامنة والخمســين من عمره وتحمل الأديب مشاق الحياة حــاملا العسر على اليسر ولكنه حين قارب الخامسة والستين أوجعه ريب المنون فقد مات ولده فى السابعة والثلاثين وبكى الشيخ ولده وزهد من بعده فى المجد الذى كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوى شيئا لقد هده الحزن وأحس بأنه لاحق مستتبع • « لقد كانت نوبتى فى الرحيل ولكن ولدى الشاب ارتحل فخلف لى الحزن الذى أحالنى جسدا بغير روح انى أحث خطاى عساى أن ألحق به ، ولى معه حين ألقاه عتاب رقيق : لقد كانت النوبة نوبتى فى الرحيل فلم ارتحلت يا بنى دون اذن منى ورضا وحرمتنى راحة البقاء لقد كنت لى الفرج عند الشدة فما الذى حملك على تسلك طريقا غير طريق صاحبك الشيخ الكبير • ألقيت فى الشباب رفاقا فآثرتهم على ومضيت وخلفتنى وحدى » •

« انه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا فغادرها غادرها وقد ترك لى الحزن والقهر وأغرق فى الدمع عينى انه الآن فى عالم النور وسيختار لأبيه مكانا بقربه فيه لقد انقضى زمن طويل ولم يعد أحد من رفاقه فى الطريق لعله ينتظرنى ويود أن ألحق به » •

والشاهنامة التى كبرت ونمت وكادت تتم والتى كانت رسالة يعمل لها حساب أصبحت شيئا لايستحق الجهد الذى بذل فيها فقد قوبل عمله المجيد بالصد ونكران الجميل « بلغت الخامسة والستين وان روحى قلق كئيب وأشعر أنى كلما مضيت أبحث فى سير الملوك يتوقف عن السير نجمى ويأفل كم من عظيم بلغ الأوج فى نسبه وعمله بفضل كتابى وكم من حاكم اشتهر بكلامى كلهم يستنسخ شــعرى بالمجان وأنا فى مكان قصى أنظر وأرى انهم يحسبوننى أجيرا مرتزقا فى أسرهـم • لست ألقى منهم غير

« أحسنت » ولقد خارت قواى مع هذا الثناء الرخيص أما خزائنهم العامرة فموصدة أمام قلبى الكسير » ·

★★★

بعض مخطوطات الشـــاهنامة تذكـــر أن الفردوسى أتمها فى هذه الظروف الحزينة سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ والبندارى مترجم الشاهنامة للعربية (٦٢٠ / ١٢٢٣ ـ ٦٢٤ / ١٢٢٧) من هذا الرأى ويرى ماسيه أنه يمكن القول بأن الفردوسى أتم فى هذا التاريخ كتابته الأولى للشاهنامة ثم انه استكمل ما فـاته فى الكتابة الأولى وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ·

وضاقت خراسان فى وجه الشـــاعر ولم ير بدا من التفكير فى الهجرة الى العـراق · وكان من الطـبيعى أن يفـكر الفردوسى فى الدولة البويهية ، فأمراؤها فرس يحبون احياء التراث الفارسى وهم شيعة وهوى الفردوسى معهم · ثم ان دولتهم تمتد الى الغرب والجنوب من فارس فهى بعيدة عن خراسان · ومهما يكن من أمر الخصومات بين أمراء البويهيين فانها أقل خطرا من فتن خراسان · وسار الفردوسى الى مدينة الرى (من نواحى طهران) ليتوجه منها الى أصفهان ثم الى اقليم الأهواز · كان أمير البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور فيروز » (٣٧٩ ـ ٤٠٣) ، وكان من رجاله الموفق (أبو على حسن بن محمد بن اسماعيل الاسكافى) الذى حث الفردوسى على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين سنتى ٣٨٠ / ٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ · واشرقت آمال الشاعر من جديد فانه قد يظفر برضا « ملك الاسلام » وحسبه أن يظفر باحدى مراتب حاشية بهاء الدولة اذا ما تقبل شعره قبولا حسنا ·

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه اقامته فى العراق والى من كتب يوسف وزليخة · وهناك رواية أخرى تقول ان الشاعر فى أواخر حياته سـار الى بغداد حيث طلب اليه الخليفة أن يكفر عن نظمه مجـد ايران المزدية بنظم قصة مستمدة من القرآن · وعندنا أن هذه الرواية وضعت ردا على توهم بعض الكتاب ان الشاهنامة قامت على أساس من الشعوبية ومحاولة رد الشاعر الى الطريق المستقيم والحق أن الشاهنامة عمل فنى رائع قصد به احياء تراث انسانى عظيم حرص العرب على اخراجه باللغة

العربيــة قبــل أن يحرص الفرس على اخراجــه نثرا أو نظمــا بالفارسية الحديثة • وأمهات الكتب العربية مليئة بالكثير من الأخبــار الواردة فى الشاهنامة • واحياء النص العربى للشاهنامة ، ترجمة البندارى ، كان أول رسالة للدكتوراه قدمت الى الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) • والنظر الى الشاهنامة على أنها وليدة عصبية معينة يتجافى مع مالهذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء فيها وينفى ماسبيه رواية توجيه الخليفة للفردوسى لينظم قصة من القرآن •

الأســـطورة !!

الشاهنـامة سـتون ألف بيت بالتقريب ، والمطبوع والمخطوطـات تختلف فى العدد • واذا استثنيت الأبيـات الألف التى نظمها الدقيقى وأدخلها الفردوسى فى كتابه فانها تكون نتاج شاعر واحد • ولايبارى الشاهنامة فى طواها كملحمة الا بعض الملاحم الهندية ولكن الشـاهنامة تمتاز بأنها نظم شاعر واحد •

وهى تتناول قصص وتاريخ أربع أسرات : البيشدادية (أهل العدل) والكيانية (كى ، كاوى بمعنى الملك) والأشكانية ثم الساسانية •

ولم تشر الشاهنامة الى الأسرة السلوقية خلفاء الاسكندر •

والقصص الذى يروى تاريخ الأسرتين الأولى والثانية يكاد يكون خرافيا كله فملوك الأسرة الأولى عشرة حكموا ٢٤٤١ سنة وملوك الأسرة الثانية عشرة أيضا حكموا ٧٣٢ سنة •

وقصص الأسرتين موصـولة ومتصلة بالأسـاطير الهنديـة الى عهد لهراسـب الذى كان قد ترك الملك وتفرغ للعبادة ثم جـاء الملك التركى ارجاسب وقتله •

بعد لهراسب يأتى عهد كشتاسب الذى ظهر فى أيامه دين زرادشت وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون أقرب الى التاريخ ويمكن ادخال الدور الاكمينى (الهخامنشى) فى هذا العهد • فكوروش الكبير (الثانى) هو كيخسرو وقمبيز هو كيكاوس وبهمن هو أرت خشتر (أردشير الأول ـ ارتجزرسيس) وهكذا • والشـاهنامة على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة بحكم الاسكندر المقدونى وتجعله ضمن الكيانيين ، فهو ليس أجنبيا عن ايران حتى يعد غازيا لها انما هو ابن داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى تزوج بنت فيليب ملك الاغريق فأنجبت له الاسكندر الايرانى •

والأسرة الثالثة الأشكانية (دولة البرت) حكمت فى الشاهنامة ٢٠٠ سنة ولا تذكر الشاهنامة أسماء حكامها جميعا وهى تعدهم أجانب ولا تعنى بهم والتاريخ يذكر بعد الاسكندر السلوقيين ثم الأشكانيين (البرت أو ملوك الطوائف) الذى ينهى عهدهم اردشير مؤسس الأسرة الساسانية ·

والساسانيون حكموا حسب الشاهنامة ٥٠١ سنة وملوكهم ٢٩ وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤١ سنة وملوكهم ٣٦ ملكا وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب البهلوية ثم العربية وفى هذا القسم الأخير تعتبر الشاهنامة مصدرا تاريخيا للحضارة الايرانية بوجه عـام ·

★★★

تصور الفترة الأولى من الشاهنامة التحول الحضارى لشعب ايران فالملك قد اختير على أساس القدرة على فض المنازعات بين القبائل المتخاصمة أو على الحكم فى الخلاف بين الأفراد · فهو القاضى الذى يرتضى الناس حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل وهو قريب من الله وفيه من روحه ولذا فانه يعبد وهو يفضى بالملك الى أبنائه من بعده · والدنيا سكنت بالانس والجن فكان على هذا الملك أن يحمى الشعب من الشر الذى يذيعه الشياطين وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى التنين وغيره من الحيوانات المخيفة المفسدة وفى هذه الفترة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان كما قسموا المجتمع الى طبقات وأقاموا العمائر ونظموا الجيش ·

فالملك هو شنك مثلا يجتاز الجبل ذات يوم مع بعض رجاله فيرى ثعبانا ضخما يتطاير الشرر من عينيه وتظلم الدنيا من حر أنفاسه فيأخذ حجرا ويلقيه عليه بكل قوته فاذا الثعبان يجرى ليختبىء ولكن الحجر يقع على صخرة فتخرج شرارة من تكسرهما ويحمر موضع الشرر وبدأ ظهور النار وقد دعا الملك الناس الى التوجه بالشكر الى الله لانه هداهم الى النار وفى الليل أشعل نارا عظيمة التف حولها مع صحبه وشربوا الخمر وسمى هذا الاحتفال سده (السذق) ·

والملك جمشيد الذى حـكم ٧٠٠ سنة اسـتخدم الحديد وأعد منه السيوف والرماح ونسج منه الدروع وعمل الجواشن والتجافيف وسائر أدوات الحرب فى زمانه وعرف الملابس من الكتان والابريسم وعلم الناس كيف يغزل الغزل وينسج · واستحدث الأبنية وشاد المدن واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرصع بها المناطق والأساور والعصائب ثم استخرج الطيب والكافور والعنبر وأظهر علوم الطب وخواص الأدوية

وصنع المراكب وجاس بها البحار وكان يسخر الجن فعمل تختا مرصعا بالجواهر ورتب له حملة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه فى الهواء ويحملونه الى حيثما أراد ٠ ووضع عيد النوروز فقد كان حمل الجن لتخته أول يوم فى السنة والشمس فى برج الحمل فعيد اليوم وسماه النوروز ٠

وقد طغى وله فى الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فنهاه رجال الدين عن ذلك فم يأبه لقولهم فكان أول غلبه الضحاك وحمله على الهرب ٤٠٠ سنة ثم قده فى نهاية الأمر نصفين بمنشار ٠

والضحاك (ازدهاق) وهو بيوراسب (صاحب عشرة آلاف فرس) كان أبوه مرداس ملكا تقيا فى الصحراء التى يسكنها الفرسان رماة السهام ـ العرب ـ وجاء ابليس الى الضحاك وزين له قتل أبيه ليرقى عرشه فاستجاب لابليس وقتل أباه وكان يحب الأكل فتزيا ابليس فى زى طباخ وأخذ يهيىء له خير أنواع الطعام وكانت الأطعمة المعروضة قليلة عندهم فأثر ذلك فى نفس الضحاك وقرب الطباخ منه حتى صار أقرب الناس اليه وذات يوم قال الضحاك للطباخ : اقترح حاجة أقضها اليك فقال الطباخ دعنى أقبلك بين كتفيك فأذن له ثم اختفى الطباخ فلم يعد يراه الملك وخرج من كل واحدة من كتفيه حية سوداء وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فعادتا كغصن الشجرة من جديد وتكاثر الأطباء ولم يجد طبهم فى اقتلاع الحيتين واتخذ ابليس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قدر كتب عليك والعلاج أن نطعم الحيتين حتى لا يضج منهما الملك وطعامهما لا يكون الا من أدمغة البشر فأخذ الملك برأى الطبيب وقتل ما لا يحصى من الخلق لاطعام الحيتين بأدمغتهم وكان كل ليلة يأمر بقتل رجلين ٠

وكان لجمشيد طفل هربت به أمه الى الهند وأحسنت تربيته حتى اذا شب وعرف ما يجريه الضحاك من المظالم فى ايران أخذ يستعد لتخليص البلاد من شره والضحاك فى الوقت نفسه يسرف فى الدماء ويتبع أخبار هذا الولد ـ افريدون ـ الذى حدثه المنجمون عن أمره ويجمع الضحاك العلماء والزهاد من حوله عسى أن يدفع عن نفسه بعونهم ٠ وذات يوم يثور « جاوه » وهو حداد قتل أحد ولديه وجاءت النوبة فى اليوم التالى على الابن الثانى ورفع « جاوه » قطعة الجلد التى يغطى بها قدميه عند تطريق الحديدة المحماة ونادى من ورائه خلق كثيرون بشعار أفريدون الذى اتجه القوم الى مخبئه ليأخذوه ويجلسوه على عرش أبيه ويقود افريدون الثورة ويهزم الضحاك وفى اللحظة التى يريد أن يهوى بجرزه على رأسه كالصاعقة يمثل ملك أمامه ويقول : « ان الله يأمر بمد أجل هذا الثعبان حتى يعذب طوال الزمان ، شد وثاقه وألقه حبيسا فوق جبل دنباوند » ٠ وبهذا انتهى عهد الضحاك الذى دام ألف سنة ٠

وظل علم جاوه « درفش كاويان » على ايران منذ ذلك الزمان ٠

وعيد افريدون يوم ارتقائه عرش ايران أول يوم من ماه مهر وعرف هذا العيد باسم المهرجان ٠

وكان له ثلاثة أبناء زوجهم من ثلاث أخوات هن بنـات ملك اليمن (سرو) واستقر له ملك الدنيا فآثر الاعتزال للتعبد وقسـم ملكه بين أولاده الثلاثة ٠

فأعطى « سلم » بلاد الروم و « تور » الصين وبلاد الترك و « ايرج » ايران وجعله وليا للعهد ٠ وتسلم كل منهم عرشه ٠ ولكن سلم وتور حقدا على أخيهما وطعنا فى القسمة التى أجراها أبوهما وقالا انهما كانا أحق بولاية العهد من ايرج ٠ وبعثا برسول الى افريدون منذرين متوعدين ٠ فلما علم ايرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالما الى أخويه وأن يعمل على اخماد ما فى قلبهما من الحقد عليه وذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما ٠ وسار الى أخويه فأحسنا استقباله ، وكان يعاملها معاملة كلها ود واخاء ، وكلما جرى على لسان أحدهما قول جارح قابله بالكلمة الطيبة ٠ والكبراء حول الاخوة يشهدون عتو سلم وتو وهدوء ايرج وسلامة منطقه ورجاحة عقله وايثاره السـلام وحقن الدماء ، فكانوا يتحدثون عنه فى اكبار واجلال ويتهامسون فيما بينهم بأن رأى افريدون هو الصواب فهذا الشاب أجدر اخوته بولاية العهد ٠ ويشعر الأخوان بما يتهامس به الناس ويدركان ما كسبه ايرج من تقديرهم ٠ فيثب تور على أخيه ويرميه بكرسى من ذهب فيتوسل اليه ايرج ألا يفلت منه الزمام وأن يهدأ حتى لا يكون فتنة بين التورانيين والايرانيين ، ويقسو قلب تور فيسـتل خنجره ويطعن أخاه فيقتله ويحتز رأسه ٠ ويرسل الاخوان رأس ايرج الى أبيه ٠

ويحزن أفريدون حزنا شديدا ويبكيه بكاء مرا حتى يفقد بصره ، ثم يعلم أن جارية بالقصر حامل من ولده ايرج ، وتلد الجارية بنتا ، فلما تكبر يزوجها من ابن أخيه فتلد منه منوجهر الذى يسعد جده به ويجد فيه عوضا عن ابنه ايرج ويرد الله اليه بصره ٠

ويعد منوجهر جيشا ومده قارن (صاحب الأسرة التى ينتسب اليها شهريار الذى قدم الفردوسى الشـاهنامة اليه بعد أن يئس من محمود الغزنوى) ، وسـار الجيش الى توران فهزم جيش تور ثم انقض عليه منوجهر واحتز رأسه ــ ثم سار الى حيث سلم ، وكان قارن قد قطع عليه سبل الفرار فقتله أيضا ٠

ويعود منوجهر منتصرا الى جده الأكبر أفريدون الذى يقر به عينا ، فيرى الوقت قد آن لآن يبوئه عرش ايران وليجعله خليفته ، ثم انه يعهد برعايته الى سام ، البطل الايرانى ، ويشعر بدنو أجله ، بعد أن حكم ٥٠٠ سنة • وبموت أفريدون يبدأ عهد الأبطال فى الشاهنامة ، وتطغى أخبارهم على أخبار الملوك • ولا تشير الابستاق (الأوستا) الى الأبطال بينما تذكر الملوك الخرافيين •

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رستم بن زال وأخيرا سهراب ابن رستم •

★★★

ولد لسام ولد طالما انتظره ، وتطير حين رأى شعره أبيض فأخذه الى جبل وتركه فيه • وجاءت السيمرغ (العنقاء) فرأت الطفل فأشفقت عليه وحملته الى عشها ونشأته مع أفراخها • وكبر الولد ورأته القوافل وهى تسير بجانب الجبل وتحدث الناس عن الانسى الذى يعيش فى شعفة الجبل بين أفراخ العنقاء • وسمع سام بقصة ابنه ورأى فى منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار الى الجبل بنفسه بحثا عن ولده ورأته السيمرغ فأبلغت الولد ، وكانت تسميه داستان ، ونصحته بأن يقبل أن تحمله الى أبيه • ونزعت ريشة من جناحها وطلبت اليه أن يحتفظ بها حتى اذا ما حزبه أمر أحرق الريشة فتحضر السيمرغ وتقضى حاجته • وعظم شأن زال وتبناه منوجهر وأبلى بلاء عظيما فى حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذى وجهه الملك للحرب فى مازندران •

وأحب زال روذبة بنت ملك كابل ، وهى من نسل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد • فقد كان الملك يخشى مصاهرة بيت الضحاك، ولكن زال ينجح فى اقناعه بعد أن يجتاز امتحانا عقده الموابذة له وسألوه عن اثنتى عشرة أحجية • أجاب عليها •

وحملت روذبة فلما جاءها المخاض تعسرت وأوشكت على الهلاك وزال واقف ترتعد فرائصه ويبكى • وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التى معه فيخرجها من جيبه ويحرقها فتحضر السيمرغ ومعها الخير والأمان ، تأمر زال بأن يأتى بحديدة حادة ويعطيها الى آس حاذق ليشق بها خاصرة روذبة ثم يستخرج الولد ثم وصفت له الدواء الذى وضع على الجرح قبل أن يخيط • وأمرت بأن يسقى الوالدة من الشراب ما يفقدها الوعى حتى تتم هذه العملية (القيصرية) ونظرت السيمرغ فى حنان الى زال ونزعت ريشة من جناحها تركتها له ثم حلقت وجاء الآسى وقام بالأمر واستخرج

ولدا لم ير له مثيل جمالا وقوة كأنه ابن عشر سنين ولبثت روذبه مغشيا عليها يوما وليلة فلما أفاقت ورأت ولدها بجانبها حدقت فيه وحنت عليه وقالت « برستم — أى نجوت » فسمى الولد « رستم » ٠

وجئ للطفل الرضيع بمرضعات فلما تم فطامه كان يأكل أكثر من نصيب خمسة رجال وفى شبابه المبكر كان يصرع الفيل الثائر بضربة واحدة ٠

وامتحنه زال ليرى مدى دهائه بجانب ما أوتى من قوة فكلفه بفتح قلعة حصينة ، فتخفى رستم ورجاله فى زى التجار وخبأ السلاح فى أكيسة الملح ودخل القلعة فجعل عاليها سافلها فاطمأن الوالد الى قدرة ولده وكتب بذلك الى جده سام ٠

ومات الملك منوجهر وكان قد أوصى بالملك لولده « نوذر » وأوصاه بأن يتبع النبى الجديد اذا ظهر بناحية المغرب وحذره من جنود بشنك ملك الترك وابنه افراسياب ونصحه بأن يستظل بحماية الأبطال سام وأولاده ولم يكن نوذر جديرا بالملك ، كان لاهيا عابثا ويرسل بشنك جنوده وعلى رأسهم ابنه أفراسياب ويموت سام فى زابلستان فيذهب أفراسياب الى ايران منتهزا فرصة تغيب زال لحضور العزاء فى ابيه ويؤسر الملك نوذر ثم يقتل بعد أن يغلب زال جنود الترك ويقتل أعيانهم ويلجأ أولاد نوذر الى زال وينصب هذا الملك زوبن طهماسب وهو أحد أحفاد أفريدون ٠ ويلم القحط بالبلاد ويعجز جيشا توران وايران عن متابعة الحرب ويعقد الصلح بين الطرفين وتذهب الغمة وتخضر الأرض وتكثر الخيرات ولكن زو يموت ويعود أفراسياب ليحتل ايران ويموت الملك الجديد كرشاسب وتزحف طلائع الترك على ايران ويلجأ الأشراف الى زال فيعهد الى ابنه رستم بالأمر ويطلب اليهم تنصيب ملك على ايران حتى لا يبقى الملك بغير رجل من آل أفريدون فأشار الموبد بكيقباد وسار رستم ليخبره بهذا وليكون فى دولته بطل الأبطال ٠

ويبدأ عهد الكيانيين مع البطل رستم وحول رستم روايات كثيرة منها المخاطر التى اجتازها وهو يخلص كيكاوس من « سبيد ديو » — العفريت الأبيض — وقتله ملك مازندران الذى كان يستعين بالشياطين وتذكر القصص دور « الرخش » فرس رستم ٠

ولكن القصة التى اشتهرت هى قصة صلة رستم بسيدة من توران ومولد ابنه سهراب ثم الحرب بين الأب وابنه دون أن يعرف أحدهما الآخر ٠ قال الفردوسى : خرج رستم ذات يوم للصيد عند حدود توران ٠

وبعد الصيد نام وترك « الرخش » يرعى فجاء جماعة من أهل مدينة سمنجان وسرقوا « الرخش » فسار رستم الى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه أن يحضر الرخش بالحسنى وهدأ الملك من روعه واستضافه في قصره وفي الليـل جاءته ابنة الملك فعقد عليها برضـاها فلما آذنت الشمس بالطلوع أعطاها خرزة كانت مشدودة على عضده وقال لها : « ان رزقت أنثى فاربطيها في قرونها وان رزقت ابنا فشديها على عضده » ثم ان مالك سمنجان دخل غرفته وبشره بالعثور على فرسه فسر رستم وركب الرخش وانطلق الى ايران ووضعت ابنة الملك ولدا سمته سهراب كان يشب في يوم غيره في سنة فلما كبر سأل أمه عن أبيه وجده فقد وجد نفسه أطول أقرانه قدا وأوسعهم صدرا وأشدهم بأسا فقالت له أنت ابن رستم من شجرة زال بن سام بن نيرم وما استعلاؤك الا لان ذلك البيت أصلك فقال سهراب : لأجمعن جيشا عظيما من الترك ولأخلعن كيكاوس عن عرشه وأنقل تاج ايران الى رستم وأعطف الى بلاد توران وأنتزعها من يد أفراسياب فأكون مع أبى ملكى هذه الدنيا وبلغ أفراسـياب أن سهراب جمع جيشـا حوله وأنه يتصدى لاكتسـاب المجد ۰۰۰۰ وبعث أفراسـياب برجلين من ثقاته ليسيرا مع سهراب في مسيرته لايران ويبذلا أقصى المكر حتى لا يعرف أباه رستم عند الملاقاة وكان أمله أن يقتل أحدهما الآخر ۰ وفي الطريق التقى رستم بقائد قلعة واشـتبكا في المبارزة وكتب رجـل فيها الى الملك كيكاوس ينبئه بهذا الفارس التركي الذى لم ير مثله والذى يشبه سام ابن نريمان في عراكه ونبه الكاتب الملك ايران الى ضرورة الاستعداد لملاقاة جيش هذا الفارس فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع رجاله واتفقوا على استنهاض رستم في زابلستان ليحضر بنفسه ويدفع هذا التركي الشجاع ۰

واستخدم الشاعر وسائل الاثارة في نفسيتي رستم وسهراب وكثيرا من الظروف التي كانت تحول دون معرفة احـدهما الآخر واللقـاء بين البطلين تم على مراحـل ويقترب أمل القـارىء من أن البطلين سيعرفـان ما بينهما من صلة الرحم ثم يتبدد هذا الأمل وتنتهي المعركة بأن يقتل رستم ولده سهراب ويراه وهو يحتضر ويستمع اليه يقول : « ان كنت أنت رستم فانما قتلتني وأنت أعمى القلب فكم تعرفت اليك وتملقت لك فما تحرك عرقك ولا لان قلبك فحل الآن معاقد جوشني ۰۰ فان أمي حين ودعتني شدت على عضدي خرزة وقالت هذه من أبيك » ۰۰ فلما رأى رستم الخرزة فقد من الحزن الصواب فلما ثاب الى رشده أسرع في ارسال رسول يطلب من الملك كيكاوس دواء لايقاف نزيف ولده ۰۰ ويأبى الملك النذل أن يسعف الولد والوالد جميعا ، غلبه طبعه السيىء ۰۰ وعاد الرسول ليخبر رستم بمنع الملك الدواء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفي الطريق يلاحقه الخبر بأن سهراب مات ۰۰

وينتقـل الفردوسي بعد قصـة سهراب ورستم الى قصـة جديدة لسياوخش بن كيكاوس .

تزوج كيكاوس من سوذبه بنت ملك هماوران (حمير) كما أنجب ولدا من فتاة تركية يتصل نسبها بأفريدون وسمى الولد سياوخش وعهد بتربيته الى رستم وتتكرر القصة التى كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا يوسف (امرأة العزيز وسيدنا يوسف فى القرآن) فتراود سوذبه ابن زوجها سياوخش عن نفسه فلا يجاوب وتخبر الملك كيكاوس بخيانة ولده له فيأمر الملك بأن يجرى الابتهال على ولده ويأمر باشعال النار ويمرق سياوخش بفرسه هذه النار فتكون بردا وسلاما عليه ويخرج منها سالما ويأمر الملك بقتل سوذبه ولكن سياوخش مقدرا حب ابنه لها وما سيكون من نقمته عليه بعد قتلها يناشد أباه أن يعفو عنها فيعفو .

ويعود افراسياب فيحشد الجيوش لغزو ايـران ويتقـدم وينتهز سياوخش الفرصة لينجو بنفسه من حبائل كيد سوذبه فيعرض على أبيه ان يخرج لدفع العدو مع رستم ويخرج البطلان ويضطرب أفراسـياب ويرسل رجلا من قبله يطلب الصلح ويتشاور بطلا ايران ويقرران القبول لقد بعث اليهما أفراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيدا لصدق ميله وايثاره السلم وبعد التشاور أوفد سياوخش رستم ليشرح الأمر لكيكاوس ويغضب هذا ويهين رستم : « أحسب ان سياوخيش شاب غر لم تصبه المكاره ولم تعضه النوائب ألست أنت الجذيل المحنك والعذيق والمرجب ومن يتعلم منه الملوك ؟ سـآمره أن يهجـم غير متلبث على افراسياب فى مخيمه ويضع فيهم السيف ويوسعهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين أوفدهم أفراسياب فيحضرون عندى لأسقيهم كأس المنون » .

وتمسك رستم بأهداب السلم وآداب الحـرب وقال لكيكاوس : « ليس يحسن فى الاحدوثة ان ينتشر عن سياوخش انه أخفر الذمة وغدر بالرهائن » ويتهم الملك رستم بأنه يشير بهذا ايثارا للدعة وركونا للرفاهية ويحتد رستم ويخرج غاضبا ويذهب الى زابلستان .

أما سياوخش فيلقى رسول أبيه الذى يقص عليه ماجرى مع رستم ويحمل اليه أمر الملك بأن يحل « طوس » محل رستم ثم يبين له الرسول مدى حقد أبيه عليه والمصير الذى ينتظره اذا هو عاد بدون قتال افراسياب فوجم سياوخش لما أحزنه من تنكر أبيه عليه وما يخشى من عاقبة ذلك ويأبى أن يسلم الرهائن الى أبيه وكان على سياوخش ان يختـار أحلى أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يذهب الى ايران حيث أبوه الملك النزق

التشرير الضعيف الذى وقع فى هوى امرأة لعوب وهو مجبر على ان يختار اللجوء الى افراسياب فيتخذ من العدو صديقه ويشير رجال افراسيـــياب بوجوب استقبال سياوخش على الرحب والسـعة ويقبل ملك الترك هذا الرأى بعد تردد شديد فقد كان المنجمون يخشـــون هذا اللقـاء الوديع والناصحون يرون ان ملك ايران صائر الى سياوخش والخير أن يكرمه الترك وهو فى محنته ويلقى سيلوخش الود الخالص من افراسياب الذى يزوجه ابنته فرنكيس ويهب له ولاية فى دولته • هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينـــة كنكدز فتكون كالجنة فى الأرض وكان نجـــم سياوخش الى النحس أميل فانه يثير حقد كراسيوز أخى الملك فيوقع هذا بينه وبين أخيه وينجح مسعى السوء بين الصديقين « انه قد تغير عما كان عليه وقد تكررت الرســـل اليه من أبيه كيكاوس فى السر وكذلك تأتيه الرسائل من أطراف الروم والصين وهو لا يشرب الآن الا على اسم كيكاوس» ويقرر افراسياب أنه سلم لمن سالمه وحرب لمن حاربه ويقتل سياوخش أما فرنكين فتحزن لقتل زوجها ويحاول أبوها اســـقاط الجنين الذى فى بطنها ولكن أميرا تركيا ينقذها وهو بمكيدة كراسيوز من العالمين ويسمى المولود كيخسرو كما أراد أبوه •

أما كيكاوس فيدرك انه تسبب فى قتل ولده فيجلس للعزاء ويجىء رستم كالأسد الغاضب فيشبع الملك تعنيفا ولوما ويسرع الى بلاطه فيدخل الى حيث تقيم زوجه سوذبه فيجذبها من شعرها ويخرجها ويقدها بسيفه نصفين ثم يأخذ جيشه ويسير الى بلاد الترك ويحتل رستم توران ويأسر ابن افراسياب أما هذا فيهرب الى الصين ويصحب معه كيخسرو بن سياوخش وينجح جيو ابن أخى رستم فى اختطاف كيخسرو وكان كيخسرو ينتظر هذا الخلاص الذى حدثته أمه به وكان نبوءة لأبيه قبل مقتله •

ويحضر كيخسرو الى ايران ويلاقى جده كيكاوس الذى قام ونزل له عن تخته واعتنقه وقبل وجهه وحضر جميع الاصبهبذية والأمراء وسلموا عليه بالسلطنة عدا « طوس » « صاحب الكوس والمداس الذهبى وحافظ الدرفش الجاوياتى » فكان يتعصب لعم كيخسرو « فرى برز » ويقول : « كيف يجوز أن يكون الحاقد وارث التاج والتخت مع وجود الابن ونحن لانرضى ملكا من نسل افراسياب » ويختلف الأمراء ويلجأون الى كيكاوس ليقضى برأيه فيشير بأن من يفتح منهما قلعة بهمن يكون صاحب الحق فى التاج وينجح كيخسرو فى فتح قلعة الشياطين ويعود الى ايـران فيبايعه الأمراء جميعا ملكا عليهم •

وكيخسرو هو كوروش فى (الآثار البـــاقية) للبيرونى وهو ثالث الكيانين والثالث عشر من ملوك الشاهنامه وهو بقية من المقدســـين فى

الدين الآرى القديم . وهو آخر الملوك الذين تشترك فيهم أساطير الابستاق والفيدا وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من اشفاق جده افراسياب من زوال ملكه على يده وقتل الجد بيد حاقده فى النهاية تشبه كل الشبه ما يرويه هيرودوت عن ولادة كورش وما كان بينه وبين جده لأمه استياجس ملك ميديا وتدق الحرب سجالا مع التورانيين أيام كيخسرو ويلعب دور البطل الأعظم فيها وتجرى وقائع : كاموس الكشانى ورستم مع أكوان الجنى وحرب الاثنى عشر رخا وغيرها .

وتنتهى حياة كيخسرو فى غموض فهو يعتزل فى آخر أيامه ويخلو الى ربه ويطلب اليه ان يأخذه الى جواره وكان قد نصره الله ومكنه من أعدائه وأتاح له الثأر لأبيه وبلغه ملك المشرق والمغرب يخشى ان يملك العجب مقاده فيصير مثل الضحاك وجمشيد وأفراساب ولهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا أنفسهم آلهة من دونه ويجتمع عظمـــاء ايران الذين هالهم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد أن استقر له الأمر وهدأت الفتن ، وكما كانوا يلجأون الى زال ورستم فى الحروب والمعارك استعانوا بهما لاقناع الملك بأن يعود الى الحكم ويترك مناجاة ربه ويشتد زال فى حديثـــه مع كيخسرو ويصبر هذا ولا يخاشن زال فى الجواب فليس هذا حسنا عند الله وهو لا يأمن موجدة رستم ان هو تطاول على أبيه الشيخ المهيب يقول له : « انى سئمت التاج والتخت والأمر والنهى ووقفت بين يدى ربى فى هذه الأسابيع الخمسة أتضرع اليه واسأله أن يخلص روحى من هذه الأرض المكدرة حتى اســـتجاب دعوتى وحقق أملى ولقد رأيت فى المنام كان ملكا نزل على وهمس فى أذنى : « انك قد أعطيت ما سألت فتجهز الى جوار الله الكريم ولاتقم فى هذه الدنيا الكدرة وفرق الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين .. » فاعتذر زال عما بدر منه وأدرك الحاضرون ان كيخسرو ليس بمجنون انما هو من الواصلين .

وكما انتهت حياة « يدهشترا » واخوته والذين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو ومرافقيه : تقول « المهابهاراتا » ان يدهشترا واخوته يسيرون بعد ان اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يبلغوا متاهة يهلكون فى رمالهـــا ما عدا يدهشترا الذى يسير قدما لايعبأ بشىء ومن ورائه كلبه حتى يدخل السماء حيا (ورنر) وتقول « الشاهنامة » ان كيخسرو صعد الى جبل وفى اثره العظماء والنساء والرجال زهاء مائة ألف نفس يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم السهل والجبل ثم ان الملك التفت اليهم ونبههم الى انه يجتاز طريقا صعبا لا ماء فيه ولا عشب فانصرف عنه زال ورستم وجوذرز وتبعه الباقون ولما طلعت الشمس ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاموا على

وجوههم يطلبونه ويبكون .. ثم تغيمت السماء واشتد الهواء ومطـــروا ثلجا وهلكوا تحته أجمعين .

وكان كيخسرو قد بايع لهراسب ليخلفه ولم يكن زال ورستم عن هذا الاختيار راضين ويأتي بعد مهراسب كشتاسب وفي عهده ظهر زرادشت فاعتنق ديانته واشتهر ابنـــه اسفنديار (أمه كتايون بنت ملك الروم) بالبطولة .

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة (هفتخوان اسفنديار) وقد وضعت هذه القصة محاكاة لقصة رستم المعروفة بهذا الاسم فكمـا اجتاز رستم في مازندران سبع عقبات : رخش رستم والأسد ، العطش يضعف رستم ، رستم يقتل التنين ، قتل رستم امرأة ســاحرة ، رستم يأسر أولادا ، حرب رستـــم أوزنك الجنى ، قتل رســـتم الجنى الأبيض ، يجتاز أفراسياب سبعة خطوب .

واسفنديار هو بطل دين زرادشت أيضا تعاون في نشره بالسيف وعاون الوزير جاماسب في احيائه واسفنديار هو الذي خلص والده كشتاسب أكثر من مرة وهو الذي قتل ملك الترك أرجاسب .

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقي سياوخش فان كشتاسب حريص على الملك حرصا أنساه الشفقة على ولده البطل فهو يستمع الى كرزم الذي سعى اليه بالوقيعة وصور له أن ابنه يتآمر عليه وقر في نفس كشتاسب أن يتخلص من اسفنديار .

وكان رستم في زابلستان ملكا لم يبايع ملك الملوك فأمر هذا ابنه اسفنديار أن يذهب الى زابلستان ويأتي برستم أسيرا في القيد وعبثا يحاول الابن ان يثنى أباه عن طلبه ذاكرا رستم وحروبه وانقاذه ايران وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام في دين زرادشت .

ويبذل رستم الكثير من الود نحو الشاب البطل ويقبل أن يصحبه الى كشتاسب ولكن دون قيد وتلعب الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن رستم يخدعه وينشب القتال بين البطلين ومن حولهما رجالهما ودون اذن بقتال يشتبك الرجال ويقتل ولدان من أبناء أسفنديار فيفقد هذا صوابه ويمطر رستم وابلا من سهام تصيبه وتضطره الى ان يعتصـــم بجبل ويطلب استئناف القتال في الصباح ويجد افراسياب أن الليل أقبـــل بظـــلامه فلا يلاحق خصمه ويلجأ زال الشيخ الكبير الذي لم يفلح مسعاه للسلام الى العنقاء فيحرق جزءا من ريشتها التي سلمتها له عنـــد مولد رستم فتحضر العنقاء وترفرف على رستم وتغمره بحنانها ثم تدخل منقارها

في جراحاته وتخرج منها نصالا أربعة ثم تمسحها بجناحها فتلتئم وصنعت مثل ذلك بالرخش واستخرجت منه ستة نصال ثم قالت لرستم : « لأى معنى تعرضت لقتال اسفنديار ·· وقاتله لايرى الخير بعده ·· وتقصر مدته ويلقى العناء بقية عمره ويذوق العذاب بعد موته ؟ فان رضيت بهذه الحالة فاركب وأبصر العجب » فركب رستم وسار الى ساحل البحر فأسفت العنقاء على شجرة من الطرفاء فقالت له : « اقطع من هذه الشجرة قضيبا مستقيما ·· وركب عليه نصلا عتيقا واجعل له قذذا ثم اذا جاء اسفنديار يطلب قتالك فتضرع اليه وابك بين يديه فلعلك تصرفه عن قتالك بحلو لسانك فاذا لم يفعل فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم فانه يصيب عينه ويكون فى ذلك حينه » وأرشدته الى الطريق ثم ودعت « زال » وطارت ·

ونزل البطلان الى الميدان فلما تقاربا قال اسفنديار : « أيها السجزى! كأنك قد نسيت صنيعى بك بالأمس وكان ظنى أنك تكون اليوم محمولا الى الرمس انك لم تبرأ الا برقية أبيك وسحره وسأسد عليك اليوم سبيل حيلته ومكره فأجعل بدنك كالغربال بصادرات النبال ·· » فقال رستم : « انى ما جئت اليوم للقتال وانما جئت لاتضرع اليك عساك تجنح الى السلم وتطفىء من قلبك نار الحقد » ولكن القدر يدفع أفراسياب الى الشر ويصوب رستم عليه السهم فيصيب عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يتماسك وينتزع السهم ويجري اليه ولده بهمن · ويحتضر اسفنديار ورستم قائم فى مكانه ويلتفت اليه البطل وهو فى نزعه الأخير ويقول له : « لم يقتلنى غير أبى كشتاسب حيث أكرهنى على قتالك والآن فهذا ولدى بهمن تسلمه منى واحمله معك الى زابلستان وربه تربية الوالد لولده » ويضع رستم يده فى يد اسفنديار على ان يربى ولده ويسعى له حتى يكون ملكا ويموت اسفنديار ·

أما رستم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شغاذ · هيأ له حفرة غرز فى قاعها نصولا محددة ثم غطاها ودعا رستم الى الصيد فوقع برخشه فى الحفرة فمزقته الحراب ولكنه يخرج مثخنا بالجراح القاضية من الحفرة ويطلب الى أخيه أن يعطيه قوسه ونشابتين ليذود بها السباع عن نفسه حتى يموت وقدم شغاذ لأخيه قوسه ووترها فتناولها رستم وخاف شغاذ فتترس بشجرة دلب كانت هناك مجوفة قد أتت عليها السنون فرمى رستم الشجرة بنشابته فنفذت فيها وخلصت الى شغاذ فخاطته مع الشجرة وأصمته ويموت رستم وتنتهى حياة أعظم أبطال الشاهنامه ·

وتمضى الشاهنامه بعد ذلك فتتم تاريخ الاكينيين وتجعل الغزو الاغريقى ايرانيا صرفا فالاســـــكندر منهم وليس أجنبيا ثم تتحدث عن الاشكانيين ثم الساسانيين فتصـــور عصورهم الزاهية ثم عصر التحلل الذى جعلهم فريسة سهلة المنال للفتح العربى ٠

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

الإدريسي

١١٥٤ م

عندما نجا ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب من مجزرة « فخ » الرهيبة لم يكن أحد يحسب انه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذى صار لها .

ولكن ادريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنا تاريخيا كبيرا امتدت آثاره عدة قرون وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير .

***

مضى اليوم زهاء ثمانية قرون على وفاة الجغرافى المسلم العظيم الشريف الادريسى الذى يعتبر بحق عمدة الجغرافيين المسلمين والذى أنفق شبابه فى شبه الجزيرة الاسبانية طالبا درسا وباحثا متجولا ثم خص جغرافيتها ووصفها فى موسوعته الجغرافية العظيمة بأقيم فصولها .

وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن ادريس يحيى بن على ابن محمود بن ميمون الحمودى سليل أسرة بنى حمود الملوكية البربرية التى حكمت جنوبى الأندلس وثغر سبتة فى أوائل القرن الخامس الهجرى وسمى بالشريف لأنه يتصل بنسبته الى أسرة الادارسة الحسنية التى ينتمى اليها بنو حمود والتى حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهذه ترجع نسبتها الى آل البيت ومن ثم فان نسبته تورد منذ جده الأعلى ميمون على النحو التالى : ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، والآن ، فهو وفقا لهذه النسبة كذلك سليل آل البيت .

ولد الادريسى فى مدينة سبتة ، ميناء المغرب الأقصى على البحر الأبيض المتوسط فى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م أو ١١٠٠) ويعود أصل عائلته الى ادريس الأول مؤسس الأسرة والذى هرب من المشرق وأسس امارة مستقلة فى منطقة الريف عام ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م واستمرت من أواخر القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلادى وتوسعت خلال هذه الفترة حتى كادت تشمل المغرب كله . وقد اشتهر ادريس الأول بصفته وليا من الأولياء الصالحين لاسيما بعد وفاته عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ولايزال ضريحه المشهور بـ (مولاى ادريس) يتمتع بصيت كبير لدى أبناء المغرب ويقع بجوار فاس التى أسسها ابنه ادريس الثانى والذى حكم من عام

١٧٧ هـ / ٧٩٣ م الى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م وقد تلاشت دولتهم عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أما أجداد ادريس المباشرون فقد كانوا أمراء ثانويين فى مالقة ، وهناك أيضا عجزوا عن الاحتفاظ طويلا بسلطانهم فاضطروا للعودة الى سبتة فى القرن الحادى عشر .

وقد كانت مدينة سبتة المغربية ــ وهى التى لعبت دورا عظيما فى تاريخ المغرب والأندلس التى تعتبر اليوم أرضا اسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية وتحتلها أسبانيا منذ قرون ــ كانت مسقط رأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها يشغل كل منهما مكانة بارزة فى تاريخ العلوم العربية وقد عاش كلاهما فى نفس العصر تقريبا أى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى هما الشريف الادريسى أعظم الجغرافيين المسلمين والقاضى عياض بن موسى السبتى أعظم حفاظ المغرب بلا مراء .

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الادريسى وحياته الأولى بيد اننا نعرف من اشارات وردت فى مؤلفه انه درس فى معاهد الأندلس ولاسيما فى قرطبة وقد كانت الأندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب ونعرف كذلك انه قام برحلات عديدة فى شبه الجزيرة الاسبانية ووصل فى تجواله غربا حتى ثغر أشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة وقد كانت يومئذ ثغر ولاية الغرب الأندلسية ثم زار شمالى أسبانيا وتجول فى جليقية ، بل هنالك فى كتاباته ما يدل على انه زار شواطىء فرنسا مما يلى خليج بسكونية ، ووصل فى رحلاته البحرية حتى شواطىء انجلترا الجنوبية ولما أتم تجواله فى شبه الجزيرة الاسبانية وما اليها عبر البحر الى المغرب وتجول فى شماله وجنوبه وهنالك مايدل على انه عاش حينا فى مدينة مراكش وحينا آخر فى شمالى المغرب بمدينة قسنطينة ، وكذلك رحل الادريسى الى المشرق وتجول فى آسيا الصغرى وزار المغارة المنسوبة الى أهل الكهف حسبما يحدثنا بذلك ومن المحقق أن هذه الرحلات العديدة كان لها أكبر أثر فى تكوين معلوماته الجغرافية التى ظهر أثرها فيما بعد فى أبواب كثيرة من معجمه الجغرافى .

وهنا يلعب القدر دوره فى تطور حياة الادريسى ذلك أننا نراه بعد ذلك فى جزيرة صقلية يمثل فى بلاطها ويخوض حياة علمية باهرة . ونحن نعرف أن جزيرة صقلية افتتحها المسلمون تباعا ما بين سنتى ٢١٣ و ٢٦٤ هـ (٨٢٨ و ٨٧٨ م) وغدت فى ظلهم حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها حتى اذا أدرك الوهن تلك الدولة الاسلامية الصغيرة توالت عليها حملات الفرنج حتى غزاها النورمان (١٠) بزعامة روبر جويسكار والدوق روجر فى سنة ٤٦٤ هـ (١٧٠٢ م) وتم افتتاحها فى

سنة ١٠٨٦ م وكان الدوق روجر أول حكامها من النورمان ، فشمل سكان الجزيرة من المسلمين واليونان بتسامحه وسمح للمسلمين بالاحتفاظ بمساجدهم وقضاتهم وأطلق لهم حرية التجارة • ولما توفى الدوق روجر فى سنة ١١٠١ م خلف ولده الطفل روجر حدثا وبدأ حكمه للجزيرة حينما بلغ الثامنة عشرة فى سنة ١١١٢ م وكان الدوق روجر الثانى او رجار كما تسميه الرواية الاسلامية من أعظم ملوك عصره وفى ظله غدت صقلية دولة عظيمة وكان مثل أبيه من ذوى الأفق الواسع وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ومن ثم فقد استطاعت الجالية الاسلامية أن تعيش فى ظله حتى حين متمتعة بسائر شعائرها ونشاطها الاجتماعى والثقافى • وفى ظل هذا التسامح المحمود دعا الدوق روجر للعمل فى بلاطه رهطا من العلماء المسلمين ومن الصقليين المحليين ومن أفريقية والمغرب وكان فى مقدمة هؤلاء الشريف الادريسى •

وكان وفود الادريسى على الجزيرة فيما يرجع بين سنتى ١١٣٠ و ١١٤٠ •

وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافى فاستقبل فى بلاط صقلية بترحاب وأغدق عليه الدوق رجار عطفه ورعايته وعهد اليه بالمهمة العلمية العظيمة التى حققها الادريسى بكتابة معجمه الجغرافى الخالد •

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك وحسبما يحدثنا الادريسى « ان يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما » وأن تنقش فيها صور الأقاليم السبعة بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها • والأقاليم السبعة هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين فقام العمال المهرة تحت اشراف الادريسى وتوجيهه باتمام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة الفضية : خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ وقد اشتهرت هذه الخريطة الادريسية يومئذ وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين فى العصور الوسطى ولاسيما العلامة البندقى مارينو سانتو (١٢٦٠ – ١٣٣٨ م) الذى استرشد بها فى معظم خرائطه • ويقال ان الخريطة المنشودة لم تستغرق من الفضة التى نقشت عليها سوى الثلث وان رجار وهب الجغرافى المسلم بقية الكمية الفضية وأعطاه فوق ذلك مبلغا كبيرا من المال وشحنة سفينة من نفيس المتاع •

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافي عام يرسم مطابقا للكرة الفضية وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومســـافاتها ومزروعاتها وعللها وخواصها وأجناس نباتها وما بها من الصناعات والتجارات وما يذكر عنها من العجائب وحيث هي من الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلهـــا وهيئاتهم ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم · وهكذا يلخص لنا الادريسي في مقدمته محتويات الموسوعة الجغرافية الكبرى التي عهد اليه الملك رجــار بوضعها · وقد اعتمد الادريسي في وضع هذه الموسوعة فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية التي جمعها من طوافه في شبه الجزيرة الاسبانية وشواطىء فرنسا وغربي البحر المتوسط وجزائره والمغرب وآسيا الصغرى وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطليموس ومن أسلافه الجغرافيين المســـلمين العظام مثل اليعقوبي وابن خرداذبة والمسعودي وابن حوقل — اعتمد فضلا عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين الذين أوفدهم الملك رجار باشارته وتوجيهه الى مختلف البلدان الأوربيـــة · ومنها فرنسا وايطاليا وألمانيا وبلاد اسكندناوه وجزائر بحر الادرياتيـك وجزر الأطلنطي وهي التي يتناولها الادريسي جميعا ولأول مرة في الجغرافية العربية وجغرافية العصور الوسطى — بكثير من الدقة والبراعة في التحديد والوصف · واستغرقت بحوث الادريسي في وضع المؤلف كله خمسة عشر عاما وانتهى من وضعه حسبما يحدثنا الادريسي في مقدمته في العشر الأول من شهر يناير ١١٥٤ م الموافق لشهر شوال سنة ٥٤٨ هـ وذلك قبيل وفاة الملك النورماني بأشهر قلائل وسمى المؤلف « نزهة المشـــتاق في اختراق الآفاق » وهو اسم يقول لنا الادريسي : « انه من وحى الملك رجار واشارته »· ولما كان المؤلف كله قد وضع باشارة الملك رجار ورعايته وأهدى اليه في مقدمته فقد سمى كذلك « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجارى » تنويها من مؤلفه بفضل هذا الأمير العالم المستنير ·

وقد كتب الادريسي غير موســـوعته الجغرافية كتابا آخر عنوانه « روض الأنس ·· ونزهة النفس » أو « كتاب المسالك والممالك » كتبه للملك وليم الأول (غليوم) ولد الدوق رجار وهو الذى خلف أبـــاه في الملك · بيد انه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد باحدى مكتبات استانبول ·

وكان الادريسي — فوق براعته في علوم الجغرافية — عالما ممتـــازا بالنبات له آفاق واسعة في معرفة الأرض التي وطئتها قدماه في رحلاته لذلك فقد كان وصـــفه للنباتات المختلفة لا يختلف كثيرا عن الوصف العلمي الحديث ·

وله من الكتب : النبات ، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب الجامع لصفات أشتات النبات في أربعة أجزاء ويوجد منه نسخة في خزانة الفاتح باستانبول بتركيا (رقم ٣٦١٠) ، وكتاب الصيدلة .

ولنأخذ بعض الأمثلة على وصف الشريف الادريسي لمجمل النباتات التي ذكرها في كتبه ، ففي مدينة شرشال شمال ايران وصف هذا النبات حيث قال : (سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وهو من طرائف غريب في ذاته) وكان لا يترك أية شاردة أو واردة عن أية نبتة أو عشب أو شجرة الا ذكر نوعه وصفاته العامة وفوائده الاقتصادية أو الطبية .

وتمتاز كتابات الادريسي في العقاقير والنباتات الطبية بمحاولاته مطابقة الاسم العربي للمواضع على مقابله في اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية والبربرية ويتألف كتاب الادريسي « الجامع لصفات أشتات النبات » من جزءين وقد رتبت مواده على حروف المعجم ويبحث الجزء الأول في ٢٦٠ نباتا وعقاراتها والثاني في ٣٠٠ نبات وعقاراتها . وقد أشار الادريسي الى انه قد استعان في تأليفه بما قرأه في سبته من مؤلفات والى ان رحلاته الكثيرة قد أعانته على اعداده ومراجعته .

وكان الادريسي — فوق هذا كله — أديبا متمكنا وشاعرا محسنا ومن نظمه قوله :

ليت شعري أين قبري	ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشـ	ـتاق في بر وبحر
وخبرت الناس والأرض	لدى خير وشر
لم أجد نارا ولا دارا	كأني لحي صدري
فكأني لم أسر الا	بميت أو بقفر

وتوفي الادريسي في سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٦ م) وهو في السابعة والستين من عمره ولسنا نعرف أين توفي وأين دفن ويغلب على الظن انه استقر في البلاط النورماني في بلرم حتى توفي ودفن بالجزيرة .

يرى بعض الباحثين ان أرجحية الادريسي على سائر الجغرافيين العرب بما كتبه عن أوروبا لا تعود لرحلاته وأسفاره في تلك الأصقاع

***

بقدر ما تعود لما حصل عليه من الرواد الذين بعث بهم روجــر الى اقاصى أطراف أوروبا مثل اسكنديناقيا لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضيعها . ولما قيده الادريسى من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج فى السفن التى كانت ترسو بموانى صقلية الى جانب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد النصرانية بفضل رعاية الملك رجــار السميحى وما جمعه من خلاصة معلومات من سبقه كبطليموس والمسعودى ولهذا نجد من جاء من بعده من الجغرافيين المسلمين ينقل عنه ما كتبه فى هذا الموضوع .

وقد قسم الادريسى العالم المعروف من جهة الطول فجعل كل اقليم مقسما عشرة أقسام متساوية من الغرب الى الشرق كمـــا هى الحال فى درجات الطول المعروفة فى أيامنا هذه ثم انه جعـــل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة ، عدا الخريطة العالمية الجامعـــة وهذه الخرائط الســـبعون محفوظة فى نسخ كتاب الادريسى ومنها استخرج (ميلر) خريطته الشهيرة عام ١٩٣١ والتى اعتمد عليهـا المجمع العلمى العراقى وأخرج خريطة جديدة بطول مترين وعـــرض متر واحـــد فى سنة ١٩٥١ .

هذا كما صنع الملك النورماندى كرة جوية وخريطة كروية للأرض من الفضة وقد طبع كتابه مع خرائطه السبعين فى روما ســـنة ١٥٩٢ وترجم الى اللاتينية فى ١٦١٩ من قبل عالمين من الموارنة فى الغرب وهما جبرائيل اليهودى ويوحنا الحصرونى وطبع النص أيضا فى ليدن ومدريد وبـــون .

ويعتبر كتابه أحسن مؤلف تلتقى فيه الجغرافيا القديمة بالجغرافيا الحديثة ومعلومات الادريسى عن نهر النيجر فوق تومبوكتو وعن السودان ومنابع النيل دقيقة لدرجة تدعو الى الاعجاب لذلك لم يكن غريبا ان يطلق على الادريسى اسم « استرابون العرب » (١١) وان يقول عنه البارون دوســــلان فى المجـلة الآسيوية الفرنسية فى عدد نيسان من عام ١٨٤١ :
« ان كتاب الادريسى لا يمكن ان يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتصلة بها » .

ولكى يقوم الادريسى بعمله الضخم الرائع هذا خير قيام كان عليه ان يستفيد من ملاحظاته الشخصية ومن ملاحظات معاصريه ومن أبحـاث

سابقيه أيضا كمؤلفات اليعقوبى وابن حوقل والمقدسى ومن غير المشكوك فيه على كل حال هو أن أوصاف المناطق الغربية من العالم المعـــروف فى عصره تبدو أحسن من كل ما عداها ومن أحسنها دراسة فهى المناطق التى يعطينا الادريسى عنها معلومات وثائقية من الطراز الأول نجد من العبث البحث عنها فى كتب الجغرافيين الآخرين باستثناء البكرى ٠

الادريسي يتحدث عن كروية الأرض !!

يعتبر كتاب نزهة المشتاق أعظم مؤلف جغرافي في العصور الوسطى وبالرغم من أنه يجرى فى وصف البلدان على نظرية « الأقاليم السبعة » المتبعة فى سائر البحوث الجغرافية السابقة فانه يمتاز بنزعته العلمية ، ويكفى ان تعلم ان الادريسى يبدأ كتابه بالتحدث عن « كروية الأرض » . ويمتاز من وجهة أخرى بخرائطه العديدة التى بلغت سبعين خريطة لكل اقليم من الأقاليم السبعة . عشر خرائط بعدد أقسامه . وأبدع أقسام « نزهة المشتاق » هى الفصول التى تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الاسبانية والمغرب وبحر الادرياتيك وايطاليا وجزائر البحر المتوسط وهى البلاد التى تجول فيها الادريسى ودرسها عن كثب ففى هذه الفصول يكشف الادريسى عن رسوخ معلوماته ودقة مشاهداته . وهذا الى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوروبا الشمالية مثل ألمانيا وبلاد اسكندناوة ، وفضلا عن ذلك فان الادريسى يبدى دقة واضحة فى تعريب المصطلحات والاعلام الجغرافية الأوروبية مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية وربما الايطالية التى كانت يومئذ لغة البلاط النورمانى والقشتالية التى وقف عليها خلال تجواله فى شبه الجزيرة الاسبانية .

ويعترف الادريسى نفسه فى مقدمة كتابه بدور الملك النورماندى فى اخراج مصنفه لحيز الوجود فيقول بعد خاتمة يمجد فيها راعيه وولى نعمته :

« فمن بعض معارفه السنية ونزعاته العلوية انه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت هِمم أهل دولته واطاعة البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب ان يعرف كيفيات بلاده ويقتلها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى اقليم هو وما يخصها من البحار والخلجان الكاينة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع اليه من يطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله كمثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجهانى وكتاب أبى القاسم عبيد الله

ابن خرداذبة وكتاب ابن عمر العذري وكتاب أبي القاسم محمد الحوقلي البغدادي وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكي وكتاب موسى بن قاسم القردى وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى وكتاب أسحق بن الحسن المنجم وكتاب قدامة البصرى وكتاب بطليموس الاقلوذى ارسـيوس الانطاكى فلم يجد ذلك مشروحا مفصلا بل وجده فيها مغفلا فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم أكثر مما فى الكتب المذكورة فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيكها فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ٠ وأقام فى ذلك نحوا من خمس عشرة سنة لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته الى ان يتم له فيه ما يريده ثم أراد ان يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعرضها فأحضر اليه لوح الترسيم وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها فأمر عند ذلك ان يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منهـا مائة درهم واثنا عشر درهما فلما كملت أمر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانهـا وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسـافات المشهودة والمراسى المعروفة على نص ما يخرج اليهم ممثلا فى لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وان يؤلفوا مطابقا لما فى أشكالها غير انه يزيد عليها بوصف أطوال البـلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنهـا وصـورها وبحـارها وجبالهـا وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التى تستعمل بها الصناعات التى تتفق بها والتجارات التى تجلب اليها وتحمل منها العجائب التى تذكر عنها وتنسب اليها وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم وملابسـهم ولغاتهم وان يسمى هذا الكتاب « بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وكان ذلك فى العشر الأول من ينير (كانون الثانى) أو يناير ١١٥٤ م الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسـم » ٠

ثم يأخذ بتعريف طريقته التى اتبعها :

« سنتعرض لكل بلد على حدة مع اهتمامنا بتعريف وضعه الحالى

ووارداته وصادراته والبحار والأنهار والمستنقعات والبحيرات التى تقع فيه والجبال التى تشاهد فيه مع اشارة الى امتدادها • وسنتكلم كذلك عن النباتات والأشجار والحيوان ومواضع المعادن وسنشير الى منابع أنهارها ومجاريها ومصباتها وذلك استنادا الى المعلومات والروايات المتوفرة •

نظرة عامة على أسبانيا ووصف مدينة المرية

يذكرنا الادريسى من حيث النظر الى مختلف نقاط تفصيل عرضه ، بالاصطخرى وبابن حوقل والبكرى فكما هو الحال لدى هؤلاء نجد ان كل فصل يبدأ بنظرة اجمالية على القطر الموصوف ثم ينتقل الى الطرق التى تؤدى من أية مدينة رئيسية الى أخرى ويسجل الادريسى كلا من محطات هـذه المسالك مع تخصيصها بالاسهاب عنـد الكلام عن المدن الكبرى التى يصفها ويقود هذا الاسلوب طبعا الى طراز رتيب بشـكل ملحوظ لاسيما وان أسلوب هذا الجغرافى لايحتوى على التنوع الذى نجده فى أسـلوب المقدسى •

الجزء الأول من الاقليم الرابع

مبدؤه من المغرب الأقصى حتى البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر الشامى مارا الى المشرق وفى هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية أشبانيا وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها على شكل مثلث وتضيق من ناحية المشرق حتى تكون بين البحر الشامى والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأندلس خمسة أيام ورأسها العريض نحو من سبعة عشر يوما وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهايته انتهاء المعمور من الأرض محصور فى البحر المظلم لا يعلم أحد ما خلف هذا البحر ولا وقف بشر منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلام أنواره وتعاظم أمواجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه وبه جزائر كثيرة ومنها معمورة وليس أحد من الربانيين يركبه عرضا ولا ملججا وانما يمر منه بطول الساحل لا يفارقه · وأمواج هذا البحر تندفع منغلقة كالجبال لاينكسر ماؤها والا فلو تكسر موجه لما قدر أحد سلوكه ·

(الزقاق) (١٢) والبحر الشامى فيما يحكى كان بركة منحازة مثل ما هو عليه الآن بحر طبرستان لايتصل بشىء من البحر (المظلم) وكان أهل المغرب من الأمم السالفة يغيرون على أهل الأندلس فيضرون بهم كل الاضرار وأهل الأندلس أيضا يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة الى أن كان زمان الاسكندر ووصل الى الأندلس وأعلموه بما هم عليه من التناكر مع أهل المغرب فأحضر الفعلة والمهندسين وقصد أرض الزقاق وكان أرضا جافة فأمر المهندسين بوزن الأرض ووزن سطوح ماء البحرين ففعلوا ذلك فوجدوا البحر الكبير يشف علوه على البحر الشامى بشىء يسير فرفع البلاد التى على الساحل من بحر الشام ونقلها من أخفض الى أرفع ثم أمر ان تحفر الأرض التى بين طنجة وبلاد الأندلس فحفرت حتى وصل الحفر الى الجبال التى فى أسفل الأرض وبنى عليها رصيفا بالحجر والجير افراغا · وكان طول البناء ثلاثة عشر ميلا وهو الذى كان بين البحرين من المسافة والبعد · وبنى رصيفا آخر يقابله مما يلى أرض طنجة وكان بين الرصيفين سعة ستة أميال فقط فلما أكمل الرصيفان حفر الماء من جهة البحر الأعظم فمر ماؤه بسيله وقوته بين الرصيفين ودخل البحر الشامى ففاض ماؤه وهلكت مدن كثيرة على الشطين معا وغرق أهلها وطفا الماء على الرصيفين نحو احدى عشرة قامة ·

وطول هذا المجاز المسمى بالزقاق ثلاثة عشرة ميلا وعلى طرفه مما يلى المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف ويقابل جزيرة طريف فى الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المنسوب لمصمودة ويقابل الجزيرة الخضراء فى تلك العدوة مدينة سبتة • وهذا البحر فى كل يوم وليلة يجزر مرتين ويمتلىء مرتين فعلا دائما ذلك تقدير العزيز الحكيم • وأما ما على ضـــفة البحر الكبير من المدن الواقعة فى هذا البحر المرسوم فهى طنجة وسبته ونكور وبادس والمزمة ومليلة ووهران ومستغانم •

(وصف الأندلس) لنرجع الآن الى ذكـر الأندلس ووصف بلادها وذكر طرقاتها وموضع جهاتها ومقتضى حالاتها ومبادى أوديتها ومواقعها من البحر والمشهور من جبالها وعجائب بقعها ونأتى من ذلك بما يجب بعون الله فنقول : أما الأندلس فجنوبها يحيط به البحر الشامى وغربها يحيط به البحر المظلم وشمالها يحيط به بحر الانقلشين من الروم والأندلس طولها من كنيسة الغراب التى على البحر المظلم الى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ومائة ميل وعرضها من كنيسة شنت ياقوب التى على أنف بحر الانقلشين الى مدينة المرية على بحر الشام ست مائة ميل • وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات وفى جنوب هذا الجبل مدينة طليطلة وما خلف الجبل المسمى بالشارات من جهـــة الجنوب يســمى أشبانيا وما خلف الجبل من جهة الشـــمال يقال له قشتالة والأندلس المسمى أشبانيا أقاليم عدة ورساتيق جملة فى كل اقليم منها عدة مدن نريد أن نأتى على ذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى •

(وصف المرية) ومن أراد من مرسية الى المرية سار من مرسية الى مدينة لورقة وهى مدينة غــزاء حصــينة على ظهــر جبل لها أســـواق وربض فى أسفل المدينة وعلى الربض وفيه السوق والزهادرة (١٣) وسوق العطر وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل الى كثير من الأقطار • ومن لورقة الى مرسية أربعون ميلا ثم من لورقة الى آبار الرتبة الى حصن بيرة مرحلة وهو حصن منيع على حافة مطلة على البحر ومن هذا الحصن الى عقبة شقر وهى عقبة صعبه المرقى لا يقدر أحد على جوازها راكبا وانمـــا يأخذها الركبان رجالة ومن العقبة الى الرابطة مرحلة وليس هناك حصن ولا قرية وانما قصر فيه قوم حراس للطريق • ومن هذه الرابطة الى التربة مرحلة خفيفة •

ومدينة المرية كانت فى أيام الملثم (١٤) مدينة السلام وكان بها من كل الصناعات كل غريبة • وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجـــانى

والستور المكللة والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير .

وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات مالا يحد ولا يكيف . وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص .

(وهذا الوادي المنســـوب الى بجانة بينه وبين المرية اربعة أميال وحوله جنات وبساتين وارحاء وجميع نعمها وفواكهها تجلب الى المرية) . وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كلها ، ولو يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ، والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة والجبل الثـانى منهما فيه ربضها ويسمى جبل لاهم والسور يحيط بالمدينة بالربض ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض وله سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات والمدينة في ذاتها كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها مياسير ولم يكن في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا وعدد فنادقها التي أخذها عد الديوان في التعنيب (١٥) ألف فندق الا ثلاثين فندقا وكان بها من الطرز أعداد كثيرة قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهـــة استدارت به صخور مكدسة وأحجار صلبة مضرسة لا تراب بها كأنها غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر . والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا هذا صارت ملكا بأيدي الروم قد غيروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها ولم يبقوا على شيء منها . ومن المرية لمن أراد مالقة طريقان طريق في البر وهو تحليق وهو سـبعة أيام والطريق الآخر في البحر وهو مائة وثمانون ميلا .

***

وقد بقي هذا الكتاب المعتمد والمصدر لعلماء أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون .. ويقول (سيبولد) : « .. وهذا الكتـــاب نشر بعضـــه مع احدى وسبعين خريطة .. » وقد ترجمت وطبعت أقسام من هذا الكتاب على أيدي بعض المستشرقين وطبع (دوزى) القسم المختص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس سنة ١٨٦٤ في ليدن . وطبع (روزن ملر) وصف الشام وفلسطين في ليبسيك سنة ١٨٢٨ وطبع (امارى) وغيره القسم المختص بايطاليا سنة ١٨٨٥ في روما وطبع (كولندي) الأصل العربي مع الترجمة الاسبانية الأقسام التي تتعلق بوصف الأندلس في مدريد سنة ١٧٩٩ .

ويرى (سيبولد) : « .. إن الدراسات العربية في حاجة ماسة الى نشر كتاب الادريسى الذى يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافيا مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط مهمة له يعتمد في ذلك على المخطوطات المعروفة لنا الآن في مكتبات باريس واكسفورد واستانبول » .

ولقد قضى الادريسى شطرا من حياته فى اعداد أول خريطة علمية صحيحة « ... مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة لذلك العهد والتى لا تختلف اختلافا كبيرا عما هو ثابت من ذلك لعهدنا هذا .. » .

ويمتاز الادريسى بدقته فى حساب الأطوال والعروض للبلاد المختلفة فهو لم يكتف بما اتفق عليه العلماء فى عهده أو العهود التى سبقته بل كان يلجأ الى أساليب جديدة ليتحقق من صحة ذلك فقد أحضر ما سماه (لوح الترسيم) « .. وهو ولاشك تصميم جغرافي للكرة الأرضية أو بعبارة أدق مشروع خريطة العالم التى وضعها فيما بعد فيمتحن عليه مواقع البلدان واحدا فواحدا بوساطة بركار من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون فى هذا العلم محققا بغاية العناية المواقع المذكورة ومرجحا بالاستناد الى النظر الصحيح بين الأقوال المتضاربة فى بعض المسائل حتى يقف على حقيقتها وكان هذا بلا ريب هو الاصلاح العظيم الذى أدخله الادريسى على خريطة العالم فجعلها تقرب من وضعها العلمى الصحيح الذى هى عليه اليوم .. » .

ولقد كتب العلاقة الألمانى (ميلر) عن الادريسى مطولا وأتى على ذكر خريطته ودفعه اعجابه وتقديره للادريسى أن يجمع أطراف الخريطة الادريسية وأن يدرس كتاب نزهة المشتاق دراسة علمية فأخرج هذه الخريطة لأول مرة فى طبعة ملونة غاية في الاتقان سنة ١٩٣١ .

ولقد رجعنا الى ما كتبه الأستاذ « عبد الله كنون » عن الشريف الادريسى وما ورد فى كتاب تراث الاسلام ودائرة المعارف الاسلامية وما نشر عنه من مقالات متفرقة فى المقتطف والرسالة فتجلى أن الخريطة الادريسية انما تمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية وهو النصف الشمالي ويشمل العالم القديم أو مجموع القارات الثلاث التي هي آسيا وأفريقيا وأوربا « .. وإن كان هذا الاسم ــ القارة ــ لم يكن معروفا فى ذلك الوقت .. » .

وكان تقسيم العالم مبنيا على نظرية الأقاليم وهى سبعة وقد أوردها الادريسى بهذا العدد ولكنه حددها وقسمها بحسب درجات العرض فجعل الاقليم الأول بين (٠) ودرجة (٢٣) شمال خط الاستواء والأقاليم الخمسة بعده ، كل واحد منها ست درجات ، والاقليم السابع من

٥٤ ــ ٦٣ ٠ وما بعد هذه الدرجة الأخيرة منطقة غير مسكونة لكونها كثيرة البرودة ومغمورة بالثلوج ٠

ولقد أضاف الادريسى الى القسم الشمالى من الكرة الأرضية جزءا صغيرا من القسم الجنوبى حتى (١٦) عرضـــا جنوب خط الاستواء ٠ « ٠٠ وهذا الجزء هو الذى تقع فيه منابع النيل وقد بينها ببراعة علمية فسبق بها علماء الجغرافيا والمكتشفين الذين أتوا بعده ٠٠ » ٠

لقد قدر علمـــاء الجغرافيا والباحثون فى أوروبا وأميركا عبقرية الادريسى فى رسم خريطته فقد حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها « ٠٠٠ وانه أفلح فى هذه المحاولة الى حد بعيـــد ٠٠ » ٠

ولقد أعجب المستشرقون والباحثون بخريطة الادريسى وكتابه العظيم فقال (دى فو) : « ٠٠٠ ان الادريسى اســـتعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله ٠٠ » ولاشك ان ما كتبه عن البلاد العربية كان أحسن ما كتب عنها لأنه أعطاها بحثا من الطبقة الأولى ٠

وقال البارون دى سلان : «٠٠ ان كتاب الادريسى لايمكن أن يوازن به اى كتاب جغرافى سابق له وهناك بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتعلقة بها ٠٠ » ٠

وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية : « ان كتاب الادريسى هو أوفى كتاب جغرافى تركه لنا العرب وان ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى ٠٠ » ٠

معجم البلدان
ياقوت الحموي
١٢٠٠ م

معجم البلدان من الكتب التي يتردد اسمها على ألسنة المحاضرين وتجرى بخطها على الأوراق أقلام المؤلفين ·

وقد يحسب بعض من لم يطلعوا عليه انه كتاب فيه بعض الجفاف وانه فهرس لاسماء بلدان وتحديد لمواقعها ، ولكن الواقع خلاف ما تذهب اليه الظنون · ذلك ان معجم البلدان دائرة معارف حافلة بالطريف المفيد · ففيه الى جانب تقويم البلدان : تاريخ وتراجم ولغة وشرح لمصطلحات وأدب ممتع من شعر ونثر وذكر لأحوال المجتمعات فى عاداتها وتقاليدها مما ينفع الباحثين ويساعد الدارسين ·

وللناس فى ذكر ديارهم شغف · وللأماكن لهوهم تشوق ولمدارج طفولتهم ومغانى صباهم حنين وقد يمرون بمراتع ومرابع ومدن وقرى وأنهار وجداول فيعجبهم بعض ما رأوا أو يترك فيهم أثرا لاينسى ، وقد يجتمعون فى تلك البقاع أو يفترقون فتفيض مشاعرهم بالمنظوم والمنثور ويتلقفه عشاق الأدب ثم يروونه فى مجالس سمرهم أو لمن يسألهم طلبا للبيان فاذا ذكرت ملابسات القطعة الأدبية وعرفت أماكنها ضاعف ذلك من الاحساس بتأثيرها فى القارئين والمستمعين ·

وشعراء العرب من قديم لهم ولع بذكر الأماكن ، لاتخلو من ذلك قصائدهم ومقطوعاتهم كما أن الفتوحات الاسلامية حفلت بأسماء الأقاليم والمناطق والبقاع وللعلماء رحلات وجولات فى طلب المزيد من العلم والكثير من المعرفة واكتساب الخبرة وقد قالوا وصدقوا : «ماراء كمن سمع » · هذا الى ان للدول حدودا تشمل قرى ومدنا ووديانا وصحارى ومزارع فاذا وجدت فى ذلك كتبا مؤلفة بعناية ومرتبة بدقة ، جامعة لما قيل فى المكان وما حدث فيه لاتشعر بملل ولا ضجر بل تقبل على القراءة فى حرص ورغبة طالبا المزيد وتخرج من كل هذا بزيادة فى الثقافة وتوسيع فى المدارك ·

ويزيد اعجابك بالمؤلف حين ينسب الأقوال الى أصحابها والمعلومات التى كتبها المنقولة عنها وتشعر بالارتياح اذا كان قد طاف بهذه الأماكن التى يتحدث عنها وأن يقص عليك بعض عجائبها التى وقعت عليها عيناه أو سمعتها أذناه ·

كل هذا الذى يحبب ويعجب تجده في معجم البلدان لياقوت الحموى ·

صــــاحب المعجــــم

ونتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به فى أول نشأته غلام رومى صغير مجهول الاسم يقع فى الأسر خلال الحروب المتصلة التى كانت تنشب بين المسلمين والروم فى آسيا الصغرى ويدخل فى ولاء تاجر حموى فى بغداد يدعى عسكر بن أبى نصر بن ابراهيــم الحموى فيسميه ياقوتا وينســبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومى الحموى . ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموى البغدادى لياقوت بأحد الكتاب لينتفع به فيما بعد فى ضبط تجارته فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده فى عدة رحلات تجارية زادت فى خبرته ووسعت أفقه ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها الخليج العربى حيث زار البصرة وبعض موانى الخليج وجزره وبخاصة حزيرة قيس التى كانت مركز النشاط التجارى بين الخليج والهند فى القرن السادس الهجرى ، القرن الثانى عشر الميلادى وكان خلال رحلاته التى اتسعت فيما بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لجفوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسب منها وحصل بالمطالعة فوائد زادت فى ثقافته العلمية وحببت اليه الاشتغال فى العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ويصبح شريكا لمولاه فى التجارة بالمضاربة وقد أعطاه الأخير مالا خـــرج به للتجارة فى جزيرة قيس فلما عاد من رحلتـــه الى بغداد عام ٦٠٦ هـ وجـد مولاه عسكر بن أبى نصر قد توفى ، فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله واستمر يعمل فى التجارة بما فيها تجارة الكتب فكان يطوف البلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ويتعرف على العلماء وكبار القوم والذين يرغبون فى هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذى كان يطلق على الرقيق لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت .

وفى أثناء تجوال ياقوت فى مدن خراسان أدركته جيوش التتار فى مدينة مرو التى أحبها كثيرا وتمنى أن يقضى بقية حيـــاته فيها فغادرها

مكرها الى اربل ومنها الى الموصل بعد أن قاسى الكثير من المتاعب والأهوال وضيق ذات اليد . وفى الموصل استأنف ياقوت عمله فى نسخ الكتب وقد نسخ منها الكثير اذ يحدثنا ابن الشعار المبارك بن أبى بكر بن حمدان الموصلى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) الذى التقى بياقوت فى الموصل ان ياقوت « كتب بيده فى مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد » واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦ هـ ـ ٦٠٣ هـ) أمكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات أخرى من الكتب وهذه مهمة شاقة لم تكن تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكا ياقوت من ذلك وهو فى الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفته وبخته .. ويذيب نفسه فى تحصيل أغراض هى لعمر الله أغـــراض من صـــحف يكتبها وأوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل واستمتاعه بها قليل ثم الرحيل .. وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطر أو ادراك أرب » وكتب ياقوت وهو فى الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين على القفطى وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفادة عليه والاقامة فى كنفه . فلم يخيب القفطى رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث اســـتمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجتمع الى أهل العلم والأدب وأكمل خلال تلك الفترة مســـودة معجم البلدان الذى أهداه الى الوزير القفطى اعترافا بفضله عليه ولم يلبث ياقوت ان توفى فى حلب وهو فى الخمسين من عمره (٥٧٤ ـ ٦٢٦ هـ) (١١٧٨ ـ ١٢٢٩ م) .

معجـــم البلـــدان

يقع معجم البلدان فى خمسة مجلدات فى الطبعة المتداولة • وقد بدأ ياقوت فى جمع مادته منذ شبابه واستمر فى ذلك حتى قبيل وفاته حيث بادر فى تسويد أوراقه خشية بغتة الموت قبل تبلج فجره على يد تعبيره وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ورفض بشده اختصار الكتاب والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره • ويذكرنا ياقوت هنا بعزم شيخ المؤرخين الطبرى على جعل تاريخه فى ثلاثين ألف ورقة الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره فى ثلاثة آلاف ورقة ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبرى المختصر الا ان ياقوت تمسك برأيه فى عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه • ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة أبواب وهو بعامة يغطى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهـــار وغيرها من المعالم البارزة فى العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامى • ونشير ابتداء الى الأهمية الكبيرة للمقدمة التى كتبها ياقوت لهذا المعجم لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلى :

اولا : دواعى تاليف معجم البلدان وأسبابه وتتلخص فيما جاء فى القرآن الكريم من حث للبشر على السير فى الأرض والتفكر فى عاقبة من عمروها قبلهم وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارها وفتوحها ووصف جغرافيتها والالمام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التى يرد ذكرها فى كتب السيرة والتاريخ والأدب •

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قيما لحركة التأليف الجغرافى لدى علماء العرب والمسلمين بالاضافة الى الفوائد التى حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهده فى أسفاره وحصله فى تطوافه وهو كما يقول أضعاف ذلك •

ثالثا : منهج تاليف المعجم من حيث حرصـــه على توخى الدقة فى الوصف وضبط الأسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك والاشارة الى

ذلك قولا وكتابة منعا للبس والتحريف والتصحيف ، اضافة الى ميله الى الشرح والتفصيل وتفوره من الاجتزاء والاختصـــار وتنبيه القارىء الى ما يرد فى الكتاب أحيانا من أساطير تبرأ من صـــحتها وأوردها على علاتها حتى يقف الناس على ما قيل فيها ويكونوا على بينة منها وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشــــعوب من أساطيرهم والباحثين فى علم الميثولوجيا ٠

رابعا وأخيرا : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه فى عدد من قضايا العلم والأدب والجهود الفنية التى بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس عله يظفـــر منهم بالثناء والدعاء فينال ذكرا زكيا من المؤمنين ويحشر فى زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو ٠

وأما البابان الأول والثانى فتنحصر فوائدهما فى الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها فى حين أفرد ياقوت الباب الثالث لشرح معانى المصطلحات الفنية الواردة فى المعجم كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرستاق والطسوج والسكة بمعنى الطريق والمصر والقطيعة وغيرها سالكا فى ذلك أحدث الطرق فى التأليف والتصنيف ٠ وخصص البـــاب الرابع لأقوال الفقهاء فى أحكام أراضى الفىء والغنيمة وأدار الباب الخامس على جمل من أخبار البلدان ٠

وقد حرص ياقوت فى أثناء اعداد وجمع معجم البلدان أن يراعى أصولا عملية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب وهى :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوق بها وهى كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذرى وكتاب الفتوح لأبى حذيفة اســـحاق بن بشر القرشى وكتاب فتوح الشام لأبى حذيفة بن معاذ بن جبل وكتاب خطط مصر للقضاعى وكتاب أبنية الاسماء (الأبنية) لابن القطاع وكتاب ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن السكندرى وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبى وكتاب جزيرة العـــرب للحسن الهمدانى وكتاب جبال تهامة لأبى الأشعث الكندى وكتاب فى مياه العرب للغندجانى بالاضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التى ألفهـــا ابن خرداذبة وابن واضـــح والجهيانى وابن الفقيـــه والبلخى والاصطخرى وابن حوقل والبشارى والمقدسى والمهلبى وابن أبى عوف البغدادى وغيرهم ٠ ويلاحظ ان جانبا من هذه المؤلفات قد فقد أو ضاع ولم يصل الينا بعد ما يجعل لاقتباسات ياقوت عنها أهمية تراثية كبيرة ناهيك عما يدل من سعة المصادر التى رجع اليها ياقوت فى تأليف معجمه فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطالع فى أمهات الكتب ويعكف على

الافادة منها والاقتباس عنها وقد أكد ذلك معاصره ابن الشعار فى ترجمته لياقوت فقال فى ذلك : « فما يعلم أنه منذ كان عمره سبع سنين الى أن توفى ما خلت يده من كتاب يستفيد منه أو يطالعه أو يكتب منه شيئا أو ينسخه وكان ياقوت أمينا فى الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر » ٠

ثانيا : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التى اكتسبها من تجارته وأسفاره التى امتدت من النيل الى جيحون ٠ وقد أشار ياقوت الى ذلك أكثر من مرة كلما دعت المناسبة الى ذلك فنراه يسهب فى الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان ويقول عن الأخيرة : « رأيت أطرافها وعاينت جبالها ٠٠ ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة » ٠

ثالثا : استقصاء سبل البحث العلمى الدقيق من ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ فكان ياقوت لايثبت القول المنقول فى معظم الأحوال الا اذا اطمأنت اليه نفسه وقد اتبع ذلك فى كثير من الأخبار كما هو الحال فى حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم فبعد ان يعدد الروايات المختلفة فى هذا الشأن يقول : « والذى تركن اليه نفسى انه اما ان يكون من التجمع أو تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة » فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح الأخبار ظل يبحث ويستقصى حتى يصل الى ضالته فيهدأ ويطمئن ٠ وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان يحقق مواضع المحمدية حيث تبين له بعد البحث والتنقيب فى المصادر وجود محلة بالرى كانت تدعى أيضا المحمدية نسبة الى منشئها الخليفة العباسى محمد المهدى وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة : « فلما وقفت على هذا فرج عنى » وواجه مثل هذا الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها بعض من سبقه فى هذا الميدان مثل ابن الكلبى والبلاذرى وأبى حنيفة الدينورى والمسعودى وابن بطلان وغيرهم وتوصل فى نفس الوقت الى معلومات مفيدة عن طبرستان وبنى النضير والبرامكة وآل الصفار ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم فى أثناء حديثه عن مواقعها ٠

أما الاستقراء والاستنتاج فقد توافرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذكاء متقد فنراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج ٠

وأما الاجتهاد فكان ياقوت يلجأ اليه اذا لم يسعفه الدليل القائم أو النص المقنع كما فعل فى محاولته معرفة اشتقاق اسم « مناة » اذ يقول : « لم أقف على أحد يقول فى اشتقاقه وأنا أقول فيه ما يسنح لى فان وافق

الصواب فهو بتوفيق الله وإلا فالمجتهد مصيب فلعله يكون من المنا وهو القدر وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل » .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التى يخالجه شك فيها أو عجز هو نفسه عن تحقيقها وأجاز للباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين • وأشار ياقوت الى مثل ذلك أكثر من مرة فى معجم البلدان وبخاصة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية اذ قال : « وفى أخبار الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابى هذا ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها بحثا فقد أذنت له فى اصلاحه مأجورا » •

رابعا : التحفظ عند ذكر الأساطير التى نقلها من مصادره وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ولكونها تخالف المألوف من العادة وقد استبعد ياقوت وقوعها وتبرأ من عهدتها وفند معظمها مؤكدا « أن الملة الاسلامية تجل عن مثل هذه الخرافات » وكان المبرر عنده لايرادها حتى يعرف القارىء ما قيل فى ذلك حقا كان أو باطلا •

الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمى فى تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامى وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للأقطار التى زارها وتردد عليها كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربى وبلدان المشرق الاسلامى وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر نذكر منها على سبيل المثال وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب وبحر الروم (المتوسط) وبحر الهند (المحيط الهندى والخليج العربى وبحر الخزر وتتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل وظاهرة قصر الليل صيفا فى بلاد البلغار التى ذكرها المسعودي بقوله : « والليل فى بلادهم فى غاية القصر فى الصيف حتى ان أحدهم لايفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس وذلك حين روى ان « بالتبت جبل يقال له جبل السم اذا مر به أحد تضيق نفسه فمنهم من يموت ومنهم من يثقل لسانه » وغير ذلك من المواد التى تزخر بالمعلومات والفوائد •

ويكفى ياقوت فضلا انه استطاع بخبرته والمعيته وثقافته الموسوعية ان يعطى من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام فى عصره وان يصف بطريق غير مباشر جانبا من أحوال ذلك

العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا أمر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه لما له من أهمية فى التعرف على حضارة العالم الاسلامى قبيل الغزو المغولى المدمر لأقاليم المشرق الاسلامية التى لم تكد تسير فى طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين ، حتى دهمها الغزو المغولى الذى كان ياقوت أحد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

الملامح السياسية فى معجم البلدان :

تتمثل أولى الملامح التى تواجه من يقرأ معجم البلدان قراءة متأنية فى الاحساس الواقعى الذى يحسه بوحدة العالم الاسلامى الكبير وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التى كانت قائمة فيه والأخطار الداخلية والخارجية التى تهددته فترة من الزمن وهنا يعتبر ياقوت الحموى شاهد عيان واعيا لآثار المرحلة الأخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة التى استهدفت قلب العالم الاسلامى وبخاصة مصر وبلاد الشام وهذا الوصف السياسى الذى قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التى ذكرها ياقوت فى معجم البلدان يعتبر جانبا منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم متنقل شاهد الأحداث السياسية وانفعل بها وسجل ملاحظاته عنها من ذلك مثلا ان ياقوت يحمل خوارزم شاه محمد بن تكش بن ارسلان (ت ٦١٧ هـ ــ ١٢٢٠ م) المسئولية المباشرة فى اضعاف قوة المسلمين فى مقاطعات ما وراء النهر وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار فى الشرق وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون فى ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التى تحفظ حدودهم مع التتار وقد أدى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكرى وسياسى وسكانى لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة ، مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى عن ديار المســـلمين فى تلك المناطق التى وقعت فريسة سهلة بأيدى التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحوها وأهلكوا الحرث والنسل فى ربوعها فكانت أولى المناطق الاســـلامية التى هب عليها اعصـــار التتار المدمر وقد أشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة .

ويصف النكبة التى حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة والاسلام فيهم غض المجتنى حلو المعنى . يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء » .

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة كلما ذكر مكانا وقعت فيه أحداث مماثلة وبذلك ربط ربطا متلازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل أيضا فى نطاق اشارات ياقوت المماثلة فى أثناء تعريفه ببلدان الأندلس وما سقط منها في أيدى الأسبان وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين ، كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التى كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية فى شمال بلاد الشام وسقوط طرسوس وحلب فى أيديهم وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة ـ الحمداني ـ حي يرزق بميافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الفرض (الجهاد) ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ونسأله الكفاية من عنده » .

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح فى البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية وما بذله خلفاء تلك الدولة من جهود لتعزيز تلك الجهود وهو أمر يتمشى مع السياسة الدفاعية التى تبنتها دولة بني العباس وعدم أخذها بسياسة الفتوح الأموية التى كانت ترى فى الفتوح (الهجوم) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم .

وفى هذا الميدان أى نظام الدفاع عن الدولة الاسلامية يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة أخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التى كانت منتشرة على طول الخطوط الأمامية للحدود من جهة وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة أخرى كما كان الحال فى باب الأبواب وقزوين ، حيث يذكر ان المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر اقامة الحجاج ابن يوسف الثقفى والى بنى أمية على العراق والمشرق فى أواخر القرن الأول الهجرى « فاذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهارا وان كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجرد الخيل اليهم » فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل انذار مبكر وسريع للمسلمين من الأخطار التى قد تدهمهم .

رابعا : أشاد ياقوت فى أثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وازدهارها كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادى فى مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح

التتار لها اذ كان في منطقة غرشتان كما يقول : « عدل حقيقي وبقية من عدل المعمرين وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وأرز وزبيب يحمل الى البلدان ومثل ذلك يقول عن اسفيجاب والطاقات ومرو وساوه التي كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة » كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها وكان ياقوت في هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضع سنين ينتقل في ربوعها .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الاسلامية الأخرى نتيجة لتكالب العمال والولاة على جمع المال من الرعية وعدم انفاقه على شئون الولاية ، اضافة الى غياب السلطان العادل وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد فسادا .

الملامح الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الأرضين العديدة التي منحت لبعض الأشخاص من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو دولة بني أمية أو دولة بني العباس ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الأشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نجدها في معجم البلدان في ثنايا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عقيق ، الغميم ، الغورة ، فخ ، قالس القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينبع . ونجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : سنينيا ، شاطيء عثمان ، شط ، عرصه ، نشاستج نهر الأساورة ، نهر أم حبيب ، نهر أم عبد الله ، كما نتعرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الأموية في المواد : سلوقية ، عرب ، نهر العلاء ، مدينة مرغاب ، نهر بن عمير . واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد راون ، سوق العش ، سويقة خالد ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة أم جعفر ، مرعش ، نهر أبي الخصيب .

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في الصوافي والأراضي البور التي لا مالك لها ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان أنما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ولا عمارة توجب ملكا لأحد » وهذه ناحية اقتصادية مهمة ، لأن الخلفاء والولاة كانوا بوجه عام لايتصرفون بممتلكات الغير واذا أرادوا امتلاك أرض مملوكة

لأجل المنفعة العامة كبناء مسجد أو مدينة عمدوا الى شراء الأراضى من أصحابها كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفى فى واســـط والمهدى فى المحمدية بالرى والمعتصم فى سامراء وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول صلى الله عليه وسلم لأول مرة عندما ابتاع أراضى مسجده فى المدينة ورفض امتلاك الأرض دون التعويض على أصحابها وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصـــدرا مهما ورئيســـيا فى دراسة تطور الاقطاعات فى الدولة الاسلامية ٠

وفى أثناء حديث ياقوت عن البلدان والأرضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد أحيانا بعض المعلومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، اضافة الى ذكر بعض الصناعات مما يدخل فى التاريخ الاقتصادى للدولة الاسلامية ٠ فقد كان فى مدينة شيراز مثلا شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الآخر حامض كما كان فى بلدة شنترة بالأندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة أشبار واشتهرت تاهرت بالسفرجل وتبريز بالمشمش وغزة ورفح بالجميز وفلسطين وتونس بالزيتون وفى مصر كمثال آخر يشير ياقوت الى أهمية مياه النيل وقياس مستوى ارتفاعهـــا للزراعة ويورد كشفا بأسماء مائة وستة وثلاثين نوعا من الطيور كانت توجد فى منطقة بحيرة تنيس بالاضافة الى ثمانين نوعا من الأسماك فيها ٠

الملامح الاجتمـــاعية :

وتصادفنا فى معجم البلدان عدة ملامح اجتماعية مهمة منها :

أولا : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب على اعتبار أن هذه المنطقة كانت فى معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشرى الى المناطق الأكثر خصبا وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ٠

وفى هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمـــة عن تحـرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاعة والازد ومواطن بنى سعد وبنى أسد وطيىء وكلب وتغلب وبكر وربيعة ومضر واستشهد بأبيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبى تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهى لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء واياد وتغلب ٠

وعندما جاء الاسلام وتكونت نواة دولته فى المدينة اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية أبعادا أوسع فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث تركز سكانى فى منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، وتدفق الأعراب على المدينة للافادة من العطاء ولم تلبث أعداد من القبائل العربية ان خرجت ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية

حيث فتحت الأقطار وأقامت في الأمصار والثغور وفي بيوت المدن المفتوحة كما حدث في خراسان . وقد أسهم عرب الفتوح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة .

وفي أخبار البعثة الاستطلاعية التي أرسلها الخليفة العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم يأجوج ومأجوج ذكر ياقوت ان البعثة اجتازت حصونا فيها « قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرءون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب الا أنهم كانوا منقطعين عن العالم الاسلامي ولايعرفون شيئا من أخباره » .

ثانيا : وكان العرب لدى انتقالهم الى الأمصار والأقاليم يسمون بعض مدنهـــا بأسماء المدن والمواطن التي قدموا منها تذكرهم بمواطنهم الأولى وتهدىء من شوقهم وحنينهم اليها وهي ظاهرة انسانية مألوفة ومعروفة فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا الاســم قرب عين التمر في العراق وشهدت الأندلس ملوكا سموا عدة مدن منها بأسماء مدن الشــام مثل حمص وتدمر .

وثالثا : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية مهمة عن مساحتها وسكانها فالبصرة كانت تضم في عهد زياد بن أبيه ثمانين ألف مقاتل من العرب وعيالاتهم مائة وعشرون ألفــا أي أن عدد سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا ألف نسمة وأضيف الى هؤلاء في زمن عبيد الله بن زياد ألفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخارى وفرض لهم العطــاء وبني لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم فقد تطورت البصرة زمن خالد بن عبد الله القسري في أوائل القرن الثاني للهجرة فأصبح طولها فرسخين الا أنقا .

ولم يغفل ياقوت وهو يذكر عرضا أخبار العرب المهاجرة الى الأمصار أخبار الشعوب والفئات الأخرى التي كانت تعيش داخل الدول الاسلامية أو تلك التي تقيم على تخومها كالنبط والأساورة والبخارية والاكراد والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج وأهل الصين فأورد وصفا لجانب من عاداتهم وتقاليدهم واعتمد في هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة التي وضعها أوائل القرن الرابع الهجري ورسالة أبي دلف في ذكر ما شاهده ورآه الترك والصين والهند .

الملامح الثقــافية :

وسجل ياقوت فى معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية ولا الدولة الاسلامية وقد استوقفته هذه الملامح ، لأنه كان أديبا شارك فى ثقافة عصره من طريق نسخ الكتب والمتاجرة بها الى جانب جهوده المشكوره فى التأليف فضلا عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جـاء قبيل اجتياح المغول للمشرق الاسلامى وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه ويمكن تلمس هذه الملامح تحت المؤسسات التالية :

أول : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية مهمة منتشرة فى جميع أنحاء الدولة كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة ٠

ثانيا : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة فى معظم المدن الاسلامية وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وأفاد منها فائدة مباشرة ففى مدينة ساوة بين الرى وهمذان كانت توجـــد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بأنها « لم يكن فى الدنيا أعظم منها بلغنى أن التتر أحرقوها » وذلك عام ١٦٧ هـ / ١٢٢٠ م وفى مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير المغول لها ويقول ياقوت فى هذا الشأن انه أقام بمرو ثلاثة أعوام وانه « لولا ماعرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات » لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بهـــا فانى فارقتهـــا ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز أبو بـــكر عتيق الزنجانى أو عتيق بن أبى بكر ٠٠٠ وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها والأخرى يقال لها الكمالية لا أدرى الى من تنسب وخزانة شرف الملك المستوفى أبى سعد محمد بن منصور فى مدرسته ومات المستوفي هذا فى ســـنة ٤٩٤ هـ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق فى مدرسته وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها وخزائن الخاتونية فى مدرستها والضميرية فى خانكاه هناك ٠ وكانت سهلة التناول لايفارق منزلى منها مائتـــا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها وأنسانى حبها كل بلد وألهـــانى عن الأهل والولد » ٠ وأكثر فوائد هذا الـــكتاب وغيره مما جمعه فهو من تلك الخزائن ٠

ثالثا : العلماء : وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على أسماء فئات من العلماء النابهين الذين ذكرهم ياقوت بعد تعريفه باسم البلد أو القطر الذى ينتمون اليه ويلاحظ من عاصروه أو سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه الموجزة أهمية خاصة وكان بعض هؤلاء العلماء يتنقلون فى البلاد الاسلامية استكمالا لعلمهم من جهة ولنشر علمهم بين الناس من جهة أخرى وفى هذا الصدد ذكر ياقوت أسماء العديد من علماء المغرب والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من العلم وكان الطلب شديدا على العلماء النابهين يسعى الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم .

الملامح الأثرية :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة معلومات أثرية مهمة سواء بالنسبة للمساجد والآثار الاسلامية أو الآثار القديمة التى خلفتها الدول والشعوب فى العالم الاسلامى الذى تعاقبت عليه الحضارات وهناك أمثلة كثيرة على هذه الآثار نجدها فى وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة فى مكة المكرمة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة فى القدس والجامع الأموى فى دمشق وجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون فى الفسطاط اضافة الى تحديد المساجد التى أقامها الرسول الكريم بين المدينة وتبوك وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الاسلامية وطريقة بنائها ووصف مواقعها وأسوارها وقصورها وخططها كما هو الحال بالنسبة للبصرة وواسط وبغداد وسامراء والفسطاط والقيروان .

وقد لاحظ ياقوت استغراب الناس من ضخامة هذه الآثار فكانوا ينسبون بناءها الى النبى سليمان بن داود والجن كما هو الحال بالنسبة لمدينة زندورد وتدمر وقصر عمدان وقد علق ياقوت على ذلك بقوله : « لكن الناس اذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه الى سليمان والى الجن » كما لاحظ ان الناس كانوا يرتادون الأماكن الأثرية للمشاهدة والتنزه وكان بعضهم يكتب العبارات والأبيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار ..

دراسات رائدة لمعجم البلدان

كان صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (ت ٧٣٩/١٣٣٨م) أول من اختصر هذا المعجم فى كتاب أسماه « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » وبعد ذلك بحوالى قرنين قام جـــلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) باختصــــاره ثانية فى كتاب عرف باســـم « مختصر معجم البلدان » ويستفاد من ذيل تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير فى مكتبة آصفية بحيدر آباد ٠

الا أن أول دراسة فى مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموى نفسه وضمنها كتابه المطبوع « المشترك وضعا والمفترق صقعا » اذ يقول فى مادة تلك الدراسة : « هذه طرفة طريفة وملحة مليحة تشرئب اليها النفوس ٠٠ انتخلتها من كتابى الكبير المسمى بمعجم البلدان وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان فيما اتفق من أسماء البقاع لفظ وخطا ووافق شكلا ونقطا وافترق مكانا ومحلا واختلف صقعا ومحتلا ٠٠ ليخف على الحامل ثقله ويتيسر على الناقل نقله » ٠

وفى القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية ونورد فيما يلى جانبا من العرض القيم للدراسات الاستشراقية للمعجم والذى ضمنه وديع جويدة مقدمة ترجمته للفصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت فقد قام عدد من كبـــار المستشرقين فى النصف الثانى من القرن الماضى بدراسات علمية تتعلق بموضوعات معينة فى المعجم ففى عام ١٨٢٣ نشر المســـتر الروسى فرين (C. M. J. Fraehn) فى بطرسبورج أول دراســـــة استشراقية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفة أخـــرى عن الروس الأقدمين والشعوب المجاورة لهم »

(Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte uber die Russen alterer zeit und ihr nachbarn.)

فكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلغار القاطنين ضفاف نهر الفولجا وعن الشعوب المجاورة له معتمدا فى الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة فى معجم البلدان لياقوت وقد

نشرها متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيفا اليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة كما يعتبر فرين أيضا أول من كتب عن ياقوت وعرف به وقد احتفظ بحثه بقيمته الى أوائل القرن العشرين ٠

وكانت دراسة فرين فاتحة لأبحاث ودراسات مماثلة فقد نشر المستشرق الألمانى كورد دى شولتسير (Kurd de Schloezer) الرسالة الأولى لأبى دلف متنا وترجمة لاتينية وهى رسالته للدكتوراه (برلين ١٨٤٥) وذلك بعنوان : « أبو دلف مسعر بن مهلهل ورسالته عن رحلته الآسيوية »
« Abu Dolef Misaris ben mohalhol de itemere asiatico commentarius »
وكان بحثه دراسة لمقتطفات من رسالة أبى دلف موجودة فى معجم البلدان ٠

وبعد ذلك نشر المستشرق الايطالى المعروف ميشيل امارى فى ليبزج ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » وهو عن تاريخ جزيرة صقلية وقد ضمنه عدة نصوص عربية بدءا بالمسعودى وانتهاء بحاجى خليفة واشتمل الباب الحادى عشر من الكتاب على المقتطفات التى أوردها ياقوت فى معجم البلدان عن جزيرة صقلية ومدنها وقراها ٠

وفى عام ١٨٦١ ظهرت فى باريس دراسة للمستشرق الفرنسى باربييه دى مينار (C. Barbier Meynard) بعنوان « معجم جغرافى فى تاريخى فى أدب فارس والأقطار المجاورة لها مستخرج من معجم البلدان لياقوت »
« Dictionnaire Geographique Historique et litteraire de la Perse et des contrees Adjacentes Extrait de modjem El Bouldan de Yaqout ».

أما النصوص التى أوردها ياقوت فى معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألمانى لودولف كريل بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » ٠

وقد نشرت هذه الدراسة فى ليبزج عام ١٨٦٣ والمعروف أن هذه النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبى كما أن المستشرق الألمانى يوليوس فلهوزن ضمن كتابة القيم « بقايا الوثنية العربية » Uber die Religion der Vorilamischen Arber جميع المقتطفات التى أوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور وأتبع ترجمتها بالتعليق والتحليل ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذى يدور عليه كتابه ٠

وكانت أراضي الحرار في جزيرة العرب موضوع دراسة أخرى قام بها المستشرق الألماني أوتولوث (ottoloth). معتمدا على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ بعنوان « حرار بلاد العرب عند ياقوت » Die vulkan regionen-Harra's Von Arabien nach Jakut, ZDMG 1868.

أما الاشارات المتنوعة التي أوردها ياقوت عرضا عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج Hartwig Derenbourg بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » ونشرت في كتاب الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ .

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق ايرنست دامان Ernest Dammann بحثا بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بأفريقيا السوداء » ويكاد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ان يكون اعتماده الأساسي قائما على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ ، ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني فستنفليد من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات خصص المجلد الأخير منها للفهارس وقدمت الملاحظات والفهارس التي وضعها أساسا لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلداني ومصادره كما كتب في أثناء عكوفه على نشر المعجم مقالتين عن أسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ .

في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم » وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ .

وفي أواخر القرن الماضي (١٨٩٨) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (F. Justus Heer) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصار التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » .

وقد وصف وديع جويدة هذا الكتاب بأنه مايزال أفضل وأشمل دراسة وضعت عن معجم البلدان ومصادره .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » اذ المعروف ان هذا المعجم يضم حوالي

خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله كما أن القصائد التى قيلت فى الفتوح والحنين الى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية فى ضوء ندرة الوثائق التى ترجع الى القرون الهجرية الأولى ويمكن للباحثين ان يجـــدوا فى هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة وبخاصة فى القرن الأول الهجرى . وكان كراتشكوفسكى من أوائل الذين تنبهوا الى هذه الحقيقة . كما وضـــع هذا المستشرق الكبير دراسة أخرى حول الرسالة الثانية لأبى دلف فى معجم البلدان وشهرزور فى معجم ياقوت .

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستنفلد لمعجم البلدان فان هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكى ماتزال من أهـــم المراجـــع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية وقد أعيد نشر هذه الطبعة بالأوفست فى طهران عام ١٩٦٥ . أما طبعة القاهرة التى جاءت فى عشرة أجزاء وأشرف عليها محمد أمين الخانجى الكتبى (١٩٠٦) فلم تأت بجديد وان كانت أحيانا تقدم قراءات فيهما على معجم ياقوت البلدانى وسماه « منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان » وقد لاحظ كراتشكوفســـكى ان « هذه الاستدراكات قد تمس أحيانا نقاطا عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ولكنه فى أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث فى أوروبا وأمريكا واستراليا وهذه الاضافة وان لم تمثل قيمـــة ما من وجهة النظر العلمية ، الا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوســـاط العربية المثقفة الى بداية القرن العشرين .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد على واسعاف النشاشيبى وعباس الغزاوى وعبد الوهاب عزام وعلى أدهم وعبد الله مخلص وأبو الفتوح التوانسى وعبد المعين الملوحى . وليس من شك فى أن كثرة الدراسات التى أفردت لياقوت ومصنفاته تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية فى التراث العربى الاسلامى الذى يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة .

والحق ان ياقوت الحموى نفســـه كان يدرك أهمية العمل العلمى العظيم الذى قام به فوصف كتابه الضخم بأنه « أوحد فى بابه مؤمر على جميع اضرابه وأترابه لايقوم لمثله الا من أيـــد بالتوفيق وركب فى طلب فوائده ، كل طريق فغار وأنجد وطوح بنفسه فأبعد وتفرغ له فى عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات

الحرص وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التى عايشها ٠ وهو يجمع مادة كتابه القيم حبا فى العلم والمعرفة وانتفاع الناس بهما كان كل أمله ومبتغاه أمنية فى ان لاينسب هذا الجهد الى سواه ودعاه توجه الى الله عز وجل « ان لايحرمه ثواب التعب فيه وان يكون جائزته على ما أوضع اليه ركاب خاطره ولسهر فى تحصيله بدنه وناظره دعاء المستفيدين وذكر زكى من المؤمنين بأن يحشر فى زمرة الصالحين » رحم الله ياقوت الحموى رحمة واسعة وجزاه عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء ٠

الذين أشادوا بياقوت الحموى وآثاره العلمية والأدبية كثيرون منهم والمعاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون وهؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم فى معرض تقويمهم لتلك الآثار فى حين يتسم تقويم البعض الآخر بالافاضة والتخصيص فابن خلكان وهو من المعاصرين يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية فى تحصيل المعارف ٠٠٠ وان الناس كانوا عقيب موته يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه » والذهبى وهو من اللاحقين ينعته « بالأديب الاخبارى صاحب التصانيف الأدبية فى التاريخ والأنساب والبلدان وغير ذلك » وهو عند ابن تغرى بردى المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط » ٠

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونبهوا الى أهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ويأتى فى مقدمة هؤلاء المستشرق الروسى فرين (Frahn) الذى كان أول من كتب منهم عن شخص ياقوت وعرف به وتبعه زميله سنكوفسكى (Senkowski) الذى وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة ٠٠ وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستنفلد (Wustenfeld) الألمانى فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار » وقفى عليه الأسبانى بونس بويجس (Boigues) فذكر انه أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوسطى وأشار كراتشكوفسكى (Krachkovski) الى أن « أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة ٠٠ فهو جماع للجغرافيا فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا والأدب الشعبى والأدب الفنى فى القرون الستة الأولى للهجرة » وأشاد به المستشرق الهولندى كرامرز (Kramers) وبخاصة بالنسبة للاشارات التجارية التى وردت فيه واعتبره جليلا فى هذا الميدان كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافيا ونوه به المستشرق

الفرنسي كارا دو فو (Carra de voux) حين قال : « ان معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر » ·

وأولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما مماثلا بمعجم البلدان فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا « أهمية فائقة اذ يصور العالم الاسلامي في الفترة السابقة على الخراب الذي أصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول ويعتبر الجهد الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة وهدانا الى كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصـــول عليها كما استعمل المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث » وعده جرجي زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية » وهو عند د· حسين مؤنس « معجم جغرافي خالد وديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذي يمثل صرحا من صروح العبقرية البشرية في كل العصور » وعند عمر كحالة « أكمل مصنف للمعلومات الجغرافية والوصفية والفلكية واللغوية وأخبار الرحالين والتي جمعها السلف » ·

حياة الحيوان الكبرى

الدميري

١٤٠٠ م

لقد كانت الأمة العربية من أوائل الأمم التى ضربت بسهم وافر فى مختلف ألوان المعرفة البشرية فكانت كتابات أبنائها فى العلم والأدب والدين والفن من أروع الكتابات التى سجلها التاريخ ، وكانت لهم فى مختلف أنواع العلوم كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء والنبات والحيوان جولات صادقة تتضح أصالتها من مخلفاتهم العلمية العديدة التى تزدان بها مكتبات الشرق والغرب • والواقع أن التراث العلمى العربى سواء أكان فى صورة مطبوعات أم مخطوطات يحتاج الى كثير من الدراسة والتعليق احقاقا للحق ودحضا لافتراءات المغرضين الذى ينكرون على العرب دورهم الكبير فى تقدم الحضارة الانسانية •

ونحن اذ نقدم كتاب « حياة الحيوان الكبرى » انما نظهر فى وضوح وجلاء أن الكتاب العرب لم يتركوا بابا من أبواب المعرفة دون أن يطرقوه فى قوة وعزم ، فقد كتب هذا المؤلف الضخم الذى يقع فى جزءين يحتويان على ٦٩٦ صفحة منذ ستة قرون مضت من الزمان وهو تاريخ لم يكن فيه لعلم الحيوان وجود ، وقد طبع لأول مرة عام ١٢٧٤ هجرية فى مطبعة بولاق بالقاهرة كما ترجم الى عدد من اللغات الأوربية •

***

دميرى ـ بفتح الدال وكسر الميم ـ على وزن سفينة كما نص صاحب القاموس فى مادة (دمر) : بلدة من أعمال السمنودية والسمنودية الآن هى بعض بلاد محافظة الدقهلية بمصر نسبة الى سمنود •

ودميرة اشتهر منها علماء ذكر بعض منهم فى تاج العروس •

وذكر السخاوى بعضهم فى كتابه « الضوء اللامع » •

لكن أشهر من نبغ وكانت له آثار وذكر حميد هو محمد بن موسى ابن عيسى بن على وكنيته أبو البقاء ، ولقبه الكمال • أصله من دميرة أما ولادته فكانت بالقاهرة وهو صاحب كتابنا هذا كتاب « حياة الحيوان الكبرى » •

يقول السخاوى فى الضوء اللامع عنه : « الدميرى الأصل القاهرى » ويقول أيضا : « كان اسمه كمالا بغير اضافة ـ أى لا يقال له « كمال الدين » ـ وكان يكتبه كذلك بخطه فى كتبه ثم تسمى محمدا وصار يكشط الأول •

ولد فى أوائل سنة ٧٤٢ هجرية تقريبا بالقاهرة ونشأ بها •

وتكسب فى أول مرة بصناعة هى الخياطة ثم أقبل على العلم فتفقه بمذهب الامام الشافعى وجعل يأخذ ذلك من كبار العلماء فى عهده مثل أحمد بن التقى السبكى والجمال الاسنوى •• كما أخذ الأدب وعلوم العربية من كبار رجالها ولم يقتصر فى ذلك على من كان بالقاهرة بل رحل

الى مكة المكرمة وتلقى من علمائها وروى الحديث من كتب الحديث المشهورة سماعا على الأئمة وكان بارعا فى تفسير القرآن ·

ثم تصدر للتدريس والاقراء فانتفع به الناس وشرع فى التأليف والشرح فى الفقه والحديث وكانت له فى ذلك مؤلفات لكن أهم ما اشتهر به هو كتابه « حياة الحيوان » فاذا قلت : قال الدميرى انصرف الذهن الى كتابه حياة الحيوان واذا قلت قرأت فى كتاب « حياة الحيوان » كذا ، جرى ذهنك الى صاحبه الدميرى ·

وفى القاهرة درس بأماكن ، منها الأزهر ، كانت له فيه حلقة يوم السبت ومنها القبة البيبرسية ، كان يدرس فيها الحديث · يقول السخاوى فى « الضوء اللامع » : « وكنت أحضر عنده فيها وكان يوم الجمعة غالبا يذكر الناس (أى يعظهم) بمدرسة البقرى داخل باب النصر وبعد عصر الجمعة يدرس بجامع الظاهر فى الحسينية » ·

وفى مكة أقام سنين متفرقة وكان أول قدومه لها فى موسم سنة ٧٦٢ هـ وفى مكة تزوج فاطمة بنت يحيى بن عباد الصنهاجى وولدت له أم حبيبة وأم سلمة وعبد الرحمن ·

ولقد صحبه المقريزى المؤرخ المشهور ويقول عنه : « صحبته سنين وحضرت مجلس وعظه لاعجابى به وأنشدنى وأفادنى وكنت أحبه ويحبنى فى الله لسمته وحسن هديه وجميل طريقته ومداومته على العبادة » ·

ويقول عنه الحافظ بن حجر : « مهر فى الفقه والأدب والحديث وشارك فى الفنون ودرس للمحدثين بقبة بيبرس وفى عدة أماكن ، ووعظ وأفاد وخطب فأجاد وكان ذا حظ فى العبـــادة تلاوة وصياما ومجاورة بالحرمين ·· سمعت من فوائده ومن نظمه واجتمعت به مرارا وكنت أحب سمته » ·

وكان يتردد بين القاهرة ومكة فى أعوام مختلفة وآخر قدوم له الى مكة كان سنة ٧٩٩ هـ ثم تركها فى آخر سنة ثمانمائة أو فى أول سنة ٨٠١ وعاد الى القاهرة واستقر بقية عمره حتى توفى رحمه الله فى الثالث من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة (٨٠٨) ودفن بمقابر الصوفية ذلك أنه كان فى التقوى بالغ المنتهى من عبادة وتلاوة وصيام وقيام ومجاورة بمكة والمدينة وله أذكار يواظب عليها وعنده خشوع وخشية وبكاء عند ذكر الله ·

وكثيرون أولئك الذين يقرءون كتبا لا تحصى ، فتزكو لديهم المعلومات وتتشعب أمامهم المعـــارف ثم يكتفى أغلبهم بما قـــرءوا والقليلون منهم

يتخذون لهم طريقا يسلكونه ومنهجا يتبعونه ليصلوا الى معين فياض حيث تتفجر منهم ينابيع من الروافد التى أمدتهم وتزهو منهم زهرات وتزكو ثمرات مما تشربته أفكارهم وتلقحت به عقولهم ٠

وكتب السابقين فيهـا أشتات من معلومات ، وخليط من ثقـافات يوردونها لأدنى ملابسة ويستطيع من يلزم نفسه بمنهج أن يضم كل نظير الى نظيره وكل موضوع الى شبيهه فيخرج من جولته خلال رحابها ومتاهاتها بما يكون محدد المعالم ومرشدا لمن يبغون موضوعا واضح القسمات ٠

والدميرى كما قلنا فقيه من كبار الفقهاء ومن رجال الحديث الواسعى الرواية ومن علماء تفسير القرآن ومن الزهاد الأتقياء ومن المكثرين الاطلاع فى كتب الأدب والتاريخ ٠

طريقة تصنيف الكتاب

كانت معالجة الدميرى للمواد التى يحتوى عليها الكتاب فريدة فى نوعها ، وكانت تسير فى معظم الحالات على وتيرة واحدة منظمة وخصوصا فى تلك المواد التى كتب عنها بالتفصيل فاذا استعرضنا واحدة من هذه المواد النموذجية المطولة لوجدنا أنها تبدأ عادة بالتعريف باسم الحيوان وكيفية اشتقاق هذا الاســـم ثم استعراض للمفرد والجمع فى مختلف صـــوره وكذلك المذكر والمؤنث والمترادفات ان وجدت ويأتى بعد ذلك وصف الحيوان من حيث الشكل واللون والحجم وكذلك المميزات الواضحة التى ينفرد بها عن بقية الأنواع ثم يتطرق بعد ذلك الى ذكر العادات والصفات والطبائع وخصوصا ما يتعلق منها بالغذاء أو السلوك أو التكاثر وكذلك الاماكن التى يعيش فيها أو يتردد عليها والأوقات التى يخرج فيها من مخابئه فى ظلام الليل أو فى وضح النهار ولا يفوته ذكر السلالات المختلفة ان وجدت •

ويأتى بعد ذلك بحث طريف عن شرعية قتل هذا الحيوان (ان كان من الحيوانات المؤذية) أو تحريم هذا القتل وكذلك تحليل تناوله كمادة غذائية أو تحريم هذا التناول وكل ذلك مدعم بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أقوال الأئمة والفقهاء • وتحتوى المادة عادة على كثير من الأشعار التى تتعلق بهذا الحيوان أو القصص التى تروى عنه أو الأمثال التى قيلت فيه •

وتختتم المادة عادة بذكر الفوائد الطبية التى تتعلق بالحيوان نفسه أو ببعض الأجزاء فيه ، فقد كان الأقدمون جميعا يعتقدون فى مثل هذه الوصفات التى تستمد من مختلف أنواع النبات والحيوان وتحتوى الكتب الطبية القديمة ــ الأوروبية منها أو العربية ــ على مئات من هذه الوصفات التى كانت تستخدم فى علاج معظم الأمراض وكثيرا ما كانت المادة تنتهى بعد ذلك بتفسير الأحلام التى يشاهد الانسان خلالها بعض هذه الحيوانات حيث يختلف التفسير تبعا للطريقة التى يشاهد بها فى المنام !!

ويحتوى الكتاب على عدة مئات من مختلف أنواع الحيوانات التى رتبت ترتيبا أبجديا مما ييسر على القارىء طريق البحث والاطلاع •

ولم يزعم مؤلفنا الدميرى ــ حين صنف كتابه ــ انه كان عالما فى العلوم الطبيعية وانما ذكر ــ فى تواضع العلماء ــ أنه انما جمع الحقائق المعروفة عن الحيوان فى عصره ووضعها أمام القارىء فى اطار مرتب على حروف المعجم اذ يقول فى مقدمة الكتاب : « لم يسألنى أحد تصنيفه ، ولا كلفت القريحة تأليفه ، وانما دعانى الى ذلك أنه وقع فى بعض الدروس التى لا مخبأ فيها لعطر بعد عروس ، ذلك مالك الحزين والذيخ المنحوس فحصل ما يشبه فى ذلك حرب البســوس ومزج الصحيح بالسقيم ولم يفرق بين نسر وظليم ··· الى ان قال : واستخرت الله تعالى الكريم المنان فى وضع كتاب فى هذا الشأن وسميته حياة الحيوان » الخ ·

ويتضح من هذه المقدمة ان الباعث له على وضع هذا الكتاب هو رغبته فى تصحيح معلومات خاطئة عن الحيوان شاعت فى أذهان الناس ورسخت حتى بين أخص طبقات أهل العلم فى زمانه ، فوضع هذا الكتاب ، مشتملا على المعلومات الصحيحة ، والآراء الصائبة المعروفة الى عصره ·

وقد سار الدميرى فى تنسيق كتابه على نهج خاص فرتب الحيوانات حسب الحروف الهجائية ليسهل على القارىء الوقوع عليها وخاصة منها الأسماء الغريبة الغامضة · وكتب كل حيوان فى مادة خاصة تشتمل على كل ما عرف من الحقائق عن هذا الحيوان وعلى صوره المتعددة فيما يتصل بالعلوم الاسلامية · ولما كان الكتاب قد جمع أغلبه من مصادر متعددة فقد تعددت ــ تبعا لذلك ــ الاستشهادات والمراجع المؤيدة وقلما تخلو صفحة من دليل أو برهان ينطق بكثرة ما اطلع عليه المؤلف من المراجع المختلفة وما استخلصه منها ·

وهناك مواد مطولة مسهبة وأخرى مقتضبة موجزة حسب الموضوع وما قد يحتويه من حشو وافاضة فقد تستطيل المادة الى جملة صفحات عن الحيوانات المشهورة كالأسد والابل والخيل والفيل والذئب أو تقصر المادة الى بضعة سطور أو بضع كلمات عن الحيوانات النادرة أو غير المألوفة مثل مادة (البهثة) ومادة (القرعوش) فيقول عن الأولى (البقرة الوحشية) وعن الثانية (القراد الغليظ) فقط ·

وتبدأ كل مادة بتعريف اسم الحيوان وشرح الاسم من الناحية اللغوية وتعداد الأسماء التى يكنى بها الحيوان معتمدا على أشهر فقهاء اللغة مثل ابن سيده والجوهرى والجاحظ يتلو ذلك وصف الحيوان وذكر طباعه وتعداد أنواعه وأصنافه كما قال مثلا عن الأسد معتمدا على أرسطو الذى استشهد بكتــابه المسمى « النعوت » فى وصف الحيوانات فى جملة مواضع · ثم يروى الدميرى الأحاديث النبوية التى ورد فيها اسم الحيوان

سواء فى ذلك ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحيوان ، وقد اعتمد الدميرى فى رواية الأحاديث النبوية الشريفة على أئمة الحديث الستة وهم البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة . كما اعتمد أحيانا على غيرهم مثل البيهقى والسهيلى وابن الجوزى والحسن البصرى ومع ان شيخنا الدميرى كان من علماء الحديث كغيره من علماء الحديث المبرزين ، الا أنه الوحيد من بينهم الذى استطاع أن يجعل من الأحاديث النبوية التى استشهد بها مادة علمية لكتابه ومعظم الأحاديث التى أوردها مسندة الى ابن عباس وأبى هريرة والسيدة عائشة وجابر بن عبد الله وابن عمر ومالك بن أنس .

ثم ينتقل — فى المواد المطولة — الى ما يتصل بالحيوان من التحريم أو الاباحة ليس فقط من ناحية الأكل بل وكذلك فى كل ما له علاقة بالحياة العادية للمسلمين مثل الصيد أو الدية أو الزكاة أو الطهر أو النجاسة معتمدا فى ذلك على المذاهب والأحكام المختلفة لأئمة المذاهب الأربعة : أبى حنيفة النعمان ومالك بن أنس وابن حنبل والشافعى بالاضافة الى غيرهم من الأئمة . ومع ذلك كان الدميرى — من حين لآخر — يجتهد رأيه الخاص ويدلل عليه . ومع انه كان شافعى المذهب الا انه — فى بعض الأحيان — يجنح الى الأخذ بالآراء الصوفية بما يبديه من اعجاب واكبار بأمثال الجنيد والغزالى وعبد القادر الجيلانى والشعبى وغيرهم .

البذور الأولى فى العلاج الطبى !!

ثم ينتقل — فى المادة — الى ذكر الأمثال التى تتصل بالحيوان ومن المعروف أن معظم الأمثال العربية مشتقة من الحيوان بل ويندر وجود حيوان يعرفه العرب لم يضربوا عنه مثلا أو أكثر ، لذلك كان كتاب حياة الحيوان هو خير مجال وأفسحه لايضاح حقائق الأمثال وتصويرها تصويرا صحيحا . ولا شك فى أن الدميرى قد صادف كثيرا من العناء وبذل جهدا كبيرا ليس فى شرح معظم هذه الأمثال وبيان المواطن التى تضرب فيها فحسب ، بل وكذلك فى تتبع آثار الوقائع التى نشأت منها الأمثال . وقد اعتمد الدميرى فى ذلك على كتاب الميدانى الذى جمع فيه الأمثـــال العربية .

وكتاب حياة الحيوان للدميرى يعد — من الناحية التاريخية — أول محاولة فى المصنفات العربية ظهرت فى صورة منسقة جمعت شتات العلوم الخاصة بالحيوان سواء ممن نقل عنهم أو مما انطبع فى أذهان العرب من حياتهم فى البادية ، وفى مناحى الصحراء ، وحملوها معهم حيثما امتدت بهم فتوحاتهم الى الآفاق البعيدة والأقطار المترامية . ففى الجاهلية قبل

الاسلام ــ كان العرب منعزلين في أحضان الصحراء بعيدين عن العــالم المتحضر حينئذ ، وكانوا فى حياتهم البدوية يرون ــ على الدوام ــ شتى أنواع الحيوان والنبأت واكتسبوا ــ من طول مشاهدتها ومراقبتها ــ معرفة بطبائعها وصفاتها وانطبعت فى أذهانهم ومخيلتهم ماهيتها وخواصها ·

ثم يخطو المؤلف بعد الأمثال الى ذكر الخواص الطبية وغير الطبية لأجزاء الحيوان المختلفة وعصاراته وفضلاته · ومع أن الدميري لم يكن له المام سابق بهذا النوع من الدراسة الا انه أظهر فيه من المقدرة ما يشهد له بالتفوق فقد استوعب آراء الآخرين وما أثبتوه من مشاهداتهم وركزها ــ جميعا ــ في ايجاز بارع معتمدا على آراء ابن سينا وابن بختيشوع (١٦) وابن رشد وأرسطو وحنين بن اسحق والجاحظ والقزوينى ·

والناس فى جميع أنحاء العالم ــ منذ أقدم العصور ــ كانوا يعتقدون في الخواص الطبية والفسيولوجية لأجزاء جسم الحيوان وفضلاته وهى خواص تأيدت لديهم فائدتها عن تجارب عملية أو عن حدس وتخمين · فعلم المادة الطبية عند الاغريق القدامى يعالج مواد كثيرة من أصل عضــــوي حيوانى · والعرب ــ عندما ترجموا المؤلفات الطبية من لغات الأمم الأجنبية التى تجاورهم لم يقتصروا على ترجمة آرائهم فحسب بل ترجموا كذلك معتقداتهم فى فوائد هذه العقــاقير والمواد الأخرى التى وردت فى تلك المؤلفات وكذلك الهنود والصينيون الذين مارسوا صناعة الطب ــ لقرون عديدة ــ قبل ظهور الاســـــلام قد استخدموا المواد الحيوانية في علاج الأمراض وكان اعتقادهم كبيرا فى خواصها · ومهما يكن الرأى في الحالات التى جمعها المؤلف فى كتابه والتى تستخدم فيها أجزاء الحيوان المختلفة وعصاراته فانه انما كان يقرر المعتقدات المتداولة بين مواطنيه وبين سائر أمم الشرق والغرب التى استقى منها العرب علومهم المختلفة ·

وقد يرى البعض أن أمثال هذه المعتقدات في فائدة استخدام أعضاء الحيوانات وعصاراتها فى علاج الأمراض تصم العصور القديمة بالسذاجة والجهل ، الا ان نتائج البحوث الحديثة لمعرفة قيمة المواد العضوية الحيوانية التى تستخلص من الغدد الحيوانية وغيرها لا تدع مجالا للشك فى صحة ما ذهب اليه الرواد الأول فى ميدان العلاج وكان هؤلاء الرواد يستخدمون نفس المنتجات الحيوانية على حالتها الطبيعية · وقد اتجه الطب الحديث الى الأخذ بهذه النتائج وأصبحت من أسباب تقدم العلاج وعلى ذلك تعد المحاولات القديمة ــ على الأقل ــ بذورا فى حقل العلاج الطبى ·

ثم ان المؤلف ينهى ــ عادة ــ كلامة عن كل حيوان يصــفه بذكر التعبير فى المنام · والعرب لم يكونوا الوحيدين الذين يعنون بهذا الفرع

من العلم بل كانت كل شعوب بلدان الشرق يعنون به عناية فائقة ، ومع أن علم النفس الحديث لا يعترف بما ذهب اليه الأقدمون فى تعبير الرؤيا ولكن هل كشف علم النفس عن كل أسرار النفس ؟!

ومن أروع ما تضمنه الكتاب ما ورد فيه من القصص فيما يتصل بالحيوان فقد تكلم مثلا عن : « هدهد سليمـــان » و « حــوت موسى » و « فرس فرعون » التى طارد عليها بنى اسرائيل وعن « البراق » وعن « العنقاء » وغيرها وقد سرد القصص سردا كاملا مسهبا فى كثير من المواضع بحيث تبدو كل قصة بذاتها عملا فنيا رائعا • ومن ناحية أخرى فان تضمين كل مادة أمثال تلك القصص فضلا عن الشعر الرصين والأمثال وغيرها مما يضفى على المادة لونا من الترويح على المطلع ويجعل الموضوع شائقا غير ممل •

وكما بدأ المؤلف كتابه بمقدمة حشد فيها بعض صنوف الحيوان التى ورد ذكرها فى حلقة الدرس وكانت باعثا على تصنيف الكتاب كذلك أورد قبل أن يختتم الكتاب قصيدة لكمال الدين على بن محمد بن المبارك صاحب المقامة البحرية المتوفى فى شهر المحرم من سنة ٦٩٢ هجرية وهى قصيدة مطولة يهجو فيها دار سكناه وضمنها أسماء حيوانات كثيرة وفيها النكتة اللاذعة والتشبيه البارع •

وقد قال الدميرى فى آخر كتابه : « انه فرغ من مسودته فى شهر رجب الفرد من سنة ٧٧٣ هـ » ومن هذه النسخة المبيضة فى شعبان من سنة ٨٠٥ هـ •

★★★

وتوجد من كتاب حياة الحيوان للدميرى نسختان كبرى وصغرى والنسخة الكبرى هى التى اهتم بها العالم العربى واعتمد عليها وتواتر طبعها جملة مرات •

فقد طبعت أولا بالمطبعة الأميرية ببولاق بالقـــاهرة سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م) • وعليها مقدمة بقلم مراجعها محمد العدوى ثم أعيد طبعها سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) وقد راجعها وصححها محمد الصباغ • ولتكوين فكرة واضحة عن حجم الكتاب وسعته نذكر أن هذه الطبعة الثانية صدرت فى جزءين يضم الجزء الأول ٤٦٠ صفحة والجزء الثانى ٤٨٥ صفحة من القطع الكبير عدا مقدمة المصحح ويضم الكتاب ١٠٦٩ مادة تتصل بالتاريخ الطبيعى للحيوان ولكن عدد الحيوانات الممثلة فى هذه المواد أقل لأن الحيوان الذى يحمل أكثر من اسم يتكرر ذكره عند ايراد كل اسم من

أسمائه حسب ترتيبه الهجائى • وبالاضافة الى هذه المواد فان هناك ٦٩ فصلا عن تاريخ الخلفاء وهى فصول تعد خارجة عن علم الحيوان • ويقرر « وستنفلد » (١٧) أن الكتاب يحتوى ــ فى مجموعه ــ على وصف ٧٣١ حيوانا ولكنه نظرا لأن اسما واحدا قد يطلق على عدة حيوانات أو أن أسماء قد تطلق على حيوان واحد فان الصعوبة تبدو كبيرة لاحصاء عدد الحيوانات الموصوفة احصاء حقيقيا •

ثم طبعت هذه النسخة الكبيرة بالمطبعة الميمونية فى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) وقد ذكر المؤرخ هوارث فى سنة ١٩٠٣ م أن هذه النسخة الكبرى طبعت بالقاهرة ست مرات ولا شك فى أنها قد طبعت بعد سنة ١٩٠٣ م أكثر من مرة •

وورد فى معجم سركيس (طبعة ١٩٢٨ م) « أن كتاب حياة الحيوان للدميرى طبع فى بلاد فارس سنة ١٢٨٥ هـ مع صور ورســـوم جميع الحيوانات الواردة فيه وكذلك صور بعض الآدميين ممن ذكروا فى الكتاب وترجم كتاب حياة الحيوان أكثره لا كله الى اللغة الانجليزية بقلم جاكار وطبع فى لندن وبومبى سنة ١٩٠٦ م و ١٩٠٨ م » •

اهتمام العلماء بالكتاب

ونظرا لضخامة حجم هذا الكتاب فقد عملت له مختصرات أحدها عنوانه « حاوى الحســـان من حياة الحيوان » وجاء فى قائمة باريس للمخطوطات العربية ان هذه النسخة الموجزة من تأليف الدميرى • وقد أراد المؤلف أن يعيد نشر هذا الكتاب بصيغة موجزة فحذف من الأصل ما جاء فى مادة الاوز عن الخلفاء الراشدين وغيرهم وهناك مختصر آخر عنوانه « عين الحياة » من عمل محمد أبو بكر عمر بن أبو بكر بن محمد المخزومي الدماميني المالكي وانتهى من عملهـــا فى نهروله (بالجزيرة) بالبنجاب بالهند فى ١٤ شعبان سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٣ م) أى بعد ١٥ سنة من وفاة المؤلف وقد أثبت واضع هذا المختصر فى مقدمته أنه كان أحد تلاميذ الدميرى وقد سمع أصول الكتاب من فم مؤلفه وقال انه مع الاحتفاظ بالتبويب الأصلى للمواد بالعناوين الواردة تحت كل مادة فانه قد حذف من الأصل كل البحوث الفلسفية والدينية والاقتباسات الشعرية والقصص الأدبية بحيث أصبح المختصر على صورة موجزة فى متناول الجميع • ويقول وستنفلد انه يوجد مختصر لكتاب حياة الحيوان كما توجد منه مخطوطات فى برلين وباريس ولكن وستنفلد لم يذكر اسم كل منهما أو اسم واضعه ولذلك لا يمكن الحكم بأنه أحد النسختين السالفتين ، أو أن ذلك مختصر يختلف كلية عنهما •

وهنـــاك مختصرات أخرى أحدها من عمل عمر بن يونس بن عمر الحنفى وآخرى من عمل الشيخ تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ وثالث من عمل القارى المتوفى سنة ١٠١٦ هـ وقد سمى مختصره « بهجة الانســـان فى مهجة الحيوان » فى مكة المكرمة سنة ١٠٠٣ هـ ومختصر آخر وضعه الشيخ عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وقد قسمه الى جزءين أطلق على الجزء الأول اسم « ديوان الحيوان » وعلى الجزء الثانى اسم « ذيل الحيوان » وهو ملحق للجزء الأول •

وفضلا عن هذه النسخ المختصرة فقد صدر ملحق لكتاب الحيوان كتبه القاضى جمـــال الدين محمد بن على بن محمد المكى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وأطلق عليه اسم « طيب الحياة » •

ويتضح من تعدد هذه المختصرات التى صدرت بعد وفاة الدميرى بقليل مقدار ما كان عليه اهتمام علماء العرب بكتاب حياة الحيوان والعمل الدائب على نشر خلاصات لما ورد فيه على نطاق واسع وهذا كله شبيه بما يقوم به — فى وقتنا الحاضر — علماء الغرب سعيا فى احياء تراثهم العلمى وتعميم نشره فاذا كان الكتاب ضخم الحجم أصدروا عنه مختصرات واذا كان الكتاب صغير الحجم تناولوه بالزيادة والاضافة كما هى الحال مع كتاب العلامة الألمانى « بريم » الذى سماه « حياة الحيوان » مؤتما بشيخنا الدميرى ٠

أعظم مؤلف فى علم الحيوان

ومما لا نزاع فيه أن كتاب حياة الحيوان للدميرى قد عرف فى أوروبا منذ زمن طويل لطلاب اللغة العربية فى الجامعات الأوربية وغيرهم واشتهر فى الأوساط العلمية هناك بأنه كتاب عظيم قيم ، ولا نزاع كذلك فى أن هذا الكتاب قد لعب دورا مهما فى الثقافة العربية فكثيرا ما اقتبس منه العلامة « لين » فى معجمه العربى المشهور ، كما ان العلامة بوكارت قد استعان به فى مؤلفه المسمى « هيروزيكون » كما أخذ عنه العلامة هازل بعض ما ورد عن مادة الجراد نقلا عن مخطوط فى كوبنهاجن وقد أورد العلامة « سلفستردى ساسى » مقتطفات مطولة عن كتاب حياة الحيوان للدميرى فى كتابه « لاشاس دوبيين » وعلاوة على ذلك فقد تضمنت مؤلفات كثير من علماء أوروبا مقتبسات من كتاب الدميرى أمثال كرامر وهومل وتكسن وبريم الألمانى وسواهم ٠

ويقول جاكار : « لقد جاء كتاب حياة الحيوان للدميرى نبعا فياضا من الحكمة الاسلامية والعربية زاخرا بقواعد الفقه والتشريع والأحاديث النبوية والفنون الأدبية والأمثال تدفقت كلها من مناهل متعددة ومصادر مختلفة وتجمعت كلها فى صعيد واحد ينهل منها القارىء من المسلمين فى العالم العربى فيضـــا لا ينضب مما يعوزه الالمام به فى شئونه الدينية والدنيوية » ٠ ثم يقول جاكار : « وفى الحق ان الكتاب محشو بانحرافات قد يستسيغها القارىء العربى ولكنها تعد فى نظر القارىء الأوروبى مما لايغتفر والانحراف الأكبر — الذى يؤخذ على المؤلف — هو ما ورد تحت مادة الاوز والذى يقص فيه الحديث المأثور عن على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فان المؤلف لم يقتصر على وصف اغتياله فحسب ولكنه انساق منه الى ذكر تاريخ عام موجز لتاريخ جميع الخلفاء مما استغرق ١/٢٣ من مجموع صفحات الكتاب » ٠

ثم يقول جاكار : « ان الألمعية التى يتصف بها أسلوب المؤلف قد يشوبها — فى بعض الأحيان — ايجاز مفرط وخاصة عند توضيح القواعد الدينية والأحكام الشرعية وعند تلخيص الأحاديث النبوية ولو انه يسهب أحيانا اسهابا مستفيضا فى بعض المواضيع » ٠

ثم يقول جاكار : « ان الدميرى فى استشهاده – فى بعض المواد – ببيت أو بيتين من الشعر يتصل بالحيوان يعود فيسوق أبياتا أخرى للشاعر لا تتصل بالحيوان لا لغرض الا للدلالة على نبوغ الشاعر وقدرته أو يسوق أبياتا لشاعر آخر تؤيد ما قاله الشاعر الأول ولو أن المعنى الوارد فى هذا الشعر بعيد عن الحيوان ولا يمت اليه بصلة ما » .

ويقول لوسين ليكليرك : « ان الدميرى هو أعظم عالم – فى علم الحيوان – أنجبته العرب ويكفى انه كتب أكثر مما كتب عن الحيوان فى العالم الاسلامى . وقد كتبه بأسلوب رجل أديب أكثر منه بأسلوب رجل عالم فى التاريخ الطبيعى . والدميرى متفوق على القزوينى فى سعة الاطلاع وفى كثرة المعلومات التى أوردها ولـكنه من ناحية أخرى يختلف عن القزوينى فى طريقة سرد الموضوع أو المادة فكتاب حياة الحيوان مرتب على حسب الحروف الهجائية ولذلك خلا من عرض الحيوانات فى مجاميع من الرتب والفصائل » .

ويستطرد ليكليرك فيقول : « ان الدميرى كثيرا ما يخرج عن الموضوع الأصلى – لأقل سبب – منساقا الى ذكر أمور لا تمت الى الموضوع بصلة . وحين يتحدث عن مادة البراق يورد دابة خرافية وكذلك كلامه تحت مواد النسناس والعقاريت والجن وأمثال ذلك مما لا يجوز تصديقه الا على السذج مثل قوله فى مادتى الضبع والأرنب من ان كلا من هذين الحيوانين يكون ذكرا فى عام وأنثى فى العام الذى يليه ومثل قوله فى مادة الفيل ان مدة الحمل فى أنثى الفيل سبع سنوات » . وينتهى ليكليرك بقوله : « أنه اذا أسقط من الحســاب ما ورد فى كتاب الدميرى من الخرافات والقصص وتراجم الأشخاص فان الكتاب يعـد مجموعة فريدة قيمــة من الحقائق المتصلة بتاريخ الحيوان » .

ويقول العلامة السويدى ابريك نوردن سكيولد فى كتابه « تاريخ البيولوجيا » : « لقد وصل الينا كتاب ضخم يسمى « كتاب حياة الحيوان » من وضع محمد الدميرى كتبه فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى وصف فيه عددا كبيرا من أنواع الحيوان قدره البعض بنحو تسعمائة نوع وصف جانبا منها عن خبرة ومشاهدة شخصية ووصف الجانب الآخر عن تصورات خيــالية » .

ويقول العلامة حاجى خليفة : « ان كتاب حياة الحيوان للدميرى كتاب لا يبارى » .

اما فيما يتصل بنقد جاكار فلابد من القول بأن كثيرا من المؤلفين العرب فى تلك العصور درجوا على ان تشمل مؤلفاتهم ألوانا كثيرة وفنونا متعددة من العلوم والآداب لالمامهم الواسع بمختلف فروع الثقافة والمعرفة من علم وأدب وفقه وفلسفة وطب الى غير ذلك • ولم يكن هناك – حينئذ – تخصص بالمعنى المفهوم فى عصرنا الحاضر لذلك كان من المألوف ان ينتقل الكاتب فجأة من فن الى فن دون أن يعد ذلك انحرافا بل فيه تشويق ومتعة وخاصة اذا كان الكتاب يعالج مواضيع علمية بحتة وذلك دفعا للملالة وهناك هدف اسمى وهو استدراج القارئ الى استيعاب كل ما يمكن استيعابه من الكتاب وفى هذا ثقافة عامة محمودة فشيخنا الدميرى حين يتكلم – مثلا – عن الأسد أو الضبع يمزج المادة بألوان شتى شائقة تغرى القارئ بتذوقها • فالكتاب ولو انه معجم للحيوان الا أنه درج فيه على اسلوب الموســـوعات المستفيضة • ومع ان الدميرى قد أسرف فى ذلك وتجاوز فيه حدود المألوف الا ان الانحرافات ولو انها تشق على الباحث الذى يسعى الى الوقوف على بيان خاص الا انها – فى حد ذاتها – لا تخلو من فائدة وتشهد – فى الوقت نفسه – على ما للمؤلف من سمو الادراك وقوة الذاكرة وعمق البحث الذى أدى به الى هذا السيل الفياض من مختلف الآراء التى كثيرا ما انتقل بها بعيدا عن الموضوع الأصلى ، فمادة الأوز التى ساق فيها تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين وغيرهم انما ســـاقها ليؤيد بها الرأى الذى ذهب اليه المؤرخون من ان كل سادس قائم بأمر الأمة مخلوع فيقول الدميرى فى مادة الأوز تحت عنوان « فائدة أجنبية » :

« ولما كان الحديث شجون وافادة العلم تحقق للطالبين ما يرجون وتجدد لهم ما ينسى الخليع أيام المجون ، أحببت أن أذكر ههنا فائدة غريبة ذكرها المؤرخون وهو ان كل سادس قائم بأمر مخلوع وهأنا أذكر ما ذكروه وأزيد عليه قدرا يسيرا من سيرة كل واحد منهم وأيامه وسبب موته ومدة خلافته وعمره لتكمل بذلك الفائدة » •

ويتضح من هذا القول ان الدميرى لم يغرب عن باله ان ذلك خارج عن موضوع الكتاب • وقرر انه انما ساقه لما ينطوى فى ذكره من الفائدة فضلا عما فيما أورده من الزيادة والافاضة ما يشهد له بطول الباع فى بحث يعد رسالة وافية – على نسق الرسائل العصرية – فى موضوع بذاته تماثل ما تمنح له درجة علمية فى علوم التاريخ •

أما ما جاء فى نقد جاكار عن الايجاز فان اللغة العربية من محاسنها انها لغة ايجاز ومنطق وانه قد ينطوى من المعنى فى جملة قليلة الكلمات

ما لا يتوفر فى لغة أخرى الا فى جمل مطولة كثيرة الكلمات فاذا كان الدميرى قد اوجز فى بعض المواضيع التى اقتبس فيها من غيره من المؤلفين العرب الذين تميزت لغتهم بالايجاز فانه قد يبدو لغير الضليع فى اللغة العربية ان هذا الايجاز المزدوج مما يربك القارىء العادى • ولكن الدميرى قد كتب لافادة الذين يفترض فيهم الحصول على ثقافة عامة فى مختلف العلوم التى تناولت ـ من بعض نواحيها ـ التعاليم الاسلامية فيكون من غير المستساغ أن يستفيض فى شرح معلومات معروفة لهم على انه من جهة أخرى قد أفاض طويلا فى المواضيع التى تستحق الشرح والتفسير مثال ذلك ما ورد فى مادة الأبل فى حديث وهب : « تابل آدم على ابنه المقتول كذا وكذا عاما لم يصب حواء ، أى امتنع عن غشـــيانها أعواما وتوحش عنها » فالقارىء من المسلمين فى غير حاجة الى شرح قصة آدم عليه السلام وابنيه هابيل وقابيل • كذلك ما ورد فى مقدمة الكتاب اذ يقول : « صار الشيخ الأفيق كذات النحيين » يصف علماء حلقة الدرس بالحيرة والتردد وذات النحيين مثل يعرفه العرب ، ويضرب فى حالات الحـــيرة والارتباك والنحى هو الجرة أو الزق • وقد نشأ هذا المثل عن قصة امرأة كانت تحمل زقين على كتفيها بأحدهما عسل وبالآخر سمن وصادفها وهى فى الطريق رجل يريد بها سوءا وأرادت الدفاع عن نفسها فاشكل عليها أى الزقين تلقى به على الأرض لتتمكن من دفع هذا العدوان •

وكما قال فى مادة الخيل عن الأمثال : « كالأشقر اذا تقدم نحر اذا تاخر عقر » هو مثل مشهور لدى العرب يضرب لمن وقع بين خطرين ولم يكن الدميرى فى حاجة الى ايراد أصل المثل ونشأته لأنه مثل يتصـــل بعنترة العبسى المعروف والأشقر هو فرس لقط بن زرارة الذى كان يخاصم عنترة ولكنه يرهب جانبه وتحين فرصة شقاق بين عنترة وقبيلته عبس فسولت للقيط نفسه ان يهاجم القبيلة فى غيبة عنترة حتى اذا هزمها نالت الهزيمة من سمعة عنترة فارس القبيلة فهاجم القبيلة ولكن عنترة سارع الى نجدتها فوقع لقيط بين شقى الرحى ، القبيلة من امامه وعنترة من خلفه ولم يسعفه الأشقر بالفرار وأطبق عليه عنترة وأخذه أسيرا •

وفضلا عن الايجاز فقد أفاض فى مواضع تجب فيها الافاضة لتعدد مراجعها ففى مادة « عنقاء » يقول : هى من الألفاظ الدالة على غير معنى ثم يستطرد الى ما قاله غيره فيفيض طويلا فى الحديث عن هذه الأسطورة ثم يعود فيقول ان العنقاء طائر فى طول البلشون ولكنه أعظم جسما منه كذلك فى مادة الغراب نقل عن أرسطاطاليس وأسهب طويلا وأفاض فى وصف أنواعه وألوانه وطباعه ومواطنه فتكلم عن الغداف والزاغ والأكحل وغراب الزرع والأورق والغراب الأعصم وكلها أسماء يســـتخدمها علم

التصنيف الحديث للطيور فى فصيلة الغربان وفرق بين الغراب وهو طائر نهارى من العصفوريات وبين غراب الليل الذى لا يظهر الا ليلا كالبوم والمع فى أكثر من موضع الى أقوال ارسطاطاليس والقزوينى والجاحظ وغيرهم علاوة على الأحاديث النبوية وأسانيدها وأقوال الشعراء وسواهم ٠

ولا مراء فى ان مؤلفنا الدميرى يرجع اليه الفضل فى أنه أول من تناول الحيوان من زوايا متعددة سواء من الناحية اللغوية أو العلمية أو الأدبية أو الدينية كل ذلك فى مؤلف واحد هو موسوعة شاملة فريدة فى نوعها وقد عني الدميرى كثيرا ـ فيما يتصل بعلوم الأحياء ـ بالجغرافيا الحيوانية من حيث موطن الحيوان وتوزيعه الجغرافى ٠ فقال مثلا عن الحيوان المعروف باسم « الشيخ اليهودى أو انسان الماء » انه حيوان يوجد ببحر الشام وقال عن السمك الطيار وهو المعروف باسم الخطاف انه سمكة ببحر سبتة لها جناحان على ظهرها اسودان تخرج من الماء وتطير فى الهواء ثم تعود الى البحر ٠ وقال عن التمساح : « وهذا الحيوان لا يكون الا فى نيل مصر خاصة ، وزعم قوم انه فى بحر السند أيضا » الى غير ذلك مما قد يستطيع المطلع ان يتبين منه موطن الحيوان سواء من الوصف أو من النوادر والأمثال ٠

كما عنى الدميرى بالكلام عن بيئة الحيوان وطباعه وغذائه وذكر الحيوانات التى تنشط فى الليل والتى تنشط فى النهار وتأثير ذلك على أبصارها وكذلك الحيوانات التى تعيش فى الصحارى أو فى الأراضى المنزرعة أو الصخرية أو فى الجبال أو التى تعيش فى الماء فتكلم عن الخفاش ووصفه بأنه « حيوان ليلي ضعيف البصر يتغذى بالهوام » وقال عن القنفذ : « حيوان شوكى يتغذى بالحيات والحشرات » وقال عن البوم : « انها طائر ليلى يصيد الفار » ووصف النعامة بأنها جمل الصحراء وان لها ساقين طويلتين وخفا يساعدها على العدو السريع وتتغذى بالحشائش وذكر الدميرى البيات الشتوى فقال عن الدب : « فاذا جاء الشتاء دخل وجاره الذى اتخذه فى الغيران ولا يخرج حتى يطيب الهواء » ٠

يضاف الى ما تقدم ان كتاب حياة الحيوان قد اشتمل على كثير من الحقائق العلمية فتضمن ظاهرة التكافل كما ورد فى مادة الضب من تعايشه مع العقرب فى حجر واحد ، وكذلك تضمن الكتاب ارجاع الحيوانات الى أصولها مثل ما ورد فى مادة التمساح عن تحريم أكله فقد علل التحريم بأن التمساح أصله حيوان برى وانه ليس كسمك القرش الذى يعد حيوانا بحريا بحتا فكأنه يشير هنا الى طور بائد من أطوار حياة التمساح ٠

ومع ان مواد الكتاب مرتبة على حسب الحروف الهجائية ، الا أن تعريف كل حيوان يجعله فى موضعه الصحيح من الشجرة الحيوانية فهناك الثدييات والطيور والزواحف والأسماك الى غيرها من الحيوانات اللافقرية • كما أن قسم من هذه الأقســام مقسم بدوره الى الأقســام الصحيحة فى تصنيف الحيوان الحـديث فهنـاك اللواحم وآكلات العشب وآكلات الحشرات وهكذا من الأقسام الأخرى وفضلا عن ذلك فقد زود هذا الكتاب المكتبة العربية لعلم الحيوان بثروة من الأسـماء السليمة سواء فى ذلك الحيوان البالغ أو صغاره وأسماء الذكر والأنثى •

كما أفاض فى تسمية الأنواع مثل ما ورد تحت مواد الأسد والابل والخيل والحية وغيرها وقد تضمن الكتاب بعض الأسماء الغريبة التى رحب بها العلم الحديث مثل كلمة الجلكي التي تطلق على نوع من الأسماك اللافكية يتطفل على الأسماك ومثل كلمة الأرنب البحرى عن ضرب من الحيوانات الرخوة يزحف على الأعشاب البحرية التى يتغذى بها ويتميز بأن قرنيه الأماميين - ويعرفان بالملماسين - كبيران ويشبهان أذن الأرنب ومن هنا إشتق اسم الحيوان • ومثل كلمة تفلق على طائر من طير الماء وأخذها عنه آحمد فارس والدكتور بوست في تعريف هذا الطائر •

وقد استعان بكتاب حيـاة الحيوان للدميرى بعض علماء الأجناس البشرية فى أوربا أمثال هومل فى تحديد مواطن الجنس السـامى فى الشرق حسب توزيع الحيوان الجغرافى •

واذا كان كتاب حياة الحيوان للدميرى لم يدرس الى اليوم دراسة وافية فى العالم العربى من النواحى العلمية كما درس مثلا كتاب ابن الهيثم فى العلوم الطبيعية حيث استخلصت منه النظريات الحديثة فى الضوء فان كتـــاب الدميرى خليق بالبحث والتحليل مع استبعاد الشـــوائب والانحرافات التى لا تتصل بالحيوان والتي جاء معظمها نقلا عن غيره فيصدر الكتاب - بعد اضافة ما جد ويجد من علم ومعرفة - فى ثوب جديد وفى صور متعددة كبيرة وصغيرة وبذلك يساهم هذا الكتاب بقسط أوفى فى نشر الوعى الثقافى الحديث فى العالم العربى فضلا عما ينطوى عليه هذا العمل من تقدير ووفاء لعالم مصرى صميم ولد في القاهرة ومازال ضريحه قائما بها •

نماذج من الوصـــف

كتب الدميرى فى وصف النمل ما يلى :

النمل معروف · الواحدة نملة والجمع نمال · وأرض نملة ذات نمل وطعام منمول اذا أصابه النمل · والنملة بالضمة النميمة وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قوائمها · والنمل عظيم الحيلة فى طلب الرزق فاذا وجد شيئا أنذر الباقين ليأتوا اليه ويقال انما يفعل ذلك رؤساؤها · ومن طبعه انه يحتكر قوته من زمن الصيف لزمن الشتاء · وله فى الاحتكار من الحيل ما انه اذا احتكر ما يخاف انباته قسمه نصفين · واذا خاف العفن على الحب أخرجه الى ظاهر الأرض ونشره · وأكثر ما يفعل ذلك ليلا فى ضوء القمر · والنمل شديد الشم · ومن أسباب هلاكه نبات أجنحته فاذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لأنها تصيدها فى حال طيرانها وهو يحفر قريته بقوائمه وهى ست فاذا حفرها جعل فيها تعاريج لئلا يجرى اليها ماء المطر · وربما اتخذ قرية فوق قرية بسبب ذلك وانما يفعل ذلك خوفا على ما يدخره من البلل · وليس فى الحيوان ما يحمل ضعف بدنه مرارا غيره ولا يكون عمره أكثر من سنة ومن عجائبه اتخاذ القرية تحت الأرض وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلقة يملؤها حبوبا وذخائر للشتاء ومنه ما يسمى « الذر الفارسى » وهو من النمل بمنزلة الزنابير من النحل · ومنه أيضا ما يسمى « بنمل الأسد » لأن مقدمه يشبه وجه الأسد ومؤخره يشبه النمل ·

وكان مما كتبه عن الخفاش ما يأتى :

الخفاش واحد والخفافيش التى تطير فى الليل · وهو غريب الشكل والوصف والخفش صغر العين وضيق البصر · قال البطليموسى : الخفاش له أربعة أسماء خفاش وخشاف وخطاف ووطواط · وقال قوم الخفاش الصغير والوطواط الكبير وهو لا يبصر فى ضوء القمر ولا فى ضوء النهار ، ولما كان لا يبصر نهارا التمس الوقت الذى لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء · وهو قرب غروب الشمس ، لأنه وقت هيجان البعوض فان البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان ، والخفاش يخرج طالبا للطعم ، فيقع طالب رزق على طالب رزق فسبحان الحكيم · والخفاش ليس هو من الطير فى شىء فانه ذو اذنين وأسنان وخصيتين ومنقار ويحيض ويطهر ويبول كما تبول ذوات الأربع ويرضع ولده ولا ريش له · وهو شديد الطيران سريع التقلب يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه وهو مع ذلك موصوف بطول العمر فيقال انه أطول عمرا من النسر ومن حمار الوحش وتلد أنثاه ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة وليس فى الحيوان ما يحمل ولده غيره والقرد والانسان · ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه ، وذلك من حنوه واشفاقه عليه وربما ارضعت الأنثى ولدها وهى طائرة ··

حركات الكرات السماوية

كوبرنيكوس

١٥٤١م

لا يستغنى الانسان منذ فجر التاريخ عن استخدام العناصر الفلكية فى كثير من مرافق حياته · وحتى الآن نجد لدى أفراد الشعوب البدائية معلومات فلكية متأثرة بسيطة الا انها أساسية بالنسبة لحياتهم وتعينهم فى معاشهم وأمور دنياهم ، فهم غالبا لا يخرجون للقنص أو لصيد الأسماك ولا يزرعون ولا يتأهبون للنهب أو السلب الا تبعا لتوفر ظواهر معينة يشاهدونها أو يرصدونها فيما علاهم من سماء أو فى جو الأرض ·

ويبدو أن معرفة الانسان ببعض حالات السماء وتطلعه اليها نشأت منذ القدم وتدرجت هذه المعرفة من وساوس وأوهام الى عمليات رصـــد فعلية وساعد قيام حكومات قوية فى الصين ومصر وبابل على تطور هذا العلم فى تلك البلاد ، ونهضت شـــعوبها القديمة بالفلك وأمكن توفير سلسلة طويلة من الأرصاد بنيت عليها فى النهاية أسس ذلك العلم وشيدت دعائمه ··· الا انه فى الواقع لم يحدث تقدم نظرى سليم فى هذا الصدد حتى عهـد الاغريق الذين بدءوا باجراء التجارب واعمال الفكر والمنطق لتحقيق ما ظهر من نظريات ···

***

ولقد نهضت دراسات الفلك فى الأندلس بعد ان نقلها اليها العرب وظهرت آثار هذه النهضة فى قرطبة وطليطلة وتستمد الجداول الطليطية التى صنفها « أرزاشيل » عام ١٠٨٠ اسمها من هذه المدينة الأخيرة ·

وهناك أيضا جداول « ألفونسين » التى نشرت عام ١٢٥٢ م بعد اعدادها تحت اشراف الفونسو العاشر · ويعد العلماء ظهور هذه الجداول بمثابة اعلان لمولد العلم الحديث فى أوروبا وهى تكاد تنطبق مع زيج أو أرصـــاد « سفيرا موندى » التى تتخذ مرجعا للفلك الكروى ، والتى صنفها يوركشيرمان وجون هوليوود · وقد أعيد طبع هذا الكتاب ٥٩ مرة فى ذلك العهد الذى انتشرت فيه المطابع وعرف باسم « ساكروباسكو » ·

وظهرت فى القرن الخامس عشر محاولات ناجحة فى ألمانيا لجمع شتات مذهب « بطليموس » وأدخل « جورج برباخ » (١٤٢٣ ـ ١٤٦١ م) الى أوربا وسيلة تعيين الزمن بالمزاول التى كان يستخدمها ابن يونس ، كما قام بالقاء المحاضرات فى فينا ابتداء من عام ١٤٥٠ ومات عن ثمان

وثلاثين سنة وهو فى طريقه الى روما لفحص نسخة من « المجسطى » وقد اثمرت تعاليمه وظهرت نتائجها فى أعمال « رجيومونتانس » و « برنهارد فالترر » فى نورمبرج (١٤٣٠ — ١٥٠٤ م) الذى شيد مرصدا جعل فيه ساعات تدور بوساطة أثقال معلقة كما توصل الى تحسينات كثيرة فى عمليات الرصد ٠

ظهرت نهضـــة علمية فى ايطاليا فى تلك الآونة وتبين ان قطعية نظريات « بطليموس » لا تقل فى عدم صلاحيتها عما جاء به « ارسطو » وتقدم بعض المفكرين الأحرار أمثال « دومينيكو ماريانوفارا » (١٤٥٤ — ١٥٠٤ م) بانتقاد مذهب بطليموس وتطلعت الأبصار الى أعمال « نيقولا كوبرنيق » مدة تلمذته فى بولونيا من عام ١٤٩٦ الى عام ١٥٠٥ ٠ واذاع « كوبرنيق » نظريته الخاصة باعتبار الشمس مركزا للمجموعة الشمسية فى سلسلة من النشرات ما بين عام ١٠٥٦ وعام ١٥١٢ ٠ وفى عام ١٥٤٣ أكمل نظريته وبراهينها فى رسالة قيمة هى خير دليل على الجهود التى بذلت فى سبيل بناء علم الفلك على أساس جديد وقامت دعائمها على مبدأ علمى سليم هو مبدأ الحركة النســـبية وقد أوضحت نظريته هذه ان مجموعات النجوم الثابتة فى الكوكبات والابراج لا تدور من حولنا طوال اليوم ولكن الذى يدور هو الأرض وبالطريقة نفسها نعلم أن الشمس لا تدور حولنا ، بل الأرض هى التى تدور حول الشمس وكذلك تدور سائر الكواكب حول الشمس ٠

وبهذه النظرية أمكن تفسير عدة ظواهر فلكية كانت تقف حجر عثرة فى سبيل المفسرين من علماء الفلك ومن أمثلة ذلك ظاهرة تراجع الكواكب الظاهرى ، التى فسرت فى ظل محصلة حركة الأرض وحركة أى كوكب آخـــر ٠

« تاريخ كوبرنيق » :

ولد نيقولا كوبرنيق عام ١٤٧٣ م فى بلدة « ثورن » ببولاندا وكان أصغر ولدين وبنتين لتاجر ناجح من أسرة كبيرة بالمدينة وكانت ثورن مركزا تجاريا ذا رخاء يتوسط بين طريق الشرق حيث السلع والخامات الآسيوية وطريق الغرب حيث السلع الأوروبية الناهضة ٠ لم يكن والده تاجرا فحسب وانما كان قاضيا وأحد أعيان المدينة ومات الوالد وهو فى العاشرة فتقرر أن يعول الأطفال خالهم القس لوكاس واكزنرود الذى أصبح مطرانا بعد ذلك ٠ وقرر الخال ان يتلقى ابن اخته العلوم الكنسية ٠

... فدخل نيقولا جامعة كاراكاو عام ١٤٩١ م وكانت عاصمة لبولاندا في ذلك الزمان ولها شهرة كبيرة في أوروبا بثرائها وثقافتها وصناعة التعدين وجذبت جامعة كاراكاو طلابا من بلاد شتى مثل ألمانيا وهنغاريا وسويسرا والسويد • أما لغة التعليم فيها فكانت اللاتينية وجميع الكتب الدراسية مكتوبة بهذه اللغة لذلك كان لزاما على جميع الطلاب اتقان هذه اللغة •

تعلم كوبرنيق بهذه الجامعة الفلسفة والفلك والهندسة والجغرافيا على يد الأستاذ ألبرت برودزوسكى الذى كان قد صنف تفسيرا لكتاب بزباخ فى فلكيات بطليموس وعلى يديه أيضا تلقى الرياضيات والدراسات الانسانية التى تخصص فيها أستاذه هذا • وكانت لدراسة الفلك أهمية كبرى فى ذلك الوقت اذ أخذت التجارة عبر المحيطات تنمو بسرعة وبدأ حجم المراكب يتزايد ومشاكل البحار تتراكم • وعندما كان كوبرنيق فى التاسعة من عمره كان كولومبس الذى درس العلوم الفلكية قد عبر المحيط مكتشفا أمريكا ومعه الاسطرلاب العربى يستعين به فى الأرصاد والجداول الفلكية العربية رائدة له عند السير فى اليم •

ترك نيقولا كاراكاو عام ١٤٩٤ م قبل ان يتم علومه وقبل ان يحصل على أية شهادة منها وطابت نفسه الى استكمال دراسته فى ايطاليا بعد أن ألحقه خاله بوظيفة يتلقى راتبها دون عمل ومكث فى ايطاليا حتى عام ١٥٠٦ م متنقلا بين جامعتها يقطف من العلوم ما شاء • وأول جامعة التحق بها كانت جامعة بولونا حيث تابع دراســـة القوانين الدينية لكى تؤهله للوظائف الادارية الكنسية غير انه كان كلفا بالرياضيات والفلك فداوم على مصاحبة أستاذ الفلك فيها وهو « دومينيكو ماريا دى نوفارا » •

ورغم ان نيقـــولا قد تم تعيينه قسيسا لكاتدرائية فراونبرج عام ١٤٩٧ بفضل نفوذ خاله فانه سرعان ما حصل على منحة تفرغ ليستكمل فيها دراساته وزار روما عام ١٥٠٠ م فى اليوبيل السنوى محاضرا فى العلوم الرياضية • وفى العام التالى عاد الى ارملاند ببولاندا ساعيا الى امتداد تفرغه حتى ينهض بدراسة الطب فى جامعة بادوا وكانت دراسة الطب فى تلك الأيام متشابكة مع علم أحكام النجوم فأعضاء الجسم الانسانى تعتزى بعرى غامضة الى دائرة البروج وأمزجة الانسان كانت تتركب من أربعة « اخلاط » ، فذاك بلغمى أو صفراوى أو دموى أو سوداوى تبعا لزيادة أحد العناصر • وكانت الموضوعات التى نسميها الآن الفلك والفيزيقيا والطب والكيمياء وهلم جرا فى الحقيقة علما واحدا مترابطا ، أما علم اللاهوت فكان مكانه وراء الكرة السماوية الأخيرة ••

لذلك نرى كوبرنيق يغشى جامعـــة بادوا موطن الطب والتشريح حينئذ • وفى عام ١٥٠٣ م تقدم برسالة الدكتوراه فى القوانين الكنسية

فى جامعة فرارا رغم انه لم يترك دراسة الطب فى بادوا من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٥ م لقد كان جم النشاط ٠

ثم عاد الى بولندا فى العام التالى بعد أن استقى من علوم الاغارقة فى شتى المجالات فأصبح طبيبا ومحلفا فى المحاكم ولم يشتغل بواجبات الكنيسة الا بعد مضى ست سنوات من مغادرته ايطاليا ٠

واستمر كوبرنيق فى قصر الأسقفية بهيلزبرج طبيبا لخاله الأسقف واكزنرود وقد أصبح شيخا هرما ٠ وتوفى خاله بعد سنة ٠ فوطد العزم على العمل اسقفا فى تلك الكاتدرائية الشهيرة بثرائها والتى تقع فى فراونبورج على ساحل البلطيق ٠ غير انه لم يقم قط بالمراسيم الدينية بل اكتفى بالمهام الضرورية التى تتعلق بوظيفته فمن الوجهة الرسمية كان يعمل مندوبا عن الكاتدرائية للفصل بين المنازعات ٠

ورغم مشاغله المتعددة فى القيام بواجبات وظيفته فانه ظل يتابع الانتـــاج الذهنى ٠ وأول مؤلف نشره كان عام ١٥٠٩ نشره باللاتينية وموضوعه ترجمة لمكاتبات وهمية لمشاهير الرجال كان قد صاغها مؤرخ بيزنطى فى القرن السابع اسمه ثيوفيلاكت سيموكاتا وكتب صديق له مقدمة لهذا الكتاب كتبها شعرا يمدح كوبرنيق كعالم فلكى له بحوث جديدة عن مسار القمر وحركاته المتغيرة وعن قبة السماء الزرقاء بما فيها من كواكب ٠

يحدثنا كوبرنيق انه منذ عام ١٥٠٦ م بعد عودته من ايطاليا بدأ يخطو فى تنمية نظامه الفلكى الذى تصوره للكون بناء على ذلك النظام الذى كان حلما يراوده أثناء دراساته الموضوعية فى جامعات ايطاليا ثم أخذ يستكملها فى أحد أبراج السور الدفاعى المحيط بكاتدرائية فراونبورج ٠ هذا البرج لايزال قائما ويعرف ببرج كوبرنيق انه كان مرصده كما كان علم الفلك شرعته ٠

وما أن وافى عام ١٥١٤ م حتى أصبح كوبرنيق شهيرا كعالم فلكى ، فدعى الى المجمع الكنسى لتقديم مشورته فى اصلاح التقويم فاعتذر متنحيا ، نظرا لأن الأرصاد الفلكية الجديدة لحركات الشمس والقمر لم تتم جدولتها بدقة تفى بالغرض المطلوب فهى مازالت فجة تتغذى من النهج القديم ٠

لقد كان التقويم اليوليوسى يخطىء فى ثلاثة أيام كل أربعمائة عام والخطأ يتراكم على مر السنين مما دعا البابا جريجورى الثالث عشر بناء على مشهورة الفلكى اليسوعى كلافيوس الى اصلاح هذا العيب فيه فعدل التقويم ليقرب الفترة بين عيد الفصح والاعتدال الربيعى حيث ان تاريخ

عيد الفصح كان يقترب شيئا فشيئا من الصيف فحذفت سنوات كبيسة معينة واستبعدت كل سنوات القرون الا اذا كان رقمها يقبل القسمة على ٤٠٠ . وفي عام ١٥٨٢ م بعد وفاة كوبرنيق بنصف قرن تقريبا اعتمد التغيير في الدول الكاثوليكية وجعل اليوم التـــالي ليوم ٤ أكتوبر يوم ١٥ أكتــوبر .

★★★

لم يذكر كوبرنيق المراجع العلمية التي اعتمد عليهـــا في كتابه « حركات الكرات السماوية » ولكننا سنذكرها هنا اعتمادا على انها كانت المراجع الأساسية التي بنيت عليها الدراسات بجامعة بولونا فاستقى منها بحوثه وهي الآتي :

أولا : كتـــاب الهيئة للبطروجي الذي كـــان يعرفه الـــلاتين باســـم (Alpetragius) .

ثانيا : تحرير المجسطي للخوجة نصير الدين الطوسي الذي ترجم من العربية الى اللاتينية .

ثالثا : كتاب أصول الفلك لابن كثير الفرغاني المعروف عند اللاتين باســم (Al.fraganaus)

رابعا : مجادلات نيقولاس الاورزمي العالم الباريسي في القرن الرابع عشر الذي ناقش فيها من الوجهة الميتافيزيقية دورات السماوات ونادى بأنها ما هي الا وهم وسراب وأن جميع أنواع الحركة انما هي نسبية فالسحب تظهر لنا متحركة والأرض ساكنة .

خامسا : كتاب « الجهل العلمي » الذي ظهر في القرن الخامس عشر للكاردينال نيقولاس الكوزي وفيه ينادي بأن الكرة الخارجية للكون التي تستمد حركتها من الله ، اعتبرت حدا فاصلا للكون والفضاء فكيف اذا وقفنا تحتها واطلقنا سهما نحوها فما الذي يحدث هل يرتد السهم ثانيا أم ينطلق نهائيا بغير رجعة ؟ ان الكون غير متناه لا مركز ولا محيط له ثم يستطرد في البرهان على ان الأرض لها حركة دورانية وليست لها حركة انتقالية وان الحركة بمعناها الفيزيقي نســـبية ولا يمكن اختيار نقطة ما في الكون لاعتبارها مركزا له . ثم افترض بأنه يوجد في مستوى خط الاستواء قطبان تدور حولهما الأرض مرة كل أربع وعشرين ساعة اما الكرة الســـماوية للنجوم الثوابت ففي زمن أقل تفســـيرا لمبادرة

الاعتدالين ، بينما الشمس تقع فى دائرة تبعد ٣٣° من أحد القطبين وتدور فى زمن أقل من زمن الأرض وعلى ذلك تظهر الشمس فى دورتها السنوية فى السماء وكأنها تتحرك من مدار السرطان لمدار الجدى ثم العودة ثانية ·

كل هذه الآراء قد ولدت تتابعا فى الهجـــوم على نظام بطليموس فأثارت شكوكا فى السنين التى سبقت كوبرنيق والشك يورث القلق · والقلق للفكر العلمى ينبوع مما حفز كوبرنيق الى القيام بعدة من الأرصاد الشاقة بفراونبورج تولاها بنفسه ليدعم بها نظريته الجديدة عن الكون · ورغم جدية هذه الأرصاد فانه ظل محجما عن نشرها بل ان أول رسالة ظهرت له عام ١٥٢٤ م وهى التى حاول فيها تقويض الأسس التى قام عليها التفسير القديم عن مبادرة الاعتدالين لم تتناول أى تلميح عن نظريته الجديدة · وفى ذلك الوقت أخذت بحوث كوبرنيق طريقها الى الشهرة بفضل عالم فلكى هو سليو كالا جنينى الذى زار كاراكاو عام ١٥١٥ م ووضع كتابا عام ١٥٢٤ محاولا فيه شرح الحركات السماوية للكواكب على أساس الحركة الدورانية للأرض ·

لقد أصبح الطريق ممهدا بعد ذلك أمام كوبرنيق ليخطو خطوة أكثر جرأة ، فتقدم عام ١٥٣٠ بكتاب آخر هو « تفسيرات » كدراسة أولية لنظريته الجـديدة التى تنادى بمركزية الشمس للكون وليست الأرض فسرعان ما جذبت انتباه المفكرين ·

وفى ربيع عام ١٥٣٩ م قدم جورج جوشيم رثيكوس ، عالم ألمانى فى الخامسة والعشرين من عمره لزيارة كوبرنيق وكان ريتكوس العبقرى بابتكاراته فى العلوم الرياضية بالنسبة لعصره قد عين أستاذا لهذه المادة فى جامعة وتنبرج ، ولما يتجاوز الثانية والعشرين ، استقبله كوبرنيق وقد أصبح شيخا هرما وأمضى ريتكوس أكثر من سنتين معه لدراسة نظرياته الجديدة فآمن بها وحث كوبرنيق على نشرها مثلما فعل الـــكاردينال شونبرج حين رجاه فى نشرها على الملأ · وكان لريتكوس الفضل فى ارسال مخطوط البحث الى ألمانيا ليطبع تحت اسم « حركات الكرات السماوية » ونلاحظ أنه ذكر الكرات السماوية لا الاجرام السماوية ، لأنه كان ولم يزل متأثرا بالنمط الاغريقى · لقد ظل كوبرنيق قرابة ثلاثين عاما يعمل بغير انقطاع ساعيا الى ابتكار نظام جديد للكون ومدونا أفكاره بالرصاص على قصاصات الورق وهوامش الكتب بل على جدران منزله حتى أكمل نظاما لم يفسر فحسب كل ما فسره نظام بطليموس القلوذى ، وانما فسر فى ذلك بدقة جميع حركات الكواكب والنجوم ومع أربع وثلاثين كرة فقط ·

ان كتابه هذا يضارع الى حد كبير كتاب « البرنسيبيا » لاسحق نيوتن باعتباره نتاجا للعبقرية الخلاقة • رأى كوبرنيق النسخة المطبوعة وهو في غيبوبة المرض اذ سبق له ان أصـــيب فى نهاية عام ١٥٤٢ م بالسكتة ثم الفالج وتوفى فى ٢٤ مايو عام ١٥٤٣ م ودفن فى كاتدرائية فراونبرج •

كثيرا ما قيل ان كوبرنيق خشى من نشر متنه الكبير وهو على قيد الحياة خوفا من حركة الاضطهاد الدينى التى تيبست من أجلها الأفكار العلمية الجديدة • بيد ان الواقع لا يؤيد هذا الرأى فالحقيقة أنه نشر مسوداته موجزة فى كتابه « التفسيرات » ، قبل وفاته بسنوات كثيرة وسمح لتلميذه ريتكوس أن يطبع تقريرا أوليا عن النظام فى عام ١٥٤٠ م قبل وفاته بثلاثة أعوام وفضلا عن ذلك كان بحثه معروفا عند البابا والآخرين من علية القوم فى المجالس الكنسية بل كان يدعو الى اعجاب شديد •

وواقع الأمر ان الذى أخر كوبرنيق فى النشر هو خوفه من سخرية الجماهير عامة ففى ذلك الوقت كانت العقول جميعها قد استراحت الى نظام بطليموس فى الفلك وفيزيقا أرسطو التى تنادى بأن الأرض مركز العالم فاذا قذفت حجرا فى الهواء عاد ثانية الى الأرض ، بل اذا قذفت حجرا من فوق أحد الكواكب الأخرى كالمريخ مثلا فانه قطعا يسقط على الأرض فهى المركز والشمس والقمر والكواكب المتحيرة بل النجوم الثوابت كل فى فلك حول الأرض يسبحون وقد خلقها الله جميعا لمنفعتنا وأن لها اهمية خاصة عند الخالق •

ان أى تغيير جذرى لتلك العقيـــدة باســـتبدال الشمس بالأرض باعتبارها مركزا للكون سوف يصبح لا محالة موضوعا يتندر به الحمقى • وكان كوبرنيق شديد الحساسية والتحرج من مخاطرة كهذه • لذلك نراه يبوح بأفكاره لأولئك الذين استطاعوا تقديرا لها واستيعابا لادراكها •

والآن يكفينا هذا القدر من صـــورة العصر الذى أحاط بكوبرنيق ولننهض مسرعين الى التعرف على كتابه الذى أثار كل هذا القلق •

حركات الكرات السـماوية

لم يهدف كوبرنيق الى تقويض نظام بطليموس تقويضا تاما ، لأنه جعل الأرض مركزا للكون ولكنه كان غير مقتنع بتلك الأسانيد التى يبررها المجسطى فى براهينه الهندسية لتفسير حركات الكواكب والنجوم فاراد الوصول الى نسق أكثر سهولة وأيسر تعبيرا من الوجهة الرياضية فالكون كرى ، والكرة أعظم الأشكال كمالا فهى لا تحتوى على وصلات أو عقد بل

هي أكبر الحجوم المغلقة وأن أكمل أنواع الحركة ما كانت دائرية فليس لها بدء وليس لها نهاية لذلك اختارها الله نظاما للكون ولا داعي اذن لتعقيد تلك الحركات باضافة أفلاك تدور • أي بافتراض أن الكوكب يتحرك على محيط فلك تدوير يتحرك مركزه على محيط فلك تدوير ثان ومركز هذا الأخير يتحرك على الفلك الدائر وأن الأرض بعيدة عن مركز الافلاك الدئرة أو أن مراكز افلاك الاكر بعيدة عن الافلاك الدائرة • كل هذه التعقيدات التى نشأت باعتبار الأرض مركزا ساكنا للكون كانت البؤرة الأساسية التى أراد كوبرنيق أن يبتدىء منها ليحقق نظاما أكثر كمالا وأقرب منطقا ليتمشى مع العقيدة بأن الله قد خلق الكون متكاملا لا تعقيد فيه •

لذلك فانه وضع نصب عينيه أن يعيد ترتيب الكواكب والكرات السماوية لتحقيق ذلك النظام فارتأى وضع الشمس مركزا للكون بدلا من الأرض قائلا : « فى هذا المعبد الكبير منذا الذى يستطيع أن يضع تلك الشعلة المضيئة فى مكان آخر سوى المركز حيث تضىء كل الأشياء فى وقت واحد فهذه الشمس هى نور العالم بل هى روحه بل هى التى تتحكم فيه وهى جالسة على عرشها القدسى ترشد أسرة الكواكب الى طريقها » •

ان التعقيدات التى نشـــأت عن نظام بطليموس جعلت الكواكب لا تتحرك بسرعات ثابتة حول مركز معدل المسير ، لا حول مركز التدوير فثمة تناقض لا يقبله المنطق والعقل فاضطر الى اللجوء الى توزيع هندسي آخر بحيث تتحرك فيه كل العناصر بسرعات منتظمة حول مركزها كما تقتضى قاعدة الحركات المطلقة • فالشمس والقمر والكواكب تشكل نظاما متكاملا تتحرك كل واحدة منهـــا بحركات دائرية منتظمة وبأســـلوب متوافق •

اذن فقد أصبح لزاما ان ينتقل علم الفلك من حظيرة الاسكندرية حيث بطليموس وهيبارخوس الى حظيرة أثينا حيث هيراقليطس واكفانتوس وشيعة فيثاغورس ومنهم فيلولاوس لكى يستبدل بالنار المركزية الشمس تدور حولها الكواكب •

أليست أثينا هى مهد أفلاطـــون القـــائل بأن الله هو المهنـــدس الأكبر وليس الفيثـــاغوريون هم القـــائلين بأن الأعـــداد الأولية هى أصل الأشياء وأن تقسيم الأوتار الطنانة الى أقسام عددية بسيطة تنشأ عنه أنغام توافقية فكذلك حركات الكرات السماوية وهى البسيطة فى عددها وتنشأ عنها نغمات سماوية لا يســـتطيع سماعها الا من أوتى استعدادا خاصـــا •

وأليس ارسطو هو القائل بأن النقلة الدائرية هى التى يمكن ان تنتج حركة واحدة لا متناهية متصلة وأزلية والجسم فيها هو بلا انقطاع مائل نحو الوسط الذى هو نفسه لا متحرك وخارج عن المحيط الذى ليس هو جزءا منه وأن الحركة الدائرية تذهب من ذاتها لتعود الى ذاتها وأن المحرك الأول هو واحد وانه أزلى فى وحدته وفى فعله .

وأليست فيزيقا أرسطو هى القائلة أيضا ان المادة كلها ذات حياة وأن طاليس نسب الى النفس قوة محركة وقال بوجود نفس حتى للحجر المغناطيس لأنه يحرك الحديد فالكرات السماوية بحسب كوبرنيق لها إرادة فهى تتحرك تبعا لذلك . وقد طبق شوبنهور الفيلسوف الألمانى فى القرن العشرين فكرته عن الارادة هذه على كل شىء فى مذهبه .

لذلك ركز كوبرنيق نظريته فى الأسس التالية :

١ – لا توجد مراكز لجميع الدوائر والكرات السماوية .

٢ – مركز الأرض هو قطعا ليس مركز الكون بل هو مركز الثقل لها فقط .

٣ – جميع الكرات تدور حول الشمس باعتبارها النقطة المتوسطة وعلى ذلك فهى مركز الكون .

٤ – بعد الأرض عن الشمس يعتبر ضئيلا بالنسبة لارتفاع كرة النجوم الثوابت (هذا الافتراض مقتبس من فرض اريستارخوس لتفسير عدم الازاحة الظاهرية للنجوم) .

٥ – كل حركة ظاهرية للنجوم هى نتيجة لحركة الأرض وليست هناك حركة لكرة النجوم الثوابت والأرض وما عليها لها حركة دورانية حول محورها كل يوم بينما تظل النجوم ثابتة .

٦ – ما يظهر لنا من حركة الشمس السنوية انما هو نتيجة للحركة الإنتقالية للأرض وكرتها حول الشمس غير المتحركة ومثلها فى ذلك مثل الكواكب الأخرى وللأرض حركة أخرى ترنحية (مثل حركة النحلة التى يلعب بها الأطفال فانها تترنح عند دورانها) وذلك تفسيرا لظاهرة مبادرة الاعتدالية .

٧ – ان حركات الاستقامة والرجوع للكواكب المتحيرة ليست دالة لحركتها بل لحركة الأرض التى هى كفيلة وحدها لتفسير جميع الاختلافات فى حركات الكواكب والنجوم السماوية .

٨ ـ تدور الأرض فى دائرة مركزها ليس الشمس ولكن نقطة أخرى مختلفة عن المركز • اما مركز فلك الأرض فيدور حول نقطة هى نفسها حول الشمس •

وكتاب كوبرنيق يتألف من ستة أجزاء يبدأ فى البرهنة على ان الكون كروى والأرض كروية أيضا ثم اثبات ان حركة الكرات السماوية منتظمة ، ثم يتساءل : هل للأرض حركة دائرية ؟ ولماذا كان الفكر القديم يعتبر الأرض ثابتة ؟ ثم يستطرد فى تركيب الكرات السماوية الدائرية ثم شرح الحركة الثلاثية للأرض ثم ينتقل الى مواضيع أخرى هندسية عن الخطوط المستقيمة فى الدائرة وجداول الأوتار ثم يذكر النظريات الهندسية الخاصة بأضلاع وزوايا المثلثات المستوية والمثلثات الكروية •

وبمقارنة هذه الجزء مع المقالة الأولى للمجسطى نجد نفس الترتيب ونفس جدول القسى وأوتارها وجدول القسى وجيوبها فمثلا نجد فصول هذه المقالة بالترتيب التالى « فى أن السماء كروية وحركتها مستديرة ـ فى ان الأرض كروية فى الحس بالقياس الى الكل ـ فى أن الأرض فى وسط السماء كالمركز فى الكرة ـ فى أن الأرض كالنقطة عند ذلك البروج ـ فى أن الأرض لها حركة انتقال ـ فى أن أصناف الحركات الأولى اثنان ـ فى العلوم الجزئية ـ فى مقادير الأوتار » •

بالمقارنة بين المنهجين يتضح لنا ان كوبرنيق أراد أن يتخذ من نمط المجسطى منهجا ثم يزيد عليه العرفان المتراكم من بحوث الفلكيين العرب فى حساب المثلثات الكروية التى كانت تنقص المجســـطى • أما جداول القسى وأوتارها وجيوبها فلا نجد أثرا لبحوث البيرونى كما ذكرها فى مؤلفه الكبير القانون المسعودى بجعل نصف قطر الدائرة الوحدة •

وفى بقية الفصول التالية نجد نفس المواضيع ولكن بتغيير موضع الشمس مكان الأرض أما فى جداول أول حركات أوساط القمر وجداول الاختلافات الجزئية وجداول اختلافات مناظر النيرين فى دائرة الارتفاع وجداول الاجتماعات والاستقبالات فتكاد تكون نقلا • ذلك لأن كوبرنيق لا يعقل ان يقوم بكل هذه الأرصاد التى أخذت من الذهن البشرى آلافا من السنين قبله فهو اكتفى بذكرها بعد ادخالها فى اطار نظامه الجديد •

وفيما يختص بالحركة التقهقرية للكواكب فيمكننا هنا أن نقارن بين رأى الفرغانى الذي ذكره فى الفصل الخامس عشر من مخطوطه « جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية » وبين تفسير كوبرنيق نفسه •

يقول ابن كثير الفرغاني : « فيما يعرض للكواكب الخمسة المتحيرة في الرجوع في مسيرها في فلك البروج فلنصف هنا ما يعرض من الكواكب الخمسة المتحيرة من الرجوع في مسيرها في فلك البروج · فنقول أولا أنا قد بينا أن الكوكب اذا كان في الجهة العليا من فلك التدوير فان حركته تكون الى المشرق وفي جهة الحركة التي لمركز فلك التدوير فنرى الكوكب سريع المسير لاجتماع الحركتين في جهة واحدة واذا كان في الجهة السفلى من فلك التدوير فان حركته فيه الى المغرب الى خلاف جهة الحركة الأخرى ·

ونقول هنا أيضا ان الكوكب اذا كان في جنبي فلك التدوير من المشرق والمغرب وعلى موضع تماسه الخطان اللذان يخرجان من الأرض الى جنبي فلك التدوير لم تر لحركته قدرا بين فلك البروج فيكون ما يرى من مسيره في فلك البروج هو ما يسير من مركز فلك التدوير فقط ·

فاذا سار الكوكب من موضع الخط المماس لفلك التدوير مما يلي المشرق كان عند ذلك ابتداء الحركة التي ترى للكوكب في فلك التدوير الى المغرب بابطاء فينقص ذلك من مسير مركز فلك التدوير الذي يرى الى المشرق وكلما انحط الكوكب في فلك التدوير · ودنا من البعد الأقرب كان أكبر لما يرى من حركته فيه الى المغرب الى أن يساوي مدار ما يرى من حركته في فلم التدوير بحركة مركز فلك التدوير ·

فاذا تساوت الحركتان من جهتين مختلفين لم ير للكوكب في تلك البروج تقدم ولا تأخر ويرى كأنه مقيم ثم ترتد حركته التي ترى فلك التدوير الى المغرب وترتد على الحركة الأخرى التي الي المشرق فعند ذلك يري الكوكب راجعا في فلك البروج نحو المغرب ويكون أكثر ما يرى من حركة الرجوع اذا صار الكوكب في اقرب فلك التدوير ·

فاذا جاوز البعد الأقرب صاعدا من جهة المغرب فصار الى قبل ذلك البعد الذي ابتدأ منه الرجوع من جهة المشرق تساوت هناك الحركات أيضا فيرى مقيما في موضعه من فلك البروج الى ان يجوز ذلك الموضع فيرى مستقيم السير الى المشرق فهذا سبب ما يرى من رجوع الكواكب الخمسة ولذلك سميت المتحيرة » ·

ولكي نقرب هذا التعليل للأذهان دعنا نفترض تلك الدوارة « وهي اللعبة التي تتكون من أفراس وطيور وحيوانات دوارة حول المركز وتكثر في الملاهي ونحن في مركزها وهناك طفل يجلس فوق أحد الأفراس هذه فعندما تدور اللعبة يدور الطفل حولنا وهو راكب فوقه ولنفترض أن مع

هذا الطفل لعبة صغيرة دوارة يمســـكها بيده ولنفترض أحد الافراس المشابهة عليها ، فعندما تدور اللعبة وتدور الدوارة الكبيرة الأصيلة يظهر لنا فرس اللعبة التى يمسكها الطفل وكانه يدور حول مركز يدور فى فلك حولنا ، هذا هو فلك التدوير أو الاكر كما يسميه الطوسى أما اللعبة الكبيرة فمحيطها الذى يجلس عليه الطفل هو فلك التدوير الأول وعندما يدور فلك التدوير فان الفرس الذى اخترناه يتحرك فى اتجاهات دورانية تارة مخالفة للدوران الأول وطورا فى نفس الاتجاه ويبدو هذا الفرس على الخلفية الخارجية وكان حركته فى استقامة وفى رجوع ، وعلى ذلك سميت بالمتحيرة .

وفى تعليل كوبرنيق ، هو يضع الشمس فى مركز اللعبة الأصلية ونحن فوق الأرض نتحرك بسرعة دورانية حول الشمس وبأخرى حول أنفسنا أما الفرس الذى يجلس عليه فيدور أيضا فى اللعبة الأصلية بسرعة مغايرة لسرعتنا فعندما ندور ونلتقى بالفرس ثم نخلفه وراءنا يظهر الفرس وكانه يرتد الى الخلف وعندما ندور حول أنفسنا يلحقنا ثم يصبح اتجاه حركتنا مغايرا لاتجاه حركته فيبدو وكانه يسبقنا ، ثم تتكرر العملية فتبدو حركة الفرس فى الخلفية وكأنها تقهقرية وهذا ما يحدث لكوكب مثل كوكب المريخ مع راصد فوق الأرض .

ونلاحظ بعد ذلك بقية أجزاء كتاب حركات الكرات السماوية تشمل مواضيع عميقة يستلزم الالمام بها استيعابا لمصطلحات علم الفلك .

الثـــورة الكوبرنيقية :

لقد كانت نظريات كوبرنيق نهاية لعصر فـــكرى متزمت وتهيئة ضرورية لعصر آخر هو عصر العلم الذى نغرق فيه اليوم تماما ، ولم يكن كوبرنيق نفسه هو منشىء العلم الحديث بأية حال فآراؤه خلت من الفكر الاشراقى الذى يخرج بغتة بنمط جديد على غرار ما نجده عند نيوتن وبلانك وآينشتين وكيكلوليه . كانت نظريته هى نظرة العصور الوسطى التى تشكلت بأفكار أرسطو وفيثاغورس وكل ما فعله هو تمكينه للفلسفة العلمية الجديدة من الظهور . لم يتبادر لعقول الناس معنى الحركة فيما بين عهد بطليموس وكوبرنيق وكان من الواضح أن الجسم يتحرك لو أنه يغير مكانه بالنسبة للأرض وهو ساكن فيما عدا ذلك أما بعد كوبرنيق فقد استجد مفهوم آخر لمعنى الحركة أى تغيير المكان بالنسبة للشمس مما مكن جاليليو عند بداية القرن السابع عشر من اذاعة رأيه فى الحركة المحلية التى أصبحت ركيزة علم الميكانيكا فيما بعد .

أما نيوتن فقد استفاد من الحرية التى جادت بها هذه الفكرة فعندما كان يبحث حركة الكواكب اعتبر الشمس ساكنة مثل كوبرنيق ، ولكنه عندما كان يبحث سقوط التفاحة على الارض اعتبر الأرض ساكنة كما زعم معارضو كوبرنيق واستطاع عندئذ ان يبين أن نفس القانون العام للجاذبية يسرى على الكواكب والتفاحة كما استطاع أن يبنى على مبدأ جاليليو القوانين العامة للحركة التى يرتكز عليها كل ما جاء بعد ذلك من علم ٠

آمن كوبرنيق بأن الكواكب تدور لأن لها ارادة والتفاحة عندما تسقط فان لها ارادة بحيث هى التى تساعدها على السقوط ، وكان معاصروه يعتقدون ان للتراب والماء والهواء والنار طبائع هى فى أساسها من طبيعة الانسان ، كانوا يميزونها على انها أجزاء من الطبيعة البشرية وأن أمزجة الناس تتأثر الى حد كبير بحركات الاجرام الســـماوية وجاءت نظريات كوبرنيق فقلبت كل شيء ظهر فيها : ان الأرض مجرد كوكب ضئيل لنجم ضئيل فى جسد لا نهائى من النجوم وان الانســـان ليس مركز الخلق فانهارت فكرة التنجيم من أساسها ٠ كان التنجيم علما يعتد به فأصبح حديث خرافة وبات مكان الانسان كله فى النظام الكونى مزعزعا وتغيرت المفاهيم فى نسق جديد واختفت الارادة وحلت محلها الجاذبية التى تسود النظام الكونى بأجمعه والجاذبية بدورها تخضـــع لقوانين ثابتة أزلية نسيجها العلية ٠

لقد كان كتاب حركات الكرات الســـماوية لكوبرنيق اغريقيا فى تصوره ، فهو يؤمن بأن الحركة الدائرية أكمل الحركات للكواكب ثم ظهر بعد ذلك ان تلك الحركات بيضية ٠ ان كل ثورة من الثورات لا تأتى بغتة بل لابد من وجود بذور صالحة لها ولابد من زمن حتى ينمو وينضج نبتها ٠ استورد كوبرنيق تلك البذور من الاغارقة ومن العرب ثم زرعها فى أرض أوربية فاينعت لأنها كانت على حافة التطور والثورة ٠

لقد كان نظام الجيوستاتيكى الاغريقى موضوعا ، فجاء الفلكيون العرب واستحدثوا أنظمـــة جديدة وأصبحت تلك الأنظمة نقيض ما هو موضوع ثم جاء كوبرنيق فربط بينها فى تعايش سلمى مستحدثا النظام الهليوستاتيكى الذى أمسى (مركب موضوع) ٠ واستقر نظامه بل نما وترعرع لأنه كان محفوظا اذ وجد من يخلفه من شوامخ الفكر أمثال تيخوبراها وكيلر وديكارت ونيوتن ولابلاس وأصبح نظام كوبرنيق موضوعا طبقت شهرته الآفاق أثناء محاكمات جوردانو وجاليليو بعد وفاته بأكثر من خمسين عاما ٠

ان أهم تصور فيزيقى نجده فى كتاب كوبرنيق ، هو فى ازاحته لفيزيقا أرسطو المحرك الذى لا يتحرك ٠ هذا المحرك هو الذى يحرك كرة

النجـــوم الثـوابت وهى بدورها تحرك البكرات البلورية الأخرى لزحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد ، قال كوبرنيق ان الكواكب تتحرك لأن لها ارادة ذاتية • ذلك التحول فى التفكير كان رائدا لكبلر حين قال ان حركة الكواكب تتحكم فيها الشمس • وعلى ذلك أصبحت الحركة نابعة من داخل الكون حيث الشمس متمركزة وليست من خارج الكون حيث المحرك الذى لا يتحرك •

هذا هو التطور الثورى الذى حدث فى العلوم الرياضية • أما ما حدث فى التطور الثورى للطابع الاقتصادى فلقد كان الفكر الاوروبي فى العصور الوسطى يتبع فى علم الصنعة ما ورثه من الفكر الاسلامى الذى كان ينسب الذهب للشمس والفضة للقمر والحديد للمريخ •• الخ ثم جاء كوبرنيق وجعل الشمس مركزا للعالم فتغيرت المفاهيم فى القرن السابع عشر ، حيث أصبح الذهب هو مقياس الثروة بعد أن كانت الأرض أو السلع المستهلكة هى المقياس واندفعت المغامرات البحرية الى منابع الذهب فى بيرو وأمريكا وأفريقيا والهند واستولى الأسبان علي الذهب والفضة بأمريكا ، والبرتغال على ذهب أفريقيا •

كان الذهب والفضة وسائل عديدة اسبتاتيكية لتبادل التجارة فأمسي الذهب هو القوة الديناميكية المسيطرة على اقتصاديات دول أوروبا الناهضة مثل انجلترا ، وهولندا • قبل كوبرنيق كان النقد الذهبى أو الفضى مقدارا، أما بعده فقد أصبح النقد دالة ، وأخذ الاقطاع وهو ملكية الأرض يذبل رويدا أمام سيطرة الذهب الذى هو وليد التجارة الواســـعة فيما وراء البحار ونشأت طبقة قوية من التجار هى نبالة الذهب والمال ، ناهضت نفوذ نبالة الاقطاع أى الأرض حتى ان جامعة جريشام بانجترا تبرع تاجر ثرى بانشائها والصرف عليها وسميت باسمه تمجيدا له ثم أخذت المصالح التجارية تتشعب وأصـــبح للتجار النفوذ الأكبر فى أحزاب وبرلمانات انجلترا ولأول مرة أنشئت وزارة التجارة وأصبحت موضـــوعات حرية التجارة أو حمايتها من الموضوعات الصاخبة فى القرن السابع عشر وما يليه وتكونت الجيوش والأساطيل لحماية التجارة فيما وراء البحار •

كانت الأرض وهى مركز الكون سابقا هى أساس الثروة فكانت نبالة الاقطاع ثم جلت الشمس مكانها متمركزة فى الكون والشمس فى الخيمياء هى الذهب فكانت نبالة المال والنقد •

لقــــد كانت ثورة كوبرنيق العلمية ثـــورة عامـــة فالحركـة البيوريتانية (١٨) فى انجلترا والحركة البروتســـتانتية المستشهدة فى أوروبا كانتا من المظاهر الجدية لهذا التغيير من الوجهة الدينية وكانت ثورة

كروموبل وحروب لويس الرابع عشر من علامات هذا التغيير من النواحى السياسية • انها ثورة عارمة حتى فى الفنون ، ففى التراجيديا كان الصراع الذى يقوم بين البطل وبين الطبيعة صراعا بالمعنى الحقيقى وانما يخضع البطل للطبيعة الخارجية فليس ثمة صراع من الطبيعة الخارجية أى المحرك الذى لا يتحرك • أما بعد ثورة كوبرنيق فنجد الصراع مستمرا والنضال سجالا بين البطل أى بين الطبيعة الانسانية المستمدة من الأرض فى نظام كوبرنيق وبين الطبيعة الخارجية أى الشمس فى النظـام نفسه ، فلير وهاملت لا وجود لهما فى تلك المآسى الا باعتبارهما فى نزاع مســتمر ومتساو مع القدر •

لقد سجل جيته شاعر الجرمان هذه الثورة فى رواية فاوست « أيها الشباب أيتها النشوة أيتها الرسالة السامية قبلنا ، قبلى أنا ، لم يكن العالم موجودا لقد انتزعت الشمس من وسط الهاوية وأن القمر ليسير فى مداره تبعا لفرجاوى ان النهار حين رآنى قد أصبح جميلا تحت أقدامى والأرض علاها وشى من الخضرة والازهار وموكب النجوم الذهبية قد بزغ فى السماء القدسية فى الليلة الأولى بفضل يدى وان لم أكن أنا فمن اذن الذى حطم حدود القوانين البائسة التى أبهظت كاهل الأرض ؟ » •

حركة القلب

وليم هارفي

١٦٢٨م

تمر بعض الأحداث الكبرى وقلما تسترعى الانتباه ومثال ذلك اكتشاف الدورة الدموية .. ففى عام ١٦٢٨ وفى معرض الكتب السنوى فى مدينة فرانكفورت على نهر المين فى ألمانيا نشر كتاب صغير فى عالم التشريح قلب الكثير من الأفكار القديمة عن جسم الانسان رأسا على عقب ووضع أسس علم الطب الحديث ... وكان عنوان الكتاب « بحث تشريحى فى حركة القلب والدم » لمؤلفه الانجليزى وليم هارفى طبيب الملك وأستاذ التشريح فى كلية الطب بلندن .. وقد وضع المؤلف كتابه باللغة اللاتينية وشرح فى صفحاته الاثنتين والسبعين لأول مرة طريقة توزيع الدم على الجسم بواسطة القلب .. ولكن قراء الكتاب كانوا قلة .. ومرت سنوات طويلة قبل ان يتبين الناس أنهم مدينون بالكثير لوليم هارفى .

★★★

ولد وليم هارفى فى أبريل من عام ١٥٧٨ فى مدينة فولكستون من أعمال مقاطعة « كنت » لأبوين موسرين وكان هو أكبر اخوته وكان أبوه توماس هارفى عمدة فولكستون وقد علم أبناءه السبعة تعليما راقيا لرغبته فى ان ينالوا نصيبا من النجاح فى حياتهم أكثر مما ناله هو وقد أصبح معظم تجارا أثرياء فى مدينة لندن كما غدا أحدهم عضوا فى البرلمان . وبعد بضع سنوات قضاها وليم فى المرحلة الأولى من التعليم فى كنتربرى التحق بكلية كايوس بجامعة كمبردج حيث حصل على درجته العلمية عام ١٥٩٧ وكان أغلبية طلاب الكلية يدرسون الطب ، وجلى ان هارفى الشاب كان قد اختار لنفسه مهنة المستقبل .

وكانت ايطاليا فى تلك الأيام موطنا لأئمة العلماء فى العالم يفد اليها الشباب من ربوع أوربا ويحتشدون فى قاعات المحاضرات بجامعتها وقد وصل وليم هارفى الى مدينة بادوا فى عام ١٥٩٩ حيث كانت توجد مدرسة من أعظم مدارس العالم شهرة فى الطب ويمكننا ان نرى هناك حتى الآن قاعة المحاضرات التى تضاء بالشموع حيث كان هارفى الشاب يقضى الساعات الكثيرة مصغيا الى أستاذه فابريكيوس الاكوابندتنى Fabricius of Aquapendente أعظم علماء التشريح فى زمانه وكان فابريكيوس يعرف عن الجسم الانسانى ما لم يعرف أحد غيره فى ذلك

الوقت وله يدين هارفى الى حد كبير بما وصل اليه من علم ولكنه لم يلبث ان بز أستاذه وتفوق عليه فيما بعد ، ولابد أن زملاء هارفى فى الدراسة كانوا يكنون له الحب لأنهم اختاروه ممثلا للطلاب الانجليز فى مجلس الجامعة ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٦٠١ وعاد الى انجلترا ٠

استقر هارفى بعد ذلك فى لندن حيث تزوج وبدأ يزاول عمـــله بوصفه طبيبا ولم يمض وقت طويل حتى انتخب زميلا فى الكلية الملكية للأطبـــاء ٠

ثم عين فى عام ١٦٠٩ طبيبا فى مستشفى القديس بارثلميو وهى وظيفة كانت لا تمنح الا للأطباء الممتازين اذ كان الملك هو الذى يقـــوم بتعيينهم ٠ وتبين من الوصية التى كانت تتلى على مسامع الطبيب الحديث الاختيار ما كان ينتظره المجتمع من الأطباء فى ذلك الزمن تقول الوصية : « أيها الطبيب لقد وقع عليك الاختيـــار لتكون طبيبا للفقراء فى هذا المستشفى وحزت القبول لتؤدى الواجب التالى ٠٠٠ عليك ان تأتى الى المستشفى مرة كل أسبوع على الأقل طول السنة وعليك أكثر من ذلك أن تطلب الى الموظف المقيم فى المستشفى أو رئيسة الممرضات أو البواب كلما دعت الحالة أن يستدعوا للحضور أمامك أكبر عدد ممكن من الفقراء النازلين بهذا المستشفى والذين هم فى حاجة الى نصح الطبيب ومشورته ٠ ضع نصب عينيك أنك لن تقرر لهم شيئا على سبيل المجاملة أو بقصد الربح المالى أو الكسب ولكنك ستقرر ما تراه من أسباب الخير والشفاء لهم مصحوبا بنصائحك الغالية هذا ما يجب أن تتعهد به وتكون مسئولا عنه أمام الله » ٠

***

كان هارفى يتقاضى أربعين جنيها فى العام نظير القائه محاضرتين كل أسبوع فى التشريح والجراحة طوال السنة مدى الحياة ولعل ذلك يبدو اليوم مبلغا زهيدا الا انه كان يعتبر مبلغا كبيرا فى عصره ولذلك فانه حين عين محاضرا فى كلية الأطباء الملكية بهذا المرتب السنوى ضمن ذلك دخلا يأتيه سهلا طوال الفترة الباقية من حياته ٠ ومازالت المذكرات التى تحمل محاضراته باقية يمكن مشـــاهدتها فى المتحف البريطانى وهذه المحاضرات خليط عجيب من اللغتين اللاتينية والانجليزية وهى توضح أن هارفى كان أول من اكتشف توزيع الدم بواسطة القلب وقد كان يسجل الحرفين الأولين من اسمه وهما « و ٠ هـ » على هامش مذكراته ليبين ان هذا الاستكشاف انما يرجع اليه الفضل فيه دون غيره ٠ على انه رفض ان يذيع اكتشافه فى العالم عدة سنوات وانما أخذ يتريث فى اذاعته على سبيل الحيطة والحذر حتى اتضحت له صحة تجاربه ٠

وفى أثناء ذلك كان هارفى يزداد شهرة يوما بعد يوم فكان طبيبا لرجال السياسة والنبلاء ومن بينهم الوزير اللورد سير فرنسيس باكون حامل أختام الملك ، كما كان هارفى كثير التردد على القصر حتى عين فى عام ١٦١٨ طبيبا خاصا للملك جيمس الأول ومنذ ذلك الحين غدا اثرى الأطباء وأعظمهم شهرة فى انجلترا « فكان يمتطى صهوة جواده ليزور مرضاه ويسير خلفه تابع له على قدميه كما جرت العادة بذلك يومذاك » ٠

هارفى ٠٠ واعتزازه بالحقيقة !!

ومع ذلك فلم يكن هارفى يبحث قط عن ثروة أو مجد ولم يحاول أن يجعل همه جمع المال ولا كان يهتم به اذا حصل عليه ، ودليل ذلك انه ترك شئونه لأخيه يصرفها بدلا منه سنوات طويلة وقيل ان أخاه كان أحرص على مصالح هارفى من هارفى نفسه ، ومع انه كان شخصية محببة فى بلاط اثنين من الملوك سنوات طويلة ، فانه لم يمنح لقبا ولم يسع فى الحصول على ذلك اللقب بل لم يكن يحفل كثيرا بحياة البلاط المرحة كما كان قليل الاهتمام بشئونه السياسية ، اذ أن أقصى سعادته تركزت فى دراسة التشريح التى دأب على مواصلتها العام تلو العام ولم تثنه مشاغل الزمن عن المضى فيها ٠

وأخيرا وفى عام ١٦٢٨ أعلن هارفى اكتشافه للعالم بعد سنوات طويلة من الدراسة المتصلة التى لا تعرف السأم والتجارب الدقيقة ودعم اكتشافه بمجموعة كبيرة من الأدلة المبنية على أساس علمى دقيق ولم يقتنع باجراء التجارب على القلب والدور الذى يقوم به فى الجسم بل انه بين وظيفة القلب فيما يقرب من أربعين نوعا من الحيوانات منهـــا الديدان والحشرات والسمك الصدفى ٠ وكان فى صبره ودأبه لا يعرف الكلل ولم يجرؤ عدو له على اتهامه بتجاهل الحقائق ٠ وقد أدرك هارفى أن أساطين الأطباء والجراحين فى عصره سيهزءون به فلم يحدث كتابه فى أول الأمر أى اهتمام ٠ ثم ما لبث ان تعرض للهجوم من كل الجهات وقال الكثيرون انه يحتوى على مغالطات ووقف فى وجهه كل الأطباء وأعرض عنه مرضاه وأصبح نصيبه فى النجاح ضئيلا ولكن عندما أدرك الناس صحة تعاليم هارفى كان ذلك ايذانا ببداية عصر جديد فى عالم الطب ٠

وكان المعروف قبل عصر هارفى أن القلب عبارة عن عضـــلة جوفاء تنقسم الى أربعة تجاويف يسمى اثنان منهما بالأذينين ويسمى الآخران البطينين فمن أعلى الاذين الأيسر والأذين الأيمن ومن أسفل البطين الأيسر والبطين الأيمن وكان المعروف كذلك ان هناك نوعين من الأوعية الدموية وهى الشرايين والأوردة ويعرف الشريان الرئيسى فى الجسم بالأورطة وهو يتصل بالبطين الأيسر ويتصل الوريد الرئيسى بالاذين الأيمن ، كما يتصل

البطين الأيمن بالرئتين عن طريق الشريان المعروف باسم الشريان الرئوى . وأما الوريد الرئوى فيصل الرئتين بالاذين الأيسر . ولقد كان الكثير من هذه المعلومات معروفا لجميع الأطباء والجراحين قبل ان يولد هارفى بزمن طويل وكان من المعروف كذلك ان الشرايين والأوردة تنتشر في كل أجزاء الجسم وتشبه في إنتشارها جذور الشجرة ..

كل هذه الحقائق كانت مألوفة لدى رجال الطب فى نهاية القرن السادس عشر ، الا أن أحدا لم يستطع أن يشرح العمل الذى يقوم به القلب والأوعية الدموية شرحا مقنعا . فقال البعض ان القلب يفرغ سائلا يسرى في كل أجزاء الجسم ويسمونه « روح الحياة » .. وقال البعض الآخر ان العملية ترتبط بعض الشيء بالتنفس واعتقد آخرون أن عمل القلب ليس له علاقة بالدم الذى زعموا انه ينساب فى اللحم ليغذى الجسم كله غير ان الكثير من أولئك الذين اعتنقوا هذه الآراء قد انتجوا فى ذلك نحو تعاليم وآراء الفلاسفة الذين عاشوا قبلهم بمئات السنين فهى ليست اذن من بنات أفكارهم . وقد بذل آخرون جهدا عظيما فى التفكير دون أن يعبأوا كثيرا بالحقائق الواضحة وكان لابد أن يأخذ هارفى على عاتقه ان يتأمل ويشاهد بنفسه ما يحدث عندما يدق القلب وأخيرا وصل الى الحقيقة بالملاحظة الدائبة والتجارب الطويلة وكتب يقول : « انى اقر بألا أتعلم التشريح أو أعلمه من الكتب أو من كلام الفلاسفة ولكن بواسطة التشريح ذاته ومن صنع الطبيعة » .

ولقد كان فابريكوس معلم هارفى فى ايطاليا اول من اكتشف صمامات الأوردة وهى عبارة عن قطع صغيرة من النسيج الغشائى توجد على مسافات فى الاوردة . وقد لاحظ فابريكوس أن هذه الصمامات تتجه دائما نحو القلب ولكن هارفى هو الذى لاحظ ان عمل هذه الصمامات هو دفع الدم فى اتجاه القلب وليس خارجا عنه كما لاحظ انه كلما دق القلب اتسعت الشرايين ونبضت وسمحت بتدفق الدم خارجة عن القلب وليس فى اتجاهه وتبين له أن القلب يصب الدم فى الأورطة ويسرى منه الى جميع الشرايين فى الجسم .

ولقد واجهت هارفى مسألة معقدة فالنبض عند الانسان يجرى بمعدل ٧٢ مرة فى الدقيقة وكل بطين يحمل أوقيتين من الدم وبذلك فانه فى كل دقيقة يصب البطين الأيسر ١٤٤ أوقية من الدم فى الأورطة وهكذا نرى بسهولة أن ٨٦٤٠ أوقية من الدم تتدفق فى الأورطة فى مدة ساعة من الزمن وهى كمية تعادل وزن ثلاثة أفراد ثقيلى الوزن ومثل هذه الكمية نفسها يتدفق فى الشريان الرئوي عن طريق البطين الأيمن ولنا ان

نتساءل : « من أين تأتى هذه السكمية الكبيرة من الدم ؟ والى أين تذهب ؟ » .

والواقع انه ليس فى الامكان الاجابة على هذا السؤال الا بجواب واحد فقد رأى هارفى من قبل ان الدم يتدفق دائما فى اتجاه واحد خارجا من القلب عن طريق الشرايين ومتجها اليه عن طريق الأوردة وانه ينساب باستمرار دون توقف وكتب يقول : « لقد بدأت أفكر فى احتمال عدم وجود دورة دموية اذ أنى أرى أن البطين الأيسر يدفع الدم فى الشرايين ويرسله للجسم بكميات كبيرة وبنفس الطريقة يدفع البطين الأيمن الدم فى الشريان الرئوى ومنهما الى الأوردة » . وبذلك شبه عمل القلب بمضخة تمد الجسم كله بدم الحياة .

ويستمر فى حديثه فيقول : « ان القلب يعد نتيجة لذلك بداية الحياة لأنه بعمل القلب ونبضاته يتحرك الدم نقيا صالحا لتغذية الجسم كما يحفظ من ان يفسد ويتجلط وهو فى الحقيقة سر الحياة ومصدر كل حركة » .

الا أن فكرة توزيع الدم كانت من الجدة وعدم السماع بها من قبل . بحيث خشى هارفى أن يعارضه جميع الناس ولكنه وقد أيدت له ملاحظاته صواب رأيه لم يحفل بما يحتمل أن يقوله الناس عنه وكتب يقول : « قضى الأمر وانى اعتز بالحقيقة وأجلها .. » .

ولما لم تكن المجاهر القوية معروفة فى ذلك الوقت فقد بقى أمام هارفى موضوع واحد يحيطه الغموض : فلم يعرف طريقة مرور الدم من الشرايين الى الأوردة عند عودته الى القلب ومن المعروف الآن أن فروع الشرايين الدقيقة وتسمى بالشعيرات صغيرة جدا ويتعذر رؤيتها بالعين المجردة وهى تقوم بحمل الدم النقى من الشرايين الى جميع أنسجة الجسم وأعضائه ونقل الدم الفاسد الى الأوردة ومنها الى القلب ويمر الدم الفاسد من الأذين الأيمن الى البطين الأيمن ومنه الى الرئتين بواسطة الشريان الرئوى وفى الرئتين يمر فى الشعيرات المنتشرة خلال الرئة وهنا يقوم الأكسوجين بتنقيته فى القصبة الهوائية الذى يأتى اليها بواسطة التنفس وآنئذ يسير الدم خلال الوريد الرئوى الى الأذين الأيسر فى القلب ويستمر فى تدفق مستمر فى نظام دورى كما سبق أن شرحه هارفى .

***

وعندما أعلن هارفى اكتشافه للعالم هجره كثير من مرضاه وربما كان ذلك عن اعتقاد منهم بأن الرجل فقد صوابه . وفى ذلك الوقت كان

يكتسب عطف بلاط الملك السيء الحظ شـــارل الأول وتظهر آية ذلك العطف فى سجلات مستشفى القديس بارثلميو ففى أوائل عام ١٦٣٠ صدرت النشرة التالية : « أعلن اليوم الدكتور هارفى طبيب هذا المستشفى أن صاحب الجلالة الملك المعظم قد أصدر اليه أمره بمرافقة سمو الأمير دوق لنوكس الجديد فى اسفاره فيما وراء البحار ولذلك فهو يرغب فى أن يسمح البلاط لادموند سميث الدكتور فى الطبيعة أن ينوب عنه أثناء تغيبه فى القيام بعمله طبيبا لهذا المستشفى » ٠

وقد ترك هارفى انجلترا بعد ذلك بشهور قليلة مع رفيقه السامى وقضيا الشتاء التالى معا فى باريس ٠

وما كاد هارفى يعود الى انجلترا حتى عينه الملك طبيبا دائما له ولم يلبث أن أصبح بعد ذلك بسنوات قليلة طبيب الملك الأول وكان على الدوام ملكيا متحمسا حاز اعجاب شـــارل الأول بدرجة كبيرة وكان له أصدقاء بين رجال البرلمان ، كما حظى بتقدير كل أولئك الذين اتصلوا به ومحبتهم وكان له أصدقاء ومعجبون فى كل من المعسكرين اللذين أفضى اليهما النزاع المرير فى ذلك العصر التعس ومع انه ظل على ولائه للملك شارل فانه مع ذلك لم يعاد أحدا ويبدو أن الملك بدوره قد أحب طبيبه ووثق به اذ رأى فيه رجلا يتمتع بذكاء حاد فاحترم آراءه ٠ وحين ذهب الملك ليتوج فى هوليوود فى قصر ادنبرة اصطحب معه هارفى وكانت بعض الواجبات التى يقوم بها طبيب الملك غريبة ، فقد أمره الملك ان يقوم بفحص بعض النساء اللواتى قضى بادانتهن بتهمة السحر (وكان السحر عقيدة واسعة الانتشار فى ذلك الوقت) وقد وجد هارفى أن النســـاء أبدانهن صحيحة فصدر العفو عنهن ٠

وعندما نشبت الحرب الأهلية فى عام ١٦٤٢ صاحب هارفى الملك حيثما حل وارتحل ٠ وفى أثناء هذه الغيبة قام جنود البرلمان بتفتيش منزله وحرقوا الكثير من أوراقه وقد كتب بعد ذلك يقول : « بينما كنت فى خدمة الملك سطت بعض الأيدى الأثيمة على منزلى وسلبت كل أثاثه وان أعظم ما يحز فى نفسى ما سلبه أعدائى من متحفى من ثمرات كدى سنوات كثيرة » ٠ وفى معركة « ادجهل » فى نفس السنة عهد الى هارفى برعاية ابنى الملك الصغيرين وبينما كانت تستعر نار المعركة كان يجلس تحت سياج من النباتات ومعه ابنا الملك وقد أخذ يقرأ كتابا ٠٠

وأحس هارفى بأعباء السنين وما عاناه من داء فى مفاصله وتعذر عليه ان يواصل أداء رسالته الطبية بسبب الحرب وفى عام ١٦٤٦ اعتزل الخدمة وعاد الى حياته الخاصة ولم يعد يراه أحد فى البلاط الا أنه استمر

في القاء محاضراته ومواصلة أبحاثه في علم التشريح في كلية الأطباء ومع انه انتخب مديرا للكلية ، فقد رفض المنصب متعللا بكبر سنه وضعفه ومع ذلك فانه لم يتوقف عن دراسة وتشريح الإنسان والحيوان حتى أواخر أيامه ٠٠ وما الكثير من معلوماتنا في العصر الحاضر الا ثمرة السنوات الطويلة التي قضاها في الدراسة والتجربة ٠ وفي يونيو عام ١٦٢٧ مات هارفي بعد ان بلغ الثمانين من عمره ودفن في همبستيد بمقاطعة اسكس حيث لا يزال قبره قائما ٠

الرســـالة

تتألف رسالة هارفي من مقدمة طويلة ومن سبعة عشر فصلا مبوبا تبويبا مدرجا منطقيا ·

أما المقدمة فسنتناولها بشيء من التفصيل لدلالتها على حالة هارفي الفكرية عندما شرع في دراسته وعلى طريقته في النقد والتحليل · يبدأ هارفي بسرد أقوال من سبقه من العلماء وعقائد العامة وما جرى عليه التقليد ليثبت منها ما يطابق الحقيقة وليصحح الخطأ وهذا عن طريق المقارنة بنتائج التشريح والتجارب المتكررة والملاحظات المضـــبوطة اذ أن المشرحين والأطباء والفلاسفة كانوا مجمعين في تبعيتهم لرأي جالينوس وهو أن حركة النبض والغاية منه لا تختلفان عنهما فيما يخص التنفس · اللهم في أن الأول يتناول الروح الحيواني والثاني يتناول الروح الحيوي · ومن هنا أكدوا — كما أكد ذلك أيضا هيرونيموس فابريسيوس دي أكوابندنتي في الكتاب الذي نشره عن التنفس قبل ظهور المؤلف الذي نحن بصدده أنه بما أن نبض القلب والشرايين لا يكفيان لتهوية القلب ولتبريده فان الرئتين شكلتا للاحاطة بالقلب فيبدو من تلك الأقوال ان كل ما ذكر عن الانقباض والانبساط انما قيل بالاشارة الى الرئتين ولكن بما ان تكوين القلب وحركاته تختلف عن تكوين الرئة وحركاتها ، وبمـــا أن حركة الشرايين تختلف عن حركة الصدر فان هارفي رجح أن لهذه الحركات أغراضا وأفعالا مختلفة ·

ثم يمضي الى سياقة البرهان على ان الأوعية لا تحوي الا دما مستندا الي تجارب جالينوس والى تجاربه الخاصة ويفسر وجود الروح في الدم بأن فصلهما محال كما أن الفصل بين الماء وحرارته محال ·

ثم يمضي في اعتراضـــاته فينكر أنه يمكن الاستنتاج أن النبض والتنفس غرضهما واحد وهذا من ان الظاهرتين تسرعان وتقويان سويا تحت تأثير العوامل المختلفة — وهذا ما قاله جالينوس — اذ أنه يمكن ملاحظة تباين بينهما في حالات يذكرها — كما يهاجم الفكرة القائلة بأن وظيفة البطين الأيمن هي التغذية بينما ان وظيفة البطين الأيسر هي صناعة الروح

الحيوى والحياة — بانيا حجته على تشابه البطينين من حيث تجهيزهما بالألياف وبما يشبه الشدادات وبالصمامات ·· الخ · ومن حيث وجود دم اسود متجلط فى الأذينين عندما تشرح الجثة ومن حيث تشابه عملهما وحركاتهما ونبضهما · ويتساءل لماذا عمل الصمامات ، وهى متشـابهة التركيب ، تارة بالدم وطورا بالروح ، ولماذا يتساوى الشريان الرئوى بالوريد الرئوى فى الحجم ان لم تكن وظيفة كل منهما متماثلة ويعيد سؤال ريالدو كولمبو : « ولم تسرى فى الشريان الرئوى تلك الكمية الضخمة من الدم التى تساوى مجموع ما يمر فى الوريدين الحرقفيين ؟ » ويمضى فى أسئلته : « اذا كان البطين الأيسر يستمد خاماته (دم وهواء) لصنع الروح من الرئة ومن جيوب القلب اليمنى واذا كان يرسل الدم المشحون بالروح الى الأورطا ثم يسحب من الأورطا عينها الابخرة الدخانية ليدفعها الى الرئة عن طريق الوريد الرئوى ، واذا كان الروح يستمد من الرئة ليوصل الى الأورطا فكيف يفصل بين الروح والابخرة وكيف يستورد كل منهما ويصدر عن الطريق نفسه دون حدوث أي اختلاط بينهما ؟ » · ثم يسأل أيضا : « اذا كانت الصمامة المترال تسمح بمرور الأبخرة الى الرئة فكيف تقف فى سبيل الهواء ؟ » ·

وينتهى قائلا : « يا الهى ! كيف تعوق الصمامة المترال ارتداد الهواء ولا تعوق ارتداد الدم ؟ كيف يسندون وظيفة واحدة الى الشريان الرئوى ذى الغلاف الشريانى (أى القوى) بينما يولون الأوردة الرئوية المرنة والرخوة ثلاث أو أربع وظائف ؟ انهم اذ يقولون ان الأبخرة تسرى فى الوريد الرئوى من القلب الى الرئة وان الهواء يسرى فيه من الرئة الى القلب أقول ان الطبيعة لم تعتد تخصيص مجرى واحد لحركات عكسية واذا كانت الأبخرة تتسلل الى الوريد كما تتسلل الى الشعب فلم لا تنطلق من الوريد الرئوى اذا فتح ؟ » ·

وآخر هجوم بشنه هارفى على الأقدمين فى هذه المقـدمة يوجهه الى عقيدة اعتنقها العالم قرونا وأخذها عن جالينوس وان كان ثار عليها ابن النفيس قبله بأربعة قرون وهى الايمان بوجود مسام بين البطينين ·

ويمكن تقسيم حججه الى ست نقاط :

أولا : يؤكد عدم وجود أية مسام فى الحاجز بل أن قوام الحاجز أسمك وأصم منه فى أى جزء فى الجسم عدا العظام والأوتار ·

ثانيا : يفرض جدلا وجود هذه المسام فيسأل كيف ينفذ شىء من بطين الى الآخر اذ أنهما ينقبضان وينبسطان معا ·

ثالثا : يسأل لماذا لا يقال ان الايمن هو الذى يستمد الروح من الأيسر بدلا من العكس ؟ .

رابعا : يستعجب مرور الدم من مسام لا ترى بينما خصصت للهواء مجار واســـعة .

خامسا : ما فائدة الشرايين الاكليلية التى تغذى الحاجز اذا كان الدم يمر فيه .

سادسا : اذا كانت الطبيعة اضطرت فى الجنين ــ وأنسجته رخوة الى تمرير الدم من اليمين الى اليسار عن طريق الفتحة البيضاوية فكيف سهل عليها فى البالغين تمريره دون مجهود عبر الحاجز الذى يزداد صلابة مع السن ؟ .

ويختم هارفى دفعه مستنتجا ، مما يشوب أقوال الاقدمين من قصور وتضارب وغموض ضرورة اعادة النظر فى القضية بأجمعها .

***

سرد هارفى فى الفصل الأول بعد مقدمته الدوافع التى حفزته الى الكتابة وهى حيرته التى شبهها بحيرة أرسطو ازاء مد وجزر نهر يوريوس والنقص فى مؤلف هيرونموس دى أكوابندنت الذى عرض لكل أجزاء الجسم عدا القلب ثم تناول فى الفصول الاربعة التالية مشاهداته فى حركة القلب (فصل ٢) ، وحركة الشرايين (٣) وحركة القلب والأذينين (٤) وعمل القلب ووظائفه (٥) كما تشاهد فى الحيوانات الحية ذاكرا أنه اجرى هذه المشــاهدات على ذوات النبض البطىء كالضفادع والثعابين والأسماك والقواقع وأبى جلمبو والمحار وفى الحيوانات الثابتة الحرارة قبيل وفاتها عندما تبطؤ حركة قلوبها . ولاحظ أن القلب ــ فى وقت ضربة النبض ــ يرتفع ويضرب الصدر وينقبض ويتصلب كعضلات العضد عند الحركة ويشحب لونه ويندفع منه الدم بشدة اذا وخز وهذا على نقيض الرأى المألوف بأن النبض يحدث عند امتلاء القلب وأن حركة القلب الجوهرية هى الانبســـاط وكذلك على نقيض قول فيزاليوس أن الياف القلب موضوعة على شكل حزم متوازية من الصفصاف متى تنقبض تقترب قمتها من قاعدتها فتنبعج جوانبها كالأقواس ويتسع تجويفها ويدخل فيه الـــدم .

أما الشرايين فانه لاحظ أن امتلاءها يقارن انقباض القلب وأنها فى هذا الحين فى حالة انبساط وأن هذا صحيح أيضا فى حالة الشريان الرئوى

والبطين الأيمن كما أن النبض يقف عند توقف البطين ويضعف اذا ضعف انقباضه وأن الدم يندفع بقوة من الشرايين اذا وخزت وقت انقباض القلب وانبساط الشرايين • فاستنتج من هذه المشـــاهدات أن انقباض القلب يعاصر انبساط الشرايين وأن الشرايين تمتلىء كالقرب بدفع الدم الذى يأتيها من القلب وأنها لا تتمدد من ذاتها كالمنفاخ وأن كل شرايين الجسم تتمدد تحت تأثير محرك واحد هو انقباض البطين كما تنتفخ أصابع القفاز معا اذا نفخ فيه وهنا ذكر حالة مريض بورم شريانى فى الرقبة كان نبضه فى الناحية المصابة أضعف منه فى الناحية الأخرى لأن جزءا من الدم تحول الى الورم • أما عن الأذينين فبدأ يقول ان « بوهان » « وريولان » وهما من أوسع الناس علما وأكثر المشرحين مهارة قد وصفا أربع حركات للقلب تمتاز فى المكان والزمان : اثنتين للأذينين واثنتين للبطينين وهو مع احترامه لهما يقول انها أربعة فى المكان ولكنهـــا اثنتين فى الزمان لأن الأذينين متواقتان والبطينين متواقتان وان حركة الأذينين تســـبق حركة البطينين وانه قبيل الوفاة يتوقف البطينان بينما يستمر الأذينان فى الحركة فاذا وضع أصبع على البطين يمكن حس انقباض الأذينين واذا استؤصلت قمة البطين اندفع منها بعض الدم كلما انقبض الأذينان ، الأمر الذى يدل على دخول الدم الى البطين مدفوعا بانقباض الأذينين ليس مجتـذبا بانبساط البطن • ثم أضاف ملاحظات مهمة منها أن قطعا من القلب تستمر فى الانقباض بعد فصلها مدة من الزمن وشبه هذا بعضلات بعض الأسماك كما أشار الى بعض الملاحظات الأخرى عن ظهور حركة القلب فى الأجنة •

ثم عرض نظرية دورة الدم مفصلة فى ثلاثة فصول (الســـادس والسابع والثامن) وهنا لمس سبب حيرة من سبقه وهو العلاقة الوثيقة بين القاب والرئتين وتشعب الشريان الرئوى والوريد الرئوى فى الرئة وضياعهما فيها ، وهو أمر حير العلماء فى تفهم الوسيلة التى يوزع بها البطين الأيمن الدم والتى يستمده بها البطين الأيسر فدفعهم الى فرض وجود مسام بين البطينين • وهذه القضية أفرد لها الفصل السادس حيث بدأ بملاحظات فى التشريح المقارن قائلا ان الدم فى الحيوانات ذوات البطين الأوحد ــ كالاسماك ــ يمر من الأوردة الى الشرايين عن طريق هذا البطين المشترك وبما أن عدد هذا النوع من الحيوان ــ من أسماك وزواحف يفوق بكثير عدد الحيوانات الأخرى فيجب قبول مبدأ عام هو وجود طريق مفتوح لنقل الدم من الأوردة الى الشرايين عن طريق تجاويف القاب على انه قانون عام •

ويتدرج من البرهان المستمد من النشوء القبلى الى النشوء الذاتى ويقول ان علاقة الأوعية المرتبطة بالقلب تختلف فى أجنة الحيوانات ذوات الرئة عنها فى البالغين •

وفى الفصل السابع يقول : انه ليس هناك ما يمنع تسيل الدم من البطين الايمن الى الأوردة الرئوية عن طريق الرئة وشبه هذا بمرور العرق فى الجلد وادرار البول من الكلى بعد شرب كمية من الماء من ان نسيج الكبد والكلى اللذين تمر منهما السوائل أكثف بكثير من نسيج الرئة بالاضافة الى ان نبض البطين الأيمن يدفع الدم بقوة فى الرئة فيوسع أوعيتها ومسامها وأن حركة الرئة فى أثناء التنفس تفتح وتغلق المسام والأوعية كما يحدث فى الاسفنج ٠

وفى الفصل الثامن يقول : انه استنتج بالتأمل فى حجم الأوعية ومن كمية الدم التى تنقل فيها ، ومن قصر الوقت الذى يستغرقه النقل ، ومن استحالة ورود كل الدم من الأطعمة دون ان تفرغ الأوردة أو تنفجر الشرايين اللهم الا اذا وجد الدم سبيلا يسلكه ليعود من الشرايين الى الأوردة ، استنتج من كل هذا وجود حركة دورية للدم ، تحقق منها فيما بعد بالبرهان ، كما تحقق من ان البطين الأيسر يدفع الدم فى الشرايين فيوزعه على أجزاء الجسم كما يوزعه البطين الأيمن فى الرئة ، ثم يمر الدم فى الأوردة والوريد الأجوف ويعود الى البطين الأيسر ، وبهذه الطريقة تغذى الأنسجة بدم دافىء لطيف كامل مشبع بالغذاء ٠ وبالعكس فان هذا الدم فى الأنسجة يصبح باردا متجلطا نافذ المفعول فيعود الى القلب ليستعيد الكمال ٠

وفى الفصل التاسع يتناول هارفى المسألة بالحساب ، واستعمال الحساب عند العرض للمسائل الحيوية هى بدعة ابتدعها ، فيقدم ثلاثة براهين وهى :

أولا : أن الدم ينقل دون انقطاع من الوريد الأجوف الى الشرايين بكمية لا يمكن ان تتوفر من الأطعمة ٠

ثانيا : أن الدم يدفع فى مجرى مستمر ومتساو غير منقطع فى كل عضو من أعضاء الجسم بكمية تفوق بكثير حاجتها الغذائية ، كما أنها تفوق ما توفره كمية السوائل بأجمعها ٠

ثالثا : أن الأوردة تعيد هذا الدم بالطريقة نفسها ٠ ثم يفترض هارفى أن سعة تجويف القلب عند امتلائه أوقيتان من الدم وان ربع أو حتى ثمن هذه الكمية يخرج منه مع كل نبضة ، فان القلب بعد نصف ساعة يكون قد ضرب أكثر من ألف ضربة وأحيانا أربعة آلاف ، وتكون بهذا كمية الدم المطرودة نحو ألف مرة نصف أوقية أى كمية تفوق ما يحويه الجسم

بأجمعه ، ثم يفرض جدلا ان هذا لا يحدث الا مرة واحدة يوميا فانه مازال واضحا ان كمية الدم التى تمر فى القلب تفوق كل ما يدخل الجسم من طعام أو كل ما تحويه الأوردة وهذا يفسر امكان تفريغ جسم الحيوانات مما تحويه من دم فى وقت قصير بفتح شريان ، كما يفسر الظاهرة التى دعت الأقدمين الى الاعتقاد بأن الشرايين لا تحوى الا روحا فى أثناء الحياة ، اذ أن الشرايين فارغة بعد الموت بينما الأوردة ممتلئة ، هذا الى أن الدم لا يمكنه المرور من الأوردة الى الشرايين بعد أن تنقطع حركة الرئة ، ولكن بما ان القلب يستمر فى النبض بعد وقوف الرئة فان البطين الأيسر يستمر فى تفريغ الدم فى الشرايين دون أن يصل اليه شىء منه ، وهذا هو السبب أيضا فى توقف الأنزفة فى حالة الاغماء عندما تضعف حركة القلب ، وفيما يجده القصابون من صعوبة فى جمع الدم اذا لم يسرعوا فى فتح رقبة الثور بعد ضربه على رأسه قبل أن يتوقف قلبه ·

أما الفصول العاشر والحادى عشر والثانى عشر فان هارفى يصف فيها تجربة ربط الوريد الأجوف فى الثعبان ، وهى العملية التى يتبعها فراغ الجزء الموجود بين موضع الربط وبين القلب ، وزوال اللون الأحمر من القلب ، وانكماش حجمه لقلة الدم الموجود فيه ، وكل هذا يعود الى أصله اذا ما فك الرباط · أما اذا ربط الشريان فان الجزء الموجود بين القلب وموضع الربط يمتلىء حتى يكاد ينفجر ويزيد لونه احمرارا ، وفى هذا دليل على ان أسباب الموت على نوعين : الوفاة بالنقص والوفاة بالاختناق أو الامتلاء ·

وفى الفصل الثالث عشر يفسر اتجاه مرور الدم من الأطراف الى القلب فى الأوردة على أنه نتيجة لوجود صمامات فى الأوردة ·

وفى الفصل الرابع عشر سرد نظريته فى الدورة الدموية ·

ولم يفت هارفى ــ وهو كما رأينا قد تشبع بالنزعة التجريبية ــ ان يدعم بالحجج المألوفة فى ذاك الزمن وقد ساق تلك الحجج فى الأبواب الثلاثة التى ختم بها ليبرهن بها على ان الدورة ضرورية :

اولا : القلب منبع الحرارة والحيوية فيجب ان يعود الدم اليه بعد تبريده فى الأطراف ليستعيد حرارته ·

ثانيا : ان القلب هو المخزن المركزى الوحيد الذى يوزع الدم على كل عضو بالنسبة الواجبة وهى نسبة يحددها حجم الشريان الذى يغذى العضو ·

ثالثا : ان توزيع الدم وحركته يحتاجان الى محرك هو القلب ·

وفى الفصل السادس عشر يستنتج الدورة لملاءمتها لبعض الملاحظات: كالتى تتعلق بالجروح المسمومة وعض الثعابين والحيوانات المصروعة والعدوى بالزهرى .. الخ حيث يصاب الجسم بأكمله بينما يبدو محل العدوى سليما الأمر الذى يدل على سير العدوى عن طريق الدم الى القلب الذى ينشرها فى الجسم أو كالتى تتعلق بتأثير العقاقير على الجسم عند استعمالها من الخارج بسبب امتصاصها فى الأوردة كما تمتص الأطعمة من الأمعاء .

أما الباب السابع عشر وهو الاخير فهو باب فى التشريح المقارن يبدأ فيه فيقول ان الحيوانات البدائية كالديدان ليس لها قلب لبرود طبعها وصغر حجمها وتساويها فى القوام لأنها لا تحتاج الى محرك بل انها تمتص وتطرد بحركة من جسمها بأكمله كأن الجسم يستعمل على نحو قلب .

أما فى غير هذه الحيوانات فان القلب يزيد فيها حجما وتعقيدا ويزيد عدد تجويفها كلما زاد حجم الحيوان وكمية دمه حتى ان أكملها يحتاج الى بطين ثان والى رئتين وكلما وجدت رئتان ، وجد بطين أيمن وهذا لايوجد ان لم يوجد أيضا بطين أيسر ثم أومأ الى ان البطين الايسر أسمك واضخم واقوى من الأيمن وان الشدادات والعصائب اللحمية فيه أسمك فى البالغين وفى الذكور وفى ذوى الأجسام القوية العضلات منها فى غيرهم وهذا لأن مجهوده فى توزيع الدم للجسم كله أكبر من مجهود البطين الأيمن .

وبعد هذا يتأمل فى الصمامات التى لاتسمح بمرور الدم الا فى اتجاه واحد ثم فى الاذين وبخاصة فى الاذين الأيمن الذى سماه المحرك الأول للقلب (وهو فى هذا أصاب اذ أن مركز حركة القلب موجود فى البطين الأيمن)وفى هذا الجزء من تاملاته اظهر معرفة مستفيضة بعدد ضخم من الحيوانات ثم قال ان حجم الاذين بالنسبة الى البطين أكبر فى الجنين منه فى البالغين كما ان الاذين ينشأ قبل البطين لأن الجنين الصغير لايحتاج الى بطين وان الطبيعة لاتخلق عضوا الا اذا كانت خصصت له وظيفة .

وانتهى مؤكدا مع أرسطو ان القلب ملك الجسم فانه يتكون فيه قبل غيره . ويملك أقوى سلطة . وهو الأصل والمنبع لكل قوة .

★★★

وقد نتج عن نشر هذا المؤلف خلاف بين معاضديه وأعدائه من علماء وفلاسفة وكتاب تردد صداه أكثر من نصف قرن فقد أخذ بنظرياته فى انجلترا « هايمور » و « لوور » · وفى الدانمرك أقرها « نيلزستينسن » وفى هولاندا « سيلفيوس » وفى ألمانيا « كونرنج » ولكن موافقة هولاء العلماء الممتازين لم تمنع التقليديين من شن حملة تهكم على الانتقاد التافه والحجج الخاطئة ·

وأول من هاجمه فى انجلترا « برمروز » سنة ١٦٣٠ الذى اتهمه بالاقتباس والنقل وفى ايطاليا قال « جيوفانى دلاتورى » عن نظريته انها فضيحة رجل يحاول هدم عقائد تتصف بالكمال ونظـــريات تدعو الى الاعجاب ، وقال عنها « باتان » فى فرنسا انها خاطئة وضارة ومنافية للعقل · ومن الطريف أن الأدباء انحازوا له فى المعركة فسخر « بوالو » و « موليير » من أعدائه ايما سخرية وعلق « باسكال » قائلا : « اننا اذا ما اعتدنا الاستعانة بالبراهين الخاطئة عجزنا عن قبـــول البراهين الصائبة عند الكشف عنها » ·

ولنضرب مثالا للنضال العنيف الذى هز الدوائر العلمية فى ذاك الوقت بما حدث فى باريس فان ريولان الذى ذاع صيته فى عهد لويس الثالث عشر وتقلد منصب عميد أطباء باريس وطبيب الملكة الوالدة الأول استمر يلقى على تلاميذة نظريات أبقراط وجالينوس غير مكترث بنظريات هارفى أو من سبقه فيها أمثـــال « سرفتوس » أو « كولومبـــو » أو « سيزالبينـــو » ولـــكن لويس الرابـــع عشر تبنى النظـــرية الجديدة بتأثير « داكين » فأمر « ديونيس » جراح الملك الأول بتدريس الحقائق التشريحية الجديدة بالاستعانة بالتشريح على رغم مقاومة شديدة ممن دعوا احتكار تعليم التشريح · وأصدر الملك أمرا عن طريق البرلمان سجل سنة ١٦٧٣ باجراء العمليات التشريحية والجراحية فى الحديقة الملكية بأبواب مفتوحة وبدون طلب أى أجر لمشاهدتها كما أمر بتفضيل من يقومون بهذه الدروس عند توزيع الجثث وقد نشر ســـــنة ١٦٩٠ ديونيس مؤلفا أسماه « تشريح الانسان طبقا للدورة الدموية » وهذه التسمية تدل على مدى النفوذ الذى اكتسبته النظرية الجديدة ··

البخيل

موليير

١٦٦٨م

من المؤكد أن القرن السابع عشر هو العصر الذى حصل فيه الغرب على تراثه المسرحى الحقيقى ، فقد افتتحه شكسبير واختتمه موليير ومما يدعو الى العجب ان ثمة مقارنات تدعو الى التقريب بين هذين العملاقين من عمالقة المسرح • كما انه فضلا عن أوجه الشبه بينهما فان الأسطورة والخرافة تثيران بالنسبة لهما تساؤلات متشابهة ، ومن جهة أخرى فبينما يشكك بعض الباحثين فى حقيقة شخصية شكسبير نجد آخرين يدعون ان « موليير » لم يكن سوى اسم مستعار يخفى وراءه مجموعة من المؤلفين لم تكن مواهبهم لتكتسب شهرة عن طريق المسرح ! وزيادة فى السخرية أو التنبؤ التاريخى كان لابد ان تكون هاتان العبقريتان قد نبعتا من أكثر الطبقات تواضعا فى عصريهما فالأول ابن جزار والثانى ابن بائع سجاد !

★★★

وهناك تواريخ ليس من حق البشرية ان تجهلها هى تلك التى تشير الى أهم الأحداث التى تخللت حياة العباقرة ، ذلك لأن الانتاج الانسانى الفذ لا يجب ان ينسى ظروف الحياة التى نبع منها والتى يمكن ان تكون زاخرة بالعبر والدروس • وحياة موليير تضم بعض هذه التواريخ : انها تقع فى نصف قرن من الزمان • واذا كان التاريخ قد سجل بدايتها (١٦٢٢) فلأنه أجبر على تسجيل نهايتها (١٦٧٣) ! فما أهمية تاريخ ميلاد انسان لم يترك أثرا يشعر بفداحة الرزء حين يموت ؟ وبين عام ١٦٢٢ الذى أدرك فيما بعد أنه كان ايذانا بقرب مولد الكوميديا الحقيقية فى فرنسا وعام ١٦٧٣ الذى اتضح فيما بعد كذلك انه كان نذيرا بموت هذه الكوميديا ، أقول ان بين هذين التاريخين تقع عدة تواريخ أخرى بالغة الأهمية فى حياة الأدب والفن •• هى تلك التى اتحف فيها موليير الأدب والمسرح العالميين بسبع أو ثمان من أروع رواياته •

وحياة موليير لاتزال موضوعا لكثير من الآراء المتناقضة وربما كان من العوامل التى لاتعين على معرفة الكثير عنها بالدقة خلو انتاجه من التفاصيل التى تتعلق بها •• كل ما نعرفه عن طفولته وصباه هو ان جان باتيست بوكلان ولد فى باريس وان أباه كان يجمع بين الانجار فى السجاد ووظيفة خادم للملك وانه درس على يد اليسوعيين فى كلية كليرمونت ثم درس الحقوق فى أورليان كما تتلمذ فى دراسة الفلسفة على

جاسندى الذى حببه فى الشاعر اللاتينى لوكريس وانه اشتغل بالمحاماة فترة قصيرة لم يترافع خلالها سوى مرة واحدة وانه اندفع نحو المسرح بميل طبيعى قوى لم يستطع مقاومتــــه ويقـــال انه فقد أمه وهو فى الحادية عشرة من عمره وان أباه كان فظا بخيلا وان جد لأمه لويس كريسيه هو الذى غرس فيه حب المسرح اذ كان يصطحبه دائما الى المسارح التى يغشاها وفى كل مرة كان جان بوكلان يشهد فيها احدى الروايات كان يعود بعدها الى بيته ممتقع اللون ويغرق فى تفكير عميق يزيده سخطا على مهنته • ويقال كذلك انه حين قرر التفرغ للمسرح لقى معارضة شديدة من والده الذى لجأ الى شتى الوسائل لثنيه عن عزمه : بذل له الوعود ثم عمد الى الوعيد ثم عهد بمهمة انتزاع فكرة المسرح من ذهنــه الى أستاذ قديم له يدعى جورج بينيل والطريف — وهذا يقال أيضــا — ان الفتى لم يكتف بالرسوخ أمام مساعى معلمه القديم وانمــا وفق فى اقنـاعه بالعمـــل معـــه !

وفى يونيو ١٦٤٣ اتفق « جان باتيسد » مع ثلاثة أفراد من أسرة بيبجار (جوزيف ومادلين وجنوفييف) وعدد آخر من الرفاق (سبعة) وأستاذه القديم بينيل (الذى سمى نفسه لاكوتير) على انشـــاء فرقة مسرحية أطلقوا عليها اسم « المسرح العظيم الفخم » وهنـــا سمى جان باتيسد نفسه « موليير » وظلت الفرقة تستأجر المسرح تلو المسرح وتصاب بالاخفاق تلو الاخفاق الى أن أبهظتها الديون واستحال بقاؤها فى باريس • كان موليير مديرها الفعلى بالرغم من حداثة سنه ويقال انه سجن مرتين بسبب الديون التى كانت تثقل كاهلها وجمعت الفـــرقة أمتعتها ولاذت بالريف فى أواخـــر عام ١٦٤٥ ولم ترجـــع الى باريس الا بعد ثلاثة عشر عاما عرفت خلالها حياة التجول •• وأعجب بموليير أمير كونتى زميله القديم فى المدرسة فأراد ان يعينه سكرتيرا له ، لكنه رفض بدافع من حبه لمهنته وتعلقه بفرقته وحرصه على اســـتقلاله • فى احدى جولات الفرقة فى روان حصل موليير على اذن من دوق أورليان — شقيق الملك — بأن يمثل فى باريس أمام الملك • وفى ٢٤ أكتوبر ١٦٥٨ قدمت الفرقة فى قصر اللوفر مأساة لكورنى وملهاة هزلية من تأليف موليير هى الدكتور المحب • وأعجب لويس الرابع عشر بالفرقة فسمح لها بأن تستقر فى باريس وبأن تسمى نفسها « فرقة شقيق الملك » وان تقدم حفلاتها فى مسرح البوربون الصغير بالتناوب مع فرقة الايطاليين وحين أزيل مبنى هذا المسرح فى عام ١٦٦٠ تغير اسم الفرقة باذن من الملك فصار (الفرقة الملكية) وانتقلت الى « صالة » ملحقة باللوفر كانت مخصصة لحفلات القصر كما كانت تعار فى بعض الأحيان لهذه الفرقة أو تلك من الفرق الباريسية •• وظل موليير يمثل فيها الى ان توفى

فاتحدث فرقته مع فرقة ماريه ثم حدث توحيد جديد يأمر بادماج فرقة بورجوني فكان ميلاد فرقة الكوميديا فرانسيز أو « المسرح الفرنسى » (١٦٨٠ ـ بعد وفاة موليير بسبع سنين) .

في عام ١٧٤٠ سئلت ابنة الممثل الكوميدى بواسون عن أوصاف موليير وكانت في شيخوختها واعتمدت في ردها على ما وعتـــه ذاكرتها قالت : « ليس بالضخم ولا بالنحيف .. أقرب الى الطول منه الى القصر .. يمشى بخطى ثابتة .. أســـاريره جادة .. أنفه وفمه كبيران .. شـفتاه غليظتان لونه خمرى .. حاجبـــاه كثيفـان .. دمث ، مجامل ، كريم .. » ولنتوقف قليلا عند هذه الصفات الأخيرة فلقد أكدتها فعلا شهادة المعاصرين .. ان لحسن حظ الانسانية أن تقترن العبقرية في معظم الأحيان بالسمو الخلقى . كان موليير معتل الصحة تعسا في حياته الزوجية ينوء بشتى أنواع الهموم ولكنه كان كبير القلب وكفى .. يقول عنه زميله في التمثيل لاجرانج انه كان يتميز بجميع الصفات التى تجعل منه رجلا شريفا حقا .. ويكتب ممثل آخر اسمه بريكور بعد وفاة موليير مسرحية من وحى حيـــاته « ظل موليير » يقول : « لقـــد كان (موليير) في حياته الخاصة كما كان في مغزى مسرحياته : شريفا صادق الحكم انسانا صريحا كريما .. » ولعل من أبرز صفاته كذلك صداقته النادرة . وتاريخ الأدب يسجل أواشج الود الخالص الأكيد التى ربطت بينه وبين كثيرين من كبار معاصريه أمثال بوالو وراسين وشابل ولافونتين وكورنى بل يسجل كذلك انه لم يمزق صداقته لراسين حين تنكر له مع انه كان قد أحاطه برعايته في مستهل حياته الأدبية (انتزع راسين من فرقة موليير واحدة من أكبر ممثلاتها هى الآنسة دى بارك كما استرد منها تراجيديته « الاسكندر » وعهد بتمثيلها الى فرقة أخرى منافسة هى فرقة بورجونى .

وكان موليير كريما فعلا والى حد السخاء وتدل على ذلك شـــواهد عديدة تسجل أنه أعان في حياته أناسا كثيرين بل ان هذا السخاء اتخذ شكلا أسطوريا يحكى أنه صادف ذات مرة في الطريق رجلا معوزا فدس في يده قطعة نقود .. ولم يكد يدير ظهره حتى نظر الرجل اليها فوجـــدها من الذهب .. فأسرع الى موليير وقال له : « لعلك لم تتعمد اعطائى هذه القطعة الذهبية ولذا فانى أردها اليك » ولكن موليير رد عليه قائلا : « خذ ياصديقى هاك قطعة أخرى » وصاح قائلا : « أين ستعشش الفضيلة ؟ » .. وحين تجهم القدر لأبيه في شيخوخته لم يتردد في ان يمد اليه يد المساعدة ! لقد تناسى أن أباه هذا كان قد ضن عليه بجزء من ماله الوفير يوم كان المسكين يتخبط في مستهل حياته العملية ويوم تركه يدخل السجن الذى زج به الدائنون اليه .

وزواج موليير من أخطر الأحداث التى أثرت في حياته · كان فى الأربعين من عمره حين تزوج من فتاة تصغره بثلاثة وعشرين عاما كان قد عرفها وهى فى مهدها هذه الفتاة وهى أرماند بيجار شقيقة زميلته فى الفرقة مادلين ولم يكن فارق السن هو المظهر الوحيد لعدم توافق الزوجين فقد كانت أرماند ـ وهنا العنصر الهدام فى حياتهما ـ تافهة الى حد الحمق عابثة الى حد التهتك وكانت حياة موليير معها سلسلة من الخلافات العنيفة ومصدرا لتجهمات جائرة ·· وكثر القيل والقـــال وتواترت الاشاعات الى حد ان ممثلا بفرقة بورجونى (المنافسة لفرقة موليير) بعث الى الملك برسالة اتهم فيها موليير بأنه متزوج من ابنته التى أنجبها من خليلته السابقة مادلين بيجار ·· على ان الشىء الذى يعنينا هو ان زوجة موليير لم تكن جديرة به وان بعدها عن مستوى عبقريته وعبثها الدنىء قد سمما حياته وأصاباه بتعاسة دائمة ·

وظل موليير ينوء بحياته الخصبة والمريرة معا : يدير أكبر فرقة مسرحية فى باريس ويؤلف لها المسرحية تلو الأخـرى فى سرعة فائقة (ثلاث مسرحيات فى النصف الأول من عام ١٦٦٨) ويقوم بتمثيل الدور الأول فى كل منها ·· وكل ذلك فى جو خانق من القلق والضيق يضاعف تسممه التهاب رئوى وسعال حاد متقطع · وقبل وفاته بشهرين أشفق عليه صديقه بوالو فحاول اقناعه بالكف عن التمثيل وبالاكتفاء بالتأليف ولكن موليير رفض ان يتخلى عن فرقته وان يتوقف عن تأدية رسالتـــه كاملة ·· وأقبل ذلك اليوم المشئوم فى حياة الأدب والمسرح ١٧ فبراير ١٦٧٣ ·· كانت « الفرقة الملكية » تمثل مسرحية « مريض الوهم » للمرة الرابعة اشتدت العلة على موليير وهو يقوم بدوره بشكل لحظه الجمهور ولكنه بذل من الجهد الجهيد ما مكنه من مواصلة دوره حتى نهايته وهنا نقل الى بيته ولم يكد يأوى الى مضجعه حتى أخذ سـعاله يتضاعف فى عنف أدى الى انفجار أحد شرايين رئتيه ففقد النطق وتدفق الدم من فمه · ثم قضى نحبه فى نفس الليلة وظل رجال الدين حانقين عليه حتى بعد وفاته اذ بقيت مسرحيته « طرطوف » ماثلة فى مخيلاتهم : تباطأ القس الذى استدعى فى المجىء ولم يصل الا بعد الحاح طويل وحين كان موليير قد فارق الحياة ورفضت كنيسة « سانت أوستاتش » أن يدفن كالمسيحيين وتحرج الموقف واضطرت زوجته الى الإلتجاء الى الملك ملتمسة منه التدخل لدى كبير أساقفة باريس ونجحت مساعى لويس الرابع عشر بعض النجاح اذ أذنت الكنيسة بالدفن على ان يتم ليـلا بدون صـــلاة على الجثمان ولا احتفال دينى ! ·· سخرية من سخريات القدر ! ولكن أفظع منها ان يحتوى يوم العبقرى ـ كيوم كل الناس ـ على أربع وعشرين ساعة وان تنتهى حياة عبقرى كموليير وهو فى الحادى والخمسين من عمره !!

الانسانية من خصائص عبقرية موليير

من الغريب أن موليير وهو مبتكر الفن الكوميـــدي الحقيقي في فرنسا كان يميل الى التراجيديا وربما كان مرد ذلك الى تعاسة في الحياة الا ان مأساته « دون جارسيا دونافار » أصيبت بفشل ذريع كان بمثابة انذار حض موليير على العـــدول عن التراجيديا والحق أنه خلق للفن الملهوى : حدث حين عاد بفرقته الى باريس اثر رحلته الطويلة في الريف أن مثل مسرحيته الشهيرة « المتحذلقات المضحكات » واذا برجل سمين لايتمالك نفسه من الاعجاب فيطلق هذه الصيحة التى دوت فى أرجـــاء المسرح : « تشجع تشجع ياموليير هاهى الكوميديا الحقيقية » .. لقد كانت تلك المسرحية تبشر بثورة من أجل الذوق السليم .. هذا العبقرى الذى صور عادات عصر اكتشف فى الوقت نفسه خبايا النفس البشرية . أدبه اذن عالمى بقدر ما هو فرنسي يقول سانت بيف : « ان أهم خصائص عبقريته هى الانســـانية الأبدية المرتبطة ارتباطا وثيقا بتصوير عادات عصره وان ملابس شخصياته تخفى تحتها الانسان فى كل العصور » .

وموليير يختلف اختلافا بينا عن كل من سبقه من كتاب المسرح . يختلف عن كتاب الاغريق والرومان وعن كتاب العصور الوسطى والقرن السادس عشر وعن الكتاب الذين ســبقوه مباشرة يختلف مثـــلا عن أرستوفان لأن ارستوفان صور شعب أثينا أكثر من تصويره الانســـان العالمى بشجاعة نادرة وهجاء بليغ الأمر الذى يمنح مسرحيـــاته قيمـة تاريخية تجعل منها ما يشبه الوثائق عن عهد صاخب من عهود الديمقراطية الاثينية .. اما موليير فقد تصدى للعيوب والرذائل التى تصيب البشرية فى جميع البلاد وجميع الأزمان .. ويختلف عن بلوت لأن كوميديا بلوت ـ هى الأخرى ـ هجاء اجتماعى ينصب على اطار محلى هو المجتمع الرومانى فى عصره صحيح ان لهذه الكوميديا طابعا مبتكرا هو ثأرها للعبيد من سادتهم (عزا بلوت الى العبيد الذكاء والشرف والى السادة الحمق وأحيانا الخسة) الا ان انتاج موليير يدخل فى اطار أوسع يضـم القصر والمدينة والقرية فضلا عن بهو طويل يحتوى على العديد من آفات البشرية .

نعم يقال ان ميناندر درس القلب الانسانى واستطاع ان يصور الحياة البشرية الا ان أباطرة بيزنطة حرقوا أهم انتاجه استجابة لتوجيه

رجال الدين . اذن فمن العبث ان نبحث عن أوجه شبه بينه وبين موليير أو ان يزعم أحد ان موليير قد اقتدى به .. ويختلف عن تيرانس لأن كوميديا تيرانس ينقصها الابتكار والجسارة وتشبه الخرافات اليونانية أكثر من تصويرها للمجتمع الرومانى فى عهد وتصلح للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل . ان موليير يتفوق على هؤلاء جميعا لأن لديه أبرز خصـــائص فنونهم جميعا ويزيد : فنه هو يتميز بنزعة هزلية كنزعة (ارستوفان) وبجسارة ومرح شبيهين بجسارة وملامح (بلوت) وبرقة تذكر برقة (تيرانس) ولكنه يبزهم جميعا بما خلق من نماذج بشرية تصور طبيعة الانسان فى أبرز ملامحها ..

ويختلف موليير كذلك عن كتاب المسرح فى العصور الوسطى لأن المسرح فى تلك الحقبة كان دينيا فى جوهرة .. ويختلف عن كتاب القرن السادس عشر لأن كوميديا هؤلاء الكتاب ، صـــحيحا لم تكن مصطبغة بصبغة دينية ولكنها كانت فى دور التكوين بحيث يستحيل عقد أية مقارنة بينها وبين فن موليير الأصيل .. ويختلف عن أسلافه المباشرين من مقلدى المسرح الأسبانى أمثال هاردى وتيوفيل وسكوديرى وسكاردون لأن انتاجهم كان ينبع من الخيال أكثر من اعتماده على الملاحظة ويخلو من تحليل للشخصيات ويزخر بالمواقف الغريبـــة المعقدة التى يتحتم على الانسان ان يلغى عقله ان أراد تصديقها ، ثم انه يختلف عن كورنى صاحب ملهاة « الكذاب » ، وبالرغم من ان موليير يعترف بأن هذه المسرحية هى التى دلته على الطريق الحقيقى الذى كان عليه أن يســلكه ، فشتان بين كوميديا موليير وكوميديا كورنى فبهذه الأخيرة تصــور عادات بشرية تختلف باختلاف الناس وتضم مواقف غريبة ملغزة وشخصيات لا تتكلم باسم خالقها وانما كثيرا ما يتكلم المؤلف باسمها ..

وقد كتب موليير قرابة ثلاثين مسرحية أجودها ــ عدا « البخيل » ١٦٦٨ ــ (المتحذلقات المضحكات » ١٦٥٩ « طرطوف » ١٦٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ « المتزمت » ١٦٦٦ « البرجوازى الشريف » ١٦٧٠ « النساء العالمات » ١٦٧٢ « مريض الوهم » ١٦٧٣ .

★★★

المسرحيـــة

وأحداث مسرحية البخيل تدور في باريس وأهم شخصياتها : البخيل هارباجون وابنه كليانت وابنته ايليز وشريف من نابولى يدعى انسـيلم وابن هذا الشريف فالير وابنتـه ماريان وسمسـار يدعى السيد سيمون وامرأة تقوم بدور « الخاطبة » تدعى فروزين والسيد جاك وهو فى خدمة هارباجون يجمع بين وظيفتى « عربجى » و « طباخ » وخادم كليانت واسمه لافليش .

الموضوع هو تصوير البخيل .. والأحداث تتأتى بمشروعات الزواج التى يكونها هارباجون من ناحية وتلك التى تداعب خيـال ابنه وابنته من ناحية أخرى .. والبخل هو المحور الذى تدور حوله كل هذه الأحداث .. والعقدة تتكون فى اللحظة التى ينبىء فيها هارباجون ابنيه بمشروعاته المتعلقة بالزواج والحل يتم فى النهاية بتدخل الشريف انسيلم .

فى الفصل الأول : تتفق ايليز مع فالير على الزواج وتدبر معه حيلة يدخل بها فى خدمة أبيها فيقبله هارباجون فى وظيفة مدير لشئون بيته بدون أجر ويرغب كليانت – من ناحيته – فى الزواج من ماريان ولكى يتحقق مشروعه يصطدم بشح أبيه .. انه هارباجون يمتلك مالا وفيرا يخفيه فى صندوق ويخشى ان يكتشفه أحد .. ويستوثق البخيل من ان ماله لم يمس ثم يعود ليطلع ايليز وكليانت على مشاريعه : انه يعتزم أن يتزوج هو من ماريان وان يزوج ابنته من الشريف انسيلم الذى سيعفيها من المهر وأن يزوج ابنه من أرملة غنية !

وفى الفصل الثانى : يبحث كليانت عن وسـيلة لاقتراض بعض المال .. ويسعى خادمه لافليش لتدبير هذا المال بمسـاعدة السمسار السيد سيمون .. ثم يجمع هذا السمسار الشاب بالمرابى الذى ارتضى اقراضـه ما يريد بعد أن فرض شروطا قاسية واذا بكليانت يجد نفسه أمام أبيه وجها لوجه فالمرابى ليس سوى هارباجون نفسه .. وبعد ان يحتدم النقاش بينهما يعود هارباجون إلى بيته ليلتقى بالوسيطة فروزين التى أقبلت لتطلعه على نتائج مساعيها المتعلقة بمشروع زواجـه من ماريان ولتبتز منه بعض المال بفضل تقريظها وتملقها وما تسوق من

أنباء مضللة ٠٠ لقد وفقت فى انعاش مزاج هارباجون ولكنها أخفقت فى الحصول منه على قطعة واحدة من النقود لأنه أصم أذنيه فغادرته وهى تدعو عليه بأن « تخنقه الحمى » ٠

وفى الفصل الثالث : يوافق هارباجون على ان يقيم وليمة احتفالا زواجه من ماريان ! على ألا تكون هذه الوليمة باهظة التكاليف ويظهر شحه الشديد فى التوصيات التى يدلى بها الى خدمه وابنيه ٠٠ وتصطحب فروزين ماريان الى بيت هارباجون ولاتكاد هذه الأخيرة تطل على وجهه حتى تتقزز من دمامته ٠٠ وتدهش الفتاة اذ تجد الابن — وهو غريم أبيه حاضرا ٠٠ الا ان هارباجون يجهل مشروع كليانت ٠٠ وتسعد ماريان بهذا الالتقاء ويمعن كليانت فى الاهتمام بها والاشادة بحسن اختيار أبيه بعبارات يصب فيها اعجابه هو بطريقة بليغة تفطن الفتاة الى مغزاها ٠٠ ويلمح الخاتم الكبير الذى فى أصبع أبيه فيخلعــــه فى رفق ليريه لماريان وما أن استقر فى أصبعها حتى يتوســـــل اليها ان تحتفظ به كهدية من صاحبه ! ويمتقع لون البخيل لكنه لايملك ان يقول شيئا أمام الفتاة وان كان قد كال لابنه أقذع السباب فى الخفاء ٠

وفى الفصل الرابع : يرتاب هارباجون فى نيات ابنه كليانت اثر موقفه ازاء ماريان فينفرد به محاولا أن ينتزع منه اعترافات تكشف له الأمور ٠٠ يسأله عن رأيه فى ماريان فيجيب بأنها مدللة ضحلة الذكاء تافهة العقلية ٠٠ ويتصنع هارباجون الأسف : ان التفكير هداه الى الاقلاع عن مشروع زواجه من ماريان بسبب الفارق الكبير فى العمر بينهما ولقد حسب ان ابنه أكثر لياقة منه ٠٠ هنا يعترف كليانت بما بينه وبين ماريان من حب متبادل ٠٠ ويطير صواب هارباجون ويدور بينه وبين ابنه حوار عاصف ٠٠ وتسود الدنيا فى نظر كليانت ثم يتلألأ الأمل فى نفسه : فها هو خادمه « لافليش » يهرول اليه ويلقى فى أذنه بنبأ خطير : لقد سرق الصندوق الذى يحوى مال البخيل حين كان هارباجون منهمكا فى حديثه مع كليانت وهو يضعه تحت تصرف سيده ليعينه على بلوغ مرماه ٠٠ ثم يظهر هارباجون بعد أن اكتشف السرقة ٠٠ انه فى حالة يرثى لها وهو يرعد ويزبد ويتوعد الدنيا كلها بل يهدد نفسه بالشنق ان هو لم يعثر على ما سرق منه ٠

وفى الفصل الخامس : يفتح التحقيق فيتهم هارباجون الناس جميعا ٠٠ ويبدأ رجل الشرطة مهمته باستجواب السيد جاك الذى يوجه الريبة نحو فالير — (مدير شئون البيت) لأنه لم يكن على وئام معه — اذ يدعى انه أبصره فى الحديقة (حيث كان يوجد الكنز) ٠٠٠

ويلوم هارباجون فالير على استغلاله طيبته ودخوله بيته بنية خيانته. هنا يقع التباس غريب ·· هرباجون يتكلم عن خزانته وفالير يتكلم عن محبوبته ايليز ·· ثم يفطن البخيل الى ما يعنيه فالير بقوله : « انه على استعداد لأن يموت من أجل عينيها الجميلتين » فتتضاعف ثورته ضد فالير الذى يغضب بدوره فيكشف عن شخصيته الحقيقية : انه ابن شريف من نابولى يسمى دون توماس دالبورسى · ويقول انسيلم لفالير انه صديق لذلك الشريف ويطلب اليه اثبات ما يزعم ·· ويظهر فالير خاتما صغيرا من الياقوت وسوارا من العقيق (كان فالير قد حاول عبثا العثور على أبيه بعد ان نجا من الغرق) ·· وتسمع ماريان وترى فتعانق فالير ، انه أخوها ويعانقه انسيلم انه أبوه ! ويطلب هارباجون الى انسيلم أن يدفع قيمة « ما سرقه منه فالير » ! ·· ولا تكشف حقيقة السرقة الا حين يعود كليانت فيعترف بأن الصندوق لديه ويشترط لرده أن يوافق أبوه على زواجه من « ماريان » وتتدخل « ماريان » فتطلب ان يوافق « هارباجون » كذلك على زواج « فالير » من « اليزا » ويفرض البخيل بدوره شرطا : ان يستوثق قبل موافقته من أن يدا لم تعبث بما تحويه خزانته ·· ويخطر « انسيلم » « والد فالير » بأنه لن يستطيع منح ابنته مهرا ·· ويحتم عليه أن يتكفل بنفقات الزواجين ·· ويوافق « انسيلم » على جميع شروط « هارباجون » بما فى ذلك تكفله باعداد ملابس جديدة ليرتديها البخيل فى حفل الزفاف ! ·· وتعم السعادة جميع الحاضرين الا شخصا واحدا هو رجل الشرطة الذى يأبى « هارباجون » ان يدفع له « أتعابه » ·· ويرتضى « انسيلم » ان يتولى هو دفع هذه الأتعاب بينما يصيح « هارباجون » فى نشوة الفرح : « وأخيرا فانى ذاهب لأعيد النظر الى خزانتى ! » ·

تدهور الغرب
اشبنجلر
١٩١٨م

يعد اشبنجلر (١٨٨٠ – ١٩٣٦ م) الفليسوف الألمانى من القلائل ذوى النظرة الأصيلة الى التاريخ فلم يكن هذا الفيلسوف ناقلا عن غيره أو متـــأثرا بأحـــد ســوى جوته ونيتشــه حينما أعلن رأيه فى التاريخ والحضارة بل كان فى كل ما قاله فى تحليلاته . ولهذا فقـــد كان له تأثير بالغ على من أتوا بعده من فلاسفة التاريخ وخاصة أرنولد توينبى .

ولقد أثارت انتقاداته المختلفـــة للنظريات الأخـــرى فى التاريخ فعلها فى تقويض تلك النظريات وقد استفاد اشبنجلر من اطلاعه الواسع فى التاريخ ومن تخصصه فى العلوم الطبيعية والرياضـــية فى تفسيره للحضارة تفسيرا بيولوجيا .

أحدث اشبنجلر ثورة أشبه بالثورة الكوبرنيكية فى التاريخ حين صحح ذلك الوهم الذى كان يعيشه الأوربى وهو يظن ان حضارته مركز الحضارات كما كان يتوهم كوبرنيكوس أن الأرض هى مركز الكون وهى ثابته وتدور حولها جميع الكواكب فكان المؤرخ الأوربى يتصور أوربا الغربية قطبا ثابتا للحضارات لشتى الحضارات لأنه يعيش فوقهـــا . والثورة الكوبرنيكية التى أحدثها اشبنجلر فى النظر الى التاريخ انه نظر اليه لا على أنه مركزه الحضارة الأوروبية وتدور حولها الحضارات الأخرى ، بل نظر اليه على أنه مكون من حضارات ربما كانت بعضها تفوق الحضارة الأوربية من حيث عدد الشعوب المنتمية اليها ومن حيث قوتها الروحية وهذا يتضح لو ان كل حضارة درست كوحدة منفصلة .

انه يصف بنفسه ما قام به فى كتابه الشهير « تدهور الحضارة الغربية » بأنه اكتشاف كوبرنيكى فى الميدان التاريخى فهو لايعترف بأى مركز ممتاز للحضارة الكلاسيكية أو الحضارة الغربية على الحضارات من هندية بابلية ، صينية ، مصرية ، عربية ومكسيكية . وهذه هى عوالم منفصلة لكينونة ديناميكية لها تماما من حيث الكتله داخـــل الصورة العامة للتاريخ ما للحضارة الكلاسيكية من قيمة ، بينما انهـــا تتجاوز مرارا الكلاسيكية من حيث العظمة الروحية وقوة التسامى والتحليق .

فالتاريخ اذن فى نظر اشبنجلر مكون من كائنات عضوية حية هى الحضارات وكل حضارة منها تشبه الكائن الحى العضوى تمام الشبه

فتاريخ كل حضارة كتاريخ الانسان أو الحيوان أو الشجرة سواء بسواء والتاريخ العام هو ترجمة حياة هذه الحضارات فاذا كان سياق الحياة واحدا بين الأفراد التى تدخل تحت نوع واحد فللحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه ٠

★★★

ولد « أزوالد اشبنجلر » فى « بلاكنبرج » بجبال الهارز فى ألمانيا فى ٢٩ من مايو علم ١٨٨٠ ، وتوفى فى ٨ من مايو عام ١٩٣٦ وقد انحدر من ناحيـــة أبيه من أسرة كانت تحترف التعدين وقد نزحت الأسرة من جنوب ألمانيا الى « الهارز » فى القرن السابع عشر وقد اضطر والده ــ لما أصاب مناجم الهارز من الكساد وســوء الحال ــ الى تــرك التعدين والالتحاق بوظيفة فى مصلحة البريد ويعزو صديق « اشبنجلر » الحميم « أوجست ألبرز » تفوق صاحبه فى الرياضة ومواهبه العلمية الى وراثته من ناحية أبيه كما ورث حبه للفن واستعداده لتذوقه من ناحية والدته ٠

وقد تلقى أزوالد تعليما جامعيا ، فبعد أن تخــرج فى مدرسة « هال » العليا لدراسة الأدب الكلاســيكى ســار على الخطة المتبعة فى ألمانيا وهى الدراسة فى جامعتين أو ثلاث جامعات على التوالى فدرس فى جامعات ميونخ وبرلين وهال وأتم بها اعداد رسالته للحصول على لقب دكتور وكانت الرياضيات والعلوم الطبيعية أهم نواحى دراسته ٠

وقد احترف التدريس بعد تخرجه فى الجامعات وعمل مدرسا فى « ساربروكن » ثم فى « دسلدرف » و « همبرج » بعد ذلك وفى عام ١٩٠٨ اختير مدرسا بمعهد همبرج العالى وقام بتدريس اللغة الألمانية والجغرافيا علاوة على المادتين اللتين تخصص فيهما وكان على ما يبدو مدرسا صالحا يبث الحياة فى الموضوعات التى يتناولها ويجعلها شائقة محببة الى نفوس الطلبـــة ٠

وظهرت فى خلال التدريس مواهبه التى تجلت بعد ذلك رائعــة مذهلة فى مؤلفاته العجيبة الشـــأن ولوحظ انه مع اعراضه عن توقيع العقوبات الشديدة على تلامذته كان شديد المحافظة على النظام ومع ميله الى العزلة اكتسب تقدير زملائه وقد أسف زملاؤه المدرسون وطلبته حينما حصل على أجازة فى سنة ١٩١٠ لمدة سنة ولم يعد بعدها الى التدريس واستقال من وظيفته وانتقل من همبرج الى ميونخ واستقر بها قانعــا بدخل خاص متواضع ليشبع رغبته فى الفراغ للتفكير الفلسفى وتسجيل ما يعن له من الخواطر والأفكار وكان يستكمل نقص دخله بكتابة بعض الفصول القصيرة ٠

وحينما نشبت الحرب الكبرى الأولى تعرض لضائقات مالية شديدة وقد أعفى من الخدمة العسكرية لقصر فى نظره لما كان يعانيه من ضعف القلب وكان عزاؤه فى أزماته المشتدة وفى ضروب الحرمان التى استهدف لها الى حد انه كان يجد صعوبة فى الحصول على الغذاء والكساء هو أن فكرة كبيرة غير واضحة ولا متماسكة كانت تختلج فى نفسه وتفرض نفسها عليه وقد عقد العزم على ان يعمل لابرازها وازالة الغموض عنها .

فكــرة الكتــاب

وحينما أقدم اشبنجلر على طلب الأجازة من التدريس لم تكن عنده فكرة واضحة عما ينتوى عمله وغاية ما فى الأمر انه كان يشعر بحاجة ماسة الى الانغماس فى القراءة والاطلاع وممارسة الكتابة والتفكير · وفى ميونخ أدمن القراءة وأمعن فى الاطلاع على التاريخ وبخاصة تاريخ الفن والفلسفة وأخذ يعالج الكتابة فى موضوعات شتى وقد قرض الشعر وألف روايات تمثيلية وقصصا قصيرة ولكن مواهبه الأصيلة لم تظهر مع ذلك فى ميادين الأدب الخالق وان كانت بعض كتاباته فى تلك الفترة قد دلت على قوة عاطفته القومية وميله الى الاكبار من شأن المجد الحربى ·

وفى خلال عام ١٩١١ ومضت فى ذهن هذا الشــاب الألمانى الذى لم تتجاوز سنه حينذاك الواحدة بعد الثلاثين فكرة لامعة كان باعثهــا الأزمة السياسية الحادة التى حدثت بين فرنسا وألمانيـــا فى مراكش وأوشكت ان تؤدى الى نشوب حرب بين الدولتين ·

وهو يروى لنا فى احدى مذكراته التى طبعت بعد موته ان هذه الأزمة فتحت عينيه على طبيعة العصر الذى يعيش فيه فيقول :

« فى ذلك الوقت بدت لى الحرب العالمية موشكة الوقوع باعتبارها مظهرا خارجيا للأزمة التاريخية لامناص فى حدوثه وكان على ان أحاول فهم تلك الأزمة واماطة اللثام عن أسرارها وذلك بطريق تبين روح القرون السالفة لا السنوات الماضية فحسب ·· ولذلك رأيت الحاضر والحرب العالمية مقتربة فى ضوء آخر ولم تصبح المسألة مجــرد تلاق موقوت لوقائع عارضة باعثها العواطف القومية والمؤثرات الشخصية أو الاتجاهات الاقتصادية التى أضفى عليها بعض المؤرخين مظهر الوحدة والحتمية ، جريا على طريقتهم فى تلمس الأسباب السياسية والاجتماعية لربط الحوادث وتعليلها وانما كانت طرازا لتغير وجه من أوجه التاريخ يحدث فى داخل عضوى تاريخى عظيم له محيطه المعلوم عند نقطة مقدرة له منذ مئات من السنين » ·

وقد يرى للقارىء من الغموض فى هذا الكلام ولكن ما يقصـــده اشبنجلر سيظهر فيما بعد عند استيفاء توضـــيح نظرياته وآرائه فى تفسير التاريخ وبيان مختلف الثقافات والحضارات التى يتكون منهـــا التـــاريخ .

وأخذت الفكرة التى وضعت جرثومتها فى نفسه الأزمة المراكشية تنمو وتتضح وتتسع آفاقها وتترامى أبعادها وانتقلت من ميدان السياسة الى تأمل ايقاع الثقافات وتوالى الحضارات . واتفق فى عام ١٩١٢ ان رأى فى واجهة احدى دور الكتب كتابا عنوانه « تاريخ سقوط العالم القديم » فأوحى اليه هذا العنوان فكرة عنوان كتابه الذى انتوى أن يضمنه الرؤية التاريخية التى وجهته الى كشفها الأزمة المراكشية .

ولما نشبت الحرب الكبرى بعد ذلك بعامين كان قد أتم كتابة أصول كتابه . وفى أثناء الحرب راجع مسوداته وأضاف اليها ما استجد عنده من المعلومات ولكنه واجه بعد ذلك صعوبة الحصول على ناشر يقبل ان يتولى نشر هذا الكتاب الذى أصبح صالحا للنشر فى عام ١٩١٧ وقد عرضه على طائفة من دور النشر الشهيرة فى ألمانيـــا فرفضته جميعها وأخيرا قبلت نشره احدى دور النشر فى فينا ولم يظهر من المجلد الأول سوى ألف وخمسمائة نسخة .

★★★

وفى يوليو ١٩١٨ ظهر الكتـــاب حاملا هذا الاسم المنذر الرهيب (تدهور الحضارة الغربية) وعلى غير انتظار أثار ضجة ولفت الأنظار وشغل الأفكار وكان مما يبعث على العجب والدهشة انه لم يكن قصـــة مسلية مثيرة أو رواية شائقة الحوادث جذابة الاسلوب وانما كان مؤلفا فلسفيا ضخما عميقا ينم على معرفة عميقة غزيرة وخيـــال مجنح وثاب وقدرة على التفكير واستخلاص النتائج ليست كثيرة الأشباه والنظائر .

ولم يكن الكتاب مع ذلك سهل القراءة واضح الفكرة فقد كانت روعة أسلوبه وشدة أسره وحفوله بالأفكار والموازنات تقتضى من قارئه بذل الجهد فى تتبع عباراته واستكناه مراميه ولكن كانت هناك ظروف خاصة قد ساعدت على رواج هذا الكتاب أخصها ان ألمانيا كانت قد باءت بالاخفاق والخسران وخرجت تجر أذيال الهزيمة من تلك الحرب الشعواء التى أثارتها فى وجه العالم وتحدت فيها مجموعة من أقوى أمم الأرض وتطلعت الى الســـيادة العالميـــة لنشر ما كانت تسميه « الكالتـــور الألمانى » .

وكان من الطبيعي أن يحز ألم الهزيمة فى نفوس الألمان ويخيم على نفوسهم اليأس ولكن الألمان شعب قوي الحيوية نزاع الى التأمل والاستغراق فى التفكير ·· فهو لا يفنى نفسه حسرتا فى أعقاب الهزيمة وانما يحاول أن يبحث أسباب الهزيمة وكيف حدثت ويفتن فى تعليلها وتحرى مصادرها · وقد مهدت هذه النوبة من التشاؤم وما تلاها من الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السبيل لاذاعة المؤلف الذى يحوى فلسفة جديدة من فلسفات التاريخ أتحف بها اشبنجلر الشعب الألمانى وزاد فى ثروته الفكرية ·

وقد كشف هذا الكتاب لألمانيا المصدوعة الفؤاد المجروحة الاباء أن آمال أوربا الوثابة مقدر لها ان تخيب وان الحضارة الغربية مقبلة على عهد انحطاط وتهافت لا مفر منه وانها تعاني أعراض الشيخوخة وعلامات الانحلال وفى هذا الايمان بالقدرية والحتمية التاريخية ضرب من السلوان يسكب العزاء على النفوس المكروبة لأنه يرفع عن كاهلنا الشعور بالتبعة ، ويبين لنا ان سير الحوادث من وراء طاقة الانسان وأن غايات القدر لا حيلة لنا فيها ولا يد لنا بدفعها ·

ولم يكن ظهور فلسفة جديدة للتاريخ في بلاد « كانت » و « شلنج » و « فخته » و « لوتز » و « داتناى » بالأمر الغريب ·· لأن التعميمات الفلسفية العريضة والأبنية الفكرية الرائعة والنظريات الكونية الشاملة تعد فى ألمانيا من ضروب الحكمة وآية العبقرية · وقد ألف الألمان أن يصب لهم المفكرون أحداث التاريخ فى الصيغ المناسبة وان يضمنوا لهم حوادث الحياة وتجارب البشرية القوالب التي تعين على تنظيمها وتنسيقها ·· ولا مانع فى بعض الأحيان من ان يجار على الحوادث وتقطع أوصالها وتلوى الحقائق أو تنتقص أطرافها من أجل انتظام المذهب واتساق النظرية والتدليل على صحتها وانطباقها على الواقع · وموجز رأى اشبنجلر ان ما نسميه « تاريخا » للبشرية ان هو فى الحقيقة الا سيرة حياة أنواع عضوية متشابهة البناء متماثلة المصير لكل منها حياته المعنية وفرديته المستقلة وخصائصه المميزة له ·

وقد كشف اشبنجلر وجود ثمانى حضارات رئيسية هى : الحضارة المصرية القديمة والحضارة الصينية والحضارة البابلية الآشورية والحضارة المدرسية (اليونانية الرومانية) أو الابولونية والحضارة العربية أو الماجية والحضارة الغربية أو الفاوستية ·

وهذه الحضارات تتشابه فى بنائها العام ودورات نموها ومراحله ومصيرها النهائى المحتوم وكل حضارة منها تحمل طابعها الخاص ورمزها

المميز وتنطوى على أسرارها ودخائلها وكل منها يخضع لاسلوب خاص فى التفكير والشعور والنظرة الى الحياة وكل حضارة من هذه الحضارات مغلقة مكتفية بذاتها لاتستمد من غيرها وتتأثر به ولا تعتمد عليه وانما تنسج خيوطها من بين جنبيها ومن صـــميم كيانهـا وتسترفد منابعهـا الداخلية ٠٠ وهى من ثم لاتفهم غيرها من الحضارات ، ولا تدرك كنهه ، لأنها مستغرقة فى ذاتها ٠

واشبنجلر نفسه يزعم انه وحده أوتى القدرة على معـرفة كلمة السر التى يستطيع بها أن يتغلغل فى صميم كل حضـــارة ويتعـرف أسرارها ويكشف له الغطاء عن خصائصها ٠ وهو يصارحنا بأنه لا يدرك ذلك بالعقل المفكر الواعى وانما يدركه بالبداهة الملهمة وقوة البصيرة ٠

وعنده أنه ليست هناك صـــلة ولا رابطة ولا وحدة بين الحضارات المختلفة وليست هناك « انسانية » عامة فان هذا محض تجريد ووهم من الأوهام ٠ ومادام انه ليس هناك انسانية عامة يقتضى ذلك أنه ليس هناك رياضيات عامة أو علوم طبيعية أو فنون أو ثقافات مطلقة ، فانما هذه الثقافات السنة مختلفة ولهجات متعارضة ، وقد استطاع هو حل رموزها وتفسير غوامضها ٠

الحضارات تذبل وتغنى !!

ومع أن كل حضارة مستقلة عن الأخرى فانها - من الوجهة الطبيعية العضوية - خاضعة جميعها لقانون لا يتغير هو قانون الميلاد والنضج والتدهور والفناء فالحضارة أو الثقافة على الأصح حسب رأى اشبنجلر تنهض فى ناحية من النواحى وتنمو نمو النبات وتمر بأدوار الانسان السبعة فلها عهد الطفولة ولها دور الشباب والنضج والشيخوخة ولا يستتبع موتها فناء أهلها ، وانما معناه نفاد حيويتها وانطفاء شعلتها وانها فقدت ميزتها من حيث هى قوة تاريخية محركة منتجة . والحضارة تذبل وتفنى بعد ان تكشف عن خصائصها وممكناتها الموهوبة لها مثل القوميات والديانات والآداب والفنون والعلوم وصور الحكم وأساليب السياسة .

ولما كانت كل مرحلة من مراحل الثقافة يمكن استنتاجها من المرحلة التى سبقتها فنحن اذن نستطيع - مادمنا نهتدى بهدى اشبنجلر - ان يكون عندنا معرفة فلكية اليقين مطردة السوابق والأشباه .. لما سيحدث.

والحضارة الغربية - أو الفاوستية كما يحب اشبنجلر ان يسميها - مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء وليس معنى ذلك فناء أهلها .. فان الصين التى انتهى عهد حضارتها فى رأى اشبنجلر لا تزال موجودة ومصر التى لعبت حضارتها دورها المقسوم لها لاتزال كذلك على قيد الحياة ولكن الحضارة الصينية قد مضى عهدها والحضارة المصرية قد زالت .

وينكر اشبنجلر وجود وحدة انسانية تاريخية ولا يعترف بفكرة التقدم البشرى أو فكرة وجود تاريخ للبشرية جميعها مستمر متتابع الأدوار متسلسل الحلقات ، وانما يوجد تاريخ ثقافات مستقلة منعزلة كل ثقافة منها قائمة بذاتها ولا تؤثر الثقافات فى بعضها الا اذا اعترضت احداها نمو الأخرى وقضت عليه كما فعل الاسبانيون بالحضارة المكسيكية .

وأكثر المؤرخين يسلمون بانفصال الحضارة الهندية والحضارة الصينية انفصالا كبيرا عن الحضارة الغربية ولكنهم يرون ان الحضارة

الرومانية كانت الجسر الذى انتقلت به تأثيرات حضـــارة بابل ومصر والحضارة الأبولونية الى الحضارة الغربية ٠

واشبنجلر ينكر ذلك ويحمل نفسه عنتا فى هذا السبيل لتدعيم نظريته واثباته مذهبه وهو يفصل الحضارات بعضها عن بعض ويضع بين الحضـــارة الأبولونية والحضـــارة الفاوســـتية والحضارة العربية أو الماجيـــة ٠

وكل ثقافة من هذه الثقافات تمر فى أدوار متشابهة خلال مدة من الزمن متقاربة وكل حادث مهم فى حياة ثقافة من هذه الثقافات له نظيره فى الثقافة الأخـــرى ، فالعهد الاقطـــاعى والاصـــلاح الدينى والبيوريتانية والنزعة المثالية الروحية والاتجاه المادى الواقعى والقيصرية التى يصحبها احياء دينى ــ كلها مظاهر يتبع بعضها بعضا وتتوالى على التعاقب فى حياة الحضارات فالاســـلام مثـــلا هو دور البيوريتانزم فى الحضـــارة العربية ونابليون هو اسكندر الحضـــارة الغربية وسيسيل رودس هو طليعة قيصرية الحضارة الغربية ٠

لكل حضارة خصائصها وسماتها وأسلوبها وطرازها ففن البناء القوطى وحساب التفاضل والتكامل وحروب الأسر والتصـــوير بالزيت وانشاء السكك الحديدية والنظام المالى الحديث ٠٠ وما الى ذلك من مظاهر الحضارة الغربية تعبر جميعها عن الروح الفاوســـتية ولم يكن من قبيل المصـــادفة ــ فى رأى اشبنجلر ــ أن الحضارة الأبولونية وجدت أسمى تعبير عنها فى النحت فى حين ان الثقافة الفاوستية كشفت عن نفســها فى الموسيقا ٠

وهناك فروق ملحوظة بين مختلف الثقافات ٠٠ فالفرد فى الثقافة الفاوستية مطبوع على حب السيطرة والنفوذ والاستعلاء وهو يحاول أن يبسط سلطانه على المكان والزمان ، وفى الحضارة الأبولونية يقف الفرد أوحديا معتصما باباته وكبريائه يصابر غيره من الناس ولكنه ينأى بجانبه ويلوذ بفرديته ، ونفسية الفرد فى الحضارة العربية ملتقى الخير والشر والظلمة والنور والحضـــارة المصرية والحضارة الصينية والحضـــارة الفاوستية ٠٠ تاريخية النزعة فى حين أن الحضارة الأبولونية والحضارة الهندية لاتكلفان بالتاريخ ولا تعبآن به كثيرا ٠

والاعتقاد السائد هو ان الحضارة الغربية الفاوســـتية قد ورثت عناصر كثيرة من الحضارات السابقة ولكن اشبنجلر ينكر ذلك فالديانة المسيحية مثلا من مخلفات الحضارة العربية الماجية وأرســطو مثلا من مخلفات الحضارة الابولونية فكيف ينكر تأثيرهما فى الحضارة الغربية ؟

والجواب عن ذلك أن اشبنجلر يذهب الى أن هناك ثلاثة أنواع من المسيحية : المسيحية العربية وهى مسيحية المسيح ومسيحية الغرب وهى مسيحية هلدبراند ولوثر وليولا ، ومسـيحية روسـيا وهى مسيحية دستوفسكى التى ستزدهر فى الألف القادمة من السنين لأن الحضارة الروسية فى العصر الحاضر تعد فى دور الطفولة والبوذية الهندية كذلك مختلفة عن البوذية الصينية وهناك ثلاثة أنواع من أرسطو : أرسطو الابولونى وأرسطو العربى وأرسطو الفاوستى وكذلك توجد أنواع مختلفة من الرياضـيات والطبيعيات والكيميـاء والنحت والتصوير والآداب والثقـافات .

ويرى اشبنجلر انه ليس فى قدرة حضارة من الحضارات ان تزيد فى ثروة الحضارة الأخرى أو تصـلح منها وانمـا قد تعترض نموها وتقضى عليهـا .

★★★

وقد أثار كتاب « تدهور الغرب » منذ ظهوره دهشة أساتذة التاريخ ووقف بعض المؤرخين المحترفين منه موقف العداء والنقد والتفنيد ولوحظ بوجه عام انه قائم على معلومات غزيرة واطلاع واسع ولكنه من وجهة نظر بعض المتخصصين – لايمكن الاطمئنان الى بعض أحكامه .. فمؤلفه مسرف فى آرائه شديد التعصب لاحكامه نزاع الى ما وراء الطبيعة .

ولكن الكتاب بضخامته وغزارة أفكاره وجرأتها وقف فى طريق الباحثين وفرض نفسه عليهم فرضا وبعض الباحثين لكى يتخلصوا من تأثيره لجأوا الى أساليب مختلفة : فمنهم من احتال على ذلك بالنقد القارص والتسفيه الشديد والاحتقار والسخرية ومنهم من لجأ الى انكار وجوده على الاطلاق وتجاهل نظرياته ومنهم من حذر جمهور القراء من قراءته .. ولكن القراء رفضوا التحذير وخالفوا أحكام المتخصصين ولم يعبأوا بشكوكهم وأقبلوا على قراءة الكتاب متخطين الأجزاء الصعبة واجدين فى قراءته متعة فكرية قل أن يتيح مثلها غيره من المؤلفات الدارجة .

وربما كان من أسباب هذا الانشـقاق بين آراء العلماء الدارسين والمؤرخين المتخصصين وجمهرة القراء العاديين أن أصبحت الكتابات عن اشبنجلر تنقسم قسمين : قسم قائم على النقد الشديد وقسم آخر تبدو فيه حماسة الاعجاب وسمو التقدير ولكنه لايخلو من مبالغة وسذاجة .

وقد لوحظ على اشبنجلر ان نظرته للمجتمع البـادية من خـلال كتابته غير ديمقراطية : والنظرية الديمقراطيـة أساسها ان الناس قد ولدوا متساوين وان من حقهم ان تكون لهم حقوق متسـاوية وعنـد اشبنجلر أن الحكومات على اختلاف صـورها – سـواء أكانت ملكية

أم جمهورية أم حكومة اشراف أم حكومة رجال دين أو حكومة برلمانية — هي في الحقيقة سيطرة من الأقلية على الأكثرية ٠

وكل مجتمع لذلك ينقسم الى أقلية حاكمة وأكثرية محكومة ولايمكن الا ان تكون الأمور على هذه الوتيرة ٠

ولا يجهل اشبنجلر قيمة النظام الديمقراطي ولكنه — بحكم التزامه موقف المؤلف الموضوعي الذي يراقب سير الحوادث التاريخية وتتابعها — يحاول الا يبدي رأيه في ترجيح نظام من أنظمة الحكم على نظام آخر ٠٠ فهو يرى الديمقراطية وجها من أوجه التاريخ المتعددة وصورة من صوره تتغلب فيها الطبقة البورجوازية بقوة عقلها وقوة مالها وتخفي رغبتها في السيطرة والتحكم في الجماهير ٠٠ وحرية الجماهير في الانتخاب حرية صورية ٠

ولا خلاف في ان كل أمة من الأمم تحكمها أقلية ولكن هذه الأقلية مع ذلك — سواء أكانت من الكهنة أم الاشراف أم رجال البلاط والحاشية أم أعضاء البرلمان أو قادة العمال — لا يمكن أن تتجاوز حدود العدالة وحسن التأني في الأمور دون أن تلقى جزاءها وفي كل العصور ثارت الجماعات على ما اعتبرته انحرافا عن العدالة أو تعمدا ٠

وقد لقيت فكرة اشبنجلر — أن الحضارات تولد وتنمو ويدركها البلى وتعلوها الشيخوخة كالأفراد — كثيرا من النقد ٠٠ وذلك لسبب بسيط هو أن الحضارات في الواقع ليست كالأفراد ومن ثم هي لا تولد بأدوار الطفولة والشباب والشيخوخة مثل الأفراد والحضارة في رأي هؤلاء النقاد مجموعة من المظاهر الثقافية : منها الجانب السياسي والجانب الاقتصادي والمظهر العلمي والمظهر الديني والمظهر الاجتماعي وهذه الظواهر قد تلتقي في عصر من العصور ليتكون منها ما يسمى حضارة وقد يوجد بعضها قبل ظهور الحضارة وقد يوجد كذلك بعضها بعد انتهاء الحضارة ودثورها وهذا يدل في رأيهم على أن الحضارة لا تولد في الواقع ولا تموت مظاهرها جميعها معا ٠

ويرى اشبنجلر ان عالم التاريخ لايشبه عالم الطبيعة ، وذلك لأن عالم التاريخ تدفعه قوى غير خاضعة لقانون السببية بل قوى لا يستطيع ان يدرك كنهها التحليل العلمي فالتاريخ يحتمه القدر الغامض الخفي ، وهو يعلل بذلك حتمية سقوط حضارة الغرب وسائر الحضارات السابقة ٠٠ فسقوط الحضارة قدر محتوم لا حيلة للانسان في دفعه متى استتمت الحضارة أدوارها المقدرة لها ، ومادام التاريخ في رأيه لايخضع لقوانين العلوم فلا فائدة اذن من محاولة استنتاج المستقبل من الماضي ٠

واشبنجلر مع ذلك لايرى بأسـا فى التكهن بالمستقبل ولكن عن طريق الموازنة بين مصير الحضارات الذى يحتمه القدر الغامض لا عن طريق قانون السببية وربطه تفسيره للتاريخ بشدة ايمـانه بالجبرية التاريخية لايجعل المفكرين يسرعون الى قبول آرائه لأن مسـألة حرية الارادة مسألة شائكة قد تضاربت فيها الآراء على مر العصور وربما كانت من المشكلات غير القابلة للحل ٠

ومع ما وجه الى كتاب « تدهور الغرب » من نقد من ناحية المؤرخين والمحترفين وبعض المفكرين الاجتماعيين والفلسفيين فانه كتـاب جليل الشأن يجمع بين الهامات العبقرية وجمحات الخيال الرومانتيكى ٠ قال عنه المؤرخ « هويزنجا » : « ان قارئه يظل يشعر فى أثناء قراءته أنه يقوم بجولة فى جبل شاهق رائع الجلال يصحبه دليل يقوده فى مسالكه ولكن هذا الدليـل الخبير بشعاب الجبـل تومض فى عينيه من حين الى حين ومضات الجنون » ٠

ونقد آرائه لا ينفى حقيقة انه قد بدأ تسجيل هذه الآراء قبل اندلاع نيران الحرب الكبرى الأولى وانه تكهن بقدوم عهد الحروب العالمية وظهور الديكتاتوريات ونمو المدن الكبيرة وظهور روسيا بوجه خاص وآسـيا بوجه عام على مسرح السياسة العالمية كقوة فاصلة ولم تكن هذه المظاهر واضحة حينما بدأ اشبنجلر كتابه وضوحها اليوم ٠

وقد ظهر فى الثلاثينيات من هذا القرن كاتبان باحثان أحدهمـا انجليزى والآخر روسى أقام فى أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية ـ سارا على طريقة اشبنجلر وأخرج كل منهما فلسفة جديدة للتاريخ حاول فيهـا أن يتجنب الأخطـاء والمبالغات التى تورط فيهـا اشبنجلر ، وهذان الكاتبان المفكران هما أرنولد توينبى وبيتريم سوروكين ٠

وقد سبق اشبنجلر الى فكرة تعدد الحضارات واستقلال كل حضارة عن الحضارات الأخرى واقتراب ظهور الحضارة الروسية بمميزاتهـا الخاصة المفكر الروسى دانيلفسكى ٠ ولم يعرف بعد على وجه التحديد هل ألم اشبنجلر بنظريات دانيلفسكى حينما كان مقبلا على تأليف كتابه أو لا ! ومهما يكن من الأمر فان أوجه الشبه بين ما ذهبا اليه فى تفسير التاريخ تستوعى النظر ٠

الهوامش :

(١) **اكبر : ص ٩** : (١٥٤٢م – ١٦٠٥م) أعظم أباطرة المغول فى الهند . اسمه الأصلى جلال الدين ولقب بالأكبر لما قام به من جلائل الأعمال فى أثناء حكمه (١٥٥٦م – ١٦٠٥م) .

(٢) **مسقطه الراس** : كبيرة ص ٨٩ .

(٣) **ابن ابى اصيبعة :** ص ٩٨ : موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم بن خليفة (ح ١٢٠٣ – ١٢٧٠م) طبيب ومؤرخ ولد بدمشق .

(٤) **كافور** : ص ١٠٢ : أبو المسك كافور الاخشيدى (٩٠٥ – ٩٦٨م) كان عبدا حبشيا اشتراه ابن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية ، فعهد اليه الاخشيد بالوصاية على ولده ابن القاسم انور جور ، فاستقل بأمور الدولة .

(٥) **الحدث الحمراء :** ص ١١٨ ، الحدث مدينة على الحدود البيزنطية « الثغور » سميت بالحمراء فى شعر المتنبى اما لترابها الأحمر أو للدم الذى سفك حولها .

(٦) **ساتير :** ص ١١٩ اله من الاساطير اليونانية .

(٧) زينون الايلياثى : ص ١١٩ : فيلسوف يونانى ولد بين ٤٩٠ ق.م. – ٤٨٥ ق.م.

(٨) « **مطالعـات فى الكتب والحياة** » **كتاب للاستاذ عباس محمود العقاد** : ص ١٢١ .

(٩) **الوراقون : ص ١٢٤** : باعة الكتب .

(١٠) **النورمان : ص ٢٠٨** : تحول الشماليون بعد غزوهم نورماندى الى المسيحية واللغة الفرنسية ، ولكنهم احتفظوا بروح الحرب والمغامرة ، فغزوا انجلترا عام ١٠٦٦ بقيادة وليم دوق نورماندى الذى اصبح ملكا لانجلترا .

(١١) **استرابون : ص ٢١٣** : جغرافى يونانى (٥٨ ق.م – ٢٥ ق.م) .

(١٢) **بحر الزقاق** : ص ٢١٨ : مضيق جبل طارق .

(١٣) **الزهادرة** : ص ٢١٩ الجمرك .

(١٤) **الملثم : ص ٢٢٠** : أى البربرى الملثم . أى أمير المرابطين الذى يستر وجهه بلثام وهو يوسف بن تاشفين .

(١٥) **التعنيب** : ص ٢٢٠ : أى التى احصتها مصلحة الجباية لفرض ضريبة الخمر عليها . وعنب يعنى شرب الخمر .

(١٦) **بختيشوع : ص ٢٥٢** : معناها عبد يسوع . أسرة من سوريا . نبغ من أفرادها عدد من الأطباء خدموا فى بلاط العباسيين قرابة ثلاثة قرون .

(١٧) **وستنفلد : ص ٢٥٥** : هنرى فرديناند وستنفلد مستشرق المانى (١٨٠٨ – ١٨٩٩) نشر كثيرا من أمهات الكتب العربية .

(١٨) **الحركة البيوريتانية** : (التطهير) مذهب بروتستانتى يعتقد بمزيج خاص من الافكار الاجتماعية والسياسية والاخلاقية واللاهوتية . ظهر فى عهد الملكة اليزابيث مناديا بالغاء الازياء والرتب الكهنوتية .

المراجـــــع

١ ـ اصول الكتب الستة عشر ٠

٢ ـ مفكرون لكل العصـــور — فتحي العشري

٣ ـ فى موكب العظمــاء — ابراهيم المصرى

٤ ـ رواد الطـب — جون والتـــون

٥ ـ الحضارة الاســـلامية — جوســـتاف جروينباوم

٦ ـ معالم تاريخ الانسانيــة — هـ ٠ ج ٠ ولز

٧ ـ دائرة المعارف الاســـلامية — دار الشـــعب

٨ ـ الحضـــارة — أحمد حمـــدى محمود

٩ ـ التراث والحضـــارة — نعمات أحمـــد فؤاد

١٠ ـ الحضـــارة العربيـــة — ى ٠ هـــل

١١ ـ الحضارة الانسانيـــة بين الشرق والغرب فى عشرة قرون — ســـامى اليافى

١٢ ـ الغرب والحضارة ٠ وتاريخ الحضارة — كافين رايلى

١٢ ـ حضارتنا وحضارتهم — عبد المنعم النمـــر

١٤ ـ قصـة الحضارة — ول ديورانـت

١٥ ـ معجم أعلام الفكر الانسانى — نخبة من الأساتذة

١٦ ـ تاريخ العـــلم — جورج ســـارتون

١٧ ـ محيط العـــلوم — نخبـــة من العلماء

١٨ ـ المتنبى — د ٠ زكى المحاســـنى

١٩ ـ من أعلام الطب العربى — أبـــو الفتوح التوانسى

٢٠ ـ الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية — د ٠ فاطمـــة محجوب

٢١ ـ تـــاريخ العالم — أوروســـيوس

٢٢ ـ ارســـتوفانيس ٠٠ عصره وعمـله المسرحى — عـلى نـــور

٢٣ ـ الطبرى — د ٠ أحمد محمد الحوفى

٢٤ ـ فلاسفة أيقظوا العالم — د ٠ مصطفى النشـــار

٢٥ ـ تاريخ الانسانيـــة — أحمـــد حســـين

اقرأ فى هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسل
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى – تعبير نغمى – ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية – مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول وادبنيت
فن الترجمة	د · صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع ٠ أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د ٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د ٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د ٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د ٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د٠ جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د ٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف ٠ س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د ٠ سميسون ونورمان د٠ اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروبين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د ٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د ٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس و آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

من النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميــرى
تراتيم زرادشت	اختيار / د· فيليب عطية
السينما العربيــة	اعداد/ مونى براخ وآخرون
دليــل تنظيم المتــاحف	ادامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخــرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليــات فن الاخراج	زيجمونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بــول كولنــر
صـــناع الخلود	موريس بيير برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج· بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د· رفيق الصبان
الســينما الخيالية	بيتر نيكوللز
الســلطة والفرد	برتراند راســـل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
ســفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصــال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الاسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

١١٤٧

حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د٠ ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ ٠ ج ٠ ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون ٣ ج	ريتشارد ف ٠ بيرتون
الحضارة الاسلامية	آدمز متز
الطفل ٢ ج	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج ٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج٠ كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف ٠ م ٠ بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ ٠ تبوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب ٠ ناشى
انواع الفيلم الأميركي	ستالين جين سولومون

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٢١١٦